

كون إيغلدن

إمبراطورية

القصة

الجزء الرابع من
السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان

salmanina

رواية **www.miazna.com**

إمبراطورية الفضة

الجزء الرابع من
السيرة الملحمية للفاتح المغولي جنكيزخان

رواية

تأليف

كون إيجلدن

Conn Iggulden

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحريـر

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. USA

تهذيب



مشى مجهداً عبر أرض المخيم، حيث تنتشر الخيام مثل أصدافٍ وسخة على شاطئ بحر موغلٍ في القدم، ورأى الفقر حوله في كل مكان؛ في اللباد المصفر والمرقع والمجعد عبر الأجيال مرات لا تُعد ولا تُحصى. ركضت جملان وجداء هزيلة حول قدميه وهي تطلق نغماً مع اقترابه من بيته. تعثر باتو بالحيوانات، وتمتم باللعنات حين انسكب السائل من الدلاء الثقيلة، لقد استطاع شم رائحة بول نفاذة في الهواء لم تكن موجودة في النسيم القادم من النهر. تجهّم باتو حين فكّر في اليوم الذي أمضاه وهو يحفر حفرة مرحاض لوالدته، وقد شعر بإثارةٍ مثل طفل صغير حين عرض عليها نتائج جهده، لكنها اكتفت بهزّ كتفها، وقالت إنها عجوزٌ جسدًا على قطع كل تلك المسافة في الليل، في حين أن أراضي صالحة أخرى متواجدة في كل مكان حولها.

كان عمرها ستة وثلاثين عاماً، وتعاني من الأمراض، وقد تعفّنت أسنانها التي نخرها السوس في فكّها السفلي، وكانت تمشي كامرأة في ضعف عمرها وهي تحني ظهرها وتعرج. وبالرغم من ذلك، كانت لا تزال قوية بشكل كافٍ لتصفعه في المناسبات النادرة التي يذكر فيها والده، وقد حدث هذا الأمر آخر مرة في ذلك الصباح، قبل أن ينطلق بمشواره إلى النهر.

وضع الدلاء على الأرض عند باب خيمتها هدوء، وفرك يديه المتقرحتين، وأرهب السمع؛ أصفى إليها في الداخل تدنن بعض الأغاني القديمة التي كانت تغنيها في شبائها، فابتسم، وأدرك أن غضبها قد تلاشى بسرعة كالمعتاد.

لم يكن يخاف منها، وقد ازداد في السنة الماضية طويلاً وقوة إلى الحد الذي يستطيع معه إيقاف كل ضربة، ولكنه لم يفعل، بل تحمّلها من دون أن يفهم سبب

مرارها. كان يعرف أنه بمقدوره إمساك يديها، لكنه لم يكن يرغب في رؤيتها تبكي، أو الأسوأ من ذلك، أن يراها تتوسل أو تتحرّج محتويات قربة من الشراب الأسود بكاملها لتخفف تعاستها. كان يكره تلك الأوقات؛ حين تشرب لتغرق نفسها في النسيان. أحيته أن وجهه يشبه وجه والده وأنها لا تتحمل النظر إليه. انقضت أيام عديده نظفها فيها بنفسه، مستخدماً قطعة من القماش ودلواً لإزالة الأوساخ عن جلدها، وقد أقسم عدّة مرات إنه لن يمسّ الشراب الأسود في حياته. كان منظرها يجعل رائحة الشراب قاسية على معدته، وعندما تترج حلاوة الشراب مع القيء والعرق والبول، يجعله ذلك يتقيأ.

نظر باتو إلى الأعلى حين سمع صهيل أحصنة؛ شاكراً أيّ شيء سيبقيه في الخارج وقتاً أطول قليلاً. كانت مجموعة الفرسان صغيرة بمعايير الفرقة، وبالكاد تتألف من عشرين فارساً، وبالنسبة إلى فئتي ترعج على نخوم المخيم، بدا ذلك منظرًا رائعاً في الصباح، وعالمًا مختلفاً.

كان الفرسان يمتطون صهوات أحصنتهم وتظهرهم مشدودة، وبدوا من بعيد مشعّين قوة وسلطة. حسدهم باتو، وقد عرف من دروعهم الحمراء والسوداء أنهم حراس أوجيدي الخاصون؛ نخبة من المحاربين في الفرقة. كانت قصص معاركهم تتحول إلى أغانٍ أو أناشيد في أيام الاحتفالات، مثل حكايات الخيانة والدم. فزع باتو من الفكرة، فقد كان والده يُذكر في بعض تلك القصص التي تجعل القوم يرمقون والدته وابنها غير الشرعي بنظرات جانبية.

تحنح باتو، وبصق على الأرض بجانب قدميه، وكان لا يزال يتذكر ذلك الوقت حين كانت خيمة والدته من اللباد الأبيض الفاخر، وكانت الهدايا تصل إليهما كل يوم تقريباً. افترض أنها كانت جميلة، وأن جلدها كان نظراً وناعماً، في حين أنه يبدو الآن متفعضاً وخشناً. كانت تلك أياماً مختلفة، قبل أن يخون والده الخان ويُذبح من أجل ذلك مثل الحمل. جوشى، بصق مجدداً بعد أن لفظ الاسم. فكر في أنه كان سيصبح أحد هؤلاء المحاربين الذين يرتدون دروعاً حمراء وسوداء، وسيمتطي صهوة جواده بين الخيام المتسخة لو أن والده خضع لإرادة الخان العظيم. لكن، وبدلاً من ذلك، طواه النسيان وأصبحت والدته تبكي كلما تكلم عن الانضمام إلى فرقة عسكرية.

كان كل الشبان تقريباً، الذين في مثل عمره قد انضموا إلى الفرق، باستثناء أولئك الذين يعانون من إصابات أو إعاقات خلقية، بمن فيهم صديقه زان، وهو تشن مختلط الأعراق ولد بعين بيضاء لا يرى فيها. لم يكن بمقدور رجل بعين واحدة أن يصبح رامي سهام قطعاً، وقد طرده المحاربون وهم يركلونه ويسخرون منه، وأخبروه أن يعتني بقطعانه. كان باتو قد تناول الشراب الأسود للمرة الأولى معه تلك الليلة، وبقي متوعكاً ليومين. لم يكن مسؤولو التجنيد قد جاءوا إليه أيضاً، ليس ودم الخائن يجري في عروقه، وقد رآهم باتو يبحثون عن فتیان أقوياء البنية، لكن عندما استقر بصرهم عليه، هزوا أكتافهم واستداروا مبتعدين. كان طويلاً وقوياً مثل والده، لكنهم لم يرغبوا فيه بينهم.

أدرك باتو مصدوماً أن الفرسان ليسوا عابري سبيل، وراقبهم حين توقفوا للتكلم مع أحد حيران والده، وسحب نفساً عميقاً وهو يشعر بالذهول حين أشار الرجل العجوز في اتجاهه. أسرعت أحصية الفرسان نحوه فوقف متسماً في مكانه وهو يراقبهم مقتربين منه. ومن داخل الخيمة جمع والده تصرخ بسؤال ما، لكنه لم يرد؛ لأنه لم يستطع فعل ذلك، فقد رأى الرجل الذي يسير في مقدمة الراكب.

لم تكن هناك صور في الخيام الفقيرة، بالرغم من أن لوحة تشن واحدة - أو اثنتين - قد وجدت طريقها إلى بيوت أكثر الأسر ثراء، لكن باتو كان قد سبق له أن رأى شقيق والده مرة في أثناء احتفال قبل سنوات؛ حين تسلل بين الصفوف ونظر بين المحاربين ليرى الخان العظيم. كان أوجيدي وحوشي مع جنكيز آنذاك، ولم يمضُ الزمن تلك الصورة الساطعة من ذكرياته الحلوة الممزوجة بالألم في كل سنوات صباه. كانت تلك لحظة عن الحياة التي ربما كان سيحظى بها قبل أن يتخلى والده عن كل ذلك في نزاع نافه لم يستطع باتو حتى أن يفهمه.

كان أوجيدي يمتطي حصانه وهو مكشوف الرأس، ويرتدي درعاً مصقولة سوداء اللون لامعة، ويعقد شعره بأسلوب تشن؛ وكأنه حبل ثقيل يتدل من فروة رأس حليق. حدّق باتو إلى كل تفصيل في الرجل، في حين كان صوت والده ينادي بحزن مجدداً من الداخل، ورأى أن ابن الخان العظيم ينظر إليه مباشرة ويتكلم، لكن لسانه عُقد ارتباكاً فالتزم الصمت. كانت العينان الصفراوان تلمعان، وشعر بالضياح حين أدرك أنه يحدّق إلى عمّه بالدم.

قال أحد المخارين: "هل هو غبي؟". أغلق باتو فمه المفتوح. "مولاي أوجيدي يتحدث إليك أيها الفتي، هل أنت أصم؟".

شعر باتو بوجنتيه تتوردان، كما شعر بحرارة كبيرة. هزّ رأسه، وقد انزعج فحاة من قدوم هولاء الرجال إلى خيمة والدته. ماذا سيكون رأيهم بالخيمة المرقعة، والرائحة، والذباب في الهواء؟ كان ذلك مخزياً، وسرعان ما تحول ذهوله إلى غضب، لكنه بالرغم من ذلك لم يردّ، فقد قتل رجالاً مثل هولاء والده كما قالت له والدته. ولم تكن حياة وليدٍ أشعث الشّعر تعني لهم الكثير.

قال أوجيدي: "استمعني صوتك، أليس لديك صوت؟". كان يتسم لسبب ما، وردّ باتو بامتعاض قائلاً: "بلى". رأى أحد المخارين يمد يده إلى الأسفل، لكنه لم يتوقع أن يضرب، فترنح خطوة حين تلقى جانب رأسه لكمة من يده مكسوة بدرع معدنية.

قال المخارب من دون انفعال: "بلى، لدي صوت يا مولاي". هزّ باتو كتفيه وهو يشدُّ قامته. كانت أذنه توله لكنه اختبر ما هو أسوأ من ذلك.

قال وهو يبذل أفضل ما في وسعه ليتذكر وجه المخارب: "بلى، لدي صوت يا مولاي".

تكلم أوجيدي وكأنه ليس موجوداً: "إذا، لم تكن تلك مجرد قصة. يمكنني رؤية شقيقي حين أنظر إلى وجهه. وقد أصبح بطول ولدي تقريباً. كم عمرك أيها الفتي؟".

وقف باتو متمسراً في مكانه، ومحاولاً استجماع قواه. كان جزء منه قد تساءل دائماً إن كانت والدته قد بالغت في تقدير شبهه بوالده، لكن تأكيد الأمر على هذا النحو بدا شيئاً أكبر من أن يستطيع فهمه.

قال: "خمسة عشر عاماً". رأى المخارب بهمّ بالانحناء إلى الأمام مجدداً، فأضاف: "يا مولاي". تراجع المخارب إلى الخلف بسرعة وأوماً إليه راضياً.

عيس أوجيدي وقال: "أنت كبير بما يكفي لبدأ الخروج إلى الميدان. كان عليك أن تبدأ بالتدرب في سنّ السابعة أو الثامنة عليّ أبعد تقدير، إذا أردت إتقان استخدام القوس". وحين رأى حيرة باتو ابتسم سعيداً، ثم تسابح: "ومع ذلك،

سأراقبك. اذهب إلى القائد جييسي غداً. لقد أقام معسكره على بعد نحو مئة ميل شمالاً قرب قرية بجانب حرف صخري. هل يمكنك العثور عليه؟".

قال باتو: "ليس لديّ حصان يا مولاي".

نظر أوجيدي إلى المحارب الذي كان قد ضرب باتو، فنظر الرجل إلى السماء قبل أن يترجل عن صهوة حصانه، ويدفع بالعنان بين يدي باتو. قال المحارب: "هل يمكنك امتطاء حصان على الأقل؟".

أصيب باتو بالدهشة حين أمسك العنان، وربّت على العنق مفتول العضلات. إذ لم يكن قد لامس حيواناً رائعاً مثله من قبل.

"نعم، نعم، يمكنك امتطاء حصان".

"جيد. هذا ليس لك، هل هذا مفهوم؟ سينقلك إلى الموقع فقط، ولكنك ستحصل عندها على حصان هزيل عجوز، وسعيد هذا إلي".

قال باتو: "لا أعرف اسمك".

"أخون أيها الفتي. اسأل أي شخص في كواكوروم وسيعرفني".

سأل باتو: "أتقصد المدينة؟". كان قد سمع بالمدينة المحرّبة التي ارتفعت عس

الأرض على ظهور ملايين العمال، لكنه لم يصدّق الأمر حتى ذلك الوقت.

أكّد أخون قائلاً: "إنما أقرب إلى كونها مخيماً بدلاً من مدينة في هذه اللحظة،

بالرغم من أن ذلك يتغير. يمكنك أن ترسل الحصان مع فرسان محطات الطريق،

لكن أخبرهم أن يترفقوا به، وساعد أي علامات سباط تركها على الحصان. آه!

وأهلاً بك في الجيش أيها الفتي. لدى مولاي أوجيدي خطط لك، فلا تخيّب ظنّه".

الفصل الأول



كان الهواء محملاً بغبار الرخام الذي يلمع تحت أشعة شمس المغرب، وكان قلب أوجيدي مثقلاً بالهموم وهو يقود حصانه على الطريق الرئيس، منتبهاً إلى كل مشهد وصوت حوله. كان هناك إلحاح في أصوات ضربات المطارق وصرخات الأوامر المتنافرة، وقد تجمعت فرق المغول خارج المدينة، واحتشد قاداته وشعبه هناك لرؤية ما أنتجته ستان من العمل الكادح: مدينة في البرية، ولهر أورغسون رهين إرادته.

أوقف أوجيدي حصانه لحظة ليراقب مجموعة من العمال وهم يفرغون عربة، فسمعوا بالتوتر من نظرتهم. استخدموا حبالاً وبكرات، وتضافرت جهود أعداد كبيرة منهم لنقل كتل من رخام أبيض إلى مزاج منخفضة يمكن جرّها إلى الورشات. كانت تظهر في كل كتلة عروق رقيقة زرقاء اللون أسعدت أوجيدي، إذ إنه يمتلك المقلع الذي استخرجت منه الحجارة على بعد مئات الأميال شرقاً، وهو واحد من آلاف العقارات التي أصبحت ملكه في السنوات الأخيرة.

لم يكن هناك شك في أنه كان شخصاً مبدراً، فهو ينفق الذهب والفضة وكان لا قيمة لهما. ابتسم حين فكّر في ذلك متسائلاً عما كان والده سيفعله بالمدينة البيضاء التي تنتصب في البرية. كان جنكيز يزدرى المدن، لكن تلك لم تكن حجارة قديمة وشوارع متفرعة خاصة بالعدو، وإنما هي شيء جديد ويخص الأمة.

لم تكن هناك خزينة مثل التي ورثها قط، فقد جمعت ثروته من ثروات الصين وحوارزم، لكن القادة الذين حصلوا عليها سابقاً لم ينفقوها قط. ومن الجزية التي

تدفعها ينكينغ وحدها، كان بمقدور أوجيدي إكساء كل بيت جديد بالرخام الأبيض أو حتى اليشم إذا أراد، وقد بنى صرحاً لوالده في السهول، إضافة إلى مكان حيث يستطيع هو نفسه أن يكون عاناً. كان قد شيّد قصرأ ذا برج يرتفع فوق المدينة مثل سيف أبيض؛ حتى يستطيع كل الرجال أن يروا أن الأمة قد قطعت شوطاً كبيراً بعيداً عن الخيام البسيطة وقطعان المشاة.

كان مليون شخص قد جاءوا للعمل مقابل الحصول على ذهب، وقطعوا سهولاً وصحارى مع بعض الحيوانات والأدوات فقط، قادمين من أماكن بعيدة مثل أراضي تشن أو مدن سمرفند، وبخارى، وكابول. قام بناؤون ونجارون من كوريو بتلك الرحلة، وجذبهم إلى الغرب أخبار بناء مدينة جديدة، وأحضر البلغاريون قوافل محملة بكميات من الصلصال النادر والفحم والأخشاب الصلبة من غاباتهم. امتلأت المدينة بالتحجار، والبنايين، وصانعي الخزف، وبائعى الطعام، واللصوص، والأوغاد؛ وقطع المزارعون - الذين شحوا رائحة النقود الذهبية - مسافات طويلة بعرباتهم من أجل الحصول على كميات من النقود المعدنية. منحهم أوجيدي الذهب والفضة من الأرض بعهد تذييسهما وتشكيلهما؛ وبالمقابل، منحوه مدينة، ولم يجد تلك مقايضة سيئة. في هذا الوقت، كان أفراد الحشود الذين جاءوا لبناء مدينته يتكلمون مئة لغة، ويحضرون ألف نوع مختلف من الطعام، ويستعملون مثلها من التوابل. كان سيسمح لبعضهم بالبقاء، لكنه لم يكن بينها لهم.

رأى أوجيدي عمال صباغ أيديهم محضراء يقفون بجانب الجدران، وعمائمهم الحمراء تحنى احتراماً. مشى حراسه أمامه حتى يستطيع ابن جنكيز قيادة حصانه من دون أي عائق يعترضه. كان قد أنشأ ذلك المكان من معسكر الخيام الذي عرفه والده، وجعله حقيقياً، ومينياً من الحجارة.

كان الأمر لا يزال بدهشه. وبالرغم من أنه لم يكن يدفع للنساء ليسافرن مع عماله، إلا أنه جن برفقة أزواجهن وآبائهن. وقد تساءل لبعض الوقت عن كيفية تأسيسه المهنة التي تحتاج إليها كل مدينة لتردهر، لكن تجاراً اتصلوا بمستشاره وعرضوا جياداً أو المزيد من الفضة لاستتجار عقارات جديدة. لم تكن المدينة أكثر من مجموعة بسيطة من البيوت، لكنها أصبحت آنذاك تفيض بالحياة.

لم يكن هذا العمل كاملاً، فقد أدى تعديل في الخطط إلى إنشاء منطقة من الأزقة الصغيرة في جنوب مدينته، وبدأت جماعات من قطاع الطرق تعمل هناك إلى أن سمع أوجيدي بالأمر، فأمر بتدمير ثمانية مبني، وأعيد تصميم المنطقة كلها وبنائها مجدداً، وأشرف حراسه الخاصون على عمليات تدمير المباني وإعدام قطاع الطرق.

أطبق الصمت على الشارع في أثناء مروره، وأحس العمال ومعلموهم رؤوسهم حين وأوا الرجل الذي يمتلك سلطة إبقائهم على قيد الحياة أو قتلهم جميعاً كما يمتلك الذهب الذي جاءوا من أجله. سحب أوجيدي نفساً عميقاً من هواء مملوء بالغبار، مستمتعا بمذاقه على لسانه. رأى أمامه أبراج قصره، تكفلها قبب من ذهب مطروقي أرق من ورق مخطوطاته، فارتفعت روحه المعنوية عند رؤيته هذا المشهد، وتبين أن تعلق أشعة الشمس في مدينته وتبقى داخلها.

اتسع الطريق الممتد أمامه، وظهرت مزاربه الحجرية اللامعة. كان العمل في ذلك الجزء قد انتهى قبل شهر، وتراجعت حشود العمال الصاخبة إلى الخلف. وعندما دفع أوجيدي حصانه للهرولة إلى الأمام، لم يسعه إلا أن ينظر إلى الأسوار الخارجية التي كانت قد أصابت مهندسيه وعماله من تشن بالحيرة. من حيث يجلس على سرج، من مكان منخفض، انقضت لحظات استطاع فيها رؤية السهول الخضراء خلفها. بالنسبة إليه لم تنقذ أسوار ينكينغ المرتفعة تلك المدينة من النار أو الحصار، لذلك كانت أسوار مدينته عبارة عن محاربي الخان وليست جدراناً صماء. إن أسواره عبارة عن رجال القبائل الذين أخضعوا إمبراطور تشن، ودمروا مدن الشاه.

أحب أوجيدي آنذاك ما صنعه؛ من الامتداد الشاسع لأرض التدريب المركزية، إلى السطوح المغطاة بالأجر الأحمر، وصولاً إلى القنوات المرصوفة، والآلاف من المعابد والأسواق والبيوت التي لا يزال معظمها حالياً. رفرت قطع من قماش أزرق عند كل زاوية بفعل ربح السهول في تحية إلى أب السماء فوقهم. وفي الجنوب، امتدت التلال والجبال الخضراء بعيداً، وكان الهواء حاراً ومحملاً بالغبار حين ابتهج أوجيدي مجدداً في كاراكوروم.

كان الشفق يتحول إلى عتمة خافتة حين سلّم أوجيدي عنان حصانه إلى أحد أتباعه، وصعد الدرجات بخطواتٍ واسعة لدخول قصره. وقيل أن يدخل، نظر إلى الخلف مرّة أخرى؛ إلى المدينة التي تكافح لتولد، وشمّ في هواء المساء رائحة ترابٍ فُلع حديثاً، تخالطها رائحة الطعام المقلّي للعمال. لم يكن قد خطط لوضع قطعان الماشية في حظائر خلف الأسوار، أو بيع دجاج يزعق في كل زاوية، أو فكّر في سوق الصوف التي كانت قد نشأت بجانب البوابة الغربية، ولم يكن عليه أن يتوقع توقف التجارة؛ ببساطة لأن المدينة لم تنته بعد. كان قد اختار بقعة على طريق تجارة قديم ليمنحها الحياة؛ وقد بدأت الحياة تسري فيها في حين لا تزال كل الشوارع وكل الأحياء أكواماً من الخشب والأحمر والحجارة.

عندما نظر إلى الشمس الغاربة، ابتسم حين رأى نيران الطهي في السهول المحيطة بالمدينة. كان قومه ينتظرون هناك من أجله، وستتغذى حيوشه من لحم الضأن، وسيسيل الدهن على أعشاب الصيف. ذكره ذلك بشعوره بالجوع، فلعل شفتيه في أثناء مروره نحو بوابة حجرية تضاهي أي شيء في مدينة تشن.

في القاعة التي يتردد في أرجائها الصدى، توقف لحظة عند الصرح الأكثر بذخاً: شجرة من الفضة الخالصة، تتناول بهاء إلى السقف المقوسّ المفتوح في وسطه، فتبدو السماء. كان الأمر قد استغرق من صائغي الفضة في سمرقند عاماً كاملاً لسبكها وتلميعها، لكنها ستحقق هدفه، وكل من سيدخل القصر سيراهم ويدهش من الثروة التي تمثلها. سري بعضهم رمزاً عن قوم الفضة: قبائل المغول التي أصبحت أمة، وأولئك الذين يتمتعون بحكمة أكبر سيرون أن المغول لا يهتمون كثيراً بالفضة وأنهم يستخدمونه كمعدن يمكن سبكه.

ترك أوجيدي يديه تنزلقان على جذع الشجرة، وجعل ملمس المعدن على أصابعه القشعريرة تسري فيها. كانت الأغصان المنفرّعة تمتد في محاكاة للحياة، وتلمع مثل بتولا بيضاء تحت ضوء الشمس الغاربة. أوماً أوجيدي ومطّسى، فيما كان الأتباع والخدم يشعلون المشاعل في كل مكان حوله، فألقت بظلال سوداء جعلت المكان في الخارج يبدو فحاة أكثر حلقة.

سمع أوجيدي وقع خطوات مسرعة تقترب منه، إنه تابعه باراساغور، وعندما
راه وجل من تعبير وجهه المتحهم، ومن حزمة الأوراق التي يحملها تحت ذراعه.
"بعد أن أكل يا باراس. لقد كان يوماً طويلاً".
"حسناً يا مولاي، لكنّ لديك زائراً: عمك. هل أخبره أن ينتظر حتى
ترتاح؟".

توقف أوجيدي عن فكّ حزام غمد سيفه. كان أعمامه الثلاثة قد جاءوا
إلى السهول حول كاراكوروم تلبية لأمره، وجمعوا فرقتهم في معسكرات عظيمة،
لكنه منعهم جميعاً من دخول المدينة، لذا تساءل من منهم قد خالف أمره. ظنّ
أنه سيكون خاسار الذي يعتبر أن الأوامر والقوانين موجهة لرجال آخرين
وليس له.
سأل أوجيدي مهدوء: "من هو يا باراس؟".

"سيدي تيموج يا مولاي. لقد أرسلت خديماً للاعتناء به، لكنه ينتظر منذ
وقت طويل".

زَمَّ أوجيدي شفثيه انزعاجاً. كان عمه يترك تماماً متطلبات الضيافة،
ووصوله حين لم يكن أوجيدي موجوداً للترحيب به يعني ببساطة أنه قد حاز ذلك
الالتزام. افترض أوجيدي أن ذلك أمر متعمد، فتيموج مأكراً جداً ولا يمكن أن
يفوت تلك الأفضلية الضئيلة. وبالرغم من ذلك، كان الأمر قد صدر إلى القادة
والأمراء بأن يقوا في السهول.

تهدّد أوجيدي. طوال سنتين كان قد جهّز كاراكوروم لتكون جوهره
الإمبراطورية، وبقيت مدينته معتزلاً رائعاً، وقد كافح لإبقائها على تلك الحال،
وللحفاظ على تفوقه على أعدائه وأصدقائه. كان يعرف أن ذلك لن يدوم إلى
الأبد، واستجمع قواه حين كان يمشي خلف باراساغور إلى أول حجرة استقبال
وأكثرها فخامة.

"اجعلهم يحضرون لي شرباً، وطعاماً يا باراس... شيئاً بسيطاً، مثل الذي
يتناوله الخاربون في السهول".

قال تابعه من دون أن يصغي إليه جيّداً، وأفكاره تدور حول الاجتماع
القادم: "أمرك يا مولاي".

كان صوت وقع الخطوات عالياً في القاعات الصامتة التي تردّد صداها. لم ينظر أوجيدي إلى اللوحات المرسومة التي تمنحه عادة سعادة غامرة، بل مشى مع باراساغور قرب أفضل أعمال الفنانين من دون أن يلتفت إليها. وعند النهاية فقط، نظر أوجيدي إلى لوحة ملونة متألقة، وابتسم لنفسه حين شاهد صورة جنكيز يقود هجوماً. كان الفنان قد طلب مبلغاً كبيراً من القطع الذهبية مقابل عمل استغرق سنة، لكن أوجيدي ضاعف الأجر حين رآها. بدا والسده حياً على تلك الجدران، وكذلك ذكراه. لم يكن فن الرسم موجوداً في القبائل التي يعرفها، وكانت مثل هذه اللوحات لا تزال تجعله يشهق ويقف مذهولاً. على أي حال، كان تيموج ينتظر، لذا أوما أوجيدي إلى صورة والده قبل أن يدخل الغرفة.

لم تكن السنوات خفيفة الوطأة على عمه، وقد كان تيموج سابقاً بديناً مثل عجل، لكنه فقد الوزن الزائد بسرعة، وغطت طبقات من الجلد المترهل حنجرته، وبدا أكبر سنّاً من عمره الحقيقي. نظر أوجيدي إلى عمه بهرودة حين لمض هذا الأخير عن كرسي مغطى بالحرير لنحيته. كان الأمر يتطلب منه جهداً ليكون دمثاً مع رجل يمثل نهاية زمنه. لم تكن لديه أوهام، فالأمة تنتظره بنفاد صبر، وتيموج أول من يخترق دفاعاته.

قال تيموج: "تبدو بصحة جيدة يا أوجيدي".

تقدم إلى الأمام مادّاً ذراعيه لمعانقة ابن شقيقه، لكن أوجيدي شعر بانزعاج شديد، فاستدار باتجاه باراس، تاركاً عمه يخفض ذراعيه المرفوعتين من دون أن يراه.

"الشراب والطعام يا باراس. هل ستقف هناك محذفاً مثل نعجة؟".

رد باراساغور وهو ينحني: "مولاي، سأجعلهم يرسلون كاتباً إليك لتسوين بحريات الاجتماع".

غادر مسرعاً، واستطاع كلا الرجلين سماع حفيّ التابع وهما يقطعان على الأرضية فيما كان يتعد.

عيس تيموج وقال: "هذه ليست زيارة رسمية يا أوجيدي، فلم الكتاب والسجلات".

"إذا، أنت هنا بصفتك عمي؟ ألم تأتِ لأن القبائل اختارتك لتأتي إليّ؟ ألم تأتِ إليّ بصفتك عمي المثقف الذي تتق به كل العشار؟".

تورد تيموج سخلاً من تلك النيرة ودقة الملاحظة، وافترض أن لدى أوجيدي عدداً كبيراً من الجواسيس في المعسكرات الكبيرة؛ مثله تماماً. كان ذلك شيئاً تعلمته الأمة من تشن. حاول معرفة مزاج ابن شقيقه، لكن تلك لم تكن مهمة سهلة. لم يكن أوجيدي قد عرض عليه حتى الشاي المرّ، فابتلع تيموج ريقه فيما كان يحاول معرفة مستوى العتب والانزعاج لدى أوجيدي.

"أنت تعرف أن الحيوش لا تتكلم عن أي شيء آخر يا أوجيدي". سحب تيموج نفساً عميقاً ليهدي أعصابه، وتحت نظرة عيني أوجيدي الصفراوين الشاحيتين، لم يستطع التخلص من فكرة أنه يتحدث إلى صورة عن جنكيز. كان ابن شقيقه أصغر جسداً من الخان العظيم، لكنه يتصرف ببرودة وأهنت عزيمته تيموج، وجعلت العرق يسيل على جبينه.

شرح تيموج يقول: "لقد تجاهلت إمراظورية والدك طوال سنتين".

قاطعه أوجيدي قائلاً: "هل تظن أن هذا ما فعلته؟".

حدق إليه تيموج وقال: "ماذا يفترض بـسي أن أظن غير ذلك؟ فلقد تركت الأسر والفرق العسكرية في السهول، ثم بنيت مدينة في حين كانوا يرعون الأغنام. طوال سنتين يا أوجيدي!". أخفض صوته حتى قارب الهمس وتابع: "يقول بعضهم إن عقلك قد تأثر حزناً على والدك".

ابتسم أوجيدي بمرارة، فقد كان مجرد ذكر والده يشبه كشط قشرة عن جرح. كان يعرف كل الشائعات، وقد أطلق بعضها بنفسه لإبقاء أعدائه متخبطين في الظلال. وبصفته الوريث المختار لجنكيز، أول خان للأمة - وبالرغم من أن الحارين أوشكوا على تحجيل والده - كان أوجيدي واثقاً أن ليس لديه ما يخشاه من مجرد شائعات سرت في المخيمات، لكن أقرباه كانوا قصة مختلفة.

فتح الباب على مصراعيه، ودخل باراساغور واثنا عشر خادماً من تشن. وخلال لحظات، أحاطوا بالرجلين، ووضعوا أمامهما كوبين برونزين وطعاماً على قماش أبيض مبعده. أشار أوجيدي إلى عمه لكي يجلس القرفصاء على الأرضية الأجرية، وراقب باهتمام حين طفقت ركبنا الرجل العجوز مما جعله يفرغ. أشار

باراساغور إلى الخدم لكي يغادروا، ثم قدّم الشاي إلى تيموج الذي قبّل الكوب مرتاحاً وأمسكه بيده اليمنى، وارتشف منه على نحو رسمي كما كان سيفعل في أي خيمة في السهول. راقب أوجيدي الشراب الأحمر في كوبه، ثم رفع كوبه ونحسّر شراهه بسرعة قبل أن يستطيع باراساغور الابتعاد عنه.

رأى أوجيدي نظرة عمه تستقر على الكاتب الذي كان باراساغور قد استدعاه، والذي يقف بكل وقار بجانب الجدار. كان يعرف أن تيموج يفهم قسوة الكلمة المكتوبة مثل أي شخص آخر، وأنه هو من جمع قصص جنكيز. كان لدى أوجيدي أحد المجلدات الأولى، المسوخ بعناية على جلد ماعز لا يلى بسهولة، وهو من ضمن مقتنياته الأغلى. ومع ذلك، كانت هناك أوقات يفضل الرجل فيها ألا يُدوّن كلامه.

قال أوجيدي: "امنحنا حلوة يا بلاواس. التوك الإبريق، لكن عذ الكاتب معك".

كان باراساغور مدرباً جيداً على عدم التردد، وانقضت لحظات فقط قبل أن يصبح الرجلان وحدهما مرة أخرى. تحسّر أوجيدي شراهه ونحسراً.

"لماذا جئت الليلة يا عمي؟ بعد شهر، يمكنك دخول كاراكوروم بحرية مع الألاف من قوما، والاشترك في احتفال ومهرجان سيتكلمون عنه طوال سنوات".
أمعن تيموج النظر إلى الشاب أمامه، وبدا الوجه الخالي من التجاعيد متعباً وصارماً. كان أوجيدي قد اختار عبئاً غريباً يحمله بنفسه يتمثل بتلك المدينة، وتيموج يعرف أن مجموعة صغيرة فقط من الرجال في المخيمات تهم بكاراكوروم؛ فهي لا تمثل بالنسبة إليهم أكثر من قطعة نقدية برونزية. وبالنسبة إلى القادة المغول الذين عرفوا جنكيز، كانت المدينة نزوة كبيرة من رخام أبيض وتصميم تشن. ثمّني تيموج أن يكون بمقدوره إخبار الشاب كم يحب المدينة التي أنشأها من دون أن يبدو كلامه متملقاً. ومع ذلك فقد أحبها، وكانت المدينة التي حلم بينائها مرة، ومكاناً يضم شوارع عريضة وساحات ومكبة؛ مع آلاف الرفوف السندانية النظيفة التي تنتظر الكنوز التي ستحملها يوماً ما.

قال تيموج: "لست أحمق يا أوجيدي. لم تكن مصادفة أن والدك قد اختارك من بين أشقائك الأكبر سناً". نظر أوجيدي إلى تيموج بحمّة، وأوماً إليه ليتابع

حديثه. "أتساءل أحياناً إن كنت استراتيجياً مثل القائد تسوبودي. طوال سنتين، بقيت الأمة من دون قائد، من دون درب، وبالرغم من ذلك لم تنشعب حرب أهلية، أو صراع بين الأمراء".

رد أوجيدي برفق: "ربما شاهد الجميع فرقتي الخاصة تتحرك بينهم، إضافة إلى كتابسي وجواسيسي. كان هناك دائماً رجال يرتدون الأحمر والأسود يراقبونهم تحسباً لأي عيانية".

تأفف تيموج قائلاً: "لم يكن الخوف ما منعهم، وإنما الارتباك. لم يستطيعوا معرفة خطتك، لهذا لم يفعلوا شيئاً. أنت ورثت والدك، لكنك لم تدعهم لأداء قسم الولاء لك. لا أحد يفهم ذلك، ولهذا ينتظرون ويراقدون. إنهم لا يزالون ينتظرون لرؤية ما ستفعله لاحقاً".

رأى تيموج فم أوجيدي يرتعش وكأنه يريد أن يتنسم، وتاق إلى معرفة ما يدور في ذهن ابن شقيقه. لكن، مع هذا الجليل الجديد، من يعرف كيف يفكرون؟

"لقد بنيت مدينتك على السهول يا أوجيدي، وقد اجتمعت الجيوش بناءً على أوامرك. الجميع هنا الآن، والكثيرون منهم يرون هذا المكان الرائع للمرة الأولى. هل تتوقع منهم ببساطة أن يجثموا ويقسموا بالولاء لك لأنك ابن والديك؟ لديه ابنان آخران على قيد الحياة يا أوجيدي. هل فكرت فيهما؟".

ابتسم أوجيدي لعنه مستمتعاً بالطريقة التي بدا أن الرجل يحاول فيها كشف أسراره. لكن، كان هناك سرٌّ لا يمكنه اكتشافه، مهما حدّق إليه عن قرب. شعر بالشراب ينشر ووجهه داخله، ويتخفف ألمه مثل عناق.

"إذا كانت تلك نيتي يا عمي؛ أي أن أحظى بسنتين من السلام لنفسي وأبني مدينة، فلقد فعلت هذا، أليس كذلك؟ ربما ذلك كل ما أريده".

بسط تيموج كفيه، وقال بألم ظهر واضحاً في صوته: "أنت لا تثق بي". ضحك أوجيدي بصوت خافت وقال: "أنت بك كما أنت بأي شخص آخر، أعدك". قال تيموج برودة: "جواب ذكي".

قال أوجيدي بحمّة: "حسناً، أنت رجل ذكي، وهذا ما تستحقه". كان كسل اللطف قد اختفى من سلوكه حين انحنى إلى الأمام، فترجع عمه إلى الخلف تلقائياً.

تابع أوجيدي قائلاً: "مع ولادة القمر الجديد، سأقبل عهد الولاء للخان من كل ضابط في الأمة. لست مضطراً إلى توضيح أفعالي يا عمي، وسيخضعون لي؛ ليس لأنني ابن والدي، ولكن لأنني وريث والدي المختار وقائد الأمة".
ثمالتك نفسه؛ وكأنه كاد أن يقول الكثير، وشاهد تيموج غطاءً يُسدل على مشاعر ابن أخيه. كان أوجيدي أحد الأبناء الذين تعلموا إخفاء مشاعرهم باكراً.

تابع أوجيدي: "لم تخبرني، لماذا جئت إلى الليلة يا عمي؟".
أطلق تيموج تهيدة، وعرف أن اللحظة قد انسلت بعيداً.
"جئت لأتوثق من أنك تدرك الخطر يا أوجيدي".

قال أوجيدي مبتسماً: "أنت تخفني".
تورد تيموج غضباً وقال: "أنا لا أهددك".
"إذاً، من أين قد يأتي هذا الخطر الأريب؟".
"أنت تسخر مني، بالرغم من أنني سافرت إلى هنا لمساعدتك، ولرؤية هذه المدينة التي بنتها".

قال أوجيدي: "إنها جميلة، أليس كذلك؟".

قال تيموج بصدق واضح جعل أوجيدي ينظر إليه بامعان أكبر: "إنها رائعة".
قال أوجيدي: "في الحقيقة، كنت أفكر في الحاجة إلى رجل يشرف على المكتبة هنا، ويجمع لفائف البردي من كل أصقاع الأرض حتى يعرف رجال العلم في كل مكان اسم كاراكوروم. ربما هذا حلم سخيف".
تردّد تيموج، فقد بدت الفكرة مغرية له، لكنه كان متشككاً.
قال برفق: "هل لا تزال تهرأ مني؟".

هرأ أوجيدي كتفيه وقال: "فقط حين تنتفخ مثل نعمة عجوز بتحذيراتك".
أنساءل إن كنت ستطلب مني أن أكون حذراً خوفاً من تسميم طعامي". رأى وجه تيموج يصبح أحمر مجدداً من شدة الغضب فابتسم.
"إنه عرض حقيقي. يستطيع أي رجل آخر في القبائل رعي الأغنام والماعز. لكن، أنت فقط تستطيع التعامل مع العلماء؛ كما أظن. ستجعل كاراكوروم شهيرة، وأريد أن تصبح معروفة من البحر إلى البحر".

قال تيموج: "إذا كنت تقدر ذكائي حقاً يا أوجيدي، فستصغي إليّ هذه المرة".

تنهد أوجيدي، وقال: "إذا، تكلم يا عمي، إذا كنت تشعر أنه لا مفر من ذلك".

"لقد انظرك الناس طوال سنتين، ولم يجرؤ أحد على تحريك جندي خوفاً من أن يصبح أول مثال لما ستفعله. حتى إن تشن وسونغ التزمنا الهدوء، مثل ظبي يشم رائحة ثمر قريب منه. لقد انتهى ذلك، وقد استدعيت جيوش الأمة، وبعد شهر من الآن ستصبح الخان، إذا عشت".

قال أوجيدي: "إذا عشت؟".

"أين حراسك الآن يا أوجيدي؟ لقد استدعيتهم إليك ولم يعد أحد يشعر بعيونهم المتشككة تحول في المخيمات. هل كنت تظن أن الأمر سيكون سهلاً؟ إذا وقعت الليلة عن السطح وكسرت عنقك على كل هذه الحجارة، فمن سيكون الخان عند ولادة القمر الجديد؟".

قال أوجيدي بهدوء: "يحظى شقيقي تشاغالي بأفضل فرصة، إلا إذا سُمح لابني غويوك بالعيش. تولي أيضاً من صلب والدي، والديه أبناء سيصبحون أشداء: مونغكي وكوبلاي وأريك - بوك وهولغو. وبحلول الوقت المناسب، يمكن أن يصبح أي منهم خاناً". ابسهم، مستمتعاً بشيء لا يستطيع تيموج رؤيته. ثم تابع قائلاً: "بذرة جنكيز قوية كما يبدو. فنحن جميعاً لدينا أبناء، لكننا لا نزال ننظر إلى تسوبودي. فمن سيحظى بالقائد الذي لا يُقهر منذ زمن والدي، سسيطر على الجيش، ألا تظن ذلك؟ من دونه، سنتشب حرب أهلية. هل أولئك كل الذين يتمتعون بالسلطة؟ لم أذكر جدتي. لقد فقدت أسنانها وبصرها الآن، لكنها تبقى مخيفة حين تُستفز".

حدق إليه تيموج.

"أمل ألا تكون أفعالك متهورة مثل أقوالك. ضاعف عدد حراسك الشخصيين على الأقل يا أوجيدي".

أوما أوجيدي إليه، ولم يزعج نفسه بأن يذكر أن الجدران المزخرفة تخفي رجالاً يراقبون ما يجري. كانت قوسان مختلفتان مصوّبتين على صدر تيموج في

تلك اللحظة تحديداً، ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من إشارة خاصة بيد أوجيدي لتمزيق جسد عمه.

"لقد سمعتك، وسأفكر في ما قلته. ربما يجب ألا تتولى ذلك الدور في مكسبتي وجامعتي حتى يولد القمر وينتهي الشهر. إذا لم أنج، فقد لا يكون لدى من يخلفني الاهتمام نفسه بكاراكوروم". رأى أن عمه يستوعب كلماته جيداً، وعرف أن أحد رجال السلطة على الأقل سيعمل لإبقائه حياً. لكل رجل ثمن، لكن الثمن ليس ذهباً على الدوام.

قال أوجيدي: "يجب أن أنام الآن، فكل يوم يكون مليئاً بالخطط والعمل". توقف عن الكلام في اللحظة التي هضض فيها، ثم تابع: "سأحبرك بما يلي: لم أكن أصمّ أو أعمى في السنتين الأخيرتين. لقد توقفت أمة والدي عن الفتح لبعض الوقت. لكن، ماذا في ذلك؟ لقد تغلّت الأمة على الحليب والدم، وأصبحت مستعدة لإرسالها إلى العالم بقوة جديدة. وقد بنيت مدينتي. لا تخف عليّ يا عمي، فأنا أعرف كل ما أحتاج إلى معرفته عن القادة وواللهم".

وقف أوجيدي على قدميه بليونة الشباب، في حين اضطر عمه إلى قبول يده الممدودة، وفزع حين طفقت ركبتاه بصوت عالٍ.

قال تيموج: "أظن أن والدك سيكون فخوراً بك يا أوجيدي".

لدهشته، ضحك أوجيدي بصوت خافت.

"أشك في ذلك. لقد احتضنت ابن جوشي غير الشرعي، وجعلت منه قائداً. سأجعل باتو يرتقي تكريماً لذكري شقيقي. لن يسامحنى جنكيز على ذلك أبداً". ابتسم من تلك الفكرة، وتابع قائلاً: "لم يكن ليحب كاراكوروم، أنا واثق من ذلك".

نادى باراساغور ليصطحب تيموج إلى خارج المدينة المظلمة، وليعيده إلى هواء الخيانة والشك الخائق الذي لا يحتمل في المخيمات العظيمة.

أمسك أوجيدي إبريقه وكوبه، وملاً الكوب مرة أخرى فيما كان يمشي إلى شرفة حجرية، ثم نظر إلى الشوارع التي بنرها ضوء القمر. كان هناك نسيم ناعم برّد جسده في أثناء وقوفه هناك وعيناه مغمضتان. شعر بألم في قلبه، وأمسك ذراعه حين انتشر الألم، وشعر بالعرق يسيل على جبينه حين نبضت عروقه وانتفضت

بسرعة مخيفة، وبقي على تلك الحال للحظات حتى شعر بالدوار. مدّ يده إلى الأمام
كيفما اتفق وأمسك بالحافة الحجرية، وأخذ يتنفس ببطء وعمق حتى تلاشى
الضعف، وخفق قلبه ببطء مرة أخرى. شعر بضغط كبير في رأسه، وتضاءلت
الأضواء المتهوجة وتحوّلت إلى مجرد نقاط؛ إلى ظلال لا يراها أحد غيره. نظر إلى
النجوم الباردة، وتعبير وجهه متجهم. أحياناً، عندما كان الألم يباغته بقوة تجعله
يرتجس ويشعر بالضعف لم يكن يتوقع أن يزول، لكنه تلاشى. كان قبره جاهزاً
وهو لا يزال حياً أفرغ ما في الإبريق كوباً إثر آخر حتى تخذّرت أحاسيسه.

همس لنفسه: "كم بقي لديّ من الوقت؟ هل هي أيام الآن، أم سنوات؟".
تخيّل أنه يتكلم مع والده ولوّح بالكوب في أثناء حديثه، فأراق بعض الشراب.
"حدث ذلك في السلم يا أباي، في السلم حين ظننت أن وقتي قد انتهى. لماذا
أهتم لقادتك... صراعاتهم التافهة؟ لقد هضمت مدينتي وقد جاءت الأمة، ولا
أزال هنا. ماذا سأفعل الآن؟".

أرهف السمع في الظلام منتظراً جواباً. ولكن، من دون جدوى.

الفصل الثاني



داعب تولى شعر زوجته الرطب بتكاسل فيما كان مستلقياً على ظهره مراقباً أبناءه الأربعة وهم يصرخون ويخوضون في ماء أوريخون. كانت أشعة الشمس دافئة في أثناء استلقائهم هناك، ولم يمنع استرخاءهم النام إلا وجود حراسه قريباً منهم. كثر تولى من الفكرة، فلم يكن هناك سلام دائم في المخيم، وكل رجل يتساءل إن كان مناصراً لتشاغاتي أو أوجيدي. أحياناً، يتمنى أن يسوي شقيقاه الأكبر سناً المسألة بينهما في مكان هادئ، حتى يستطيع الاستمتاع بكونه حياً في مثل هذا اليوم، وهو بصحبة امرأة جميلة بين ذراعيه وأربعة أبناء موفوري الصحة يلتمسون السماح لهم بالغوص. كان قد منعهم من ذلك مرة، لكنه رأى أن كويلاي قد تحدى مونفكي مرة أخرى، والاثنان يقتربان شيئاً فشيئاً من الضفة، حيث يفود طريق تسلكه الماعز إلى النهر الهادر. راقب تولى الغلامين الأكبر سناً وهما يلقيان نظرة مفعمة بالذنب عليه وعلى زوجته، آمليين أن يكونا نائمين تحت الشمس الدافئة. كان أريك - بوك وهولغو في إثرهما طبعاً، وحسداهما الصغيران النحيلان يرتعشان تقريباً من الإنارة.

تمتم سورهناتي: "هل تراهما؟".

ابتسم تولى وقال: "أنا شبه مقتنع بأنه يجب أن أسمح لهما بتجربة ذلك. إنهما يسبحان مثل كليسي ماء".

كان الغوص لا يزال سوى مهارة جديدة بالنسبة إلى أفراد القبائل الذين ترعرعوا في سهول معشوشبة. وبالنسبة إلى أولئك الذين تعلموا امتطاء الخيل قبل أن يتكلموا، كانت الأهمار تمثل مصدر الحياة للقطعان، أو تمثل عقبة حين تفيض. وأخيراً، أصبحت مصدراً للسعادة بالنسبة إلى أطفال القبيلة.

قالت سورهتاني: "لن تكون من يعالج جروحهم حين يكشطون الجلد عن مؤخراتهم، أو يضعون جييرة حول عظامهم".

بالرغم من ذلك، لم تقل شيئاً حين اندفع مونغكي فحاة نحو الدرب، وجسده العاري يلمع. ألقى كوبلاي نظرة أحمرة حادة على والده، لكن أباً منهما لم يتحرك، وبعد لحظة انطلق هو أيضاً.

جلس تولي وسورهتاني منتصبين حين أصبح الصبيان خارج مرمى البصر، وتبادلا نظرة خاصة حين مد أريك - بوك وهولغو عنقيهما لرؤية الشلال الذي تسيل مياهه من الأعلى.

قالت سورهتاني، وهي تتسرع ساق نبات وتمضغ طرفها: "لا أعرف من الأسوأ، مونغكي أم كوبلاي". ضحك تولي بصوت خافت وقال معاً: "كوبلاي". قال تولي لبعض الكآبة: "يذكرون مونغكي بالودي. إنه لا يخشى شيئاً". تأفقت سورهتاني قليلاً وقالت: "إذاً، ستتذكر ما قاله والدك مرة حين كان عليه أن يختار بين رجلين لقيادة ألف".

قال تولي، وقد أدرك ما قصدته تماماً: "كنت هناك يا امرأة. قال إن يوسني لا يخاف شيئاً ولا يشعر بالجوع أو العطش، ولهذا السبب لم يكن ملائماً للقيادة". "كان والدك حكيماً. إذ يجب على الرجل أن يشعر ببعض الخوف يا تولي، حتى إن كان ذلك مجرد التباهي بأنه قهره".

جعلتهما صيحة حادة ينظران إلى الأعلى ليشاهدا مونغكي يطل عليهما من أعلى الشلال، ويصرخ فيما كان يرمي بنفسه، ويغطس في المياه في الأسفل. لم يكن الارتفاع يزيد على عشر أقدام. لكن، بالنسبة إلى فتى في الحادية عشرة، لا بد ألها كانت قفزة مرعبة. استرخى تولي، وضحك بصوت خافت حين رأى ابنه البكر يظهر على سطح الماء، وهو يزفر ويشهق، وقد ظهرت أسنانه ناصعة البياض في وجهه الذي لفحته الشمس. ابتهج أريك - بوك وهولغو، وارتفع صوتاهما عالياً حين نظرا إلى الأعلى مجدداً بحثاً عن كوبلاي.

سار كوبلاي نحو الخلف، ثم قفز بحركة مملوابة، متحركاً بسرعة كبيرة جعلته يتعد عن الشلال الهادر ويسقط في الهواء. فزع تولي من الصوت القوي الذي سُمع بوضوح لدى اصطدام جسد كوبلاي بالماء، وراقب الأبناء الثلاثة الآخرين وهم

يبحثون عنه، ويصرخون ويشيرون إلى بعضهم بعضاً. شعرت سورھتاني بذراعي زوجها تشتدان حين استعد ليقف على قدميه، لكن كوبلاي ظهر على سطح الماء آنذاك. كان جسده كله متورداً، وعرج حين عرج من الماء، ولكنه كان يلهث انتعاشاً.

قال تولي: "يجب أن أجعلهم يتحلّون ببعض التعقل".

هزّت زوجته كنفها قائلة: "سأجعلهم يرتدون ثيابهم، ثم سأرسلهم إليك".
أوما إليها، ولم يدرك تماماً أنه قد انتظر موافقتها حتى يعاقب الفتية. اتسمت سورھتاني حين مشى متعباً، وقالت في سرها: إنه رجل طيب. وبالرغم من أنه لم يكن الأقوى بين أشقائه أو الأشد قسوة، لكنه في ما تبقى من أمور أفضل أبناء جنكيز. عندما وقفت وجمعت الثياب التي تركها أبناؤها على كل شحيرة حولهم، تذكرت الرجل الوحيد الذي جعلها تخاف في حياتها. وحطرت لها ذكرى ما حصل على شاطئ البحيرة حين نظر إليها جنكيز بصفتها امرأة، وليست بمجرد زوجة أحد أبنائه. حدث ذلك على بعد آلاف الأميال، في أرض مختلفة. كانت قد رأت عيني الخان تلمعان حين وقع نظره على شهابها وجمالها للحظة واحدة فقط، واتسمت له آنذاك، خائفة مذهولة.

تمتمت لنفسها وهي تمزّ رأسها مبتسمة: الآن، لديها رجل.

وقف خاسار على القاعدة الخشبية للعربة، ومال إلى الخلف مستنداً إلى اللباد الأبيض الخيمة الخان التي كانت أعرض مرتين وأعلى مرة ونصف من خيام قومهم، والتي كان جنكيز يستخدمها للاجتماع بقادته. لم يطالب أوجيدي قط بالخيمة الضخمة والثقيلة جداً، إلى درجة أنها كانت بحاجة إلى ستة ثيران لتحرّرها. وبعد موت الخان العظيم، بقيت فارغة لشهور قبل أن يجعلها خاسار ملكاً له، ولم يجسرو أحد على الاعتراض على حقّه فيها.

شم خاسار لحم الغرير المقلي الذي كان كشيون قد أحضره لوجية الظهر.

قال: "لنأكل في الخارج. إنه يوم رائع ولا ينبغي لنا أن نجلس في العتمة".

إضافة إلى الطبق الذي يتصاعد منه البخار، حمل كشيون قربة كبيرة من الشراب الأسود ورمائها إلى شقيقه.

سأله وهو يضع الطبق على حافة الألواح الخشبية ويجلس مورحاً قديمه:
"أين الآخرون؟".

هزّ خاسار كتفيه قائلاً: "قال جيسي إنه سيأتي إلى هنا. أرسلت ساعياً إلى
جيلم ونسويودي، فمجيئهما أو عدمه منوط بهما".

زفرّ كشيون سخطاً. كان يجب أن يبعث الرسائل بنفسه؛ ليتأكد من أن
شقيقه لم ينسَ أو يستخدم كلمات غير مناسبة. لم تكن هناك فائدة من توبيخ
الرجل الذي يلمس أصابعه في كومة طعام يخرج البخار منها. لم يتغير خاسار، وبدا
ذلك مغيباً ومرحاً في الوقت نفسه.

قال خاسار وهو يمضغ طعامه: "لقد أقمي بناء مدينته تقريباً. إنها مكان غريب
المظهر. مع تلك الأسوار المنخفضة، يمكنني اجتيازها على سهوة حصاني".

رد كشيون: "أظن أن ذلك ما يقصده. وتناول عددًا من أرغفة الخبز من
طبق آخر، ولوّح بيده لإبعاد البخار حين ملاً أحد الأرغفة باللحم. بدأ خاسار
محتاراً وتنهّد كشيون.

"نحن الأسوار يا شقيقي. إنه يريد أن يرى الناس أنه ليس مضطراً إلى الاختباء
خلف حجارة مثل تشن. هل تفهم؟ فرق جيشنا هي الأسوار".

قال خاسار وهو يلوّك الطعام: "إنه ذكي، لكنه سيبيئ أسواراً في نهاية
المطاف، بالتأكيد. امنحه سنة أو اثنتين وسيضيف الحجارة. المدين تجعلك خائفاً".

حدّق كشيون إلى شقيقه متسائلاً عما إذا كان يتحلّس ببعض الحكمة
الحقيقية. وحين لاحظ خاسار اهتمامه المفاجئ كثر.

"لقد رأيت ذلك. إذا امتلك رجل ما ذهباً، فهو يعيش مرتعياً من فكرة أن
يأتي شخص ما ويأخذه منه، لهذا يبني أسواراً حوله. وعندها، يعرف الجميع مكان
الذهب، فيأتون ويأخذونه. هكذا تسير الأمور دائماً يا شقيقي. الحمقى والذهب
معاً".

قال كشيون وهو يملأ رغيماً آخر ويمضغ طعامه: "لا أعرف أبداً إذا كنت
تفكّر مثل طفل أو رجل حكيم جداً".

حاول خاسار قول عبارة رجل حكيم وهو يتلعق لقمة كبيرة فغصص، ولهذا
اضطر كشيون إلى ضربه على ظهره. لقد كانا صديقين منذ وقت طويل جداً.

مسح خاسار دموعاً سالت من عينيه، وسحب نفساً عميقاً، ثم تناول جرعة كبيرة من الشراب الأسود من القربة المملوءة.

"سيحتاج إلى الأسوار عند ولادة القمر الجديده، كما أظن".

تلقائياً، نظر كشيون ليري إن كان بمقدور أحد استراق السمع. كانا محاطين بالأعشاب، وحصاناهما يرعيان في مكان قريب، وخلفهما محاربون مشغولون تحت الشمس، وهم يستعدون للمسابقة الكبيرة التي وعد أوجيدي بها، والتي ستوزع فيها أحصنة ودروع على المصارعين ورماة السهام؛ حتى أولئك الذين يفوزون بسباقات المشي في السهول. وأينما نظرا، شاهدا رجالاً يتدربون في مجموعات. لكن، لم يكن هناك أحد يتلصقاً قريباً جداً منهما، فاسترخى كشيون.

"هل سمعت شيئاً؟".

"لا شيء. لكن الأحق فقط سيتوقع أن يجري قسم الولاء من دون مشكلة. أوجيدي ليس أحق أو جباناً، وواجهني حين فقدت صوابي بعد...". تردد في قول ما يريد، وبدت عيناه نائهتين وباردتين للحظة. ثم تابع: "بعد موت جنكيز". تناول جرعة كبيرة أخرى من الشراب القوي وأضاف: "لو أنه تلقى قسم الولاء على الفور، لما كان أي رجل في القبائل ليحرؤ على رفع يده نحوه. لكن، الآن...؟".

أوماً كشيون متجهماً.

"لقد استعاد تشاغاني قوته الآن، ونصف الأمة تتساءل لماذا لن يصبح الخان". رد خاسار: "سُراق دم يا شقيقي، بطريقة أو بأخرى. أمل فقط أن يعرف أوجيدي متى يصفح ومتى يثق الأعناق".

قال كشيون: "نحن معه، ولهذا أردت أن نلتقي هنا لنناقش سخطنا للحفاظ على أمنه بصفتنا خاناً".

"لم أstdع إلى مدينته البيضاء طلباً لنصيحتي يا كشيون، وأنت؟ لا تعرف إن كان يثق بنا أكثر من أي شخص آخر. لماذا سيفعل ذلك؟ كان بمقدورك أن تصبح خاناً لو أردت، وكنت وريث جنكيز فيما كان أولاده يكبرون". رأى خاسار انزعاج شقيقه. كان المحيم مملوءاً بمثل ذلك الكلام، وكان كلا الرجلين متعيين منه، لكن خاسار هز كتفيه فقط.

"على أيّ حال، أنت أفضل من تشاغاتي. هل رأيتَهُ وهو يجري في الخارج مع أتباعه؟ إنه يافع وقويّ جداً".

انحنى فوق حافة العربة وبصق متعمداً على الأرض، فابتسم كشيون.
"هل تغار يا شقيقي؟".

"ليس منه، بالرغم من أنني أشتاق إلى الشباب أحياناً. جزء مني يشعر بالألم دائماً. جروح قديمة، ركبتيان متعبتان، أتذكر ذلك الوقت حين فشلت تماماً في حمايتي من تلقي طعنة رمح في كتفي؛ كل ذلك مؤلم".
قال كشيون: "هذا أفضل من البديل".

تأفف خاسار.

نظرا حولهما حين انفتحت جيبي برفقة تسوبودي، وبدا كلا قائدي جنكيز في ريعان شباهما، وألقى كشيون وخاسار نظرة خاصة عليهما وهما يمشيان بخطوات واسعة على أعشاب الصيف، وأثقتين من نفسيهما.

قال خاسار من دون رسميات حين صعدا الدرجات المؤدية إلى خيمة الخان القديمة: "الشاي في الإبريق، واللحم في القدر. نحن نناقش كيفية الحفاظ على أوجيدي حياً لوقت كافٍ يتيح له حمل الذبول البيضاء".

كان رمز القبائل الموحد لا يزال يرفرف فوق رأسه، وهو عبارة عن ذبول أحصنة كانت سابقاً مجموعة من الألوان القلبية، إلى أن جعلها جنكيز بيضاء ووحدتها معاً. لم يجرؤ أحد على إزالة رمز السلطة، أو مناقشة استخدام خاسار للعربة.

ارتاح تسوبودي على الحافة الخشبية مدلياً قدميه، وانشغل بتناول اللحم والخبز. كان يدرك أن كلا من كشيون وخاسار ينتظر ما سيقوله، لكنه لم يستمتع بكونه موضع اهتمام، وأكل ببطء ثم تناول الشراب الأسود.

فيما كان الصمت سائداً، مال جيبي إلى الخلف، واستند إلى جدار اليباد، ونظر إلى المدينة البعيدة، ورأى ضباباً أبيض في الهواء الحار. استطاع رؤية القبة الذهبية لقصر أوجيدي، وتحيلها عيناً صفراء تحدّق إلى خارج المدينة.

قال جيبي: "لقد استقبلت زائراً". توقف تسوبودي عن المضغ، ووضع خاسار قربة الشراب أرضاً بعد أن كان على وشك أن يرتشف منها. هزّ جيبي

كتفيه: "كنا نعرف أن هذا سيحدث مع أحدنا، عاجلاً أو آجلاً. كان رجلاً غريباً، لا يحمل علامات عن أي رتبة".

قال كشيون: "هل أرسله تشاغاتي؟".

أوما جيبي وقال: "من غيره؟ لكن، لم تُذكر أسماء. إنهم لا يتقون هسي. كانت مجرد الثفانة بسيطة ليروا أي طريق سأختار".

كشر تسوبودي وقال: "اخترت الهيء إلى هنا لتكون في مرمى بصر كل القبائل. لا شك في أنهم يراقبونك الآن".

قال جيبي، وهو شامخ بأنفه: "وماذا في ذلك؟ كنت وفياً لجنكيز. هل طلبت يوماً أن أكون معروفاً باسمي عند الولادة، زورغادي؟ أحمل الاسم الذي منحني إياه جنكيز، وأنا وفي لابن الذي سماه وريثاً. لماذا أهتم لمن يراني أتحدث إلى قاده؟".

تهدد تسوبودي، ووضع جانبا آخر قطعة من وجيته قائلاً: "نحن نعرف الذين يرغبون على الأرجح في إفساد أداء القسم، لكننا لا نعرف كيف سيفعلون ذلك، أو عدد الرجال الذين سيؤيدونهم. لو أنك جئت إلى سرّاً يا جيبي، لطلبت منك أن توافق على أي شيء يقولونه لتعرف خططهم".

قال حاسار بازدرء: "من يرغب في العمل خلسة في الظلام يا تسوبودي؟". ونظر إلى شقيقه طلباً للدعم، لكن كشيون هز رأسه.

"تسوبودي محقّ يا شقيقي. القضية لا تتعلق فقط بإظهار دعمنا لأوجيدي وأن يتبعنا كل الرجال المحصنين. أتمنى لو أن ذلك يحدث فعلاً. لم يكن هناك خان للأمة قبل جنكيز. ولهذا، ليست هناك الآن قواعد لانتقال سلطته".

ردّ حاسار: "الخان يضع القوانين. لم أرَ أحداً يشتكي حين جعلنا جميعاً نقسم بالولاء لأوجيدي على أنه وريث له، حتى تشاغاتي جئنا على ركبتيه من أجل ذلك".

قال تسوبودي: "لأن خياره حينذاك كان محدوداً. فإما أن يخضع لذلك أو يموت. لقد رحل جنكيز الآن، والرجال حول تشاغاتي بهمسون في أذنه، ويقولون له إن السبب الوحيد لعدم كونه وريثاً هو صراعه مع شقيقه جوشي، لكن جوشي مات".

صمت للحظة مفكراً في الدم الذي أريق على الثلج. كان وجهه خالياً من أي تعبير، ولم يستطيعوا استنباط شيء منه.

تابع تسوبودي بملل: "ليست هناك أعراف نتصرف على أساسها. نعم، لقد اختار جنكيز وريثه، لكن ذهنه لم يكن صافياً. فقد كان يشعر بالغضب من جوشي، وكان قبل سنوات قليلة فقط يفضل تشاغاتي على كل أشقائه. الأمة لا تتحدث عن شيء آخر، وأظن أحياناً أن تشاغاتي يمكن أن يعبر عن طلبه عناشاً ويصبح خاناً. يمكن أن يمشي إلى أوجيدي مباشرة حاملاً سيفاً، ونصف الجيش لن يوقفه".

قال خاسار: "سيمرّقه النصف الآخر إلى أشلاء".

"وبضربة واحدة، ستندلع حرب أهلية تشطر الأمة إلى نصفين، وسيضيع كل ما بناه جنكيز، وكامل قوتنا متخوضين في صراع داخلي. كم سيطول الأمر قبل أن يثور نشن ضدنا، أو العرب؟ إذا كان ذلك هو المستقبل، فإنني أفضل رؤية تشاغاتي حاملاً راية الذبول البيضاء اليوم". رفع تسوبودي يده حين بدأوا يتحدثون وقال: "هذا ليس كلام محائن، ولا تفكروا في ذلك. ألم أبيت أنني أطعت جنكيز، حتى عندما كنت مدركاً أنه مخطف؟ لن أخون ذكراه، وسأرى أوجيدي خاناً، وهذا وعد مني".

مرة أخرى، فكّر في شاب صدّق وعده بممر آمن. كان تسوبودي يعرف أن كلمته لا قيمة لها، في حين كانت سابقاً قوية كالحديد. كان ذلك جرحاً قديماً، لكنه في بعض الأيام ينسرف وكأنه أصيب به للتو.

قال خاسار: "لقد جعلتني أقلق".

لم يتسم تسوبودي. كان أصغر سناً من كلا الشقيقين، لكنهما انتظرا بنفاد صبر أن يتكلم، فهو القائد العظيم، والمعلم الذي يستطيع التخطيط لأي هجوم في أي تضاريس، وانتزاع النصر بطريقة ما. ومع تسوبودي، كانا يعرفان أن أوجيدي لديه فرصة، وعبس كشيون من تلك الفكرة.

"يجب أن تهتم بسلامتك أيضاً يا تسوبودي. أنت أكثر قيمة من أن نخسرك".

تهند تسوبودي قائلاً: "يا لها من كلمات أسمعها في حين أجلس بجانب خيمة خاني! نعم، سأتوخى الحذر، فأنا عقبه أمام الشخص الذي غشاه جميعاً. يجب أن

تتوقَّعوا من أن حراسكم رجال تأمنوهم على حياتكم؛ لا يمكن رشوتهم أو تهديدهم من دون أن يعودوا إليكم. إذا فقد رجل زوجته وأولاده، فهل ستثقون بأنه سيحرسكم في أثناء نومكم؟".

قال جيبي منكمشاً: "هذه فكرة بشعة. أتظنون حقاً أننا في هذه المرحلة؟ في مثل هذا اليوم لا يمكن أن أصدّق وجود سكاكين وراء كل ظل".

تابع تسوبودي: "إذا أصبح أوجيدي خاناً، فمن الممكن أن يأمر بقتل تشاغاي، أو يحكم ببساطة على نحو جيد أو سيئ لمدة أربعين سنة. تشاغاي لن ينتظر يا جيبي، وسيحاول قتله في حادثة، أو سيحاول الاستيلاء على السلطة بالقوة. لا يمكنني رؤية جالساً مكتوف اليدين في حين يرسم آخرون طريق حياته وطموحه. لن يكون الرجل الذي أعرفه".

بدت الشمس بطريقة ما أقل سطوعاً بعد تلك الكلمات الباردة.

سأل جيبي: "أين جيلم؟ أخبرني أنه سيكون هنا".

فرك تسوبودي عنقه، جاعلاً إياه يقطّط. لم يكن قد نام جيداً طوال أسابيع عديدة، بالرغم من أنه لم يذكر هذا هؤلاء الرجال.

تمتم: "جيلم وفي، فلا تقلق بشأنه". وعبس الرجال الآخرون.

قال جيبي: "وفي لأيّ من أبناء جنكيز؟ ليس هناك طريق واضح في هذه المسألة، وإذا لم نجد واحداً، فقد تتمزق الأمة شرّ تمزيق".

قال خاسار: "إذا، يجب أن نقتل تشاغاي". وما إن قال هذا، حتى أطبق الصمت على الآخرين. هزّ كتفيه، ثم تابع قائلاً: "أنا عجزو جداً حيث إنني لا أحترس في ما أقوله. لماذا عليّ التوق من حراسي الشخصيين؟ يمكننا إنهاء هذا الأمر اليوم، وسيكون أوجيدي خاناً عند ولادة القمر الجديد من دون تهديد بنشوب حرب". رأى تعابير وجوههم المتحممة وبصق، ثم أضاف: "لن أحمي رأسي حين ترفضون، لهذا لا تتوقعوا مني ذلك. إذا فضلتم أن تحرسوا ظهوركم شهراً وتضعوا عخطاً سرية وذكية، فالأمر منوط بكم. يمكنني إمعان النظر في الأمر ورؤية نهاية له. ماذا تظنون أن جنكيز سيقول لو أنه كان معنا هنا؟ كان سيمضي قدماً، وسيقطع عنق تشاغاي".

أقر تسوبودي الذي كان يعرف أفضل من معظم الناس مدى قسوة الخان: "ربما كان سيفعل ذلك. لو أن تشاغاي أحمق، لكنت سأنتفح معك. ولو كنت

تملك عنصر المفاجأة، فقد ينجح الأمر، وكنت سأطلب منك أن تتأكد من امتلاكك ذلك العنصر، لكنك ستلقى حتفك قبل أن تتأكد. بدلاً من ذلك، اسمع نصيحتي في هذا الأمر: تشاغاني مستعد مثل هذه الخطوة. ستواجه أي مجموعة من الرجال المسلحين الذين يقتربون من فرقته أسلحةً ومخاريز عدوانيين مستعدين لشن هجوم. إنه يُخطط للقتل كل يوم، ولهذا يخشى منه أيضاً".

قال خاسار، وهو يبدو أقل ثقة بالنفس: "نحن نقود ما يكفي من الرجال لنصل إليه".

"ربما. إذا كان يملك عشرة آلاف تحت إمرته فقط، فيمكننا الوصول إليه، لكنني أظن أن الأمر قد يتجاوز تلك المرحلة. وبغض النظر عن اللعبة التي كان أوجيدي يلعبها، فقد منح شقيقه سنتين ليهمس ويقطع وعوداً. ومن دون ظل خان، اضطررنا جميعاً إلى حكم الأراضي حولنا، والتصرف وكأننا الصوت الوحيد المهم هناك. واكتشفت أنني أستمتع بذلك. ألم تشعروا بالشيء نفسه؟". نظر تسوبودي إلى الآخرين وهز رأسه متابعاً: "الأمة تتداعى إلى قبائل وفرق لا يوحدها الدم، وإنما يتزعمها القادة... لا، لن نهاجم تشاغاني. وهدفي منع نشوب حرب أهلية، لا أن تكون الشرارة التي تطلقها".

كان خاسار قد فقد نظرتة الحادة حين تكلم تسوبودي، وظهر مكانها تعبير انسزجاج.

قال: "إذاً، سنعمل على الحفاظ على حياة أوجيدي".

رد تسوبودي: "هل سنعمل ما هو أكثر من ذلك، سنعمل على الحفاظ على ما يكفي من الأمة بحالة سليمة، لكي يكون لديه من يحكمهم كخان. أأمل أنك لم تتوقع أن يكون لدي جواب في يوم واحد يا خاسار. يمكننا تحقيق انتصار هنا ورؤية أوجيدي رافعاً راية الذبول البيضاء، لكننا سنرى تشاغاني يأخذ نصف الجيش ونصف الأمة. كم سيطول الأمر قبل أن يتوجه الخانان وجيشاهما في ميدان الحرب؟".

قال كشيون: "لقد أوضحت القضية يا تسوبودي. لكن، لا يمكننا الجلوس فقط بانتظار الكارثة".

قال تسوبودي: "لا. حسناً، أعرف أنني أستطيع الوثوق بك. جيلم ليس هنا؛ لأنه يلتقي اثنين من القادة ربما يكونان موالين لتشاغاني. سأعرف المزيد حين

اتبادل الرسائل معه. لا أستطيع لقاءه مجدداً... ونعم يا خاسار، هذا نوع من الألعاب السرية التي تزدريها. المخاطر كبيرة جداً، ولا يمكن الإقدام على عمل غير مسؤول".

قال خاسار مستغرقاً في التفكير: "ربما أنت محق".
ألقى تسوبودي نظرة حادة على الرجل الأكبر سناً وقال: "أريد أيضاً وعداً منك يا خاسار".
"بشأن ماذا؟".

"أريد منك وعداً بالآتي تصرف من تلقاء نفسك. صحيح أن تشاغاني يتحرك كل يوم، إلا أنه لا يتعد عن محاربه. هناك فرصة ضئيلة بأن تستطيع وضع رماة سهام في مكان ما للقضاء عليه سراً. ولكن إذا فشلت، فستدمر كل شيء عمل شقيقك من أجله، وستكون التكلفة حياة عدد كبير من أولئك الذين تحبهم. وستدخل الأمة كلها في أتون النار يا خاسار".

ففر خاسار فمه مندهشاً من القائل الذي بدا أنه يقرأ أفكاره. وظهر تعبير من يشعر بالذنب على وجهه؛ رآه الجميع قبل أن يتحهم وجهه مجدداً. وقبل أن يبرد، تكلم تسوبودي مجدداً.

"أريد وعداً يا خاسار. نريد الشيء نفسه. لكن، لا يمكنني التخطيط لشيء، ليس من دون أن أعرف ماذا ستفعل".

قال خاسار بتحهم: "لك وعدي".

أوما تسوبودي وكأنها نقطة ثانوية في نقاش.

"سأبقيكما على اطلاع. لا يمكننا اللقاء كثيراً، ليس مع وجود عدد كبير من الجواسيس في المخيم. لهذا، سنرسل ساعة ثق بهم. لا تكتبوا شيئاً أو تستخدموا اسم تشاغاني مجدداً، ليس بعد اليوم. ادعوه الـمرمح الكسور إذا اضطررتم إلى الحديث عنه. اعرفوا أننا سنجد حلاً لهذه القضية".

لخص تسوبودي على قدميه بهدوء، وشكر خاسار على ضيافته.

قال: "يجب أن أغانر الآن لأكتشف ما وُعد به جيلم مقابل الحصول على دعمه". أحنى رأسه ونزل الدرجات برشاقة، مما جعل خاسار وكشيون يشعران بألهما تقدماً في السن من مجرد النظر إليه فقط.

قال كشيون برفق وهو يراقب الفائد يمشي مبتعداً: "كن شاكراً لشيء واحد:
لو كان تسويودي من يريد أن يصيح خاناً، لكان الأمر أصعب".

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل الثالث



وقف أوجيدي في الظلال عند قاعدة المدرج المنحدر الذي يرتفع نحو الأعلى. كان تشييد الشكل البيضوي الضخم قد انتهى أخيراً، ورائحة الخشب والطلاء قوية في الهواء حوله، وبدا له أمراً سهلاً أن يتخيل رياضي قومه وهم يخرجون منه ليسمعوا هتاف ثلاثين ألف رجل وامرأة، تخيل أوجيدي كل ذلك، وأدرك أن مزاجه أصبح أفضل مما كان عليه طوال أيام عديده. لقد تكلم طبيب تشن كثيراً عن مخاطر مسحوق قفاز الثعلب، لكن أوجيدي لم يكن يعرف عنه شيئاً إلا أنه يخفف الألم المستمر الذي يشعر به في صدره. وقبل يومين، جعله ألم حاد يجثو على ركبتيه في مقره الخاص. كثر حينئذٍ الثقل الذي شعر به؛ وكأنه عالق في غرفة صغيرة ولا يستطيع تنشق الهواء. جعله مقدار ضئيل من المسحوق الداكن المزوج بشراب أحمر يشعر بالراحة. كان واثقاً أنه يمشي مع الموت، لكنه لا يزال على بعد خطوتين منه.

كان البتاؤون يغادرون المدرج الضخم بالآلاف، لكن أوجيدي لم بمعن النظر إلى نهر الوجوه المرهقة المتدفق أمامه، فهو يعرف أهم عملوا طوال الليل حتى يكون راضياً، وقد تحقق ذلك تماماً. تساءل عن شعورهم حين رأوا إمبراطور تشن يجثو لجنكيز، وانتاب أوجيدي شك في أن يبقى الخان هادئاً وخائفاً جداً لو أرغم على القيام بهذا العمل المسبب للعار. كان جنكيز قد أخبره أن أهالي تشن يفتخرون إلى مفهوم الأمة، وأن نخبتهم الحاكمة تكلمت عن إمبراطوريات وأباطرة، لكن لم يكن بمقدور الفلاحين ارتقاء الصفوف إلى المراتب العالية، فتحول ولاؤهم إلى الرجال المحليين. أوماً أوجيدي، فلم يكن قد مرَّ زمن طويل منذ أن كانت قبائل قومه تفعل الشيء نفسه، وقد نقلهم والده

جميعاً إلى حقبة جديدة، ولا يزال الكثيرون منهم لا يفهمون اتساع نطاق رؤيته.

حدق معظم أفراد الحشد إلى الأرض حين تجاوزوه عتافين من لفت انتباهه، وبدأ قلب أوجيدي يتفق بسرعة أكبر حين رأى رد فعل مختلفاً على وجوه بعض أولئك الذين يقتربون منه، وشعر بالحاجة إلى الخروج من الظل إلى الضوء، لكنه اضطر إلى كبح تلك الرغبة. ألمه صدره، لكنه لم يشعر بأي من الإرهاق المصنعي الذي يلازمه عادة؛ بغض النظر عن الوقت الذي ينأى فيه. بدلاً من ذلك، كانت أحاسيسه مرهفة، واستطاع شم كل ما يوجد حوله، وسمع كل ما يدور حوله؛ من طعام العمال المنكّه بالثوم إلى الكلمات التي تقال همساً.

بدأ أن العالم ينكمش ثم ينفجر، مما جعله يُصاب بالدوار تقريباً. كان أمامه رجال حدقوا إلى شيء ما ثم أشاحوا بأبصارهم بشأنه وكأهم شاهدوا راية مرفوعة. لم يرَ أوجيدي أي إشارة، لكنهم أخرجوا من ثيابهم في الوقت نفسه تقريباً مديبات حادة من النوع الذي يستخدمه النجارون لِحرفة الأعمدة. بدأ الحشد يتحرك مثل دوامة، فيما بدأ المزيد من الناس يدركون ما يحدث، وصرخت أصوات مبسوطة، لكن أوجيدي بقي ساكناً في وسط العاصفة التي تشتد. كان قد تبست عينه على أقرب هؤلاء الرجال حين شق طريقه متجاوزاً الآخرين وشاهراً سكينه عالياً.

راقب أوجيدي الرجل يقترب منه، وببطء فتح ذراعيه أوسع فأوسع حتى ارتطمت ذراعه الممدودتان بالحشد المثار. صرخ المهاجم بعبارة ماء؛ صرخ صرخة مدوية ضاعت في الضجيج. كشف أوجيدي عن أسنانه حين ضرب الرجل من الجانب، وتدحرج جسده بعيداً عن الحارس المدرع الذي أصابه.

عندما أخذ حراسه يدوسون الرجال في النفق المعتم ويذبونهم، أخفض أوجيدي ذراعيه ببطء، وراقب ما يجري ببرودة. ترك الحراس رجلين على قيد الحياة، كما كان قد أمرهم، وضربوهما بمقابض السيوف حتى تورم وجهاهما، في حين ذبح الباقيون مثل الماعز.

بعد لحظات فقط، وقف الضابط الأول أمامه وهو يلهث، فيما وجهه الشاحب ملطخ بالأوساخ.

قال الرجل بارتباك: "مولاي، هل أنت بخير؟".

أشاح أوجيدي بصره بعيداً عن الجنود الذين كانوا لا يزالون يضربون جثث الرجال الذين تجمروا على مهاجمة سيدهم. "لماذا ستفكر في خلاف ذلك يا هوران؟ لم أتعرض للأذى، وقد أنجزت عملي".

أحنى هوران رأسه، وأوشك على الاستدارة ولكنه لم يستطع. "مولاي، لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. لقد تبعنا هؤلاء الرجال على مسدى يومين، وقد فتشت أماكن إقامتهم بنفسى. وهم لم يمضوا لحظة في كاراكوروم من دون أن أضع عيوناً تراقبهم. كان بمقدورنا القضاء عليهم من دون تعريضك للخطر".

بدا واضحاً أنه يكافح للعثور على الكلمات المناسبة، لكن أوجيدي شعر بأنه أكثر ابتهاجاً وقوة مما كان عليه منذ وقت طويل، وبدا مزاجه جيداً حين رد قائلاً: "قل ما تريد أن تقوله يا هوران، فلن بغضبي ذلك". كان قد حسر الرجل من أي حاجة إلى الاحتراس في كلامه، وشاهد التوتر والصرامة يتلاشيان.

قال هوران: "اعيش وأعمل لحمايتك يا مولاي. في اليوم الذي تموت فيه سأموت، وقد أقسمت على ذلك. لكن، لا يمكنني حمايتك إذا كنت... إذا كنت تحب الموت يا مولاي، إذا كنت تريد أن تموت...". وعندما رأى نظرة أوجيدي الباردة، تلثم في كلماته الأخيرة ثم صمت.

"ضع مخاوفك جانبا يا هوران. لقد خدمتني منذ أن كنت صبياً، وأنا خاطرت آنذاك، أليس كذلك؟ مثل أي فتى آخر يظن أنه سيعيش إلى الأبد".

أوما هوران وقال: "لقد فعلت، لكنك آنذاك ما كنت لتقف فاتحاً ذراعيك فيما القاتل يجري نحوك. رأيت ما حدث يا مولاي، لكنني لم أفهمه".

ابتسم أوجيدي وكأنه يوجه طفلاً، وربما كان السبب في ذلك شعوره بالقرب الشديد من الموت في تلك اللحظة بالذات حين شعر بالدوار.

"لا أريد أن أموت، ثق بذلك يا هوران، لكنني لست خائفاً من الموت على الإطلاق. لقد فتحت ذراعي لأنني لم أكن أهتم في تلك اللحظة. هل تفهم ذلك؟".

قال هوران: "لا يا مولاي".

تنهد أوجيدي، وتغضن أنفه من رائحة الدم والبراز التي انتشرت في النفق.

قال: "الهواء خائق هنا. سير معي إلى الخارج".

التفت حول الجثث المكدسة. لقد لقي كثيرون مصرعهم مصادفة في أثناء الصراع. ومن بينهم عمال بسطام كانوا يحاولون الخروج من ظلام النفق. فكسر لحظتها في أنه سيدفع بعض المال لأجرهم.

بقي هوران إلى جانبه حين سطع الضوء، ووقع بصر أوجيدي على الميدان المكتمل، وأصبح مزاجه أفضل بكثير حين رأى أماكن الجلوس في صفوف المدرج؛ هناك الآلاف والآلاف من المقاعد الخشبية التي تمتد إلى مسافة بعيدة. وبعد إراقة الدماء عند المدخل، أخلى المدرج بسرعة مدهشة، واستطاع أوجيدي سماع تغريد عصفور من بعيد، بدأ صوته واضحاً وجميلاً. شعر بإغراء يحته على الصراخ عبر الساحة ليتوثق إن كان لصوته صدى. سيكون بمقدور ثلاثين ألفاً من قومه الجلوس ومشاهدة سباقات ومنافسات مصارعة ورماية، وسيبدو ذلك رائعاً.

شعر بالرغبة في أن يحك بقعة على وجهه ففركها، ورفع إصبعاً مخضباً بالدم الأحمر أمام عينيه؛ إنه دم شخص آخر.

"هنا يا هوران، في هذا المكان، سأكون الخان. وسألتقي القسم من قومي".

أوما هوران بصرامة فابتسم أوجيدي له. لقد كان يعرف أن ولاءه مطلق، وبالرغم من ذلك، لم يذكر أمامه الضعف الذي يشعر به في قلبه والذي يمكن أن يقضي على حياته في أي لحظة. لم يخبر هوران أنه يستيقظ كل صباح مرتاحاً كثيراً؛ لأنه قد عاش تلك الليلة ليرى فحراً آخر، ولا أنه يبقى مستيقظاً حتى وقت متأخر كل مساء تحسباً من أن تكون تلك الليلة آخر ليلة في حياته. كان الشراب الأحمر ومسحوق قفاز الثعلب قد جعلاه يشعر بالراحة، لكنه عرف أن كل يوم،

وكل نفس بمثابة نعمة. كيف يمكن أن يخاف من قاتل في حين أنه موجود دائماً في ظل الموت؟ كان ذلك ممتعاً. وضحك بصوت خافت حتى شعر بالألم في صدره مجدداً، ففكر في وضع بعض المسحوق تحت لسانه؛ فلن يجزو هوران على السؤال عن ذلك.

"لم تبقَ إلا ثلاثة أيام على ولادة القمر الجديد يا هوران. لقد أبقيتني حياً حتى الآن، أليس كذلك؟ كم عدد الهجمات التي أحبطتها؟"

قال هوران بلطف: "سبع محاولات يا مولاي".
نظر أوجيدي إليه بحمّة وقال: "أعرف حمساً فقط، ومن بينها حادثة اليوم. كيف تقول إنها سبع محاولات؟"

"هذا الصباح منع رجلي في المطبخ أحدهم من دس السم في طعامك يا مولاي، ولقي ثلاثة من محاربي شقيقك حتفهم في نزاع".

"لم تكن متأكداً من أنهم هنا لقتلي؟"

أقر هوران: "لا يا مولاي، لم أكن واثقاً". كان قد أبقي على حياة أحدهم، واستجوبه في الصباح لفترة طويلة، ولكنه لم يحصل منه إلا على الصراخ والإهانات.

قال أوجيدي من دون أسف: "كان هذا تموراً منك يا هوران. لقد سبق لنا أن توقعنا مثل تلك الهجمات. طعامي يُفحص، وخدمتي يُنتقون بعناية فائقة. مدينتي محاصرة من قبل عدد كبير من الجواسيس والمخربين الذين يتظاهرون بأنهم دهانون وبخارون بسطاء، وبالرغم من ذلك فتحت كاراكوروم ولا يزال الناس يتدفقون إليها. هناك ثلاثة رجال من ثشن يجلسون في قصري، وراهبان نصرانيان كانا قد كرسا حياتيهما للتقشف يفترشان القش في إسطنبول الملكية. سيكون وقت تلقي العهود... وقتاً مثيراً للاهتمام يا هوران". تنهّد حين لاحظ انسزاع الجندي المنتحهم وقال: "إذا لم يكن كل ما فعلناه كافياً، فربما أننا لا نستحق العيش، فأب السماء يحب اللعبة الجيدة يا هوران. ربما سأنتزع منك، بالرغم من كل جهودك".

"ليس وأنا حي يا مولاي. سأباعدك خاناً".

تكلم الرجل بثقة جعلت أوجيدي يتسم ويربّت على كتفه.

" إذا، رافقني إلى القصر يا هوران. يجب أن أستأنف واجباتي بعد هذه التسلية الصغيرة. لقد أقيمت أورلوك تسوبودي منتظراً وقتاً طويلاً، كما أظن".

كان تسوبودي قد ترك درعه في الغرفة التي يقيم فيها في القصر. فكل محارب في القبائل يعرف أن جنكيز اقترب مرة من عدو له من دون سلاح، ثم استخدم قطعة من درعه لقطع حجرة الرجل. وبدلاً من ذلك، ارتدى تسوبودي ثوباً خفيفاً فوق حلماقين^(*)، وانتعل حقيقتين، كانت ثيابه وحفاؤه قد قَدِّمَتْ له نظيفة. وكانت مصنوعة من أفضل المواد. هناك رفاهة كبيرة في تلك الغرف! كان أوجيدي قد أخذ شيئاً من كل حضارة قابلوها في غزواتهم، لكن رؤية ذلك جعلت تسوبودي يشعر بعدم الارتياح، بالرغم من أنه لم يستطع العثور على كلمات مناسبة ليصف انزعاجه. كان الأسود من ذلك هو الحركة النشيطة والسريعة في أروقة القصر المملوءة أشخاصاً، وكلهم متكئون على تنفيذ مهمات وأعمال لم يفهمها. لم يكن تسوبودي قد أدرك أن عدد العاملين من أجل الإعداد لمراسم أداء القسم كبير جداً. كان هناك حراس عند كل زاوية ومختلى، لكن بوجود عدد كبير من الوجوه الغريبة، شعر تسوبودي بقلق مستمر، وفضل الأماكن المكشوفة.

كان النهار قد انتصف حين أمسك خادماً يجري بجواره، مما جعل الرجل يصرخ من هول المفاجأة. كان يعرف أن أوجيدي مشغول بمهمة ما في المدينة، لكنه يعرف أنه بانتظاره.

لم يكن بمقدور تسوبودي أن يغادر من دون أن تُعتبر تلك إهانة، ولهذا وقف في قاعة استقبال يطبق عليها الصمت، وأصبح إخفاء نقاد صيره المتزايد أصعب بالتقضاء الساعات.

كانت القاعة فارغة. لكن، بالرغم من ذلك، شعر تسوبودي أن هناك عيوناً خفية تراقبه حين مشى مهدوء إلى النافذة ونظر إلى المدينة الجديدة وإلى ما خلف الفرق في السهول. كانت الشمس تحبو نحو المغرب، وتلقي بخطوط طويلة

(*) الطماق: كساء جلدي أو قماش للثياب.

من اللون الأصفر والظل على الأرض والشوارع في الأسفل. كان أوجيدي قد اختار الموقع بعناية، فهناك جبال إلى الجنوب وبالقرب منها نهر عريض وغزير المياه، وقد جال تسوبودي على طول حزم من القناة التي بناها أوجيدي لنقل الماء إلى المدينة ممتطياً حصانه، ووجدها مدهشة، حتى إنه بإمكان المرء أن يظن أن مليون شخص قد عملوا على تشييدها طوال سنتين. وبوجود ذهب وفضة كافيين، بدا كل شيء ممكناً، ونساء تسوبودي إن كان أوجيدي سيعيش طويلاً ليستمتع بها.

كان قد فقد الإحساس بالزمن حين سمع أصواتاً تقترب، وراقب تسوبودي عن كثب حراس أوجيدي يدخلون ويتخذون مواقعهم، وشعر بنظرهم ترمقه ثم تهدأ؛ وكأنه التهديد الوحيد المحتمل في الغرفة. وأخيراً، وصل أوجيدي، ووجهه أكثر انتفاخاً وشحوباً مما يتذكر تسوبودي. صعب على تسوبودي ألا يتذكر جنكيز حين نظر إلى تينك العينين الصفراوين. وانجني تسوبودي تحية له.

رد أوجيدي التحية بإمالة منه قبل أن يجلس على مقعد خشبي تحت النافذة. كان الخشب مصقولاً ومطلياً باللون الذهبي. وترك أوجيدي يديه تستمتعان بتحسسه في حين كان ينظر إلى الخارج نحو كاراكوروم. أغمض عينيه لحظة حين ألقت الشمس الغاربة آخر شعاع ضوء في الغرفة العالية.

لم يكن يحب تسوبودي، بالرغم من أنه بحاجة ماسة إليه. ولو أن القائد رفض أمر جنكيز الأكثر قسوة، لكان جوشي الشقيق الأكبر لأوجيدي قد أصبح حانئاً منذ وقت طويل؛ ولو أن تسوبودي امتنع عن فعل ذلك، أو لم يقطع الأوامر مرة واحدة، لما واجهوا أزمة قيادة تهدد بتدميرهم جميعاً.

قال أخيراً: "شكراً لانتظارك. أمل أن يكون خدمي قد عملوا على إراحتك؟".

استغرب تسوبودي كلام أوجيدي. إذ كان قد توقع طقوس مجاملة، لكن وجه أوجيدي بدا صريحاً وقلقاً على نحو ظاهر للعيان. "طبعاً يا مولاي، فأنا لا أحتاج إلى الكثير".

توقف عن الكلام حين سمع وقع خطوات خارج الأبواب. ولخص أوجيدي حين دخل حراس جدد، يتبعهم تولي وزوجته سورهناتي.

قال أوجيدي: "أهلاً بك يا شقيقي، لكنني لم أتوقع بحبيء زوجتك الجميلة".
استدار إلى سورهتاني بمدوء وسألها: "هل أولادك بخير؟".
"إنهم بخير يا مولاي. لم أحضر إلا مونغكي وكوبلاي، ولا أشك في أهما
بسيان المتاعب لرجالك في هذه اللحظة".

عيس أوجيدي قليلاً، فقد طلب من تولي أن يأتي إلى القصر من أجل سلامته؛
لأنه عرف بمكيدتين على الأقل استهدفتا الشقيق الأصغر، لكنه توقع مناقشة ذلك
معه على انفراد. حدّق إلى تولي ورأى نظرة شقيقه ترتفع وتنخفض للحظة، وأدرك
أنه من الصعب أن يرفض طلباً لسورهتاني.
قال أوجيدي لشقيقه: "وابنك الآخران، أليسا معك؟".

"لقد أرسلتهما مع قريب سيقيم برحلة إلى الغرب لبضعة شهور لصيد
الأسماك. سيفولهما أداء القسم، لكنني سأجعلهما يودبانه كما ينبغي حين يعودان".
قال أوجيدي متفهماً: "نعم". سينجو ابناؤنا؟ بعض النظر عمّا سيحدث.
تساءل إن كانت سورهتاني هي التي خالفت أمره بحضور الأسرة كلها إلى القصر،
وفكر في أنها ربما كانت محقة في أن تكون أقل ثقة في مثل هذه الأوقات العصيبة.
قال أوجيدي: "ليس لدي شك في أن القائد تسوبودي يعمل أبناءاً وتحذيرات
رهية يا شقيقي. يمكنك العودة إلى غرفتك يا سورهتاني، وأشكرك لتحمّك عناء
زيارتي".

لم يكن من الممكن رفض الأمر بالانصراف. لذا، انحنى سورهتاني بصلاة،
ولاحظ أوجيدي النظرة الغاضبة التي رمقت بها تولي حين استدارت. فتحت البوابة
على مصراعها مجدداً، وبقي الرجال الثلاثة وحدهم مع ثمانية حراس.
أشار أوجيدي إلى طاولة، فجلسوا إليها، وجميعهم متوترون أكثر مما كان
يتوقع. نفذ صبر أوجيدي من كل ذلك، ففرغ أكواباً ببعضها وملاً كل واحد
منها، ثم دفع بائتين نحو ضيقه. مدّا يديهما نحوها في الوقت نفسه، إذ كانا يعرفان
أن التردد سيعني أهما يخافان من وجود سمّ. لم يجعلهما أوجيدي ينتظران وقتاً
طويلاً، وأفرغ ما في كوبه في ثلاث جرعات كبيرة.

قال بنظافة وهو يلعق شفثته: "أنتي بكما. تولي، لقد منعت محاولة لاغتيالك،
أو لاغتيال أبناؤك". ضاقت عينا تولي قليلاً، وازداد توتره. "لقد سمع جواسيسي

بمحاولة أخرى، لكنني لا أعرف من يقف خلفها، ولم يعد أمامي وقت للاهتمام بذلك. يمكنني التعامل مع أولئك الذين يسعون إلى قتلي، لكن يجب أن أطلب منك البقاء في القصر؛ لأنني لا أستطيع حمايتك بخلاف ذلك، حتى أصبح حاناً".

سأل تولي مذهولاً: "هل الوضع سيئ إلى هذا الحد؟". كان يعرف أن هناك اضطراباً في المخيم، لكنه ارتعش حين سمع عن هجمات علنية، وتمتى لسو كانت سورھتاني موجودة معهم لتسمع ذلك. إذ سيضطر في ما بعد إلى تكرار ما سمعه.

استدار أوجيدي إلى تسوبودي الذي كان يجلس مرتدباً ثياباً بسيطة، ولكن، بالرغم من ذلك كان يشع سلطنة؛ تساءل أوجيدي للحظة إن كان الأمر يتعلق بالسمعة بكل بساطة، فقد بدا أمراً صعباً ألا ينظر المرء إلى تسوبودي برهبة إن كان يعرف ما قد أنجزه في حياته، فالخيش يدين له بنجاحه؛ مثل جنكيز تماماً. وبالرغم من ذلك، كان من الصعب على أوجيدي أن ينظر إليه من دون ضغينة، لكنه أبقاها مخفية داخله كما فعل طوال أكثر من سنتين، فقد كان لا يزال بحاجة إلى هذا الرجل.

قال بلطف: "أنت وفي يا تسوبودي لرغبة والدي على الأقل. من جانبك، أحصل على وعد بجلب الرمح المكسور كل يوم". تردد مكافحاً للبقاء هادئاً. كان جزء منه يرغب في ترك تسوبودي خارج كساراكوروم في السهول، وتجاهل الاستراتيجية الذي قدره والده أكثر من الآخرين جميعاً. ولكن، لم يكن أي أحسق ليقرط بمثل تلك الموهبة. حتى آنذاك، حين تحداه علانية، لم يؤكد تسوبودي أنه مُرسِل السعاة الذين ظهرُوا عند القصر، بالرغم من أن أوجيدي كان شبه متأكد من ذلك.

قال تسوبودي: "أنا أحمد يا مولاي. لقد أقسمت بيمين الولاء لك كوربث، ولم أتردد في ذلك".

ازداد غضب أوجيدي، وارتفع مثل مسمار أبيض ضخم في رأسه. كان هذا هو الرجل الذي قطع عنق جوشي فوق الثلج. وها هو يجلس أمامه ويستكلم عن ولاته. سحب أوجيدي نفساً عميقاً. كان تسوبودي مهماً جداً ولا يمكن التخلي عنه. ولهذا، يجب أن يتعامل معه بحرص ويجعله يفقد توازنه.

قال بلطف: "سمع شقيقي جوشي وعودك، أليس كذلك". ولسعادته، احتفى اللون من وجه القائد.

تذكر تسوبودي كل تفصيل من اللقاء الذي تم بينه وبين جوشي في الثلوج الشمالية. وكان ابن جنكيز قد ضحى بحياته فداءً لرجاله وأسرههم. وبالرغم من أن جوشي عرف أنه سيموت، إلا أنه توقع أن يحظى بفرصة ليتحدث إلى والده مجدداً. كان تسوبودي رجلاً شديداً البأس، ولا يحب الحديث عن الصواب والخطأ في ذلك. وقد بدأ الأمر خيانة بالنسبة إليه آنذاك، ولا يزال كذلك حتى الساعة، ولهذا أوماً بتشجيع.

"لقد قتله يا مولاي، كان ذلك خطأ، لكنني أتعاش معه".
شدّد أوجيدي على كلامه وهو يتجني فوق الطاولة: "لقد نكثت بوعدك يا تسوبودي".

سقط كوبه محدثاً رنيناً معدنياً، فمدّ تسوبودي يده ووضعها كما ينبغي، وأحباب وعيناه تتألقان غضباً أو حجاباً: "فعلت ذلك".

صرخ أوجيدي وهو يضرب بقبضتيه على الطاولة: "إذا، استعبد شرفك!".
انقلبت الأكواب الثلاثة على الطاولة، وانسكب منها الشراب الأحمر. استلّ الخنكس سيوفهم، ووقف تسوبودي على قدميه بسرعة متوقفاً أن يتعرض لهجوم، لكنه وجد نفسه يحدّق إلى أوجيدي الذي بقي جالساً. جثا القائد بالسرعة التي كان قد وقف بها.

لم يكن أوجيدي يعرف كم أزعج موت شقيقه تسوبودي، فقد أبقى القائد ووالده ذلك الأمر سراً. وكان التعبير عن ذلك إفساءً للسرّ. ولهذا، بدأ أنه بحاجة إلى وقت للتفكير في ما يعنيه الأمر. تكلم بتلقائية، مستفيداً من سلاسله الذاتية تضيقه.

"حدّد وعذك أيها القائد بإبقاء ابن آخر لجنكيز حياً لوقت كافٍ حتى يصبح حياً. لو كان شقيقي حياً، لما رغبت في رؤية أسرته تتمزق وتتلأشى، وكذلك والدي. افعل ذلك يا تسوبودي، وحقق السكينة التي تنشدها. وبعد ذلك، لن أهتم بما يحدث، لكنك ستكون من بين الأشخاص الأوائل الذين سيقسمون بالولاء لي. سيكون ذلك مناسباً".

شعر أوجيدي بألم شديد في صدره، وتصبَّب عرقاً تحت إبطيه وعلى جبينه، وشعر
بتقل كبير يستقر على كتفيه فيما بدأ قلبه يخفق ببطء، ما جعله يحس بالإرهاق والدوار.
لم يكن قد نام جيداً طوال أسابيع، والخوف المستمر من الموت يحوِّله إلى خيال، حتى لم
يتبقَ منه شيء إلا إرادته. كان قد صدم أولئك الموجودين حوله بنوبات غضبه المفاجئة،
لكنه استطاع بصعوبة التحكم بمزاجه أحياناً. لقد عاش رازحاً تحت عبء ثقيل وقتاً
طويلاً. وأحياناً، لم يكن بمقدوره الحفاظ على هدوئه ببساطة. سيصبح خائناً، ولو ليوم
واحد فقط. تكلم، وراقبه كل من تسوودي وتولي والقلق بإذ على وجهيهما.

قال أوجيدي: "ابقيا هنا الليلة، كلاكما. لا يوجد مكان أكثر أمناً في
السهول، أو في المدينة".

أوماً تولي على الفور، إذ كان قد استقر في جناحه مسيقاً. لكن تسوودي
تردد، وفشل في فهم ابن جنكيز أو ما يرمي إليه، لكنه شعر بحزن غامض يمكن
أوجيدي؛ عُزلة، بالرغم من أنه كان محاطاً بحاشية كبيرة. كان تسوودي يعرف أن
بمقدوره المساعدة على نحو أفضل في السهول، وأن أي تهديد حقيقي سيأتي من
هناك؛ من فرقة تشاغاتي. لكنه بالرغم من ذلك أحنى رأسه للرجل الذي سيصبح
خائناً عند مغيب شمس اليوم التالي.

فرك أوجيدي عينيه، وشعر بالدوار يتلاشى. لم يخبرها أنه يتوقع أن يصبح
تشاغاتي خائناً بعده، ولا أحد يعرف الوقت المتبقي لديه، لكنه كان قد بين مدينته،
وترك أثراً في السهول وسيصبح خائناً.

* * *

استيقظ أوجيدي في الليل الدافئ متعرقاً، تقلَّب في سريره، وشعر بزوجته
تتحرك بجانبه. كاد أن يستسلم للنوم مجدداً، ولكنه حين سمع وقع خطوات بحري
من بعيد تنبَّه فحأة، ورفع رأسه وأرشف السمع حتى ألمه عنقه. من الذي يجري في
مثل هذه الساعة؟ أهو خادم ما؟ أغمض عينيه مجدداً ثم سمع قرعاً خافتاً على الباب
الخارجي لغرفة، فأطلق لعنة مهدوء، وهزَّ زوجته من كتفها.

"ارتدي ثيابك يا توروجين، قثمة شيء ما يحدث". في الأيام الأخيرة، كان
هوران قد اعتاد النوم خارج الغرف، وظهره إلى الباب الخارجي؛ والضابط يعرف
أن عليه ألا يزعم سيده من دون سبب وجيه.

تردد القرع مجدداً فيما كان أوجيدي يلف الحزام حول ثوبه، فأغلق الباب ذا المصراعين على زوجته واجتاز الغرفة الخارجية وهو يمشي حافياً بجانب طساوالات وأرائك تشن. لم يكن هناك قمر فوق المدينة، وكانت الغرف مظلمة، وبدا سهلاً أن يتخيل وجود قتلة في كل مكان مما جعله يرفع سيفه من حيث كان معلقاً على الجدار. أخرجته من الغمد، وأرهدف السمع عند الباب.

سمع في مكان ما بعيداً صرخة خافتة فتراجع إلى الخلف مرتعشاً. قال: "هوران؟". من وراء خشب الستديان الثقيل، تاهى إلى سمعه صوت الرجل الذي بدا مرعوباً.

قال هوران: "مولاي، يمكنك فتح الباب بأمان". سحب أوجيدي مزلاجاً ثقيلًا، ورفع قضيباً حديدياً يثبت الباب إلى الجدار الحجري. وبسبب توتره لم يلاحظ أنه ليست هناك أي خيوط ضوء تتسلل من الرواق عبر الشقوق. وقد بدا الظلام هناك أشد حلكة من غرفه، حيث يسومض ضوء نجوم باهت عبر النوافذ.

دخل هوران مسرعاً، وتجاوز أوجيدي ليتحقق من غرفه، وخلفه دفع تسولي سورهناتي وولديه إلى الداخل وهم يرتدون ثياباً خفيفة فوق ملابس نومهم. همس أوجيدي مستفيداً من الغضب لإخفاء فزعه الواضح: "ماذا يحدث هنا؟".

قال تسولي بتهمهم: "ترك الحراس الذين كانوا يقفون قرب بابنا مواقعهم. ولو أنني لم أسمعهم وهم يغادرون، لما عرفت ما قد حدث". شد أوجيدي قبضته على السيف مستمداً الراحة من وزنه. واستدار حين ظهر ضوء يشع من الغرفة الداخلية، ورأى ظل زوجته يتشكل أمام نور الصباح.

قال: "ابقي مكانك يا توروجين، سأتكفل بالموضوع". لكن، لسخطه، خرجت زوجته وثوب نومها يلتصق بجسدها.

تابع تسولي: "ذهبت إلى أقرب غرفة للحراس". نظرت إلى ولديه اللذين وقفا وهما يتابعان ما يجري وقد فغرا فميهما، ثم تابع: "لقوا حتفهم جميعاً يا شقيقي".

كشّر هوران حين حدّق إلى الأروقة المظلمة وقال: "أكسره أن نحبس في الداخل يا مولاي. لكن، هذا أمين باب في القصر. ستكون بأمان هنا الليلة".

كان أوجيدي حائراً بين الشعور بالغضب أو الخذر. فهو يعرف كل حجر في البناء الضخم حوله، فقد شاهد كلاً منها يُقطع ويُشكّل ويوضع في مكانه. وبالرغم من ذلك، كل قاعاته، وكل سلطنه ونفوذه سُخّتصر إلى عدّة غرف فقط حين يُغلق الباب.

قال: "ابقِ مفتوحاً لأطول مدة ممكنة". بالتأكيد هناك المزيد من حراسه في طريقهم إليه. كيف نجحت مثل تلك المحاولة في التسلسل؟ في مكان ما قريب، سمعوا المزيد من وقع الخطوات السريعة، وصداها يتسردد من كل الاتجاهات. وضع هوران كتفه على الباب. ومن وسط الظلام، أطلّ شخص فحأة فضربه هوران بنصل سيفه الذي صرّ حين انزلق على السدرع المعدنية.

سمعوا صوتاً يتسلل إلى الغرفة: "أبعد ذلك يا هوران". في الضوء الخافت، تنفس أوجيدي الصعداء وقال: "تسبودي! ماذا يحدث في الخارج؟".

لم يقل القائد شيئاً، بل ألقى سيفه على الأرض الحجرية، وساعد هوران على إغلاق الباب قبل أن يمسك السيف مرة أخرى.

قال: "الأروقة ملأى بالرجال، وهم يقتشون كل الغرف. ولولا حقيقة أنهم لم يدخلوا قصرك من قبل قط، لكانوا قد وصلوا إلى هنا الآن".

سأل هوران: "كيف تجاوزهم؟". تقطّب جبين تسبودي عبوساً حين تذكر شيئاً أغضبه، وقال: "عرفني بعضهم. لكن، لم يطلب أحد من المحاربين العاديين أن يمزقوني إرباً. ووفقاً لما يعرفونه، أنا جزء من المكيدة".

وهنت عزيمة أوجيدي حين حدّق إلى المجموعة الصغيرة التي كان أفرادها قد ركضوا إلى غرفه.

قال: "أين ابني غويوك؟ أين بناتي؟".

هزُّ تسوبودي رأسه وقال: "لم أرهم يا مولاي، لكن الفرصة كبيرة في أن يكونوا بأمان. أنت المهدف الليلة، ولا أحد آخر".

فزع ثولي حين فهم ما يحدث، واستدار إلى زوجته قائلاً: "إذاً، لقد أحضرتك وولديَّ إلى أخطر مكان".

مدَّت سورهناني يدها لتمس وجنته، وقالت بلطف: "لا مكان آمن الليلة".
استطاعوا جميعاً سماع أصوات وقع خطوات سريعة تقترب منهم. خارج المدينة، كانت فرق الأمة تنام ملء الجفون، غافلة عن التهديد.

Salmanlina
www.mlazna.com

الفصل الرابع



قاد كشيون حصانه بنوق أعشاب المخيم الكثيفة، وهو يهدف السمع إلى أصوات الأمة في كل مكان حولها. وبالرغم من سكون الليل، لم يكن وحده، وإنما يرافقه ثلاثون تابعاً من الرجال الأكثر إخلاصاً، وهم على أهبة الاستعداد لأي هجوم. لم يعد أحد يتحرك وحيداً في المخيمات آنذاك، ليس والقمر الجديد يكاد يطلع فوقهم. توهجت مصابيح ومشاغل دهن الضأن واهتز ضوءها عند كل تقاطع على الدروب، مما كشف عن مجموعات داكنة من المحاربين الذين كانوا يراقبونه في أثناء تحركه.

لم يكن سهلاً عليه تصديق المستوى الحالي للشك والتوتر في المخيمات. وعند ثلاثة مواقع، اعترضه عدد من الحراس كلما ازداد اقتراباً من خيمة خاسار. وفي نسيم الليل، ألقى مصباحان ظلالاً صفراء متلوية عند قدميه. عندما خرج خاسار من خيمته متثائباً، استطاع كشيون رؤية أقواس مشدودة وموجهة إليه.

قال: "يجب أن نتكلم بما شقيقي".

مطى خاسار متأوهاً ثم قال: "الليلة؟".

قال كشيون بحدة: "نعم، الليلة".

لم يرغب في قول المزيد مع وجود كل هؤلاء الأشخاص بالقرب منهما، والذين ينصتون إليهما. وسرعان ما أدرك خاسار سوء مزاج شقيقه، وأوماً من دون المزيد من النقاش. راقب كشيون ما يجري حين صفر شقيقه بصوت خافت، فتقدم رجال يرتدون دروعاً كاملة من وسط الظلام، وأيديهم قرب سيوفهم، متجاهلين كشيون ومتجهين إلى قائدهم. جلسوا مترابطين بجانب قدميه، ونظروا إليه منتظرين أوامره، فحتم خاسار وتمتم لهم.

سيطر كشيون على نفاذ صيره إلى أن أحنى الرجال رؤوسهم وتحركوا بعيداً. أحضر أحد هولاء مطية خاسار؛ وهي حصان أسود اللون، سهل ورفس حين ثبتوا السرج على ظهره.

قال له كشيون: "أحضر أتباعك يا شقيقي".

نظر خاسار إليه في الضوء الخافت، ورأى الإجهاد بادياً على وجهه، فهزّ كتفيه وأشار إلى الضباط القريبين منه. قاد أربعون محارباً إضافيون جيادهم للهرولة بحاجته، وكانوا قد استيقظوا من النوم منذ وقت طويل نتيجة وجود رجال مسلحين قرب سيدهم. يبدو أن خاسار أيضاً لم يغامر في تلك الليالي التي تسبق ولادة القمر الجديد.

كان بزوغ الفجر لا يزال بعيداً عمدة ساعات. لكن، في مثل حال المخيم تلك، أيقظت حركة ذلك العدد الكبير من الرجال كل من مرّوا بجانبه. تعالت أصوات حوهم، وبدأ طفل يتحبّب في مكان ما. قاد كشيون حصانه متجهماً للسير حياً بجانب شقيقه، وظلّ صامتاً في أثناء توجّههما نحو كاراكوروم.

أضاءت المشاعل البوابات بلونٍ ذهبي باهت في تلك الليلة، وبدت الأسوار ظللاً رمادية شاحبة في الظلام، لكن البوابة الغربية المصنوعة من خشب السنديان والحديد كانت تلمع، وكانت محكمة الإغلاق تماماً. عبس خاسار، وانحنى إلى الأمام فوق سرجه ليُعيّن النظر.

قال من فوق كتفه: "لم أرها مغلقة من قبل". ومن دون تفكير، ضغط بعقبه قدميه على ردي حصانه حتى جعله يضاعف سرعته، وجاراه المحاربون حوله برشاقة بدت معها حركتهم مناورة في ساحة معركة. اختفت ضوءاء المخيم وأصوات النداء كلها، وحلّ محلّها صوت وقع الخوافر، وتنفس الأحصنة، وصليل العادن، وأظم الجياد. كثرت بوابة كاراكوروم الغربية أمامهم، واستطاع خاسار آنذاك رؤية صفوف من الرجال الذين كانوا ينظرون إلى الخارج وكأنهم يتحدثونه. رد كشيون: "لهذا السبب أيقظتك".

كان كلا الرجلين شقيقين للخان العظيم الراحل، وعمّين للخان المستقبل، وقائدين يتمتعان بسلطة لا شك فيها. وكان اسمهما معروفين لكل محارب يقاتل من أجل الأمة. عندما وصلا إلى البوابة، سرت حركة ظاهرة للعيان في صفوف الرجال

هناك، لكنها تلاشت في الظلام. تجتمع الأتباع حول سيديهما، وأيديهم على مقابض سيوفهم. وعلى كلا الجانبين، كان الرجال متوترين جداً مثل أقواسهم. نظر كشيون وحاسار إلى بعضهما، ثم ترجلا عن صهوي حصانتهما.

وقفا على أرض يغطيها الغبار وأعشاشها ممهدة نتيجة الحركة المستمرة قرب البوابة. وشعر كلا الرجلين بالنظرات الغاضبة لأولئك الذين يواجهونهما. لم يكن الرجال عند البوابات يحملون شارات تدل على رتبهم، أو رايات أو يبارق لتحديد هوياتهم. وبالنسبة إلى كشيون وحاسار، بدا الأمر وكأنهما ينظران إلى غزاة لا يتمتعون بأي ولاء للأمة.

جأر حاسار فجأة قوي رؤوسهم: "أنتم تعرفونني. من ذا الذي يجرؤ على الوقوف في طريقي؟".

ارتفع أقرب الرجال إليه من صوته الذي يمكن أن ينتقل في ساحات المعارك، لكنهم لم يستجيبوا أو يتحركوا.

"لا أرى علامات تشير إلى فرق أو وحدات في صفوفكم، ولا أرى رايات، وإنما مجرد مستكئين لا سيد لهم". توقف عن الكلام وحذق إليهم، ثم أضاف: "أنا القائد حاسار بورجيجن، من الذئاب، من الأمة بقيادة الخان العظيم. ستخضعون لأوامري الليلة".

تحرك بعض الرجال بعصبية في الضوء الخافت، لكنهم لم يفرعوا من نظرتهم. وحين حاسار أن أفضل ثلاثئة رجل قد أرسلوا لإغلاق البوابة، وأن الأمر نفسه من دون شك قد حصل بالنسبة إلى البوابات الأربع الأخرى لكاراكوروم. كان الأتباع الذين يجأرون خلفه أقل عدداً، لكنهم كانوا أفضل المحاربين الذين يحملون سيوفاً، وأفضل رماة السهام الذين يمكن أن يحشدهم مع كشيون في الميدان. وكانوا سمسين لتهموم سد - ماح كلمة واحدة من أي منهما.

نظر حاسار إلى كشيون مرة أخرى مغضباً غضبه من الغطرسة الصامتة التي يواجهها المحاربون بها. نزلت يده إلى مقبض سيفه في إشارة واضحة. نظر كشيون إليه للحظة، وتوتر المحاربون على كلا الجانبين تحسباً لإراقة الدماء. وعلى نحو فطري تقريباً، حرك كشيون رأسه بمقدار إصبع يمينا ويساراً، فيما عبس حاسار، وأظهر أسنانه، ثم مال إلى أقرب أولئك الواقفين أمام البوابة، وتنفس قرب وجهه.

قال خاسار: "أقول إنكم منشردون لا تنتمون إلى أي قبيلة، ومن دون إشارات رتبة أو أصل شريف. لا تغادروا مواقعكم حين أتحرك؛ لأنني سأفقد حصاني إلى المدينة فوق أحسادكم".

كان الرجل الذي يقف قبالة يتعرق، وطرفت عيناه لدى سماعه الصوت القوي والقريب منه جداً.

امتطى خاسار حصانه مجدداً، وابتعد مع كشيون عن بقعة الضوء والوعد بالموت. وعندما أصبحا بعيدين، شدَّ كشيون لجام حصانه، وربت يده على كنف شقيقه.

"لا بدّ من أنه الربيع الكسور، أوجيدي في المدينة، وأحدهم لا يريد أن ندخلها لنقدّم له يد المساعدة هذه الليلة".

أوماً خاسار، وقلبه لا يزال يخفق بقوة. كانت قد انقضت سنوات منذ أن رأى مثل هذا التمرد من محاربي قومه. كان يستشيط غضباً، ووجهه متورداً.

قال بحمّة: "سيرد عشرة الآلاف الذين يخضعون لإمرتي على هذه الإهانة. أين تسوبودي؟"

رد كشيون: "لم أره منذ أن ذهب للقاء أوجيدي اليوم".

"أنت قائد. أرسل سعاة إلى فرقته وإلى جيبي. ومعهم أو من دولهم سادخل المدينة يا كشيون".

انفصل الشقيقان وأتباعهما، وانطلقوا على صهوات جيادهم في طريقتين مختلفتين ليعودوا لاحقاً إلى بوابات كاراكوروم برفقة أربعين ألف رجل.

انقضى بعض الوقت حتى تلاشت الأصوات عند الطرف الآخر من الباب تماماً. وبإشارات صامتة، رفع تسوبودي وتولي أريكة ثقيلة وهما يتأفان من الجهد، إذ تطلب منهما الأمر أن يدفعاهما عبر الباب.

تمتم تسوبودي: "هل هناك أي سبيل آخر للدخول؟"

هزّ أوجيدي رأسه، ثم تردّد قائلاً: "هناك نوافذ في حجرة نومي، ولكنها تطل على جدار ضخّم".

أطلق تسوبودي لعنة بصوت خافت. كانت أولى قواعد المعركة أن تختار ساحتها، والثانية أن تعرف تلك الساحة، وقد خسرت الاثنتين. نظر حوله إلى أفسراد

المجموعة الواقفين في العتمة مقدراً مزاجهم، ورأى مونغي وكوبلاي مدهوشين ويرتعشان؛ لأنهما جزء من مغامرة لا يدركان الخطر الذي يتعرضان له فيها. حدثت سورهناني إليه بثبات، وبعد رؤيته تلك النظرة الصامتة، أخرج سكيناً طويلة من حذائه ووضعها بين يديها.

قال لأوجيدي وهو يضع أذنه على الباب: "إنه جدارٌ لن يوقفهم الليلة".
أطبق الصمت عليهم فيما حاول جاهداً أن يسمع ما يجري في الخارج. ثم قفزوا لدى سماعهم صوتاً حاداً جعل تسوبودي يثب إلى الخلف. تساقط بعض الحصص من السقف، مما جعل أوجيدي يفرع.
تمتم أوجيدي وكأنه يتحدث إلى نفسه: "الرواق ضيق في الخارج، وليست هناك مساحة كافية ليستفيدوا منها".

قال تسوبودي: "هذا جيد. هل توجد أسلحة هنا؟".
أوماً أوجيدي إيجاباً؛ فهو ابن والده. وقال وهو يشير: "سأريك".
استدار تسوبودي إلى هوران، ووجد الرجل يقف مستعداً عند الباب. سمعوا جلبة أخرى حادة، ثم ارتفعت أصوات غاضبية في الخارج.
أمر تسوبودي قائلاً: "أشعلوا مصباحاً. يجب ألا نبقى في الظلام".
انطلقت سورهناني لتنفيذ المهمة، ومشى تسوبودي بخطوات واسعة عبر الغرف الداخلية. اتحن على نحو رسمي لزوجة أوجيدي، توروچين، التي كانت قد استفاقت تماماً، وسرحت شعرها، وغسلت وجهها بماء من وعاء ضحل موجود هناك لاستعماله صباحاً. شعر تسوبودي بالسعادة لأنهما وسورهناني لم تبدوا خائفين.

قال أوجيدي متقدماً إياه: "من هنا".
دخل تسوبودي حجرة النوم وأوماً تقديراً. كان مصباح صغير لا يزال يضيء المكان هناك، ورأى السيف ذا مقبض الذئب الخاص بجنكيز معلقاً على الجدار فوق السرير، وومضت قوس على الطرف المقابل، وبدت كل طبقة من العظم والبسولا والوتر لامعة بلونٍ زاوٍ.

سأل تسوبودي، وهو يثني الخطافات بإيماميه ويرفع السلاح: "هل لديك سهام له؟". ابتسم أوجيدي لدى رؤيته سعادة القائد الواضحة، وأجاب: "هذا ليس

للزينة أيها القائد. بالطبع لدي سهام". وأخرج من صندوق كنانة فيها ثلاثون سهماً، كل منها نتاج صانع ماهر، ولا تزال تلمع بالزيت، ورماها إلى تسوبودي. في الخارج، استمرت محاولة التحطيم. وأباً كان الشخص المسؤول عن ذلك، فقد أحضر مطارق لتنفيذ المهمة، واهتزت الأرضية من وقع الضربات. مشى تسوبودي إلى حيث النواقد العالية في الجدار الخارجي، واكتشف أنها مثل تلك الموجودة في الغرفة الخارجية وأنها مثبتة في الحديد. لم يسع تسوبودي إلا أن يفكر في طريقة للدخول عبرها، إن كان هو من يهاجم الغرف. وبالرغم من أنها بدت مثينة بشكل كافٍ، إلا أنها لم تُجهز لمقاومة عدو مصمم على الدخول، ولم يكن يُفترض قط أن يقترب الأعداء إلى هذا الحد، أو أن يكون لديهم الوقت لضرب القضبان الحديدية بالمطارق قبل أن يمزقهم حراس أوجيدي إلى أشلاء.

قال تسوبودي: "غطوا المصباح للحظة. لا أريد أن أكون مرتباً لرامي سهام في الخارج". سحب صندوقاً خشبياً ووضعه قرب النافذة، ثم صعد عليه، وقفز فجأة إلى الكوة المغطاة بقضبان حديدية، ونزل إلى الأسفل بالسرعة نفسها. "ليس هناك أحد في مرمى البصر يا مولاي. لكن الجدار المؤدي إلى الساحة في الأسفل بارتفاع رجلين على الأكثر. سيأتون إلى هنا، إذا عثروا عليه".

قال أوجيدي بتعجبهم: "لكنهم سيحاولون تحطيم الباب أولاً".
أوما تسوبودي إيجاباً ثم قال: "اجعل زوجتك تنتظر هنا لتنادينا إذا سمعت شيئاً". كان تسوبودي يحاول مراعاة سلطة أوجيدي، لكن نفاذ صبره بدا واضحاً مع وقع كل ضربة من الرواق في الخارج.
"حسناً أيها القائد".

تردد أوجيدي، وامتزج خوفه وغضبه معاً، وتضخم ذلك الشعور داخله. لم يكن قد بنى مدينته ليفقد حياته وهو يصرخ. فقد عاش مع الموت وقتاً طويلاً حتى أصبح شعوره يمثل تلك الرغبة القوية في العيش، والنار صدمة له. لم يحسرو على سؤال تسوبودي إن كان بمقدورهم الدفاع عن الغرف، فقد استطاع رؤية الجواب في عيني الرجل.

قال: "غريب أن تكون هنا لتشهد موت ابن آخر لجنكيز، ألا تظن ذلك؟".

انتصبت قامة تسوبودي، ثم استدار إلى الخلف، ولم يرَ أوجيدي ضعفاً في نظرتة السوداء.

قال تسوبودي: "أحمل أوزاراً عديدة يا مولاي، لكن هذا ليس الوقت المناسب للحديث عن تلك الأوزار القديمة. إذا نجونا، فيمكنك أن تسألني عن كل ما ترغب في معرفته."

أوشك أوجيدي على الرد، والمرارة تعتمل في نفسه، لكن صوتاً جديداً جعل كليهما يستديران ويجريان. كانت مفصلة حديدية قد طقطقت، وتشقق خشب الباب الخارجي، وتخطم أحد الألواح. انسل ضوء الصباح من الغرفة إلى السرواق المظلم، وأثار وجوهاً تنصب بحرماً. عند الباب، مَدَّ هوران سيفه نحوهم، فترجع أحدهم إلى الخلف وهو يصرخ المأ.

كانت النجوم قد تحركت قليلاً عبر السماء بحلول الوقت الذي أيقظ فيه خاسار أفراد فرقته، واندفع في المقدمة مرتلياً دروعه كاملة، وقد شهر سيفه وثبت نفسه على حصانه. كانت في التشكيل خلفه عشر مجموعات؛ كلٌّ منها مؤلفة من ألف رجل وعلى رأس كلٍّ منها قائد. وكانت كل مجموعة مؤلفة بدورها من عشر فرق في كل منها مئة رجل على رأسهم قائد. كان لكل فرقة تشكيلها الخاص: عشر مجموعات؛ كلٌّ منها مؤلفة من عشرة رجال، تحمل معها معدات لتصب الخيم وتحضير الطعام، بالإضافة إلى الأدوات. كان جنكيز وتسوبودي قد ابتكرا النظام، ولم يمعن خاسار التفكير فيه حين أصدر أمراً واحداً فقط إلى ضابط الإمداد. كان التشكيل المؤلف من عشرة آلاف رجل قد اتخذ موقعه في السهل، والرجال يركضون إلى أحصنتهم في ما بدا أنها فوضى قبل أن ينتظموا في صفوفٍ ويصبحوا مستعدين: كاراكوروم أمامهم.

نقل المستطعمون إلى خاسار أن هناك فرقةً أخرى تتحرك في كل مكان حوله. لم يكن أحد في الأمة نائماً آنذاك، والجميع يعرفون أن هذه الليلة هي ليلة الأزمة التي بقوا يخشونها وقتاً طويلاً.

جعل خاسار قارعي الطبول لديه يعزفون إيقاعاً مربعاً؛ إذ كانت مهمّة عشرات الفتية العزّل على الجمال بث الرعب في نفوس العدو بإحداث صوت

بمجلل. سمع الرد على ذلك الصوت أمامه وإلى يساره، حيث استجابات فرق أخرى للتحذير والتحفيز. ابتلع خاسار ريقه الجفاف، وراح يبحث عن رجال كشيون أمامه، وقد اتناه شعور بأن الأحداث ستخرج عن سيطرته. ولكن، لم يكن في وسعه فعل شيء آخر، فقد حُدد طريقه حين تجرأ الرجال عند البوابة على رفض أمرٍ من أحد قادة الأمة. كان يعرف أنهم رجال تشاغاني، لكن الأمير المتفطرس أرسلهم من دون شارات فرقته لجعل عمله يبدو وكأنه اغتيال في الليل. لم يستطع خاسار أن يتجاهل مثل ذلك التهديد لسلطته؛ لكل مراحل السلطة التي يمثلها، نزولاً إلى أصغر قارع طبل على ذابة ذات سنّام. لم يجرؤ على التفكير في احتجاز أوجيدي ابن شقيقه في مدينته، ولم يكن بمقدوره إلا أن يتصرف ويشق طريقه عنوة إلى الداخل، على أمل أن يكون هناك شخص لا يزال حياً لينقذه. انضم كشيون إليه مع فرقة جييسي بيرسكين وفرقة تسوبودي، فتنفّس خاسار الصعداء حين رأى الرايات تمتد بعيداً في الظلام. وقد تكوّن بحرٌ من الجياد والأعلام. كان محاربو تسوبودي يعرفون أن قائدهم في المدينة، ولم يناقشوا حق كشيون في قيادتهم بدلاً منه.

مثل جبل يتهار بهبطه، اقتربت تشكيلات الفرق الأربع الضخمة من بوابة كاراكوروم الغربية، يتقدمها خاسار وكشيون وهما يخفيان نفاذ صبرهما. لم تكن هناك حاجة إلى إزاحة الدماء، أو على الأقل حتى ذلك الوقت.

بقي الرجال عند البوابة ساكنين، وأسلحتهم في أعمادها. وبغض النظر عن الأوامر الصادرة، كانوا يعرفون أن شهر السلاح يعني القضاء عليهم فوراً، ولهذا لم يكن أي رجل منهم يرغب في أن يكون أول من يلقي حتفه.

احتفظ التشكيل بتماسكه، ولم يكن يسمع إلا صهيل الأحصنة وخفق الرايات، ثم عرجت من الظلام مجموعة جديدة من الرجال، تضيء درهما مشاعل يرفعها حملة الأعلام. وخلال لحظة، عرف الجميع أن تشاغاني قد وصل.

كان بمقدور كشيون أن يطلب من خاسار قطع الطريق على ابن حنكيز، وإصدار أمر لفرقة لكي تشق طريقها إلى داخل المدينة. شعر بثقل القرار الملقي على عاتقه، وانقضى الزمن بطيئاً في حين تسارع نبضه. لم يكن رجلاً يتردد عادةً، لكنه لم يكن يخوض حرباً؛ إذ لم تكن هذه صحراء حوارزم أو أسوار إحدى مدن

تشن. ترك اللحظة تنقضي، ومع انتهائها تمسك بها بالنساء؛ وكأنه يغامر بحياته بعد أن فات الأوان.

قاد تشاغاتي مطيته مثل خان، وأتباعه يحيطون به في تشكيل مربع. تمدد بعض الرجال عند البوابة على الأرض بعد أن رمتهم الأحصنة عن صهواتها، لكنه لم ينظر حوله، بل بقيت نظرتة ثابتة تماماً على القائد الأكبر سناً؛ شقيقتي والده، والرجلين الوحيديين المهمين في المخيم تلك الليلة. كان وحصانه مدرّعين، وكان الهواء بارداً، فرأى كشيون أبحرة أنفاس الرجل والحيوان على حدّ سواء. كان تشاغاتي يعتمر خوذة حديدية، فيما كان عُرف الحصان يهتز في الهواء مع اقترابه من كشيون وحاسار. لم يعد تشاغاتي ذلك الفنّ الذي كانا يعرفانه، وأحس كلا الرجلين بالتوتر من نظرتة الفاترة.

أطلق حاسار هسيساً خافتاً، معبراً لشقيقه عن غضبه. كانا يعرفان أن تشاغاتي قد جاء ليمتعهما من دخول كاراكوروم، لكنهما لم يكونا واثقين بعد إلى أي حدّ سيمضي لإبقائهما في الخارج.

قال حاسار بحدة، وبصوت عالٍ: "الوقت متأخر لتدريب رجالك يا تشاغاتي". لم تكن تفصلهما إلا أقل من خمسين خطوة، وهي مسافة أقل مما كان يُسمح بها لأي رجل سابقاً. شعر حاسار برغبة في أن يمد يده إلى قوسه، بالرغم من أن اللرع ستنتقد هدفه على الأرجح، وستحدث بعدها إراقة للدماء على نطاق لم يره أيّ كان منذ تدمير كزري كزيا. هزّ القائد كتفيه حين أوقف تشاغاتي حصانه، وابتسم بثقة مفرطة وقال:

"أنا لا أتدرب يا عمي. لقد جئت لأرى من يهدد سلام المخيم في الظلام، ووجدت أنهما عمّاي اللذان يحركان جيوشاً في الليل. ماذا يفترض بسي أن أفهم من ذلك؟". ضحك وأظهر الرجال حوله أسنانهم، بالرغم من أن أيديهم لم تتحرك أوقاسهم، وسيوفهم، ورماحهم قط.

قال حاسار: "توخّ الحذر يا تشاغاتي".

تجهّم وجه تشاغاتي لدى سماعه تلك الكلمات وقال: "لا يا عمي. لن أتوخّي الحذر حين تدخل الجيوش أرضي. عد إلى عيمنتك وزوجاتك وأولادك، واطلب من رجالك أن يعودوا إلى خيامهم. لا شأن لك بما يجري هنا الليلة".

سحب خاسار نفساً عميقاً، فيما صرخ كشيون قبل أن يطلب من الفرق المحوم قائلاً: "ليست لديك أي سلطة علينا يا تشاغاتي، نحن نفوق رجالك عدداً. ولكن، لا حاجة إلى إراقة الدماء. سندخل المدينة الليلة، الآن! تنح جانباً ولن يحدث نزاع بيننا".

أحس حصان تشاغاتي بمشاعر فارسه الجياشة، واضطر الرجل إلى شدّ لجامه بقوة ليبقى في موقعه. استطاع خاسار وكشيون رؤية النصر على وجهه، وشعر كلا الرجلين باليأس في قرارة نفسيهما، وخافا على أوجيدي المحاصر في المدينة. صرخ تشاغاتي، وتؤكد من أن يسمعه أكبر عدد ممكن من الأذان: "أنت تسيء الحكم علي يا عمي. أنتم اللذان تحاولان شق طريقكما بالقوة إلى داخل كاراكوروم! ووفقاً لما أعرفه، أنتم تخططان بلبرمة دموية في المدينة؛ ولانقلاب يكون فيه رأس شقيقي هو الجائزة. لقد جئت لأمنعكما من الدخول، وللحفاظ على السلام". امتعض من دهشتها، وتجهم وجهه حين انتظر طيران السهام. سمع كشيون حركة إلى يمينه، فتحرك فوق سرجه، ورأى صفوفاً ضخمة من الرجال تتحرك إلى المواقع حوله، وظهر ضباطها في ضوء المشاعل. لم يستطع تحديد الأعداد تحت ضوء النجوم، لكن قلبه انقبض حين شاهد رايات أولئك الموالين لتشاغاتي. حدّق الطرفان إلى بعضهما؛ متعادلين تماماً، لكن تشاغاتي كان قد أنجز عمله، وكان يعرف ذلك. لم يكن بمقدور كشيون وخاسار بدء حرب أهلية في ظل كاراكوروم. نظر كشيون شرقاً بحثاً عن أول عيوط الفجر، لكن السماء بدت داكنة، وأوجيدي وحده.

الفصل الخامس



قال تسوبودي بخدة: "إلى الأسفل يا هوران!".

وشدّ سهماً على القوس وهو يجري، فيما انبطح هوران على الأرض تحسّث الثغرة المُحدثة في الباب، وأطلق تسوبودي سهماً سمع هسيسه في الظلام. وكسوف بصراحة مكتومة فيما كان يشد سهماً آخر. لم تكن المسافة تزيد على عشر خطوات، وأي محارب من القبائل بمقدوره التصويب من خلال الثغرة، حتى تحسّ الضغط. عندما أطلق تسوبودي السهم الثاني، جثا على ركبة واحدة وتدحرج بعيداً عن المكان. وقبل أن يتوقف عن الحركة، طنّ سهم في الغرفة متحرّكاً بسرعة فائقة كادت أن تجعلهم لا يرونه. استقر السهم خلف تسوبودي محدثاً صوتاً مكتوماً؛ واهتزّ فوق الأرضية الخشبية.

كان هوران قد اتخذ موقعاً قرب الباب، وجعل ظهره مستنداً إليه، فيما رأسه يتجه نحو الثغرة، وقد كوفئ بيد تندفع إلى الداخل، وأصابع تحسّس المكان بحثاً عن مزلاج في الأسفل. ضرب هوران بسيفه أفقياً، وقطع اللحم والعظم وكاد النصل أن يعلق في الخشب. سقطت اليد وجزء من الساعد على الأرض، وسمعوا صراخاً تقشعرُّ له الأبدان قبل أن يتعد الصراخ ويتلاشى، وعرفوا أن أولئك الموجودين في الخارج ربما قادوا الرجل بعيداً لمعالجته، أو قتلوه بأنفسهم.

أوما تسوبودي إلى هوران حين التقت عيولهما. وبغض النظر عن الرتبة، كانا أفضل محاربين في الغرفة، وبستطيعان الحفاظ على هدوءهما والتفكير حتى مع رائحة الدم القوية.

استدار تسوبودي إلى أوجيدي وقال: "نحتاج إلى موقع ثانٍ يا مولاي".

كان الرجل الذي سيصبح خائناً يقف شاهراً سيف والده ذا مقبض رأس الذئب، وهو يتنفس بصعوبة بالغة، وقد بدا أكثر شحوباً مما سبق لتسوبودي أن رآه من قبل. عيس تسوبودي حين لم يرد أوجيدي، وتكلم بصوتٍ أعلى لإخراج الشاب من غفلته.

"إذا تحطم الباب، فسيقتلونا يا أوجيدي، هل تفهم؟ نحتاج إلى مكانٍ ثانٍ، إلى عطفٍ انسحاب. سأبقى مع هوران بجانب هذا الباب. لكن، يجب أن تأخذ الصبيين والمرأتين إلى إحدى الغرف الداخلية وتسد الباب بأفضل وسيلة".

أدار أوجيدي رأسه ببطء، وأنتاح بعصره بعيداً عن الثغرة الداكنة التي بدا لها تنفث كراهية أولئك الموجودين خلفها.

"هل تتوقع مني أن أدفن نفسي في جحرٍ لأكسب بضع ضربات قلب إضافية في الحياة، فيما أولادي يُطاردون في مكانٍ مما في الخارج؟ أفضل أن أموت هنا، واقفاً على قدمي، ومواجهاً أعدائي".

أدرك تسوبودي أنه يعني ذلك، لكن نظرة أوجيدي جالت على سورھتاني وابنيها، وتسمّرت نظرتُه لحظة على عيني شقيقه الأصغر تولي. بدا أن أوجيدي بذوي تحت نظرات أفراد أسرته.

"حسناً يا تسوبودي، لكنني سأعود إلى هنا. تولي، أحضر زوجتك وابنيك وساعدني على إغلاق الباب الداخلي بإحكام".

قال تسوبودي وهو يشد الكنانة التي كان قد حملها على كتفيه ويرميها إلى أوجيدي: "خذ القوس معك".

تحرك الخمسة إلى الخلف بحذر، متحاشين مرمي بصر رامي السهام في القاعات الخارجية. كانوا يعرفون أن هناك رامي نبالٍ ينتظر في الظلام، ويعرفون صبر قومهم المعتاد على صيد حيوانات الغرير في السهول. كان مجال رؤية الرامي عبارة عن مخروطٍ يجتاز الغرفة الخارجية وصولاً إلى وسطها.

من دون سابق إنذار، اندفع أوجيدي عبر تلك المساحة، فيما تدحرجت سورھتاني فيها، ثم وقفت على قدميها برشاقة مثل راقصة. لم يندفع أي سهم حين وصلا إلى بقعة آمنة واستدارا.

وقف تولي في الطرف الآخر، وكان قد وجد مع ولديه مكاناً عميقاً بعارضة خشبية ثقيلة، وبدا وجهه صارماً من شدة خوفه عليهما.

قال لهما: "ساكون آخر من يذهب أيها الصبيان، هل هذا مفهوم؟".

أوما مونغكي على الفور، لكن كوبلاي هز رأسه وقال بصوت متهدج: "أنت الأضعف والأبطأ، ساكون آخر من يذهب".

فكر تولي في الأمر؛ إذا كان الرامي ينتظر وسهمه مشدود على الوتر فيامكانه أن يطلقه بغمضة عين، من دون تسديد تقريباً. لا بد أن الرجال هناك يراهنون على رامي السهام، لا سيما وأن محاولة تحطيم الباب قد توقفت؛ وكان الرجال في الخارج ينتظرون. ربما كانوا كذلك. ومن طرفي عينيه، رأى توروجين زوجة أوجيدي تومي إليه.

كانت المسافة بضع خطوات فقط عبر العرقة، لكنها أضحت بالنسبة إليه وكأها مسافة شاسعة. سحب تولي نفساً عميقاً ببطء، مهدئاً روعه ومفكراً في والده. كان جنكيز قد أخبره عن التنفس، وكيف يجلس الرجال أنفاسهم حين يشعرون بالخوف، أو يتنفسون فحاة قبل أن يشنوا هجوماً. كانت تلك إشارة للحذر من العدو، وفي داخلنا أداة للتحكم بالخوف. سحب نفساً آخر ببطء، فهدأت ضربات قلبه قليلاً، بعد أن كان يخفق بقوة في صدره. ابتسم تولي من عصيان كوبلاي العصبي.

"افعل ما تؤمر به أيها الفتي. أنا أسرع مما تظن". وضع يداً على كتف كل فتى وهمس: "اذهبا معاً. هل أنتما مستعدان؟ الآن!".

اندفع كلا الصبيين عبر المساحة التي بدت آمنة. وفي تلك اللحظة، اندفع سهم عبر الشجرة، ومرّ خلف ظهر كوبلاي الذي انبطح على الأرض فسحبه سورهتاني نحوها وضمته إليها وهي تشعر بارتياح كبير. استدارت مع ولديها لتنظر إلى تولي الذي أوماً إليهم، والعرق يتصبب من جبينه. كان قد تزوج امرأة تتمتع بجمال أخاذ. ابتسم لدى رؤيته تعبير وجهها الصارم فقد بدت مثل ذئبة تحمي جرائها. بدا واضحاً أن الرامي مستعد وأنهم محظوظون. لعن تولي نفسه لأنه لم يتبعهما على الفور قبل أن يستطيع الرامي شد سهم آخر على القوس. لقد أضاع اللحظة وربما حياته نتيجة ذلك. نظر حوله بحثاً عن ترسٍ من نوع ما؛ طاوله، أو حتى قطعة

قماش سميك لإفساد تصويب الرجل. بقي الصمت مطبقاً على الرواق، في حين ترك المهاجمون رامي السهام يعمل. سحب تولى نفساً ببطئاً آخر، وجَهَّز عضلاته للاندفاع بسرعة أمام الثغرة وأبعد عن ذهنه فكرة إصابته بسهم يجعله يفقد توازنه أمام أسرته.

نادت سورتهاني: "تسويدي!".

استدار القائد إلى الخلف، ونظر إليها، ورأى نظرتها المتوسلة وفهم مرادها. لم يكن لديه شيء يسلِّط به الثغرة في الوقت الذي يحتاجون فيه إلى هذا الشيء بشدة. وقع بصره على المصباح الوحيد، وكره فكرة إغراق الغرفة في الظلام مرة أخرى. لكن، لم يكن هناك خيارٌ آخر، فرفعه وقذفه عبر الفتحة من جانب الباب. جعل ارتطام المصباح تولى يجتاز الثغرة بأمان ليصل إلى أسرته، وسمع تسويدي صوت السهم الذي أطلق على الباب نفسه، وأدرك أن الرامي قد أخطأ هدفه. ابتهج كوبلاي من ذلك الفعل وانضم مونغكي إليه.

طوال بضع لحظات، بقيت الغرفة مضاة بالدهن المشتعل في الطرف الآخر. لكن الرجال هناك أحمدوا ألسنة اللهب بأقدامهم، وحجم الظلام على المكان مرة أخرى؛ وكان أشد حلكة من ذي قبل. لم تكن هناك حتى ذلك الوقت أي علامة على بزوغ الفجر. استؤنف التحطيم الغاضب وتطايرت الشظايا حين اهتز الباب في إطاره.

عمل تولى بسرعة عند مدخل الغرفة الداخلية، ولم يكن الباب هناك متيناً مثل الباب الخارجي، كما لم يكن باستطاعته تأخير المهاجمين أكثر من لحظات معدودة. لذلك، قام تولى بركل المصصلات حتى خرجت من أماكنها، وبدأ يقيم متراً عند المدخل. وفيما كان يعمل، أمسك ولديه من عنقيهما في حركة عاطفية مفاجئة، ثم أفلتنهما ليحرهما إلى حجرة نوم أوجيدي ويجلبا كل ما يمكنهما حمله. رأى توروجين تتمتم لهما، واسترخيا حين وجهتهما. كان الفتيان معتادين على تلقي الأوامر من والدتهما. وبالرغم من أن توروجين امرأة ضخمة، إلا أنها حنون ورشيقة.

كان هناك مصباح صغير آخر سلَّمته توروجين إلى سورتهاني التي وضعت في مكان يصل منه القليل من ضوءه إلى تسويدي. ظهرت ظلال كبيرة في الغرف؛ أشكال داكنة ضخمة تقفز وتراقص، وجعلتهم جميعاً يبدوون أقراماً.

عملوا بتركيز ونهم، وكان تسوبودي وهوران يعرفان تماماً أنه لن تستنى لهما إلا لحظات فقط للانسحاب حين ينهار الباب الخارجي، ولن تكون الأريكة التي تدعمه أكثر من شيء مزعج للمهاجمين في أثناء اندفاعهم إلى الداخل. وخلفهما، أقامت سورهناتي وتولي متراسهما من دون كلام، وهما يرتعشان من الخوف وعدم النوم. أحضر الصبيان إليهما ألواحاً خشبية، وثياب نوم، وحتى قاعدة ثمال ثقيلة اضطرا إلى سحبها على الأرضية حيث تركت فيها أثراً طويلاً. لم يكن ذلك ليصمد أمام رجال ماثارين، حتى إن كوبلاي اليافع أدرك ذلك، أو رآه على تعابير وجهي والديه المتحتمين. وعندما أصبحت بمجموعتهن الهزيلة من الانقراض في مكائهن، وقفوا خلفها مع أوجيدي وفوروجين، وهم يلهثون وينتظرون.

وضعت سورهناتي يداً على كتف كوبلاي، وأمسكت بالأخرى مسكين تسوبودي الطويلة، وتمتت على نحو يائس وجود المزيد من الضوء. كانت خائفة من أن تلقى حتفها في العتمة، وخائفة من أن تسحقها أجساد متصارعة ملطخة بالدماء. لم تستطع التفكير في فقدان كوبلاي ومونغكي، وبدا الأمر وكأنها تقف على حافة جرفٍ والنظر إليهما يعني أن تزل قدمها وتسقط. سمعت أنفاس تسولي الطويلة والبطيئة فقلدته، وتنفست عبر أنفها، وساعدها ذلك قليلاً في الظلام. ثم طفقت الباب الخارجي فجأة، وهمهم الرجال في الخارج وصرخوا فرحاً.

انتاب تسوبودي وهوران قلقٌ من رامي السهام الموجود في الطرف الآخر من الباب. كان على كل منهما أن يقدر الوقت الذي ستعيق فيه الضربات على الخشب الذي تحطم بسرعة الرجل المتوارى عن الأنظار، ثم توجيه ضربة إلى الوجوه في الظلام. كان المهاجمون يضعفون؛ لأنهم عرفوا أن دخولهم أصبح وشيكاً، لكن أكثر من واحد منهم تراجعوا إلى الخلف وهم يصرخون من طعنة السيف. ضرب الرجلان مثل مخلب، وتراجعا قبل أن يستطيع رامي السهام رؤية شيء. سمعا شخصاً يتحضر هناك بصوت عالٍ، في حين كان هوران مذهولاً من القائد الهادئ الذي يقا تل إلى جانبه. بدأ تسوبودي في جولة تدريبية نظراً إلى الانفعال الذي كان ظاهراً على وجهه.

بالرغم من ذلك، لم يكن بمقدورهما حماية الباب، وتوتر الرجلان حين تحطم لوح خشبي منخفض وتحول إلى شظايا. لم يبق إلا نصف الباب، وكان غير

ثابت في مكانه. كافع رجال يثمون على ركبهم للدخول من تحت عارضة القفل، ووقف كل من هوران وتسوبودي في مكانيهما وهما يطعنان بسيفيهما الأعناق التي تظهر أمامهما. لطمختهما الدماء لكنهما رفضا الاستسلام؛ بالرغم من أن الراسي تحرك وأطلق سهماً جعل هوران يدور حول نفسه.

كان يعرف أن أضلاعه قد كُسرت، وبدا كل نفس مؤلماً؛ وشعر وكأن رثيته قد توزمتا، ولكنه لم يستطع تفحص الجرح ليرى إن كانت درعه قد أنقذته. بدأ عدد أكبر من الرجال يركلون العارضة، مما أدى إلى تفكك المسامير التي تثبتها إلى الجدران. عرف المحاريبان أنه عندما ينفجر الباب أخيراً، فسيقتلعهما الفيضان.

هت هوران بصوتٍ أحسن واستمر بتحريك سيفه مستهدفاً أعناقاً وأذرعاً مكشوفة خلف الثغرة. رأى سيوفاً تستهدفه، وشعر بضربات على كتفيه وساقيه، وذاق طعم الحديد المرّ في فمه، وبدت ذراعاه أبطأ وهو يستدير حول نفسه، وكل نفس يتنشقّه بحرقه بخلاوته وحرارته.

سقط آنذاك معتقداً أن قدمه قد زلّت من دون شك على دم شخص ما. رأى هوران العارضة الحديدية تقفز من مكانها. وبدت الغرفة أكثر إشراقاً نوعاً ما؛ وكان فجر الذئب قد بزغ أخيراً. هت هوران حين داس شخص ما على يده الممدودة فكسر عظامها، لكن الألم زال بسرعة، فقد مات قبل أن يجد تسوبودي نفسه محاصراً في مكانه في مواجهة الرجال الذين اندفعوا إلى الغرفة وهم يصرخون متحمسين جداً، ومتعظّشين إلى القيام بعملهم.

كان المأزق الذي وقع فيه كشيون وحاسار عند البوابة قد أصبح انتصاراً لتشاغاتي الذي استمتع بتعاير وجهي عمّيه حين حرّك جيلم فرقته، وانضم إليه. كانت فرقة تولي قد تحركت في الطرف الآخر، ورجالها يكبحون جماع أنفسهم وهم يعرفون أن قائدهم وأفراد أسرته محاصرون في المدينة، وأنهم ربما لقوا حتفهم آنذاك.

أحضر كل قادة الأمة رجالهم إلى أسوار المدينة؛ الواحد تلو الآخر، وامتد الجمع مسافة بعيدة في الظلام. وقف أكثر من مئة ألف محارب مستعدين للقتال إذا

اضطروا إلى ذلك. لكن، لم تكن لديهم رغبة في خوض معركة في حين أن قادتهم يجلسون على صهوات أحصتتهم محذقين إلى بعضهم ببرودة أعصاب.

كان باتو بن جوشي قد أعلن ولاءه لكشيون وخاسار. لم يكن قد بلغ السابعة عشرة بعد، لكن رجاله الألف امتثلوا له، فقاد مطيته مرفوع الرأس. كان أحد قادة الأمة بالرغم من صغر سنه ومصير والده، وقد اعتنى أوجيدي به، ومنحه ترقية ما كان جنكيز نفسه ليمنحه إياها. وبالرغم من ذلك، كان باتو قد اختار الوقوف ضد أقوى رجل في القبائل، وأرسل كشيون ساعياً إليه ليشكره على مبادرته.

في غياب تسوبودي، كان ذهن كشيون يعمل أسرع مما يوحي به مظهره الهادئ، ووطن أن جيلم لا يزال وفيّاً لأوجيدي بالرغم من أن تشاغاني قد ضمّه إليه. لم يكن احتمال انقلاب سُدس جيش العدو ضده في لحظة حاسمة أمراً بسيطاً. وبالرغم من ذلك، كان الجانيان متكافئين تماماً، وتخيّل كشيون رؤية جيش ينقضّ أفراداً على بعضهم حتى لا يبقى إلا مئات، ثم عشرات، ثم شخص أو اثنان. عندها، ماذا سيكون مصير الحلم الرائع الذي كان جنكيز قد منحهم إياه؟ على الأقل، لم يكن ليقبل مثل ذلك التدمير للحياة والقوة.

بزغ فجر الذئب في الشرق، وتلاشى اللون الرمادي الباهت للأرض أمام نور الشمس. انتشر الضوء على الجيش المصطف حول كاراكوروم، وأثار وجوه القادة ورجالهم، ولم تعد هناك حاجة إلى المشاعر. وبالرغم من ذلك لم يتحركوا، وتحدّث تشاغاني إلى أتباعه، وأطلق ضحكة مع استمتاعه ببدء يوم جديد؛ بكل ما سيحلبه معه.

وعندما ظهرت عيوط الضوء الرفيعة الأولى في الشرق، رتت نائب تشاغاني على ظهر قائده وهلّل الرجال حوله، وسرعان ما انتشر الصوت إلى الفرق الأخرى المؤبدة له، فيما جلس الرجال مع خامسار وكشيون في صمت مطبق وكتيب. لم يكن الأمر يتطلب عقلاً نيراً مثل عقل تسوبودي لمعرفة سبب سعادة تشاغاني. وراقب كشيون ما يجري بعينين ضيقتين حين بدأ رجال تشاغاني يترجلون عن صهوات جيادهم حتى يستطيعوا أن يجثوا له بصفته خاناً، فرمّ شفتيه بغضب متزايد. عليه أن يوقف هذا، قبل أن يتحول الأمر إلى موجة

يحتاج كل الفرق ويصبح تشاغاتي حاناً بفضل سيل من العهود، وقبل أن يُعرف مصير أوجيدي.

دفع كشيون حصانه إلى الأمام، ورفع يده إلى الرجال الذين تبعوه. تقدم حاسار إلى الأمام أيضاً، وهكذا قادا حصانيهما وحيدين عبر صفوف الرجال نحو تشاغاتي.

كان ابن شقيقهما مستعداً للخطوة الأولى التي أقدم عليها، كما هي حاله طوال الليل. شهر تشاغاتي سيفه في تهديد واضح، لكنه بقي مبتسماً وهو يشير إلى أتباعه ليستمحوا لهما بالمرور. أضاعت الشمس المشرقة حشد المحاربين، ولعلت دروعهم مثل بحر حديدي؛ فقد كانت مصفحة وخطرة.

قال كشيون: "إنه يوم حديد يا تشاغاتي. سأرى شقيقك أوجيدي اليوم، وستفتح أنت المدينة".

نظر تشاغاتي مرة أخرى إلى الفجر وأوماً.

"لقد قمت بواجبي يا عمي، وقد حيت مدينة من أولئك الذين ربما يثيرون شغباً عشية أداء القسم. هيا، انطلقا معي إلى قصر شقيقي. يجب أن أتأكد من أنه بخير". كثر حين نطق الكلمات الأخيرة، وأشاح كشيون ببصره بعيداً حتى لا يرى ذلك، وراقب البوابات وهي تُفتح تدريجياً، ثم ظهرت شوارع كاراكوروم الخالية مكشوفة أمامهم.

لم يكن تسوبودي شاباً آنذاك، لكنه كان يرتدي درعاً كاملة، وهو جندي منذ مدة أطول من حياة معظم المهاجمين. لذا، عندما دخلوا بطريقة فوضوية حاملين السيوف، تراجع بسرعة ست خطوات بعيداً عن الباب. ومن دون سابق إنذار، استدار حول نفسه، وطعن بسيفه أقرب رجل إليه في حنجرته. هاجمه اثنان آخران بسيفيهما رداً على ذلك، وضربا درعه المصفحة بعنف فتركا آثاراً لامعة على المعدن الباهت. كان ذهن تسوبودي صافياً تماماً، وكانت حركاته أسرع من حركاتهما، وكان قد توقع أن يتراجعا على الفور، لكن ضرباتهما السريعة أظهرت له تعبهما وبأسهما. ضرب بحدداً، وعكس سيفه لتنفيذ ضربة أخرى هزت الفولاذ فوق جبين أحد الرجلين، وأحدثت جرحاً عميقاً سال الدم منه وجعله لا يبصر

شيئاً. كانت تلك غلظة، فقد أمسك رجلان ذراع تسوبودي اليمنى، فيما ركسل آخر ساقيه فسقط على الأرض محدثاً صوتاً صاخباً.

على الأرض، استشاط تسوبودي غضباً، وهاجم بأطرافه في كل الاتجاهات، مستخدماً درعه كسلاح متحرك دائماً، مما جعل ضربه أمراً صعباً. أحدثت الدرع المعدنية التي يحمي بها ساقه جرحاً بليغاً في فخذ أحدهم، ثم سمع صراخاً، وتدفق المزيد من الرجال إلى الغرفة؛ أكثر مما يستطيع مقاومته. كافح تسوبودي بيأس، وكان يعرف أنه قد انتهى؛ وكذلك أوجيدي، وأن تشاغاتي سيصبح خائساً. ذاق طعم دمه، ووجده لاذعاً مثل غضبه.

عند المتراس، انتظر أوجيدي وتولي كنفاً إلى كنف، ووقفت سورهناتي حاملة القوس. لم تكن تستطيع إطلاق السهام في حين لا يزال تسوبودي حياً. وعندما سقط أرضاً، أطلقت سهمين من بين زوجها وشقيقه. وبالرغم من أن ذراعيها لم تكونا قويتين بشكل كافٍ لتشدّ الوتر كما يجب، إلا أن أحد السهمين أصاب رجلاً في أثناء اندفاعه إلى الأمام، في حين أن الآخر انحرف بعيداً وانعزز في السقف. وقف أوجيدي أمامها حين حاولت إطلاق سهم ثالث بأصابع مرتعشة، وحُجبت الرؤية خلف المتراس بأيدي وسيوفٍ ووجوه ملطخة بالدماء. في البداية، لم تفهم ما كان يجري، وأفرعتها صرخة حين دخل المزيد من الرجال الغرفة الخارجية، واستدار بعض أولئك الذين كانوا يتعاركون مع أوجيدي وتولي عندما سمعوا الصوت، ثم تراجعوا إلى الخلف. رأت سورهناتي سيفاً يظهر عبر حنجرة رجل يقف قبالتها؛ وكان لديه لساناً طويلاً وملطخاً بالدماء. وما إن سقط الرجل أرضاً حتى توقف كل شيء فجأة.

كان أوجيدي وتولي يلهتان مثل كلبين. وفي الغرفة الأخرى، كانت لمة مجموعة من الرجال الذين يرتدون دروعاً تجهز على المهاجمين بضربات سريعة وفاعلة.

وقف جييسي هناك، وتجاهل في البداية الناجين بمن فيهم أوجيدي. كان قد رأى تسوبودي على الأرض، فحثا إلى جانبه فيما كافح القائسد للنهوض على ركبتيه. هز تسوبودي رأسه. كان مصاباً بدوار وجرح بليغ، ولكنه حي.

نفض جييسي وحيّاً أوجيدي بسيفه، وقال وهو يتنسم: "أنا سعيد لرؤيتك بخير يا مولاي".

قال أوجيدي بمدة، ودمه لا يزال بغلي غضباً وخوفاً: "كيف وصلت إلى هنا؟".

"أرسلني عمّاك يا مولاي، مع أربعين تابعاً. كان علينا أن نقتل عدداً كبيراً من الرجال للوصول إليك".

ربت تولى على ظهر شقيقه فرحاً قيل أن يستدير ويعانق سورهتاني. ضرب كوبلاي ومونغكي كتفي بعضهما، وتظاهرا بالهما يتشاجران حتى ثبت مونغكي رأس كوبلاي بذراعه.

قال أوجيدي: "أين تسوبودي؟ كيف حال القائد؟".

وحين أصبحت عينا تسوبودي صافيتين، مدّ محارب يده لمساعدته لكن تسوبودي أبعداها منزعجاً. كان لا يزال يرتعش بسبب إدراكه مدى اقترابه من الموت تحت أقدام المهاجمين. وعندما وقف تسوبودي على قدميه، استدار جيئسي إليه؛ وكأنه يقدم له تقريراً.

"أغلق الرمح المكسور بوابات المدينة. كل الفرق في الخارج؛ في السهل. لم تندلع الحرب بعد".

سأل أوجيدي: "إذا، كيف دخلت مدينتي؟". بحث عن هوران، ثم تذكر بألم أن الرجل قد ضحى بحياته عند الباب الأول.

قال جيئسي: "تسلقنا الأسوار يا مولاي. أرسلنا القائد كشيون قبل أن يحشد قواته ويحاول شق طريقه إلى الداخل". رأى نظرة الدهشة التي ظهرت في عيني أوجيدي فهزّ كتفيه قائلاً: "إنها ليست عالية جداً يا مولاي".

كان الضوء في الغرف أقوى، فأدرك أوجيدي أن الفجر قد طلع على كاراكوروم، واليوم يبدو رائعاً. وتذكر فرحاً أن هذا اليوم يوم أداء القسم. طرفت عيناه، وحاول استجماع أفكاره وتنظيمها في ترتيب معين بعد ما حصل في هذه الليلة.

في الرواق في الخارج، كان بالإمكان سماع وقع خطوات تجري. دخل سماع الغرفة مهرولاً، وتباطأ في هروته، إلى أن توقّف مصدوماً من كومة الجثث وبمجموعة السيوف التي ارتفعت نحوه. كانت رائحة الغرفة كريهة بسبب البول، ومقسزة وتسبب الاحتناق.

قال جيسي الذي عرف المستطلع: "قدّم تقريرك".
شدّ الشاب أزره وقال: "لقد فتحت البوابات مجدداً أيها القائد. ركضتُ كل الطريق، لكن هناك قوة مسلحة قادمة".

قال تسوبودي بصوته العميق الذي أفرغ كل شخص في الغرفة: "بالطبع هناك قوة". نظروا إليه جميعاً، وشعر أوجيدي بالراحة لأنه موجود معهم. "كل من كان خارج الأسوار في الليلة الماضية سيأتي إلى هنا ليرى من نحن". ثم استدار إلى أوجيدي قائلاً:

"يا مولاي، ليست لدينا إلا لحظات. يجب أن تكون نظيفاً، وبأهى حُلة حين يرونك. يجب إغلاق هذه الغرفة، وإبقاء الأمر على هذه الحال اليوم على الأقل".
أوما أوجيدي شاكراً، وأصغر تسوبودي أوامر سريعة. غادر جيسي أولاً، وترك ستة رجال ليكونوا حراساً للشخص الذي سيصبح خاناً، وتبعه أوجيدي وتوروجين، وخلفهما تولي وأفراد أسرته. وعندما كانوا يخشون الخطى في السرواق الطويل، رأى أوجيدي تولي يختصن زوجته والبيه في أثناء سيره؛ وكأنه لا يزال يجد صعوبة في تصديق أنهم جميعاً بأمان.
قالت توروجين: "الأولاد يا أوجيدي".

نظر إليها ورأى أن وجهها شاحب ومتعب من شدة القلق، فوضع ذراعه حول كتفها، واستمد كل منهما الراحة من الآخر. نظر أوجيدي من فوق رأسها، ولم يرَ أحداً يعرف القصر جيداً. أين تابعه باراساغور؟ خاطب أوجيدي جيسي الذي كان أقرب رجل إليه: "أيها القائد، يجب أن أعرف إن كان ابني غويوك قد نجا الليلة، وبناتي أيضاً. اجعل أحد رجالك يعثر على غرفهم؛ أسأل خادماً مساهمهم، اجلب إليّ الأخبار بأسرع ما يمكن، واعثر على مستشاري، ياوشو، وباراساغور. اجعلهما يتحركان، واعرف من لا يزال حياً".

قال جيسي بسرعة، وهو يحن رأسه: "أمرك يا مولاي". بدأ أوجيدي مهووساً تقريباً، ويصعب معرفة مزاجه. كان ذلك بفعل الإثارة التي تنتاب المرء بعد معركة، حين تجري الحياة بقوة في العروق.

اندفع أوجيدي إلى الأمام مسرعاً، وبذلت زوجته وحراسه جهداً للحاق به. وفي مكان ما أمامهم، استطاع سماع وقع خطوات مسرعة، فاندفع في رواق أخسر

بعيداً عن الصوت. كان يحتاج إلى ثياب جديدة وإلى غسل الدم والأوساخ عنه،
وإلى وقتٍ للتفكير.

كان كشيون قد أصبح هادئاً وشاحياً في أثناء عبورهم الشوارع على
صهوات أحصنتهم مقترين من قصر أوجيدي. بدا أن هناك جنثاً في كل مكان،
فيما كانت برك الدم الداكن تلتطخ القنوات الحجرية اللامعة. لم يكن القتلى كلهم
يحملون شارات فرقة حراس أوجيدي، وكان بعضهم يرتدون ثياباً داكنة أو دروعاً
فُرِكت بالسَّحام، وبدت باهتة وملوثة بالدهن تحت ضوء الفجر. كانت الليلة
دامية، وعشى كشيون مما سراه في القصور.

قاد تشاغاتي حصانه ممدوداً، وهو يهز رأسه من حجم الدمار، حتى إن خاسار
فكّر في قطع عنقه وإزالة ذلك التعبير عن وجهه، إلا أن وجود ثلاثة من أتباع
تشاغاتي أبقي يده بعيدة عن مقبض سيفه. لم يحدّق الأتباع إلى الموتى، بل بقيت
عيونهم مراقبة الرجلين اللذين يقودان حصانيهما ويرافقان سيدهما؛ الرجل الذي
سيصبح خائناً قبل نهاية اليوم.

كان الصمت مطبقاً على الشوارع. وإذا كان بعض العمال قد غادروا منازلهم
بعد وقوع الاشتباكات في الليل، فإن رؤية ذلك العدد الكبير من الجثث جعلتهم
يسرعون عائدين ليغلقوا أبوابهم عليهم. شق الرجال الستة طريقهم إلى الدرجات
المؤدية إلى أبواب القصر، وهناك كانت الجثث ممددة على الرخام الباهت، فيما
الدماء ترسم أشكالاً مثل العروق على الحجارة.

لم يترجل تشاغاتي عن صهوة حصانه، لكنه حثّ حصانه على صعود الدرجات،
وطلق بلسانه حين احتاز الجثث بخنجر. كانت البوابة الرئيسة المؤدية إلى الساحة
الأولى مفتوحة. ولم يكن هناك أحد يعترض على حقه في الدخول. نعتت غربان
لبعضها، وشاهدوا صقوراً ونسوراً تحلق فوق رؤوسهم، وقد جذبتها رائحة الدم. نظر
كشيون وخاسار إلى بعضهما بتحيم حين مرّا تحت عارضة تسودي إلى الساحة
الداخلية. كانت الشجرة الفضيّة تلمع هناك في الفجر؛ جميلة وخالية من الحياة.

استطاع القادة قراءة أساليب الموت جيداً، وعرفوا أنه لم تكن هناك معركة
شرسة، وإنما هناك صفوف من الرجال الذين لقوا حتفهم. تمددت الجثث عشوائياً،

وقد تمت مباغتتها من الخلف أو قضت السهام عليها. أحسن القائدان تقريباً بالمفاجأة التي انتابت المدافعين حين ظهر رجال يرتدون ملابس سوداء، وشقوا طريقهم بينهم قبل أن يتمكن أي شخص من تنظيم دفاع. في الصمت، بدأ تشاغاتي مذهولاً حين ترجل أحيراً عن صهوة حصانه، فيما بدأ الحصان جافلاً من رائحة الدم، لذا حرص على أن يربط اللحام بإحكام إلى عمود.

قال تشاغاتي: "بدأت أخاف على شقيقي".

توتر خاسار ورفع أحد الأتباع يده إليه، ليذكره بأن يتحلّى بالصبر. كان الرجل بكشراً، ويستمتع بعرض سيده.

سُمع صوت جعلهم يفتقون جميعاً: "لا يوجد ما نخشاه".

استدار تشاغاتي فوراً، وخرج سيفه من غمده في حركة واحدة. لم يكن أتباعه أبداً منه، واستعدوا لأي قتال.

وقف تسوبودي هناك تحت قطرة من الحجارة الخيزرية المزخرفة. لم يكن يرتدي درعاً، ولم يكن نسيم الصباح قد جفّف بقع العرق على ثوبه الحريري بعد. كانت قطعة قماش تلف ذراعه اليسرى. واستطاع تشاغاتي رؤية الدم الذي ينتشر فوقها. بدأ وجه تسوبودي متعباً ولكنه قوي، وأصبحت عيناه قاسيتين حين التقّسا عيني الرجل المسؤول عن الموت والدمار في كل مكان حوله.

فتح تشاغاتي فمه ليطلب توضيحاً، لكن تسوبودي تابع كلامه.

"مولاي أوجيدي ينتظركم في قاعة الاستقبال. إنه يرحّب بكم في قصره، وبمنحكم الأمان". نطق بالكلمات الأخيرة وكأنها عالقة في حلقه.

أشاح تشاغاتي بصره بعيداً عن الغضب الذي رآه على وجه القائد. وتراحت كتفاه حين أدرك هزيمته. كان قد راهن بكل شيء في ليلة واحدة، ولم يُلبر رأسه نحو مصدر الصوت فوق رأسه حين ظهر الرماة، وإنما عضّ على شفته السفلى وأوماً. وبالرغم من ذلك، كان ابن والده. وقف منتصباً وأعاد سيفه إلى غمده بكل مهابة، ولم يظهر أي أثر للصدمة أو خيبة الأمل على وجهه حين ابتسم لتسوبودي ساحراً وقال: "الشكر لأب السماء لأنه نجح. خذني إليه أيها القائد".

الفصل السادس



بقي أتباع تشاغاني في الساحقة، وكانوا سيقاتلون لو طلب منهم ذلك. ولكنّه بدلاً من ذلك، ربت على كتف أحدهم، وهزّ رأسه قبل أن يمضي بخطوات واسعة خلف تسوبودي إلى الرواق المستوف. لم ينظر تشاغاني إلى الورا حين أحاط محاربو أوجيدي بأتباعه وضربوهم وجعلوهم يكلسون على الأرض. وعندما صرخ أحدهم، غضب تشاغاني وشعر بالإحباط؛ لأن الرجل لم يمت من أجل شرف سيده.

تبعه عاسار وكشيون صامتين، وشاهدوا تشاغاني يمر بجانب تسوبودي، لكن أباً من الرجلين لم ينظر إلى الآخر. في قاعة الاستقبال، كان الحراس منتشرين في كل مكان. هزّ تشاغاني كتفيه قليلاً ثم سلّم سيفه.

كان الباب مصنوعاً من نحاس مصقول يبدو ذهبياً ضارباً إلى الحمرة في ضوء الصباح. توقع تشاغاني أن يدخل، لكن الضابط نقر على درعه وتراجع إلى الخلف منتظراً. كثر تشاغاني، لكنه خلع سترته الطويلة المصفحة وقطعت الفخذين، إضافة إلى القفازين الثقيلين وواقبي الذراعين. لم يمض وقت طويل قبل أن يقف بسترته الضيقة، وطماقيه وحذائه. ربما كان تجريد رجل آخر من ملابسه سيحط من شأنه، لكن تشاغاني بقي يتدرب من أجل المناسبة شهوراً عديدة؛ فكان يصارع، ويجري، ويطلق مئات السهام كل يوم. كان في حالة جسدية ممتازة، وجعل كسل أولئك الذين حوله يبدو أصغر وأضعف مما هم عليه.

لكن، ليس تسوبودي. لم يجزّ أحد من الحراس على الاقتراب من الرجل الذي يقف ويتحدّى بصمت تشاغاني أن يحتج. وبالرغم من أن تشاغاني التزم الصمت، إلا أن صمته ذلك كان مثل سكون أفعى، أو شجيرة مثنية وجاهزة للارتداد بسرعة إلى وضعها الطبيعي.

أخيراً، واجه تشاغاني الضابط وأحد حاجبيه مرفوع، وتعمّل أن يُفتش بدقة، لكنه لم يكن يحمل أسلحة مخبأة، ففتح الباب على مصراعيه، ودخل القاعة وحده. وعندما أغلق الباب خلفه، سمع صوت خاسار وهو يتجادل مع أحد الضباط الذي احتجزه خلف الباب. كان تشاغاني سعيداً؛ لأن تسويودي وعميه لن يكونوا شهوداً، فقد راهن وخسر، لكن لم يكن هناك عار في ذلك أو إذلال. كان أوجيدي قد جمع رجالاً أوفياء حوله، كما فعل تشاغاني، لكن قادة شقيقه أثبتوا أنهم أكثر دهاءً من قاداته. وكما كانت الحال قبل ليلة، سيصبح أحد الشقيقين حائناً. ولكن، ما مصير الأحمر؟ كثير تشاغاني فحاة حين رأى أوجيدي في الطرف الآخر من القاعة، جالساً على عرش من حجر أبيض مزخرف بأشكالٍ من الذهب. بدا المنظر رائعاً، كما أريد له.

وعندما اقترب منه، رأى تشاغاني شعر أوجيدي الأسود رطباً، ومنسدلاً على كتفيه. وظهرت علامة أرجوانية على وجته، وهي الإثبات الوحيد الظاهر للعيان لما حدث في الليلة السابقة. وبالرغم من فخامة العرش، إلا أن شقيقه كان يرتدي ثوباً رمادياً بسيطاً فوق طماقين، ويرتدي فوق ثوبه عباءة طويلة مزخرفة. بدت ثيابه مثل ثياب أيّ راعٍ في السهول.

قال تشاغاني: "أنا سعيد لرؤيتك بخير يا شقيقي".

توتر أوجيدي، فيما مشى تشاغاني نحوه مهدوء، وتردد صدى خطواته في القاعة.

أجاب أوجيدي: "دعنا لا نلعب ألعاباً. لقد نجوتُ من هجماتك، وسأصبح حائناً عند مغيب شمس هذا اليوم".

أوما تشاغاني وهو لا يزال يتنسم: "إذاً، لا ألعاب. لكنك تعرف، والشيء الغريب أنني أقول الحقيقة. كان جزء مني يخاف أن يجذك قليلاً. هذه سخافة، ليس كذلك؟". ضحك بصوت خافت، مستمتعاً بعدم وضوح مشاعره، فقد كانت الأسرة شيئاً متميزاً. ثم تابع قائلاً: "ومع ذلك، فعلت ما ظننت أنه الأفضل، ولن أؤدي أسفي أو أقدم اعتذاراً. أظن أن والدنا كان سيستمع بالمخاطر التي أقدمت عليها". أحنى رأسه وأضاف: "لذا، ستصفح عسي إذا لم أهنتك على انتصارك".

استرخى أوجيدي مهدوء، فقد أمضى سنوات وهو يفكر في تشاغاني كأحمق متفطرس، وقد افتقد إليه تقريباً وهو يشبّ ويصبح رجلاً معتاداً على المسؤولية والسلطة. وعندما جاء تشاغاني ليقف بين يديه، تقدم حراس أوجيدي وأمره بأن يجثو، ولكنه تجاهلهم، وبقي واقفاً على قدميه وهو ينظر حوله في أرجاء الغرفة، وتعبير وجهه مثير للاهتمام. كانت المساحة كبيرة بالنسبة إلى محارب معتاد على الخيام في السهول، فيما ضوء الصباح يسطع من نافذة تطل على المدينة.

استدار أحد الحراس إلى أوجيدي طلباً للإذن وابتسم تشاغاني ابتسامة واهنة. لو كان من يقف أمام أوجيدي سجيناً لضربه الحارس ليقع أرضاً، أو حتى لحطّم ركبتيه لجعله يجثو. لذا، بدأ التردد احتراماً بنفوذ تشاغاني حتى وهم يسعون إلى إذلاله.

أعجب أوجيدي تقريباً بشجاعة شقيقه المتهورة. لا يمكنه ألا يُعجب بها، حتى بعد مثل تلك الليلة. كان ظل جنكيز محيماً فوق كلا الرجلين وربما سيبقى على تلك الحال دائماً. لم يكن أي منهما أو تولى يستطيع تحقيق ما أنجزه والدهم، وبأي معيار، كانوا أشخاصاً أقل شأنًا، وهم كذلك منذ اللحظة التي ولدوا فيها. لكن، كان عليهم أن يعيشوا ويكبروا ويصبحوا رجالاً ماهرين، وهم مضطرون إلى النجاح في ذلك الظل؛ أو أن يدعوهم يخنقهم.

لم يكن أحد يفهم حياة أوجيدي مثل تشاغاني، ولا حتى شقيقهما تسولي، وتساءل مجدداً إن كان قد اتخذ القرار الصائب، لكن حتى في ذلك، كان عليه أن يتحلّى بالقوة. يمكن لرجل ما أن يضيع حياته بالقلق سدى، وبدا ذلك واضحاً له تماماً. أحياناً يجب عليك ببساطة أن تختار وتحرزَ كسفيك غير مبال، مهما تكن النتيجة، وأنت تعرف أنه لم يكن بمقدورك فعل المزيد بالقدرات التي تمتلكها.

واجه أوجيدي شقيقه، وتمنّى للمرة الأخيرة أن يعرف الوقت الباقي له وهو على قيد الحياة، فقد كان كل شيء يعتمد على ذلك. لم يكن ابنه يمتلك الإرادة الصلبة ليرثه، وإذا مات أوجيدي في ذلك اليوم، فلن يتابع غويوك مسار جدّه، مسار جنكيز، وكانت السلطة ستنتقل إلى الرجل الواقف أمامه. بحث أوجيدي عن الهدوء، بالرغم من أن قلبه كان يخفق بقوة في صدره، وينشر المأ متواصلًا؛ حتى أصبح مثل نصل بين أضلاعه. لم يكن قد نام، وكان يعرف أنه يخاطر بالهياره في

أثناء تعامله مع تشاغاتي في ذلك الصباح. كان قد شرب دورقاً من الشراب الأحمر لتهدئة أعصابه، واستخدم مقداراً كبيراً من مسحوق قفاز الثعلب، ولا يزال بمقدوره أن يتذوق طعمه المرّ على لسانه، وكان رأسه يؤلمه؛ وكأنه يُهشّم ببطء. وفقاً لما كان يعرفه، يستطيع أن يحكم كخنان لبضعة أيام فقط قبل أن ينهار قلبه وينفجر في صدره. وإذا كان ذلك مصيره وقتل تشاغاتي، فستمزق الأمة نفسها إلى أشلاء في حرب أهلية. تولى لم يكن قوياً بما فيه الكفاية ليجتمعهم معاً، ولم يكن - هو أو ابن أوجيدي - قد جمع قادة موالين له لتقدم الحماية له في مثل ذلك الاضطراب. كانت القوة ستنتصر على النسب في ذلك الصراع.

ربما كان الرجل الواقف أمامه، والذي يخفي توتره، أفضل أمل للأمة. وأكثر من ذلك، كان تشاغاتي هو الشخص الذي سيخاره جنكيز لو أن شقيقهما جوشي لم يولد قط. أحس أوجيدي بأن شعره الرطب يسبب له الحكاك، فحكّ جلدة رأسه بطريقة لاشعورية. كان الحراس لا يزالون ينظرون إليه، لكنه لن يدعهم يضربون تشاغاتي لجعله يجثو على ركبتيه. ليس في هذا اليوم، بالرغم من أن جزءاً منه أراد رؤية ذلك.

قال: "أنت بأمان هنا يا شقيقي. لقد قلت كلمتي".

تمتم تشاغاتي تلقائياً تقريباً: "وكلمتك حديد".

تذكر كلاهما معتقدات والدهما وقدراتها، وبدا ظل الخان العظيم ملتصقاً بهما مثل عباءة. جعلت الذكريات المشتركة تشاغاتي ينظر إلى الأعلى ويعبس، وقد بدا فجأة في حيرة من أمره. كان قد توقع أن يُقتل، لكن أوجيدي بدا مضطرباً لا منتصراً أو حتى تواقفاً إلى الانتقام، وراقب باهتمام حين استدار أوجيدي إلى ضابط حراسه.

"أخلوا القاعة. لن يسمع ما سأقوله إلا شقيقي وحده". همّ الرجل بأن يتحرك لكن أوجيدي أوقفه بأن رفع يده، وتابع: "لا، اجلب أورلوك تسوبودي أيضاً".

رد الضابط وهو يتحني كثيراً: "أمرك يا مولاي".

خلال لحظات فقط، بدأ الحراس على طول الجدران يسبرون إلى الأبواب النحاسية الضخمة، ودخل تسوبودي بعد أن نادوه. في الخارج، كان من الممكن سماع حاسار وهو لا يزال يجادل الضباط قبل أن يُغلق الباب، ويبقى الرجال الثلاثة وحدهم في المكان الذي يتردد فيه صدى الأصوات.

نفض أوجيدي عن العرش ونزل إلى الأسفل حتى أصبح في مستوى تشاغاتي. ثم ذهب إلى طاولة صغيرة، وسكب لنفسه كوباً من الشراب الأسود من إبريق، ثم شربه كله وفرغ حين لسع التفريجات في فمه.

نظر تشاغاتي إلى تسوبودي فقط ليجد أن الرجل يحدّق إليه مثل عدو، فغمض القائد ثم أشاح ببصره بعيداً.

سحب أوجيدي نفساً بطيناً، واهتز صوته من الجهد الذي يبذله لقول ما كان قد أبقاه مخفياً وقتاً طويلاً.

"أنا ورهث والذي يا تشاغاتي، وليس أنت، أو تولي، أو كشيون، أو اهن جوشي. عندما تغيب الشمس اليوم، سأقبل قسم الولاء من الأمة". توقف عن الكلام، ولم يعترض تشاغاتي أو تسوبودي حين طال الصمت. نظر أوجيدي إلى الخارج عبر النافذة مستمتعاً بمنظر مدينته، بالرغم من أنها بدت هادئة وخائفة بعد ما حدث في الليلة السابقة.

قال مهدوء: "هناك عالم في الخارج، ذاك الذي نعرفه، بحضاراته وسباقاته وجيوشه؛ عالم لم يسمع بنا قط؛ نعم، وهناك مدن أكبر من ينكينغ وكاراكوروم. ولتنجو، ونزدهر، يجب أن نبقي أفواهنا. ويجب أن نستولي على أراضي جديدة حتى نحصل جيشنا على الطعام دائماً، ونتحرك على الدوام. التوقف يعني الموت يا تشاغاتي".

قال تشاغاتي: "أعرف هذا، فأنا لست أحمق".

ابتسم أوجيدي ساعراً وقال: "لا، لو كنت أحمق، لبعثتهم يقتلونك في الساحة مع أتباعك".

قال تشاغاتي: "إذاً، لماذا لا أزال حياً؟". حاول إبقاء نبرة صوته عادية، لكن، كان هذا السؤال هو ما أقلقه منذ أن رأى تسوبودي في ساحة القصر.

قال أوجيدي أخيراً: "لأنني قد لا أعيش لأرى الأمة تكبر يا تشاغاتي؛ لأن قلبي ضعيف، وسأموت في أي لحظة".

حدّق الرجلان الواقفان أمامه إليه وكأتهما مصعوقان. لم يطق أوجيدي انتظار أسئلتهما، وتابع كلامه بارتياح تقريباً، وتدفقت الكلمات من فمه: "أبقى حياً بفضل مساحيق تشن المرّة، لكنني لا أعرف الوقت الذي بقي لديّ. أردت فقط أن

أرى مدينتي تنتهي وأن أصبح خاناً. هذا أنا، وأنا لا أزال حياً، بالرغم من أنني أعيش متألماً".

قال تشاغاي مهدوء مذهولاً من معاني ذلك: "لماذا لم أعرف هذا من قبل؟". ولكنه عرف الجواب قبل أن يرد أوجيدي، وأوماً إليه حين تكلم شقيقه.

"هل كنت ستمنحني سنتين لأبني مدينة؟ ضربحاً؟ لا، كنت ستتحلاني فور سماعك النبأ. ولكن، بدلاً من ذلك، لقد بنيت كاراكوروم وسأصبح خاناً. أظن أن والدي كان سيقدّر المخاطر التي أقدمتُ عليها يا شقيقي".

هز تشاغاي رأسه حين بدأت أشياء احتار بشأنها تتضح. وشرع يقول: "إذاً، لماذا...؟".

"قلت إنك لست أحمق يا تشاغاي. أمعن التفكير في الأمر، كما فعلت أنا ألف مرة. أنا وريث والدي، لكن قلبي ضعيف ويمكن أن أموت في أي لحظة. من سيقود الأمة عندها؟".

قال تشاغاي بلطف: "أنا سأفعل".

كانت تلك حقيقة قاسية؛ وهي أن ابن أوجيدي لن يعيش ليرثه، لكن آتياً من الرجلين لم يشح بصره عن الآخر. بدأ تشاغاي يقدّر شيئاً مما كان أوجيدي قد اختبره في السنتين اللتين أعقبنا موت والدهما.

سأل: "منذ متى عرفت بالضعف؟".

هز أوجيدي كتفيه وقال: "أشعر بوخزاتٍ منذ وقت طويل جداً، لكنها أصبحت أسوأ في السنوات القليلة الماضية. إنها تتناهي الآن... آلام أشد، ومن دون مساحيق تشن لا أظن أن لدي وقتاً طويلاً".

قال تشاغاي مقطباً حاجبيه: "مهلاً. أتقول إنني بأمان؟ هل ستركني أغادر وأنا أعرف هذه المعلومة؟ لا أفهم!".

كان تسوبودي من أحابه، وحدّق هو أيضاً إلى أوجيدي وكأنه يراه للمرة الأولى.

"إذا مت يا تشاغاي، إذا قُلت عاقباً لك على هجمات الليلة الماضية، فمن سيحافظ على تماسك الأمة حين يسقط الخان؟". تحول تعبير وجه تسوبودي إلى سخرية مزوجة بالغضب، وتابع: "يبدو أنك ستكافأ على فشلك يا مولاي".

قال أوجيدي: "لهذا السبب يجب أن تسمع الآتي يا تسوبودي. يجب أن تضع غضبك جانبا. سيصبح شقيقي خائفاً من بعدي، وستكون القائد العام لجيشه. إنسه ابن جنكيز أيضاً، وهو من نسل الرجل الذي أقسمت أن تخدمه".
كافح تشاغاتي لاستيعاب ما قد سمعه.

"إذا، أتوقع مني أن أنتظر، وأن أبقي هادئاً ومسالماً في حين أنتظر موتك؟ كيف أعرف أن هذه ليست خدعة ما، وليست شيئاً من بنات أفكار تسوبودي؟".
قال أوجيدي بحدة، ومزاجه ناثر على نحو ظاهر للعيان: "لأنني أستطيع قتلك الآن. لا يزال بمقدوري فعل ذلك يا تشاغاتي. لماذا أبقيت على حيائك بعد الليلة الماضية برأيك؟ أتكلم من موقع قوة يا شقيقي وليس من موقع إحقاق. يجب أن تحكم على كلماتي بهذه الطريقة".
تردد، أوماً تشاغاتي. كان بحاجة إلى وقت للتفكير وعرف أنه لن يحظى بهذه الرفاهية.

قال: "لقد قطعت وعوداً لأولئك الذين آيدوني. لا يمكنني ببساطة أن أعيش حياة راعٍ في أثناء انتظاري. ستكون تلك الحياة بمثابة موت لي، وهي لا تليق بمحارب". توقف لحظة، وفكر بسرعة ثم تابع: "إلا إن جعلتني وربك علناً عندها سأحظى باحترام قادي".

قال أوجيدي على الفور: "لن أفعل ذلك. إذا مت في الشهور القليلة القادمة، فستصبح خائفاً سواء أجعلتك ورباً أم لا. وإذا عشت وقتاً أطول، فلن أحرم ابني من هذه الفرصة. يجب أن تجازف معه، كما سيحازف معك".
رد تشاغاتي، وقد رفع صوته حتى قارب الصراخ: "إذا، لا تعرض علي شيئاً! أي نوع من الاتفاقات هذا الاتفاق القائم على وعود خاوية؟ لماذا تخبرني بهذا؟ إذا مت قريباً، نعم، سأصبح خائفاً، لكنني لن أهدر حياتي في انتظار ساعٍ قد لا يأتي أبداً. لن يفعل أي رجل ذلك".

"بعد المحطات التي قمت بها في الليلة الماضية، أصبح إبلاغك أمراً ملحاً. لو أنني غضضت الطرف، وأعدتلك فقط إلى فرقتك، فما كنت لترى في تصرفي هذا إلا ضعفاً. كم كان سينقضي من وقت قبل أن تتحدثاني أنت أو أي شخص آخر؟ ومع ذلك، لن أدعك ترحل صغراً اليدين يا تشاغاتي، فالأمر ليس على تلك الحال.

مهمتي هي توسيع الأراضي التي استولينا عليها، وتحقيق الأمان للأمة لتزدهر وتنمو بفعل ذلك. سأمنح شقيقنا تولي أرض الوطن، لكنني سأحتفظ بكراكوروم مدينة لي". سحب نفساً عميقاً، ورأى ضوء التوقع والشمع في عيني شقيقه، ثم تابع قائلاً: "ستحصل على عوارزم لتكون مركزاً لأراضيك، مع مدن سمرقند، وبخارى وكابول. سأمنحك سلطة خان على امتداد ألفي ميل بعيداً عنها، من نهر جيحون إلى سلسلة جبال ألطاي. ستحكم وسلاتك هناك، لكنك ستدفع جزية لي ولسلاتي".

شرح تسوبودي يقول وهو يشعر بالخوف: "مولاي...". ضحك تشاغاي بصوت خافت وقال ساعراً: "دعني أتكلم أيها القائد. هذه قضية أسرية، ولا شأن لك بها".

هز أوجيدي رأسه وقال: "لقد خططت هذا منذ نحو ستينين يا تسوبودي. يمثل التحدي الذي يواجهني بوضع الغضب الذي أشعر به نتيجة الهجمات على أسرتي جانباً، واتخاذ القرارات المناسبة؛ حتى الآن".

رفع رأسه ليحدثني إلى تشاغاي، وأحسن شقيقه بالمشاعر الجياشة في نظرتيه. "ابني وبناتي نجوا يا تشاغاي. هل كنت تعرف هذا؟ لو اتقوا مصرعهم على يد محاربك، لشاهدتك وأنت تُشوى ببطء في هذه اللحظة ولسمعت صراخك. هناك أشياء لن أنعمها في سبيل إمبراطورية والدي ورؤياه". توقف عن الكلام، لكن تشاغاي لم يقل شيئاً، فأوماً أوجيدي راضياً لأنه فهم.

قال أوجيدي: "أنت في موقع قوة يا شقيقي. لديك قادة موالون لك، ولدي أنا إمبراطورية شاسعة يجب أن أديرها وأسيطر عليها بالاعتماد على رجال يستطيعون ذلك. بعد اليوم، سأصبح الخان الأعظم، قائد الأمم، وسأقبل عهد الولاء والشرف منك ومن سلالتك. لقد تعلمنا من تشن كيف تحكم أراضي كثيرة يا تشاغاي، وكيف تجعل الجزية تدفق إلى العاصمة".

سأل تشاغاي: "ألم تنسَ ما حدث لتلك العاصمة؟".

لمعت عينا أوجيدي على نحو عطر وأجاب: "لم أنسَ يا شقيقي. لا تظن أنك ستفقد يوماً جيشك إلى كراكوروم. إن دماء والدي تسري في عروقي كما تسري في عروقك. إذا جئت إليّ حاملاً سيفاً، فسيكون ذلك عملاً ضد الختان وسترد

الأمة عليه. سأدمرك وأجهز على زوجاتك وأولادك، وخدمك وأتباعك. لا تنس يا تشاغاني أنني بحوت الليلة. أنا أمتع بحظّ والدي، وذكره ترعاني. وبالرغم من ذلك، أعرض عليك إمبراطورية أكبر من أي شيء خارج أراضي تشن".

قال تشاغاني: "حيث سأتعفن. تريد مني أن أسجن نفسي في قصر جميل، محاطاً بالنساء و...". كافح من أجل قول شيء مفزع على نحو مناسب، ثم قال: "... كراسي وتيجان ذهبية؟".

ابتسم أوجيدي قليلاً لدى رؤيته رعب شقيقه من مثل ذلك الاحتمال.

قال: "لا. ستنتهي جيشاً من أجلي هناك؛ جيشاً يمكنني الاعتماد عليه. سيكون جيش الغرب، وسينظم تولي جيشاً في الوطن، وسأجمع أنا جيشاً في الشرق. لقد أصبح العالم كبيراً جداً على جيش واحد للأمة يا شقيقي. سننتقل إلى حيث أمرك بذلك، وستغزو كما أريد. العالم لك، إذا استطعت أن تنحني جانباً رغبتك في أن تحكمه كله؛ لأنك لن تحظى بذلك. الآن، أعطني جواباً وأسمعني قسمك. كلمتك حديد يا شقيقي، وسأقبل بها، أو يمكنني قتلك الآن".

أوما تشاغاني؛ منهكاً من التحول المفاجئ من الخدر القاتل إلى الأمل الجديد.

قال أخيراً: "ما القسم الذي ستقبل به؟". وعرف أوجيدي أنه قد انتصر، فرفع السيف ذا مقبض الذهب الذي كان جنكيز قد استعمله في غزواته.

قال: "أقسم بوضع يدي على هذا السيف. أقسم بروح والدنا وشرفه إنك لن ترفع أهداً بدأ غاضية ضدي، وإنك ستقبلني كخائن أعظم، وستكون تابعاً وقيادياً كخائن على أراضيكم وقومك. أي شيء آخر يحدث، فسيكون بإرادة أب السماء. لكن، في ما يتعلق بذلك، يمكنك أن تدلي بقسم أحترمه. سيقسم آخرون أكثر اليوم يا تشاغاني، فكن الأول".

عرفت الأمة أن تشاغاني قد جازف من أجل راية الذبول البيضاء، ودفع برجاله إلى مدينة كاراكوروم. وعندما جال أوجيدي وضباطه حول المدينة في ذلك الصباح وهم يعتلون صهوات جيادهم في استعراض للقوة، رأت الأمة أن المحاولة قد فشلت. وبالرغم من ذلك، امتطى تشاغاني أيضاً حصانه بفخر حين انضم بحسداً إلى فرقه خارج المدينة، وأرسل أتباعه لجمع الجثث وحملها إلى خارج كاراكوروم،

بعيداً عن العيون. وفي وقت قصير فقط، لم تبقَ إلا آثار باهتة فقط في الشوارع، فقد اختفت الحث أيضاً مثل الخطط والخدع الحربية. هزّ محاربو الأمة أكتافهم، واستمروا بالاستعداد للاحتفال والألعاب الضخمة التي ستبدأ في ذلك اليوم.

بالنسبة إلى كشيون وخاسار، بدا كافياً آنذاك أن يعرفا أن أوجيدي قد نجحاً. كانت الألعاب ستمضي قدماً، وسيستنىّ شما الوقت للتفكير في المستقبل حين يصبح سخاناً. أرسلت الفرق التي كانت قد واجهت بعضها بغضب في الليلة الماضية فرقاً من رماة السهام إلى جدار الرماية خارج كاراكوروم. وبالنسبة إلى أولئك الرجال، كانت معارك القادة العظماء عالماً مختلفاً، وشعروا بالسعادة لأن قادهم نجوا، ولأن الألعاب لم تُلغ.

اجتمع عشرات الآلاف لمشاهدة أول أحداث اليوم، ولم يرغب أحد في أن يفوت الجولات الباكرة؛ خاصة وأن الجولة الأخيرة لن يتابعها أكثر من ثلاثين ألفاً فقط في وسط المدينة. كان تيموج قد نظّم التذكّر الورقية التي تسمح بدخول ساحة الحدث النهائي، وبقيت تُباع مقابل أحصنة وذهب طوال أيام قبل المسابقة.

لاح جدار الرماية فوق البوابة الشرقية لكاراكوروم وهو يلمع في الشمس المشرقة. كان قد شُيّد في الأيام السابقة، وهو بناء ضخم من الخشب والحديد يمكن أن يتحمل أكثر من مئة ترس صغير، كل واحد منها لا يتعدى حجمه حجم رأس رجل. وحوله، كان ألف موقد حديدي ينفث دخاناً في الهواء، حيث تُطهى الأطعمة لأولئك الذين يشاهدون. كانت رائحة الضأن والبصل المقلّي قوية حول المخيم، ولم تُفسد معرفة أن الحرب الأهلية كانت في الليلة الماضية قاب قوسين أو أدنى شهيتهم، أو تخلق الضحكات لدى رؤية المصارعين وهم يتدربون مع أصدقاءهم على العشب الجاف. كان يوماً مبهجاً، والشمس قوية خلفهم، فيما كانت الأمة تستعد للاحتفال بخان جديد.

الفصل السابع



وقف خاسار مع تسعة من أفضل رماة فرقته منتظراً دوره. كان عليه أن يكافح ليحظى بالهدوء الذي يحتاج إليه، وسحب ببطء أنفاساً طويلة حين رفع الأسهم الأربعة التي أُعطيَ إياها. نظرياً، كانت كلها متماثلة، ومن نتاج أفضل صانع سهام في القبائل. ومع ذلك، كان خاسار قد رفض أول ثلاث مجموعات سلّمت إليه. حدث ذلك جزئياً بسبب عصبته، لكنه لم يكن قد نام، وكان يعرف أن هذا اليوم سيكون عصبياً. كان يتعرّف آنذاك أكثر من المعتاد، فيما يشعر بالآلام في أنحاء جسده. والعزاء الوحيد لديه أن كل الرماة الآخرين بقوا مستيقظين أيضاً. بالرغم من ذلك، بدا الشباب مشرقى الوجوه ومرحين حين شاهدوا شحوب الرجال الأكبر سناً. بالنسبة إليهم، كان هذا اليوم يومَ إظهار الإمكانيات الرائعة، وفرصة أفضل مما يأملون للفوز بميداليات تيموج التقديرية الذهبية، والفضية، والبرونزية، التي تُقش على كلٍ منها وجه أوجيدي. وفي أثناء انتظاره، تساءل خاسار عما كان تشاغاني سيفعله لو نجح في مسعاه. لا شك في أن الأقراص الثقيلة كانت ستصادر هدوءه وتضيق. هزّ خاسار رأسه لطرده تلك الفكرة من ذهنه، فقد كان يعرف تشاغاني جيداً، ولا بدّ أنه سيقرر استخدامها على أيّ حال. لم يكن الرجل يشعر بالخرج من الأشياء الصغيرة، وفي ذلك على الأقل، كان الابن الحقيقي لوالده.

كان الاحتفال سيدوم ثلاثة أيام، لكن أوجيدي سيصبح بخاناً عند غروب شمس اليوم الأول. وقد رأى خاسار آنذاك تيموج يجري محاولاً تنظيم المسابقات حتى يستطيع كل أولئك المؤهلين للمنافسة القيام بذلك. كان تيموج قد اشتكى لخاسار بشأن الصعوبات، وقال شيئاً عن رماة يشاركون أيضاً في مسابقات

الأحصنة، وعن عدائين يصارعون، لكن خاسار أبعد عنه مفضلاً عدم الاستماع إلى تفاصيل مملّة، وافترض أن أحداً ما يجب أن ينظم كل ذلك، لكنه لم يبدُ له عمل محارب. بدا ذلك مناسباً تماماً لشقيقه المثقف الذي بالكاد يجيد استخدام القوس أفضل من طفل.

نادى الحكم: "تقدموا إلى الأمام، فرقة بيرسكين".

نظر خاسار إلى الأعلى منتشلاً نفسه من أفكاره ليشاهد المسابقة. كان جيبي رامياً ماهراً، واسمه يعني السهم؛ وقد أطلق عليه بعد أن سدّد رمية أوقعت حصان جنكيز. كان ما قاله الحكم يعني أن رجاله سيشاركون في النهاية. لاحظ خاسار أن جيبي لا يعاني كما يبدو من أيّ مشكلة بعد الجهد الذي بذله في الليلة الماضية؛ إذ قاتل طوال الليل لإنقاذ أوجيدي. شعر خاسار ببعض الحسد، وتذكر حين كان بمقدوره هو أيضاً أن يمتطي حصانه طوال الليل ويقاوم في اليوم التالي؛ من دون استراحة أو طعام باستثناء بضع جرعات من الشراب الأسود والدم والخليب. لكنه كان يعرف أنه لم يُضِع الأوقات الجيدة، سدى. فقد سبق له أن قهر أمماً مع جنكيز، وجعل إمبراطور تشن يخضع لهم. كانت تلك أكثر اللحظات فحراً في حياته، لكنه نسي الحصول على بضع سنوات إضافية من القوة، من دون الطقطقة المؤلمة في وركه في أثناء اعتلائه صهوة الحصان، أو الركبة المتقرّحة، أو حتى الكنسل الصغيرة القاسية تحت كتفه حيث انكسر طرف رمح قبل سنوات. حكّ البقعة من دون اهتمام، في حين جعل جيبي الرجال التسعة الذين معه ينتظمون في صفّ، بعيدين مئة خطوة عن جدار الرماية؛ حيث بدت الأهداف صغيرة من تلك المسافة. ضحك جيبي على شيء ما قاله أحد رجاله وربّت على ظهره، وراقب خاسار القائد وهو يحمل ويطلق السهام من قوسه ببطء عدّة مرات، ثم يحرك كتفيه. كان آلاف المحاربين، والنساء، والأطفال قد اجتمعوا ليشاهدوا الحدث، والتزموا الهدوء والصمت فيما انتظر الفريق أن يهدأ الهواء.

سكن الهواء تماماً، وبدا أن الشمس تشتد على جلد خاسار. كان الجدار مينياً في مكان يجعل ظلال رماة السهام طويلة، لكن تسديدهم لن يتأثر بالضوء. لقد حطت تيموج لمثل تلك التفاصيل الصغيرة.

قال جيبي من دون أن يدير رأسه: "هل أنتم مستعدون؟".

وقف رجاله على جانبيه، وكلٌّ منهم يشدُّ سهماً على الوتر، وثلاثة أسهم أخرى على الأرض أمامه. لم يكن هناك ما يشير إلى الأسلوب، وإنما الدقة فقط. لكن خاسار كان يعرف أن جيبي سينفذ ذلك بسلاسة قدر المستطاع؛ وكانها قضية كبرياء.

صاح الحكم: "ابدأوا!"

راقب خاسار باهتمام أفراد الفريق وهم يزفرون معاً. شدّوا السهام في الوقت نفسه، ثم أطلقوها قبل أن يسحبوا النّفس التالي. طارت عشرة سهام في مسار مقوّس قليلاً، وبدت مثل نقاط في الهواء قبل أن تصيب أهدافها على الجدار. ركض مزيد من الحكماء، ورفعوا أعلاماً للدلالة على دقة الضربات، وانتقلت أصواتهم في الهواء الساكن وهم يقولون: "تبرحي!" عن كل إصابة في وسط الهدف.

كانت تلك بداية جيدة؛ عشرة أعلام. كسّر جيبي لرجاله وأطلقوا السهام مجدداً حين ابتعد الحكماء. كان عليهم أن يصيبوا ثلاثاً وثلاثين درعاً بأربعين سهماً للانتقال إلى الجولة التالية. جعلوا الأمر يبدو سهلاً، وحققوا ثلاثين إصابة ممتازة، وأحققوا مرتين فقط ليسجلوا ثماني وثلاثين إصابة. هزل الحشد، فيما حدّق خاسار إلى جيبي حين تراجع إلى الخلف بين المنافسين الآخرين. كانت أشعة الشمس حارة، لكنهم كانوا يفيضون حيوية.

لم يفهم خاسار لماذا ترك أوجيدي تشاغاتي حياً. لم يكن ليختار ذلك، لكنه لم يعد أحد أفراد الحلقة الضيقة حول الخان، كما كان مع جنكيز. هزّ كتفيه غير مبالٍ من تلك الفكرة. كان تسويودي أو كشيون سيرف، فهما يعرفان دائماً، وسيخبره أحدهما عن ذلك.

رأى خاسار تشاغاتي قبل انضمامه إلى الرماة بقليل. وكان الشاب يستند إلى زريبة خشبية، وهو يشاهد المصارعين وهم يستعدون مع بعض من أتباعهم. لم يكن تشاغاتي يبدو متوتراً على نحو ظاهر للعيان، وعندها فقط بدأ خاسار يسترخي. بدا أن أوجيدي قد انتصر بأسلوب سلمي؛ على الأقل في هذا الوقت. أبعد خاسار مثل تلك الأفكار عن ذهنه؛ وهذه مهارة يتمتع بها منذ وقت طويل. وبطريقة أو بأخرى، بدا أن ذلك اليوم سيكون رائعاً.

بجانب أسوار كاراكوروم البيضاء المنخفضة، انتظر أربعون فارساً إشارة البدء. كانوا قد اعتنوا بأحصنتهم وعالجوا حوافرها بالزيت في الأيام التي سبقت الاحتفال. ولكل فارس منهم حميته السرية الخاصة بحصانه والتي تضمنها أسرته ليتمتع حصانه بقدرة على التحمل سيحتاج إليها لقطع مسافات طويلة.

مرّر باتو أصابعه على عُرف حصانه، وهي عادة عصبية أخذ يكرّرها كل بضع دقائق. كان واثقاً أن أوجيدي سيراقب السباق، فقد أشرف عمه على تدريبه مع الفرق، وأطلق يد ضباطه في التعامل معه بقسوة بالغة، ثم أرغمه على دراسة كل معركة وتكتيك في تاريخ الأمة. تألم كما هي حاله دائماً تقريباً طوال أكثر من ستين. هذا ذلك واضحا في العضلات البازرة حديثاً على كتفيه وفي اهتلاسين الداكنين تحت عينيه، لكن ذلك لم يضعه سئى. فقد كان كلما أتقن عملاً أو أتجز مهمة، يُنقل مجدداً بأمر من أوجيدي.

كان السباق في هذا اليوم إيقافاً سيئا لتدريبه. عقد باتو شعره إلى الخلف، حتى لا يلسع وجهه ويزعجه في أثناء السباق. عرف أن لديه فرصة للفوز، فهو أكبر سناً من الفتية الآخرين، ويُعتبر رجلاً راشداً، بالرغم من أن جسمه نحيل مثل جسم والده. وبالرغم من أن الوزن الإضافي سيكون عاملاً مهماً في تلك المسافة، إلا أن حصانه قوي حقاً، وقد أثبت سرعته وقوة تحمله، فهو صغير: عمره ستان؛ وينطلق بسرعة كبيرة، وبرشاقة، وهو على أهبة الاستعداد مثل فارسه.

نظر إلى حيث أدار نائبه حصاناً صغيراً شاحباً في مكانه، والتقت عيناه عيني باتو مجدداً وأوماً. ومضت عين زان الكفيفة البيضاء عليه، وهي تعكس شعوره بالإثارة. كان زان صديق باتو في الوقت الذي لم يكن أحد فيه إلا والدته يعرف خزي ولادته والعار الذي ألحقه به اسمه. وقد ترعرع أيضاً مع كراهية قاسية، وتعرض للضرب والتعذيب من قبل فتية الدم النقي الذين سخروا من جلده الذهبي وملامح تشن الرقيقة. كان باتو يعتبر زان شقيقاً له تقريباً: فهو نحيل وعنيف، وتعمل في نفسه كراهية تكفي كليهما.

كانت بعض الفرق العسكرية قد قدّمت مجموعات من الفرسان، وثنى بساتو أن يكون زان وحده كافياً لإحداث فرق. فإن كان قد تعلم أي شيء من مصير والده، فهو ضرورة الفوز؛ بغض النظر عن طريقة تحقيق ذلك. لم يكن مهماً

بالنسبة إليه إن تأذى شخص آخر، أو قُتل. وإذا فاز، فسُيُصفح عن أي شيء قام به، ويمكن أن يؤخذ من خيمة بالية ويرتقى الصفوف حتى يطبع ألف رجل أمره؛ وكأنه جاء من نسل الخان نفسه. نسبٌ وموهبةٌ بُنيت الأمة على كليهما.

عندما تقدم الحكم إلى علامة البداية، اجتاز قارس آخر حط باتو؛ وكأنه لا يستطيع السيطرة على حصانه. ركل باتو حصانه فاندفع إلى الأمام على الفور، واستخدم قوته ليدفع الفئق بعيداً، واتضح له أنه ستان من يورياخي طبعاً. كانت قبيلة تسوبودي القليلة شوكة في خاصرته منذ أن عاد قائدهم الياسل إلى جنكيز حاملاً رأس والد باتو. وقد رأى كراهتهم الصامتة له مرة منذ أن قام أوجيدي بترقيته. لم يكن ذلك يعني أنهم واضحوث في ازدرائهم له أو في ولائهم المطلق لنسبهم. كان جنكيز قد حظر الروابط القبلية في أمته الجديدة، لكن باتو ابتسم حين فكّر في غطرسة جدّه؛ وكان أي شيء مهم باستثناء النسب، وربما كان ذلك ما نسيه والده جوشي حين تمرد وأهدر حق باتو المكتسب بالولادة.

كان المثير للسخرية أن يورياخي لا تزال تحمل أخطاء الوالد للابن. لم يكن جوشي قد عرف أن الخطأ الذي ارتكبه مع عذراء أدي إلى إنجاب ولد. ونظراً إلى أنها فتاة غير متزوجة، لم يكن لوالدة باتو أي حق على جوشي، وقد ازدرتها أسرتها، وأرغمت على العيش في أطراف المخيم، لكنها ابتسحت حين أصبح جوشي منبؤداً، وقائداً خائناً، وملاحقاً بقصد قتله، ثم سمعت أن الخان العظيم أمر بأن يصبح كل أبناء العلاقات خارج إطار الزوجية شرعيين. كان باتو لا يزال يتذكر الليلة التي أدركت فيها أنها قد فقدت كل شيء، وكيف احتست الشراب حتى الثمالة، ثم جرحت معصمها واهنة بسكين طهي، لكنه غسل جرحيها وضمّدهما بنفسه.

لم يكن أحد في العالم يكره ذكرى جوشي مثل ابنه. ومقارنة باللهيب الأبيض الحارق ذاك، كان أبناء يورياخي ببساطة حشرات عثٍ ستحترق بذلك اللهب. شاهد باتو بطرف عينيه الحكم وهو يبسط علماً طويلاً من الحرير الأصفر. كان كل رجال والده قد تركوا زوجات وأولاداً خلفهم في مخيم جنكيز، وزان أحد أولئك الأطفال الذين تمّ التحلي عنهم. وبالرغم من أن بعضهم قد عادوا مع تسوبودي، إلا أن والد زان مات في مكان ما بعيداً، وضاعت جثته في أرض

غريبة. كان هذا الأمر أحد تلك الأشياء التي تجعل باتو لا ينسى ذكرى والده. يوماً نفسه، وبدا شيئاً جيداً بالنسبة إليه أن لديه أعداء في مجموعة الفرسان، فهو يتغذى على كراهيتهم، ويضيف إليها فيصبح بمقدوره امتصاص القوة من سخريتهم، وازدراوتهم، وضرباتهم، وخذعهم الماكرة. فكّر مرة أخرى في البراز الذي كان قد وجده في أكياس طعامه ذلك الفجر، وشعر وكأن جرعة من الشراب الأسود تجري في دمه. كان سيفوز بالسباق لهذا السبب. فهو يفقد حصانه مع الكراهية التي توجع مشاعره، وتمنحه قوة لا يمكنهم إلا أن يتخيلوها.

رفع الحكم العلم، ولامس باتو وركبي حصانه حين مال إلى الخلف، مستعداً للاندفاع إلى الأمام. نزل العلم إلى الأسفل؛ علمٌ حَقَاق يبدو كالذهب تحت شمس الصباح. وكل باتو حصانه بقدميه، وسرعان ما أخذ حصانه يعدو. لم يتقدّم في الطبيعة، بالرغم من أنه كان واثقاً تقريباً أن بمقدوره جعلهم يراقبون ظهره كل الطريق حول المدينة. وبدلاً من ذلك، جعل حصانه يحافظ على سرعة ثابتة في وسط المجموعة. كانت مسافة ست دورات حول كاراكوروم تبلغ ثمانية وأربعين ميلاً؛ ليس حرياً بأقصى سرعة، وإنما بحرصٍ احتيازي لتحمّل. كانت الأحصنة من النوع المخصص لذلك ويمكنها أن تتحمّل المسافة، وتظهر المهارة في مناورات الفتية والرجال على صهواتها. شعر باتو أن ثقته بنفسه تزداد، فقد كان قائد ألف يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً، ويمكنه امتطاء حصانه طوال اليوم.

رفع ألف وأربعة وعشرون رجلاً من الأمة أذرعهم اليمنى إلى الحشد استعداداً لأول جولة ضخمة من المصارعة. كان اليوم الأول سيشهد خسروج المصايين، والكبار في السن، أو ببساطة أولئك غير المخطوظين. لم تكن هناك فرصة ثانية، ومع عشر جولات يجب اجتيازها، سيشارك في اليومين الأخيرين أولئك الذين انتصروا في اليوم الأول بأقل أضرار ممكنة.

اختار المحاربون المنافسين الذين يفضلونهم. وطوال أيام، تدفقت أعداد كبيرة منهم إلى ساحات التدريب، لتقييم نقاط الضعف والقوة، وللبحث عن أولئك الذين يستحقون الرهان عليهم وأولئك الذين لن يصمدوا في الاختبار المضني.

لم يكن أيُّ من القادة سيشارك في هذا الجزء من الاحتفال، فقد كانوا أكثر وقاراً من أن يسمحوا لشبان برميهم على الأرض وكسر عظامهم. ومع ذلك، جرى تأخير أول جولة مصارعة حتى يستطيع خاسار وجيبي الأشتراك في منافسة الرماية. كان خاسار معجباً جداً بالمصارعة، وتكفل برعاية الرجل الذي لم يرغب أي محارب في مواجهته في الجولات الأولى. كان بابغي - الدب - من تشن، لكن بنيته قوية مثل أي مصارع مغولي. اهتمم الرجل الأورد^(*) للحشد الذي هتف باسمه، ووصل الرهان عليه إلى قطعان من أفضل الجياد، لكن عشر جولات أو إصابة ربما ستجعله ينهار؛ حتى الصخرة يمكن أن تتشقق بضربات كافية.

أنهى كلٌّ من خاسار وجيبي الجولة الأولى، ثم جعلوا حصانيهما يعدوان حياً فوق أعشاب الصيف إلى حيث ينتظر المصارعون بنفاد صر تحت أشعة الشمس؛ وكذلك فعل أعضاء فريقيهما.

حنا رماة السهام على بسطٍ من اللباد الأبيض، ووضعوا أقواسهم الثمينة بحرص بجانبهم، منزوعة الأوتار مسبقاً ومغلقة بالصفوف والجلد.

نادى خاسار الرجل الضخم الذي كان قد عثر عليه ودرّبه: "بابغي!". كان بابغي يتمتع بقوة ثور، لكنه من دون عقل، ويبدو أنه لا يشعر بأي ألم. وفي كل جولاته السابقة، لم يظهر عليه قط أي انزعاج، وبدا أن صفة تبدد الأحاسيس تلك أكثر ما يخيف منافسيه الذين لم يروا سبيلاً لإلحاق الأذى بالأحمق. كان خاسار يعرف أن بعض المصارعين يدعونه الفارغ بسبب ذكائه المتدني، لكن بابغي لم يكن يشعر بالإهانة من أي شيء، وإنما يبتسم فقط ويرميهم بعيداً.

انتظر خاسار نافذ الصبر انتهاء أغنية البداية، وتعال أصوات المصارعين الجشّاء حين أقسموا على الوقوف على الأرض بثبات، والبقاء أصدقاء سواء أمكنوا من الانتصار أم هُزموا. لم تكن هناك أغاني أخرى في الجولات اللاحقة. كان خاسار يفضل الأغاني الأخرى، واستمع من دون اهتمام إلى تلك الأغنية وهو ينظر إلى السهول.

(*) الأورد: من فقد أسنانه كلها.

في تلك الأثناء، كان أوجيدي في كاراكوروم يغتسل، ويدهن جسده بالزيت، ويتأنق من دون شك. وكانت الأمة تحتسي الشراب، ولو لم يكن خاسار مشاركاً في جولات الرماية، لانضم إلى رجاله.

شاهد باغي وهو يحقق أول انتصاراته. لم يكن الرجل الضخم سريعاً جداً، لكن ما إن يصبح منافس ما في تناول يديه، ويتمكن من الإمساك به، حتى ينتهي الأمر. كانت أصابع باغي قصيرة وبديئة، ويدها تبدو دائماً وكأنهما متورمتان على نحو سيء، لكن خاسار كان قد اختبر قوة يديه وراهن بمبلغ كبير عليهما.

انتهت أولى جولات باغي بعد أن خلع كتف منافسه، وأمسك بمعصمه ثم رمى بثقله على ذراعه. هُلك الخشد، وفُزعت الطبول، ودُقَّت الأجراس إعجاباً، فابتسم باغي لهم وهو يبدو مثل طفل ضخم. لم يتسع خاسار إلا أن يضحك بصوت خافت من السعادة البسيطة التي ظهرت على وجه المصارع. بدا له أن اليوم سيكون رائعاً.

لم يصرخ باتو حين حُلِّده سوط على وجنته، وشعر بوجنته حيث لسعه السوط تتورم، ويجلده يصبح ساخناً، كما شعر بالغضب الشديد. كان السباق قد بدأ على نحو جيد، وتحرك باتو ليصبح ضمن أول ستة متبارين مع بدء الدورة الثانية حول المدينة. كانت الأرض أقسى وأكثر جفافاً مما توقع، وهذا الأمر يناسب جيداً أكثر من أخرى. وعندما سلكوا الطريق نفسه في الدورة الثالثة، جعل الغبار جلدهم أبيض، وأصبح اللعاب في فم كل منهم مثل عجينة ملأى بالرمل. ازداد شعورهم بالعطش بفعل أشعة الشمس الحارقة، حيث إن الأشخاص الأضعف هُتوا كثيراً.

انخفض باتو حين صُوب السوط إليه مجدداً، وكان عبارة عن قطعة من الجلد المدهون بالزيت. رأى أنّ أحد أفراد يوربانخي إلى يمينه. كان الفتي أشعث، ونحيل، ويمتطي سهوة حصان قوي. ويبدو أنه هو من كان يجلده بالسوط. لاحظ باتو بعينه الدامعتين أن الحيوان ضخم، وأن الفتي يشعر بمتعة شديدة وهو يُعيد ذراعه إلى الخلف ليجلده مرة أخرى. وبالرغم من وقع الحوافر القريبة من بعضها، سمع باتو أحد الفتي الآخرين يضحك فشر بغضب عارم. لم يقودوا كتيبة من الرجال

كما يفعل هو، ولماذا سيهتم بدم يورباغني، باستثناء أن يراه يراق على التراب؟ نظر إلى زان الذي كان يتسابق قريباً منه، وبدا صديقه مستعداً لمساعدته، لكن باتو هز رأسه مراقباً فتى يورباغني طوال الوقت.

عندما ضرب بالسوط مجدداً، رفع باتو ذراعه ببساطة، فالتف الجلد المسدود بالزيت حول معصمه، وما كان من باتو إلا أن قبض على جزء منه. فغر الفتى فمه، لكن بعد فوات الأوان، فقد شدَّ باتو بعنف، مستخدماً كل ثقله وقوته وقاد حصانه بعيداً في اللحظة ذاتها.

كاد الركب أن يتخذ الفتى، وتأرجحت إحدى ساقيه لحظة، لكنه وقع بعد ذلك تحت الحوافر وصهل حصانه ووثب، وكاد أن يطرح أرضاً فارساً آخر صرخ غاضباً. لم ينظر باتو إلى الخلف، وطمأنى أن يكون السقوط قد قتل الوغد الصغير، ولاحظ أن الفتية في المقدمة قد توقفوا عن الضحك.

كان خمسة من فرسان يورباغني قد شاركوا في السباق، وبالرغم من أنهم جاءوا من فرقتين، إلا أنهم قادوا أحصنتهم تلقائياً كمجموعة. كان باتو قد جمعهم معاً بطريقة ما بتحدثهم، وكراهيتهم له. كان ستان من يورباغني يقودهم، وهو رجل طويل القامة ورشيق الجسم، عيناه تدمعان بفعل أهواء، وشعره المجدول يتدلى على ظهره. تبادل مع أصدقائه نظرات حين اجتازوا بوابة كاراكوروم الغربية للمرة الرابعة. كانت لا تزال أمامهم ستة عشر ميلاً يقطعونها، وصارت أهواء الأحصنة بيضاء من الزبد، وجلدها داكناً ومغطى بالعرق. تقدم ستانو وزان إلى الأمام للمنافسة على الصدارة.

استطاع باتو أن يرى فرسان يورباغني ينظرون إليه، وتوثق أن يظهر وجهه حالياً من أي تعبير حين اقترب منهم. خلف المجموعة التي كانت تتنافس في الأمام، اصطف ثلاثون حصاناً مثل ذيل طويل؛ وهي تعدو.

كان حاسار لا يزال يتسم حين مشى عائداً إلى سور الرماية، حيث ينتظره الحكام والحشود نافدي الصبر. تجاهل نظراتهم حين سار بخطوات واسعة إلى الخط وشدَّ وتر قوسه. وبصفته شقيقاً لجنكيز وأحد مؤسسي الأمة، لم يكن ليهتم إطلاقاً إذا أزعج الضباط، أو أفسد تنظيم تيموج الرائع.

كان رجال جيبي قد أطلقوا سهامهم في الجولة الثانية وكان قائدهم يقف مسترخياً، مما يدل على ثقته بنفسه. عبس خاسار في وجه الرجل الأصغر سناً. لكن، بدا أن هذا الأمر جعل جيبي يضحك بصوت خافت. سيطر خاسار على مشاعره، إذ إنه يعرف أنه سينقل مزاجه إلى مجموعته من الرماة. لم يكن أحد في جولات الرماية رامياً ضعيفاً أو سيئاً، ولم يكن أي رجل هناك يخامر شك في أن بمقدوره الفوز في اليوم المناسب. كان عنصر الحظ موجوداً دائماً؛ إذا تغير اتجاه الهواء حين يُطلق السهم أو تشتتت عضلة الرامي. لكن الاختبار الرئيس يتمثل في قوة الأعصاب، وقد رأى خاسار رجاله يختبرونها عدّة مرات. كانوا رجالاً يستطيعون الوقوف ضد صفّ طويل من المقاتلين من دون وجل، فيما أيديهم تتعرق حين يمشون بصمت. وبطريقة ما، لم يكن بمقدورهم سحب نفس كامل؛ وكان صدورهم قد تورّمت حتى سدّت حناجرهم.

كان خاسار يعرف أن هذا الأمر جزء من سر التغلب على المشكلة، فسحب ببطء أنفاساً طويلة، وتجاهل الحشد، تاركاً رجاله ينظّمون أنفسهم ويهدأون. بدا أن الأهداف الأربعين على السور أصبحت أكثر قليلاً، وتلك صورة خادعة كان قد رآها سابقاً. نظر إلى رجاله وأحسنّ أنهم متوترون، لكن الهدوء باد على وجوههم. ثم: "تذكروا أيها الفتيان. كل منها عذراء، وجميلة، ومستعدة".

ضحك بعض رجاله بصوت خافت، وحركوا رؤوسهم، وحاولوا التخلص من أيّ توتر قد يفسد تسديدهم.

كشر خاسار لنفسه، وشعر أنه سواء أكان مرهقاً أم لا، عاجزاً أم لا، فإنه سيخوض مع جيبي جولة جيدة.

صرخ قائلاً: "هل أنتم مستعدون؟". ونظر إلى الراية العالية على سور الرماية. كان الهواء قد ثبت على سرعة معينة من الشمال الشرقي، فعدّل وقفته قليلاً. مئة خطوة، رمية كان قد أطلقها ألف مرة، لا بل مئة ألف مرة. سحب نفساً آخر طويلاً ببطء.

قال الحكم باقتضاب: "ابدأ".

شدّ خاسار أول أسهمه على الوتر، وأطلقه إلى التروس التي حدّدها لنفسه، فأصدر السهم طنيناً. انتظر حتى توثق أنه قد أصاب هدفه، ثم استدار وألقى

نظرة على جيبي، رافعاً حاجبيه. ضحك جيبي من التحدّي واستدار
مبتعداً.

كانت مجموعة الأحصنة التي تعدو وتتعرق قد توزعت مثل حبات خرز،
وكان لا يزال هناك ميل ممتد حول أسوار كاراكوروم، وثلاثة من فرسان
يوربانغي لا يزالون يتقدمون في الطليعة؛ صبيان مربوعا القامة يندفعان خلف
ستان نحو خط النهاية. كان باتو وزان قرييين منهم وقد وسّعت المجموعة المسافة
مع باقي الفرسان. بدا أن أحدهم سيحسم الأمر، وكانت أحصنتهم تصهل
لتنظيف أفواهها وخطومها، وهي تنشو المحاط وتنصبب عرقاً. كان هناك
محاربون يقفون قرب الجدران ليشاهدوا ما يجري، إضافة إلى آلاف من عمال
تشن، وكان اليوم احتفالياً لهم أيضاً، ويعني نهاية سنتين من العمل الشاق،
وأجاسهم مملوءة بالنقود.

كان باتو غافلاً عن المشاهدين، وعن كل شيء آخر باستثناء ستان ومرافقيه
الانئين. ارتفعت سحابة غبار من الأرض، حتى أصبح من الصعب رؤية ما كان
على وشك أن يفعله. تحسس جيوبه وأخرج حجرين صغيرين؛ حجرين لهريئين
أمسكهما بيده اليمنى. كان وزان قد ناقشا موضوع استخدام سكاكين أو ترويد
سوطه بشوكة، لكن مثل تلك الجروح ستكون ظاهرة للعيان، ولن يوافق عليها
بعض الحكام. ومع ذلك، عرض زان أن يُحدث جرحاً بليغاً في عتق ستان، فقد
كان يكره فتى يوربانغي طويل القامة الذي يفخر كثيراً بإنجازات تسوبودي، لكن
باتو رفض العرض؛ كي لا يخسر صديقه في عملية نأر. كان أمراً طبعياً دائماً أن
تتطير الحجارة في أثناء السباق بسبب حوافر الأحصنة. وإن رأى ستان ما يفعله
مع زان، فلن يجرؤ على تقديم شكوى؛ لأن هذا سيبدو تدمراً يجعل المحاربين
يسخرون منه.

عندما بدأوا الدورة الأخيرة، حرّك باتو الحجرين في يده. استطاع أن يبرى
وراء أحصنة السباق مصارعين يبدون مثل طيور ملوّنة فوق العشب، وخلفهم ظهر
سور الرماية. كان قومه قد خرجوا إلى السهول. وهو بينهم يتسابق بكل ما أوتي
من قوة، وانتابه شعور جيد.

ضغظ بركيته على حسد حصانه فاستجاب لذلك، بالرغم من أنه كان يلهث طلباً للهواء. تقدم باتو إلى الأمام وتبعه زان عن كئيب. لم يكن فارسا يورباغخي نائمين، وتحركا ليسداً الطريق ويمتعاها من الاقتراب من حصان ستان. ابتسم باتو لأقرب فتى، وحرك قمه وكأنه يقول شيئاً ما. وفي أثناء ذلك، جعلل حصانه يقترب منه.

حدق الفتى إليه فكشتر باتو وأشار بانفعال إلى شيء في الأمام، وراقب باهتمام حين مال الفتى أخيراً مقترباً منه لسمع ما كان باتو يصرخ به في الريح. هزُّ باتو يده بقوة وضربه بالحجر على جانب رأسه، فاحتفى الفتى على الفور تحت الحوافر، مخلفاً وراءه سحابة من الغبار فقط.

احتل باتو مكانه حين جرى الحصان من دون فارس أمامه. نظر ستان إلى الخلف ورآه قريباً جداً منه. كان الغبار يغطيهما، وأصبح شعر كل منهما أبيض اللون من التراب وكذلك بشرتاها. لكن بدا أن عيني ستان تلمعان من الخوف. ثبت باتو بصره على عينية، وحدق إلى باهتمام.

دفع فتى يورباغخي الآخر حصانه بينهما، وركل بقدمه باتو الذي كاد يسقط عن السرج. اضطر باتو إلى التثبث بعُرف حصانه بعد أن أفلتت قدماه من الركابين، وتحمل ضربات سوط مسعورة أصابته وحصانه على حدٍ سواء. ركل باتو بقدميه على نحو فطري فأصاب صدر الفتى، ومنحه ذلك الفرصة للجلوس مجدداً على سرجه. كان قد استعمل حجراً واحداً، وما زال لديه حجر آخر. وعندما استدار فتى يورباغخي إلى الخلف ليواجهه، رمى باتو الحجر بقوة، وصرخ الفتى حين رأى الحجر يصطدم بأنفه، ويجعل دماً أحمر قانياً يسيل على بشرته التي يغطيها الخبز الباهت مثل الحر يتدفق. تراسع الفتى إلى الخلف، وبقي باتو وزان مع ستان بمفردهما، قبل ميلين فقط من نهاية السباق.

عندما رأى ستان ما كان يحدث، دفع حصانه للانطلاق بأقصى سرعة لزيادة المسافة بينه وبينهما، وبدا أن تلك فرصته الوحيدة. كانت قدرة كل الأحصنة على التحمل قد شارفت على نهايتها، ومع صرخة غضب، بدأ زان يتراجع إلى السوراء. لم يكن في وسعه القيام بشيء، بالرغم من أنه رمى حجره بقوة من شدة الغيظ، واستطاع أن يصيب فخذ حصان ستان بواحدٍ منهما، في حين احتفى الثاني في الغبار.

أطلق باتو لعنة بصوت خافت. لم يكن بمقدوره أن يدع ستان يتركه خلفه، فركل حصانه وضربه بالسوط حتى أصبحت حنياً إلى جنب، ثم تقدّم باتو نصف ذراع. شعر بالقوة، بالرغم من أن رثيه كانتا مليتين بالغبار، ورغم أنه سيسعل طوال أيام قادمة.

أصبحت الزاوية الأخيرة في مرمى البصر وعرف باتو أنه سيفوز، لكنه كان يعلم منذ البداية أن الفوز لن يكون كافياً له. كان باتو متأكدًا من أن تسوبودي سيظهر على الأسوار، ومع اقتراب أحد أفراد قبيلته يوربانغي من حط النهاية، سيهتف القائد من دون شك تشجيعاً له. مسح باتو الغبار عن عينيه. لم يكن يحب ذكرى والده، لكن ذلك لم يغير من كراهيته للقائد الذي كان قد ذبح جوشي. فكّر في أن أوجيدي ربما سيكون هناك أيضاً، ليشاهد الشاب الذي جعله يرتقى الصفوف.

سمح باتو لستان بالاقتراب منه حين اندفعا نحو الزاوية. كان هناك عمود رخامي يعلوه تمثال لذئب حجري على حافة السور. قلبت باتو الموقف بدقة، وسمح لستان بأن يصل إلى جانبه، ويندفع على حصانه إلى جانبه تقريباً نحو حط النهاية، وشاهده يكشّر حين أحس بوجود فرصة للتغلب عليه.

وعندما وصلا إلى الزاوية، شدّ باتو لجام حصانه إلى اليمين، وجعل ستان يرتطم بالعمود. كان التأثير كبيراً، وتوقف كل من الحصان والفارس على الفور حين انكسرت ساق فتى يوربانغي وصرخ.

مضى باتو في سبيله مبتسماً، ولم ينظر إلى الخلف حين تلاشى الصوت العالي خلفه. وعندما عبر حط النهاية، تمّنى لو كان والده حياً ليرى ذلك، وليكون فخوراً به. كانت عيناه مملتين بالدموع ففر كهما بقوة، وحاول إقناع نفسه بأن هذا حصل بتأثير الريح والغبار.

الفصل الثامن



عندما انحدرت الشمس نحو الأفق، زفر أوجيدي ببطء. كانت هناك أوقات ظنّ فيها أنه لن يعيش ليقف في مدينته في هذا اليوم. كان شعره مدهوناً بالزييت ومربوطاً في عقدة عند قفا عنقه، وكان يرتدي ثوباً بسيطاً باللون الأزرق الداكن من دون تطريز، ويضع حزاماً، ويتشعل حذاءً طويلاً من جلد الغنم مثبتاً بشريط جلدي فوق طماقين. تحسّس سيف والده الذي كان يضعه على خصره، واستمد الراحة منه.

في الوقت نفسه، شعر بنوبة سحق من الخيارات التي تركها والده له. لو أن جوشي أصبح خاناً، لكان ذلك قد ثبت قاعدة الابن الأول. ولكن، بدلاً من ذلك، كان الخان العظيم قد جعل أوجيدي وريثه، وهو ثالث أبنائه الأربعة. وفي ظل ذلك الرجل، قد تذبذب سلالة أوجيدي نفسه. لم يكن بمقدوره أن يتوقع من الأمة أن تقبل ببساطة ابنه غويوك خاناً من بعده، فقد كان هناك أكثر من عشرين رجلاً آخر من صلب جتكيو، وتشاغاني أحد الأشخاص الأكثر خطورة. خاف أوجيدي على ابنه من خوض ذلك النزاع الشائك، لكن غويوك نجح حتى الآن، وربما يشير الأمر إلى موافقة أب السماء عليه. سحب أوجيدي نفساً ببطء.

أخبر تابعه: "أنا مستعد يا باراساغور. تراجع إلى الخلف الآن".

مشى بخطوات واسعة نحو بحر متعاطم من الضوضاء، إلى شرفة من خشب السنديان المصقول. أعلن قارعو الطبول لديه عن وصوله، وجار الحاربون في فرقة حراسه، وضربوا على دروعهم، فنحمت عن ذلك قعقة يمكن سماعها في كل أرجاء المدينة. ابتسم أوجيدي، وحيّاً الخشد حين جلس على مقعده الذي يطل على المدرج الكبير، وجلست زوجته توروجين بجانبه، في حين اعتنى باراساغور

بطيقات فستان تشن الذي ترتديه. مدُّ أوجيدي يده إليها من دون أن تراه الحشود التي ترافق ما يجري، فأمسكتها وضغطت عليها. كانا قد بقيا على قيد الحياة بعد سنتين من المؤامرات، ومحاولات التسميم، ومحاولات الاغتيال، وأحسراً العصيان المسلح. بدا وجه أوجيدي وجسده صارمين ومرهقين من الإجهاد، لكنه كان متمالكاً نفسه.

وفيما كان الحشد منتظراً بصبر، جاء المصارعون الذين نجحوا من الجولتين الأوليين ليأخذوا أماكنهم في وسط الساحة أسفل أوجيدي. كَوْنُ مثنان وستة وخمسون رجلاً نتائيات استعداداً لآخر نزالاتهم اليوم. انتشرت الرهانات في صفوف المشاهدين؛ من نماذج خشبية إلى عملة مطبوعة أو قطع نقدية من تشن. كان الرهان ممكناً على أي شيء في المسابقة، والأمة كلها تتابع المباريات. وقد خرج الآن الضعيف والمصاب، وكثير السن وحسن الطالع. كان أولئك الذين بقوا هم الأقوى والأسرع في أمة تبجل المهارة الجسدية وتفضلها على كل ما سواها، وهي أمة والده وصنيعته، ورؤيته للشعب: حضان ومحارب، سيف وقوس معاً.

استدار أوجيدي في مقعده حين خرج غويوك إلى الشرفة، وشعر بقلبه ينقبض فحراً وحنناً كما يحصل دائماً حين يرى الشاب. كان غويوك طويل القامة ووسيماً، ومناسباً لقيادة ألف، وربما لقيادة فرقة في وقت السلم. لكن، باستثناء ذلك، لم يكن يتمتع بميزة الوعي التكتيكي، أو اللمسة البارعة مع رجاله التي تجعلهم يلحقون به إلى ألسنة اللهب، وهو بكل الطرائق ضابط عادي، ولم يتخذ لنفسه زوجة واحدة بعد؛ وكان بقاء سلالة الخان لا تعني له شيئاً. كانت حقيقة أنه يشبه جنكيز بملامح الوجه والعينين تجعل تحمل ضعفه أصعب على والده، وقد انقضت أوقات لم يفهم أوجيدي ابنه فيها على الإطلاق.

اغتنى غويوك برشاقة تحية لوالديه وجلس على مقعده، وراح يتحدث مستغرباً إلى الحشد الضخم. لم يكن قد عرف الكثير عن النزاع الذي حصل في القصر. فقد حجز نفسه في غرفة مع صديقين له وبعض الأتباع، لكن أحداً لم يذهب إلى ذلك القسم من القصر. بدا واضحاً أنهم شربوا حتى الثمالة. وبالرغم من ارتياح أوجيدي لرؤيته حياً، إلا أن هذا الأمر يُلخّص حال ابنه؛ وهي أن أحداً لا يعتبر قتله أمراً يستحق العناء.

اندفع تيموج من الشرفة مسرعاً ومتوارياً عن الأنظار تقريباً ضمن مجموعة من
سعائه وكتابه، وسمعه أوجيدي يصدر الأوامر بصوته النزق، وسمح لنفسه بأن
يكشّر حين تذكّر الحديث الذي دار بينه وبين عمّه قبل أسابيع. وبالرغم من
مخاوف الأحمق العجوز، فاز أوجيدي في النهاية. وذكّر نفسه بأن يعرض مكيبات
كاراكوروم على تيموج مرة أخرى، عندما ينتهي الاحتفال.

بسبب انخفاض أسوار المدينة، كان بالإمكان رؤية بحر الأعشاب في الخارج.
لم يكن سينقضي وقت طويل قبل إشعال ألف مشعل، وتكوين شكل بواسطة
الضوء يمكن لكل الأمة أن تشاهده من السهول. تطلّع أوجيدي قدماً إلى تلك
اللحظة؛ فهي الإشارة الواضحة إلى أنه أصبح حائناً، والتي تعني أيضاً أن مدينة
كاراكوروم قد انتهى بناؤها أخيراً، بامتناء يقع الدم التي تنتظر المطر ليغسلها. ربما
كان ذلك مناسباً أيضاً.

بعيداً في الأسفل، أشار تيموج إلىحكام المصارعة. وبعد أغنية قصيرة للألم
الأرض، نفخ الحكام في أبواقهم وتلاحم الرجال معاً. كانت أيديهم وأقدامهم
تتحرك بسرعة للإمساك بمخضومهم أو الإفلات منهم. بالنسبة إلى بعضهم، انتهى
الأمر خلال لحظات، كما هي الحال مع خصم بابغي، أما الآخرون فقد أصبح
النزال بالنسبة إليهم اختباراً لقدرة التحمل، فلهثوا وتعرقوا، وظهرت علامات
حمراء طويلة على جلودهم.

نظر أوجيدي نحو الأسفل إلى ميدان الرياضيين، وكان يعرف أن تيموج قد
حطط لأدق تفاصيل المنافسات. وتساءل وهو يجلس مسترخياً عن قدرة عمّه على
إدارة الاحتفال كله من دون أخطاء، فقد كان قومه محاربين ورعاة حتى آخر رجل
وامرأة منهم؛ وليسوا أغناماً أبداً. ومع ذلك، بدت مراقبة ما يحدث ممتعة.

أغار الثنائي الأخير وهو يركل فيما كانت الحشود تصرخ. حقق الرجال
البائع عددهم مئة وثمانية وعشرين رجلاً الفوز، ووقفوا متوردين ومسرورين أمام
الأمة، وانحنوا لأوجيدي الذي لمحض على قدميه ورفع سيفه لهم مظهرًا سعادته.

صاح المزيد من الأبواق؛ أبواق تشن الضخمة المصنوعة من النحاس
والبرونز والتي ترسل نغمات عبر الميدان. تراجع المصارعون مبدؤ، وفتحت
البوابة الثقيلة على مصراعها، وكشفت عن الطريق المؤدي إلى المدينة خلفهم.

ركّز أوجيدي ليرى، وبذل ثلاثون ألفاً آخرون أفضل ما في وسعهم ليشاهدوا ما يحدث.

من بعيد، جاءت مجموعة من العذائين، وهم عراة الصدر في حرارة الصيف. كانوا قد ركضوا ثلاث دورات حول المدينة، وقطعوا مسافة أربعة وعشرين ميلاً، قبل أن يدخلوا عبر البوابة الغربية ويتجهوا إلى الساحة الرئيسة. انحنى أوجيدي قدر استطاعته ليراهم، وأبدى غيوبك اهتمامه بالأمر، فاشرباً عنقه إلى الأمام، ووجهه مشرق من شدة الإثارة. ألقى أوجيدي نظرة عليه وتساءل إن كان قد راهن بمبلغ ضخم.

لم يكن أفراد الشعب المغولي عثماني مسافات طويلة بطبيعتهم. فهم يتمتعون بقدرة التحمل، ولكنهم لا يتمتعون بالنية القوية، كما شرح تيموج مرة. كان بعضهم يعرجون على نحو واضح حين اقتربوا قبل أن يحاولوا إخفاء ضعفهم مع ازدياد الضوضاء حولهم.

أوماً أوجيدي لنفسه حين رأى تشاغاتي يتقدمهم، وبدأ أن شقيقه يجري بسلاسة، وأكثر رشاقة من معظم الرجال الآخرين. كان أوجيدي يخشاه، وبكره غطرسته أيضاً، إلا أنه لم يستطع إخفاء فخره لدى رؤيته شقيقه يتقدم الآخرين إلى المدرج، ويقفز على المسلك الترابي نحو وسط الساحة. بدأ تشاغاتي يتعد عن الآخرين، لكن محارباً صغيراً وهزلاً تقدم إلى الأمام متحدّياً إياه، وجرى كلاهما بأقصى سرعة حين لم تبق أمامهما مسافة طويلة.

وعندما أصبحا جنباً إلى جنب، شعر أوجيدي بقلبه ينبض بقوة، وبأنفاسه تتسارع. همس: "هيا يا شقيقي".

عبست توروجين التي كانت تجلس إلى جانبه، ويدها على العارضة الخشبية. لم تكن تهتم بالرجل الذي كاد أن يقتل زوجها، وبممكنها أن ترى بسعادة لمسرق قلب تشاغاتي أمام الحشد. وبالرغم من ذلك، شعرت بإثارة زوجها، وكانت تحب أوجيدي أكثر من أي شخص في العالم.

رمى تشاغاتي بنفسه إلى الأمام في الأمتار الأخيرة، وعبر خط النهاية متقدماً على متحدّيه بمسافة قصيرة. كان كلا الرجلين على وشك الانهيار، وكافح تشاغاتي على نحو ظاهر للعيان ليتنفس، وصدره يتحرك بقوة، لكنه لم يضع يديه

على ركبتيه. شعر أوجيدي بوخزة حينين حين تذكر كلمات والده حول الموضوع. إذا رأك منافس مستنداً إلى ركبتيك، فسيظن أنك قد هُزمت. كان ذلك صوتاً يصعب الهروب منه بمرور السنين، وتركه جنكيز خلفه.

بدافع اللياقة، لم يستطع غويوك أن يهتف لعمه، لكن جلده لمع بفعل العرق الخفيف. ابتسم أوجيدي له، وكان سعيداً لرؤيته ابنه مفتوناً بشيء ما، ولمنسى أن يكون قد فاز برهانه على الأقل.

احتفظ أوجيدي بمدونه حين صدحت الأبواق مرة أخرى، وأرسلت النغمات إلى عشرات الآلاف. أغمض عينيه لحظة، وراح يتنفس بعمق وببطء. أطبق الصمت على الخشيد.

رفع أوجيدي رأسه حين صرخ المناادي الرسمي بصوت حاد بالكلمات أخيراً: "أنتم هنا لتؤكدوا أن أوجيدي - ابن تيموجين الذي كان جنكيز - خان الأمة. إنه يقف أمامكم بصفته وريثاً اختاره الخان العظيم. هل من أحد يعترض على حقه في القيادة؟"

إذا كان هناك صمتٌ من قبل، فإن ما ساد لاحقاً هو سكون الموت؛ حين تحمّد كل رجل وامرأة. إذ لم يجرؤ أحد حتى على التنفس في أثناء الانتظار. تراجع غويوك إلى الخلف، ورفع يده ليلمس كتف والده، قبل أن يتراجع من دون أن يعرف والده بذلك.

استدارت آلاف العيون نحو تشاغانى الواقف على الأرض الترابية وصدره يعلو وينخفض، وهو مبلل بالعرق. فيما كان تشاغانى ينظر أيضاً نحو الأعلى، إلى أوجيدي الواقف على الشرفة المصنوعة من خشب السنديان، ووجهه فخور على نحو غريب.

انقضت اللحظة، وبدا إطلاق الزفير مثل نسيم الصيف، وتبعته موجة ضحك حين انفجرت أسارير الناس واحتفت تعابير وجوههم الصارمة بعد زوال توثرهم. تقدم أوجيدي إلى الأمام حتى يستطيعوا رؤيته. كان المدرج مبنياً وفقاً لتصميمات وضعها رجال دين نصارى جاءوا من روما إلى كاراكوروم. وكما كانوا قد وعدوا، بدا أن تصميم المدرج يضخم الصوت، ولهذا وصل صوته إلى كل أذن. أخرج السيف ذا مقبض الذهب من غمده ورفعها عالياً.

"سأقول قَسَمِي الخاص أمامكم. بصفتي خاناً، سأحمي شعبي حتى نصبح أقوى. لقد نعمنا بستوات عديدة من السلام، لنُدع العالم يخشى ما سيأتي لاحقاً". هلّوا ابتهاجاً بكلماته، وفي المكان المغلق بدأ الصوت هائلاً، وكاد أن يدفع أوجيدي إلى الخلف حيث يقف، واستطاع أن يشعر به على جلده مثل قوة مادية. رفع السيف مجدداً فصمتوا ببطء وتردد. في الأسفل، في الميدان، ظنّ أن شقيقه قد أوما إليه. كانت الأسرة بالفعل شيئاً غريباً.

صرخ لقومهم "الآن، سأقبل قَسَمكم".

رفع المنادي عقوبته بالغناء: "تحت خان واحد نحن أمة".

كان وقع الكلمات على أوجيدي عظيماً، فأمسك السيف بقوة أكبر، وتباطأت ضربات قلبه حتى ظنّ أن بمقدوره الشعور بكل حقيقة. صرخ المنادي مرة أخرى لإنهاء القَسَم: "أقدم لكم حياتاً، وحيولاً، وملحاً، ودماً، بكل كرامة".

أغمض أوجيدي عينيه. كان صدره يرتعش، وشعر بأن رأسه قد تورّم وأصبح غريباً. كادت نوبة ألم حادة تجعله يقع حين الثوت ذراعاً اليمين. وأضحى ضعيفاً فحاة، وتوقع أن ينتهي الأمر آنذاك.

وعندما فتح عينيه، اكتشف أنه لا يزال حياً، بل لقد أصبح خان الأمة، من سلالة جنكيز. اتضح رؤيته ببطء، وسحب نفساً عميقاً من هواء الصيف، وشعر بأنه يرتعش. وأحسن بأن الوجوه البالغ عددها ثلاثين ألفاً قد استدارت إليه. ومع استعادته قوته، رفع ذراعيه فجأة ابتهاجاً.

كاد الصوت الذي تبع ذلك يصبم أذنيه، ورددته باقي الأمة التي تنتظر خارج المدينة. سمعوا واستجابوا، وبدأت المشاعر تُضاء من أجل الخان الجديد.

تلك الليلة، مشى أوجيدي عبر أروقة قصره، وغويوك إلى جانبه. وبعد إثارة النهار، لم يستطع أي من الرجلين النوم. كان أوجيدي قد وجد ابنه يلسه مع حراسه واستدعاه لمرافقته في إشارة نادرة من أب إلى ابنه، لكنه بدأ تلك الليلة في سلام مع العالم. بطريقة ما، لم يكن بمقدور الإرهاق النيل منه، بالرغم من أنه لا يتذكر بوضوح متى نام آخر مرة. كانت الكدمة على وجهه قد تورّمت وتلوّنت،

وقد أخفيت من أجل أداء القسم بمسحوق باهت اللون، لكن أوجيدي لم يعرف أنه قد كسطنها حين حك جلدته.

أصبحت الأروقة منعزلة، وتفضي إلى حدائق القصر الوادعة والهادئة. كان القمر مخفياً خلف الغيوم، فلم يتمكننا من رؤية شيء إلا الدروب؛ وكأهنا بمشيان على خيوط باهتة في الظلام.

قال غويوك: "أفضل أن أذهب معك يا أسي، إلى أراضي تشن".

هز أوجيدي رأسه وقال: "ذلك هو العالم القديم يا غويوك. وهذه المهمة بدأت قبل أن تولد. شارسلت مع تسوبودي، وسترى أراضي جديدة برفقتي، وستجعلني فخوراً بك من دون شك".

سأل غويوك: "أست فخوراً أسي الآن؟". لم يكن يرغب في طرح السؤال. لكن، نادراً ما تستي له أن يكون وحده مع والده، ولهذا عثر عن أفكاره بصوت عال. لم يجب أوجيدي على الفور؛ مما سبب له الانزعاج.

"... طبعاً. لكن فخري بك فخر والدي يا غويوك. إذ كنت تنوي أن تخلفني كخان، فيجب أن تقود محاربي في معركة. ينبغي لك أن تجعلهم يرون أنك لست مثلهم. هل تفهم؟".

رد غويوك: "لا، لا أفهم. لقد فعلت كل ما قد طلبته مني، وقصدت فرقتي طوال سنوات. رأيت فرو الدب الذي أحضرناه. لقد حملته إلى المدينة على رمح وحياتي العمال".

كان أوجيدي قد سمع كل التفاصيل، وكافح ليتذكر كلمات والده بشأن ذلك الموضوع.

"أصغ إلي. لا يكفي أن تقود مجموعة من الشباب في رحلة صيد، وتجعل الأمر يبدو وكأنه انتصار عظيم. لقد رأيتهم معك، مثل... كلاب، مثل جراء".

رد غويوك: "طلبت مني أن أختار رجالي، وأجعلهم يرتقون الصفوف بنفسي".

ظهرت نبرة حزن في صوته، ووجد أوجيدي نفسه يزداد غضباً. لم يعثر على كلمات مناسبة ليصف انزعاجه، لكنه لم يكن معجباً برفاق ابنه.

"لن تقود الأمة بالاستماع إلى الأغاني وإقامة الحفلات يا بني".

توقف غويوك فجأة، واستدار أوجيدي ليواجهه.

قال غويوك: "هل تؤبني على احتساء الشراب؟ ألم تخبرني مرة أن الضابط يجب أن يكون قادراً على بھارة رجاله، وأتني يجب أن أعتاد ذلك؟".
وحل أوجيدي حين تذكر الكلمات. "لم أكن أعرف حينها أنك ستمضي أباماً في حفلاتك، وستأخذ رجالاً من تدریبهم. كنت أحاول أن أجعلك محارباً، وليس لثلاً أحمق".

قال غويوك بھدة: "حسناً، لا بدّ من أنك قد فشلت، إذا كان ذلك ما أنا عليه فعلاً". همّ بمغادرة المكان، لكن أوجيدي أمسكه من ذراعه وقال:
"لم أفشل با غويوك. متى انتقدتک؟ هل اشتكيت من أنك لم تمنحني وريشاً؟ لا، لم أفعل. لم أفعل شيئاً. أنت صورة عن والدي. هل يفاجئك إن كنت أبحث عن شرارة منه فيك؟".

أفلت غويوك من قبضته في الظلام، وجمع أوجيدي أنفاسه تصبح حشنة.
قال غويوك أخيراً: "لدي شخصيتي الخاصة. لست هرعاً ضعيفاً من سلالة جنكيز، أو سلالتك. لا تحاول أن تجعلني مثل جدتي. حسناً، كُفّ عن ذلك، فلن تجده هنا".

شرع أوجيدي بالكلام بھدداً: "غويوك...".

رد ابنه: "سأذهب إلى تسوبودي؛ لأنه سيغادر بعيداً عن كاراكوروم. ربما عندما أعود، ستجد شيئاً تحبه في".

مشى الشاب ببطء على الدروب المضاعة، في حين حاول أوجيدي الحفاظ على هدوئه. كان قد حاول إسداء ابنه نصيحة صغيرة، لكن المحادثة خرجت عن سيطرته بطريقة ما. وفي مثل هذه الليلة، كان هذا الأمر جرعة مرّة يتناولها قبل النوم.

انقضى يومان آخران من الولايم والاحتفالات قبل أن يستدعي أوجيدي أبرز رجاله إلى القصر. جلسوا أمامه وعبوهم محتقنة، ومعظمهم لا يزالون يتعرقون بسبب تناول الكثير من اللحم، والشراب الأسود، وشراب الأرز. وعندما أمعن أوجيدي النظر إليهم، رأى أنهم يكونون مجلساً من النوع الذي يستخدمه أمراء

تشن لحكم أراضيهم. وبالرغم من ذلك، كانت الكلمة الأخيرة دائماً للخان، ولا يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى.

نظر عبر الطاولة - متجاوزاً تشاغاتي وتسوبودي وعمّيه - إلى باتو الذي كان قد فاز في سياق الأحصنة، ولا يزال متورّد الوجدتين انفعالاً لدى معرفته أنه سيفقد عشرة آلاف محارب. وابتسم أوجيدي وأوما إليه. كان قد عين رجالاً جيدين في الفرقة الجديدة؛ محاربين يتمتعون بالخبرة، وسيكون بمقدورهم إرشاد باتو في أثناء تعلّمه، وقد بذل أوجيدي قصارى جهده لتكريم ذكرى جوشي، وتصويب أخطاء جنكيز وتسوبودي. وفي ملامح الوجه والإيماءات، كان الشابّ يشبه جوشي في شبابه كثيراً. وفي بعض الأحيان، ينسى أوجيدي تقريباً أن شقيقه قد مات منذ سنوات. كان يشعر بالألم كلما تذكّر ذلك.

كان غويوك يجلس قبالة باتو، محدّقاً إلى الفراغ بثبات. لم يكن أوجيدي قد احترق جدار التحفّظ البارد الذي بناه ابنه حوله منذ حدثتهما في الحديقة. وحتى عندما جلس ابنه إلى الطاولة، لم يسمع أوجيدي إلا أن يتمنّى أن يتمتع غويوك بنصف حماسة ابن جوشي. ربما شعر باتو أن عليه أن يثبت نفسه، لكنه جلس مثل محارب مغولي، صامتاً ويقظاً، ومملوفاً فخراً وثقة بالنفس. لم يرَ أوجيدي أي علامة تشير إلى أن باتو عاثف مع تلك الصّحبة، حتى رغم جلوسه برفقة قادة مشهورين مثل تشاغاتي، وتسوبودي، وجييسي، وجيلم. كان دم جنكيز يجري في عروق العديد من الرجال هنا، وفي عروق أبنائهم وأحفادهم، وبدت هذه السلالة خصبة وقوية. كان أوجيدي متأكداً من أن ابنه سيتعلّم أن يكون رجلاً في الرحلة العظيمة التي ستمثّل بداية جيدة له.

"لقد توسّعنا إلى أبعد من القبائل التي كان والدي يعرفها، ومن المعيم الواحد الذي ينتقل في السهول". توقف أوجيدي عن الكلام وابتسم، ثمّ تابع: "أصبح عددنا كبيراً جداً الآن لنعيش في مكان واحد".

استخدم كلمات اعتاد شيوخ القبائل على استعمالها منذ آلاف السنين ليقول إن الوقت قد حان للحرك. أوما بعضهم تلقائياً، وضرب تشاغاتي بقبضته برفق على الطاولة موافقاً.

"لن تتحقق كل أحلام والدي، بالرغم من أنه حلم بالنسور. وبالتأكيد، كان سيوافق على أن يحكم شقيقي تشاغاني خوارزم كخان لها".
كان أوجيدي سيتابع كلامه لولا أن جيلم مدّ يده وربت على ظهر تشاغاني، وانطلقت مجموعة من كلمات الاستحسان لابن جنكيز. أمال تسوبودي رأسه بصمت. لكن، حتى هو لم يقرّد خارج السرب. وعندما تلاشت الضوضاء، تكلم أوجيدي مجدداً.

"وسوافق على وضع أراضي الوطن المبحلة بين يدي شقيقي تولي".
كان تسوبودي من مدّ يده هذه المرة، وأمسك كتف الشاب لإظهار سعادته. ابتسم تولي بالرغم من معرفته ما ينتظره. فقد كان سماع ذلك يشعره بالسرور، إذ لطالما كان مغرماً بالخيال حيث عاش قومه آلاف السنين، وبالسهول المعشوشبة الجميلة حيث ولد جدّهم ياسوجي. وعرف أن سيورهناني وأبناءه سيشعرون بالسعادة والأمان والقوة هناك.

قال تشاغاني: "وأنت يا شقيقي، أين سترجع رأسك؟".
رد أوجيدي مهدوء: "هنا في كاراكوروم. هذه عاصمتي، بالرغم من أنني لم أستقر هنا بعد. وطوال سنتين، كنت قد أرسلت رجالاً ونساء ليكتسبوا المعارف من مختلف أنحاء العالم، وقد رحّبت بشيوخ الإسلام ورجال الدين المسيحيين. أعرف الآن عن مدن ممشي فيها الجوّاري عاريات الصدر، وعن الذهب المتوفر مثل الطين".

ابتسم لنفسه من تلك الصور التي رسمها في ذهنه، لكن تعبير وجهه أصبح صارماً بعد ذلك. ونقل بصره إلى غويوك وثبته عليه حين تكلم.
"أولئك الذين لا يستطيعون غزو أراضي جديدة يجب أن يخضعوا للآخرين. وينبغي لهم أن يتمتعوا بالقوة، أو يخدموا أولئك الذين يمتلكونها. أنتم قادي، وسأرسلكم بعيداً. أنتم بمثابة كلاب الصيد لدي، وذئابي ذات الأسنان الحديدية. عندما تغلق مدينة ما أبوابها خوفاً، فستدمروها. وعندما يشقون طرقاً وينون أسواراً، فستدمروها وتحطّمون الحجارة. وعندما يشهر رجل سيفاً أو قوساً ضد رجالكم، فستشنقونه. تذكروا كاراكوروم حين تذهبون. فهذه المدينة البيضاء قلب الأمة، لكنكم الذراع اليمنى، والجمرة الحارقة. اعثروا لي على أراضي جديدة أيها

السادة. اسلكوا دروباً جديدة. اجعلوا نساءهم يركبن بحراً من الدموع وأسئله
كله".

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل التاسع



كانت حدائق القصر في كاراكوروم لا تزال حديثة الإنشاء. وبالرغم من أن بُستانيي تشن بذلوا قصارى جهدهم، إلا أن بعض النباتات والأشجار كانت تحتاج إلى عقود لتنمو كما ينبغي وتبلغ حجمها الكامل.

وبالرغم من ذلك، كانت مكاناً جميلاً. أوهف ياو شو السمع إلى حرير المساء الذي كان يتدفق عبر الحدائق، وابتسم لنفسه؛ مندهشاً مرة أخرى. بالنسبة إلى ابن حنكيو، بدا إنشاء مثل هذه الحديقة أمراً عارفاً حقاً. كانت بريفاً من ألوانٍ ناعمة ومتنوعةٍ ومستحيلة؛ لكنها موجودة. كان كلما ظنَّ أنه فهم رجلاً ما، وجد تناقضاً: يستطيع الكسالى أن يجهدوا أنفسهم بالعمل حتى الموت، ويمكن للطيبين أن يصبحوا قساة، ويمقدور القساة تصحيح مسار حياتهم. يمكن أن يكون كل يوم مختلفاً عن كل الأيام التي انقضت قبله، وكان كلُّ رجلٍ مختلفاً، ليس عن الآخرين فحسب، وإنما عمّا كان عليه هو نفسه في ما مضى. والنساء! توقف ياو شو ليحدق إلى الأعلى عبر الأغصان، إلى حيث تغرد قبرةٌ بعدوبة. عندما فكَّر في تعقيد النساء، ضحك بصوتٍ عالٍ، فقفزت القبرة وتوارت عن الأنظار مذعورة.

كانت النساء أسوأ كثيراً، وياو شو يعرف أنه حكمٌ ممتاز على الشخصيات؛ أكثر من العديد من الرجال. ولهذا وثق به أوجيدي، وعهد إليه بتولي السلطة في غيابه. ومع ذلك، كان التحدّث إلى امرأة مثل سورهناتي مثل التحديق إلى هاوية يمكن أن يبادلك أي شيء فيها النظرات. أحياناً تكون مرحة وفاتنة. وفي أحيان أخرى، تصبح ثمرة ذات مغالبٍ ملطخة بالدماء. كانت زوجة تولي تتمتع بتلك الصفة الزليقية. وبالرغم من أنها لا تعرف الخوف أبداً، إلا أنه إذا جعلها تضحك، يمكن أن تفهقه برقة مثل أي فتاة.

كانت سورهتاني قد سمحت له بتعليم أبنائها القراءة والكتابة، وحتى بمشاركتهم فلسفته البوذية، رغم أنها كانت هي نفسها نصرانية. وبالرغم من إيمانها، إلا أنها كانت واقعية تماماً بشأن أولادها من أجل إعدادهم للمستقبل.

هز رأسه حين وصل إلى مكان مرتفع في الحديقة. وفي ذلك المكان، كان المهندس قد استرسل في تصوّره، وبين ثلة عالية يستطيع المشي فوقها أن يرى ما يوجد خلف أسوار الحديقة. كانت كاراكوروم تمتد في كل مكان حوله، لكن أفكاره لم تكن تدور حول المدينة. كان مولعاً بحياة العالم، وبالتحول في الحدائق من دون أن يفكر في العالم الخارجي. لكن، بالرغم من ذلك، بدا مدركاً لكل ورقة تصدر صوتاً حوله، فيما عيناه لا تفترقان شيئاً.

كان قد شاهد اثنين من أبناء سورهتاني في الحديقة. فقد تسلق هولغو شجرة جنكة إلى يمينه، من دون أن يكثر على ما يبدو أن الأوراق مروحية الشكل تهتز قليلاً من أنفاسه. لم يكن يُفترض بأريك - بوك أن يرتدي ثياباً حمراء في حديقة لا توجد فيها إلا قلة من الأزهار الحمراء. كان ياو شو قد حدد موقعه على الفور تقريباً، وتحرك مستشار الخان عبر الحديقة بين الصيادين اليافعين، وهو يراهما دائماً وهما يغيران موقعهما لإبقائه في مرمى بصرهما. كان يستمتع بالأمر أكثر لو استطاع إكمال الثلث مع كوبلاي الذي يمثل التهديد الحقيقي له.

سار ياو شو في الحديقة محافطاً على توازنه بشكل مستمر، وهو يثبت نفسه على الأرض بخفة. كانت يدها طليقتين، ومستعدتين لاعتراض كل ما يصل إليه. ربما لم يكن سلوكاً بوذياً حسناً أن يستمتع بردود أفعاله، لكن ياو شو كان يعرف أن هذا الأمر سيصبح درساً للفتية أيضاً، وتذكيراً لهم بأنهم لا يعرفون كل شيء بعد؛ إذا استطاع تحديد مكان كوبلاي، الوحيد بينهم الذي يحمل قوساً.

كان قد مضى على إنشاء الحدائق أقل من خمس سنوات، ولهذا لا توجد إلا بضع أشجار كبيرة فقط، وكلها صفوف وحوار سريع النمو. كانت إحداها في الدرب أمامه، وشعر ياو شو بالخطر في ذلك المكان وهو لا يزال بعيداً. لم يكن الأمر يتعلق فقط بأنه مكان مناسب لكمين، وإنما بسبب الصمت المحيط به، وعدم وجود فراشات أو حركة. ابتسم ياو شاو. كان الأولاد قد فغروا أفواههم اندهاشاً حين اقترح عليهم اللعبة. لكن، لكي يتمكنوا من شدّ وترٍ وإطلاق سهم، يتوجب

عليهم أن يتحركوا وأن يكونوا في مكان مناسب بالقرب منه. وكان عليهم أن يتخفوا عن ناظره أو يكشفوا عن وجودهم بحركة ما. لم يكن التفوق على ذكاء أبناء تولي صعباً جداً.

خرج كوبلاي مندفعاً من أجمة، وذراعه اليميني إلى الخلف؛ في حركة رام تقليدي. حتم ياو شو على الأرض وابتعد عن الدرب. لكن، كان هناك شيء ما لا يسير على ما يرام، وقد عرف ذلك حتى وهو يتحرك. فهو لم يسمع سهماً، أو طقطقة وتر قوس. وبدلاً من أن ينهض كما كان ينوي، انحنى وتدرج عائداً إلى موقعه الأصلي. كان كوبلاي لا يزال ظاهراً للعيان، وهو مغطى بالأوراق ويتنسم. لكن، لم يكن يحمل قوساً.

فتح ياو شو فمه ليتكلم، ولكنه سمع صغيراً خائفاً خلفه. كان أي رجل آخر مكانه سيستدير، ولكنه حتم مجدداً، وابتعد عن الدرب، ثم انطلق بجري نحو مصدر الصوت.

كان هولغو يتنسم وهو يمسك السهم الوحيد الذي أعطاهم ياو شو إياه بعد ظهر هذا اليوم المشمس. خفف ياو شو سرعته حتى يتوقف. كان يعرف أن يدي الفتي سريعتان جداً ربما، لكنه سيحظي بلحظة. قال ياو شو: "كان هذا عملاً ذكياً".

بدأت عينا هولغو تتغضنان مع اتساع ابتسامته. تحرك ياو شو مهدوء، ومن دون وجل، واقترب منه ثم أبعد السهم عن الوتر. أفلت هولغو الوتر بعد أن ظنَّ ياو شو أنه قد حرَّره تماماً، فشرع ياو شو وكان حصاناً قد ضرب يده واستندار مبتعداً. كان الوتر المصنوع من جلد مذبوغ قد أصاب مفاصله، ودفع السهم إلى خارج قبضته تقريباً. شعر ياو شو بألم في أصابعه، وتمتَّى ألا تكون إحداها قد كُسرت. لم يُظهر للفتية ألمه حين مدَّ يده بالسهم الذي أخذه منه هولغو مذهولاً. كان كل ذلك قد حدث في طرفة عين؛ أسرع تقريباً من أن يراه أحد.

قال ياو شو: "كان هذا عملاً جيداً؛ أي أن تجعل كوبلاي يعطيك القوس".

قال هولغو في موقف دفاعي: "كانت هذه فكرته. قال إنك ستراقب مسترته الخضراء وستجاهل سرتي الزرقاء".

أمسك هولغو السهم بحذر شديد؛ وكأنه لا يصدق ما شاهده. وقف كوبلاي بجانبه ومسه بوقار تقريباً قائلاً له: "لقد سحبتني عن الوتر. هذا مستحيل". عيس ياو شو من مثل ذلك التفكير الساذج، وشبك يديه خلف ظهره؛ فقد كان رمز الاسترخاء بالنسبة إلى الفتیان. كان الألم الذي يشعر به في يده اليمنى يتعاضم ويزداد، وبدا واثقاً آنذاك أن لديه عظمة مكسورة، وربما يجب أن يعالجها. في الحقيقة، كان ما فعله حركة عيشية، فهناك مئة طريقة يمكنك بواسطتها إلغاء تهديد هولغو حين أصبح في متناول يده. كانت ضربة بسيطة على المرفق ستجعله يلقى القوس من يده. كنتم ياو شو تنهيدة، فقد كان الغرور نقطة ضعفه دائماً.

قال: "السرعة ليست كل شيء. نحن نتدرب ببطء حتى نتحركوا جيداً، وحتى نتمرّن أجسادكم على الاستجابة من دون تفكير. لكن، عندما تطلقون السهم، يجب أن تتحركوا بأسرع ما يمكنكم. فهذا يمنحكم قوة وأفضلية، ويجعل إيقافكم أو حتى رؤيتكم أمراً صعباً. يمكن إلحاق الهزيمة بأقوى عدو باستخدام السرعة. وكلكم يافعون ومن سلالة طيبة. كان جدكم مثل أفعى قاتلة حتى يوم وفاته. ستتمتعون بتلك الميزة إذا تدرّبتكم بكدّ".

نظر هولغو وكوبلاي إلى بعضهما حين انضم أريك - بوك إليهما، ووجهه متورد وبشوش. لم يكن قد رأى مستشار الختان وهو ينتزع السهم من وتر القوس المشدود.

قال ياو شو: "الآن، عودوا إلى دراستكم يا سادتي الصغار. فأنا سأتركم لأسمع تقارير الختان والدمك".

قال هولغو: "ومونغكي. فهو سيدمر أعداءنا كما أخبرتني". وافق ياو شاو وهو يضحك بصوت خافت: "ومونغكي". كان سعيداً لرؤيته خيبة الأمل على وجوههم حين أدركوا أن وقتهم معه قد انتهى.

ولللحظة، فكّر ياو شو في كوبلاي. كان جنكيز سيفخر بأحفاده لو بقي على قيد الحياة. فقد أصبح مونغكي قوياً، وتخلص من آثار المرض والإصابة، وسيصبح محارباً يمكن الوثوق به، وقائداً يجتدى. وبالرغم من ذلك، كان كوبلاي من يثير إعجاب مدرّسيه، وهو الشخص الذي يقفز ذهنه إلى فكرة ويمزقها إلى أشلاء قبل

أن تنفس. بالطبع، كان كوبلاي من اقترح استبدال القوس. ومع أنها حذرة بسيطة، إلا أنها نجحت تقريباً.

انحنى ياو شو للشيان واستدار مبتعداً. ابتسم حين تركهم في الحدائق. وتناهد همساتهم إلى مسمعيه حين وصف كوبلاي وهولغو مجدداً ما كانا قد شاهدها. أدرك ياو شو أن يده قد بدأت تتورم، وسيوجب عليه أن يغسلها ويضمدها.

وعندما وصل ياو شو إلى طرف الحدائق، كتم تأوهاً حين رأى الرجال الذين ينتظرونه. كان نحو العشي عشر كاتياً وساعياً بمدون أعناقهم ليروا مستشار أوجيدي للمرة الأولى، ويتصيون عرقاً بفعل شمس الصباح. كان هؤلاء صفوة رجاله. وبالمقابل، كانوا يقودون العتيد من الأشخاص الآخرين، ويشكلون جيشاً آخر تقريباً من الخبز والورق. كان ياو شو يشعر بالبهجة حين يفكر فيهم بصفتهم ضباط وحدته. فهم يسيطرون على إدارة منطقة شاسعة تأخذ بالاتساع؛ من الضرائب، إلى تراخيص الاستيراد، وصولاً إلى الأشغال العامة مثل بناء الجسور الجديدة. أراد تيموج عم أوجيدي أن يشغل هذا المنصب، لكن الخان منح البوذي إياه؛ وهو الذي رافق جنكيز في كل انتصاراته تقريباً، ودرب أشقائه وأبناءه بدرجات متفاوتة من النجاح. حصل تيموج على مكاتب كاراكوروم، وأخذت مطالبه بالتمويل تزداد. كان ياو شو يعرف أن تيموج سيكون أحد أولئك الذين يحاولون الوصول إليه اليوم. وبالرغم من أن المستشار لديه ست مراتب من الرجال بين أصحاب الحاجات وبينه، إلا أن شقيق جنكيز يستطيع عادة إجبارهم على طاعته.

وصل ياو شو إلى أفراد المجموعة، وبدأ يستمع إلى أسئلتهم، ويرد عليها، ويتخذ قرارات سريعة؛ وهذا هو السبب الذي جعل أوجيدي يختاره. لم يكن يحتاج إلى ملاحظات أو كتاب لإنعاش ذاكرته، وقد وجد أن بمقدوره حفظ كميات هائلة من المعلومات وتجميعها كلها معاً حين يحتاج إليها. كان عمله هو الذي جعل أراضي المغول مستقرة، بالرغم من أنه استخدم بعض متعلمي تشين، وجعلهم أعضاء في جهازه الإداري. وبيطء، لكن بثبات، كان يجلب نفوذاً حضارياً إلى البلاط المغولي. كان جنكيز سيكره ذلك، لكنه آنذاك كان سيغض فكرة بناء

كاراكوروم بجدّ ذاتها. ابتسم ياو شو حين انتهت الأسئلة وعاد أفراد المجموعة إلى أعمالهم مسرعين. كان جنكيز قد حقق النصر على صهوة حصانه. لكن، لم يكن بمقدور خان أن يحكم من حيث يجلس على السرج، وبدا أن أوجيدي يفهم ذلك، كما لم يفعل والده قطّ.

دخل ياو شو القصر وحده، ومشى نحو مكاتبه حيث ينتظره المزيد من اتخاذ القرارات المهمة هناك. كانت الخزينة تقدم دروعاً، وأسلحة، وطعاماً، وملابس لثلاثة جيوش؛ وتتضاءل الأموال فيها يوماً نتيحة ذلك. ولم تكن المبالغ الهائلة التي جمعها جنكيز لتدوم إلى الأبد، بالرغم من أنه لا تزال لديهم سنة أو اثنتان قبل أن ينفد الذهب والفضة من الخزينة. بحلول ذلك الوقت، ستكون الضرائب قد ازدادت بالتأكيد من وشل إلى نهر كبير.

رأى سورهتاني تمشي مع اثنتين من خادمتها، وحظي بلحظة للإعجاب بما قبل أن تنتبه إليه. كانت وقتها مميزة. فهي امرأة تمشي مثل إمبراطورة؛ وكثيراً ما فعلت ذلك. كان ذلك يجعلها تبدو أصغر بكثير مما هي عليه حقاً. وبالرغم من أنها أنجبت أربعة أبناء، إلا أنها لا تزال تمشي برشاقة، وجلدها المدهون بالزيت يتألق صحة وعافية. عندما حدّق إليها، ضحكت النساء على شيء ما. وكانت أصواتهن خافتة في الأروقة الباردة. كان زوجها وابنها البكر قد خرجا في حملة مع الخان، على بعد آلاف الأميال إلى الشرق، وحسب كل الروايات كانوا يملون حسناً. فكّر ياو شو في تقرير كان قد قرأه هذا الصباح يتباهى بتكديس الأعداء فوق بعضهم مثل أحشاب متعفنة، وتنهّد. كانت تقارير المغول تتميز بالافتقار إلى حسن التقليل من وقع الحدث.

رأته سورهتاني فاتحن ياو شو أمامها كثيراً، ثم تحمّل أن تمسك يديه بكنسها يديها، كما تصر أن تفعل كلما التقيا، ولم تلاحظ الحرارة في الإصبع المكسورة.

سألت: "هل كان أبنائي يعملون معك بجدّ أيها المستشار؟"

ابتسم قليلاً، وتركت يديه. كان لا يزال شاباً بشكل كافٍ ليشعر بقوة جمالها، وقاوم بأفضل ما يستطيع.

قال على نحو رسمي: "إنهم مقنعون يا سيدي. أخذهم إلى الحدائق ليتدربوا هناك. فهمت أنك ستغادرين المدينة".

"يجب أن أرى الأراضى التي تم منح زوجي إياها. أتذكرها بصعوبة من طفولتي". ابتسمت بتكلف وتابعت: "أود رؤية المكان الذي جرى فيه جنكيز وأشقائه حين كانوا فتياناً".

أقر ياو شو: "إنها أرض جميلة، بالرغم من أنها قاسية. يبدو أنك قد نسيت فصول الشتاء هناك".

ارتعشت سورهناتي قليلاً وقالت: "لا، الشعور بالبرد من بين المشاعر التي أتذكرها. تضرع لكي يكون الطقس دافئاً أيها المستشار. وماذا عن زوجي وابني؟ هل لديك أبناء عنهما؟".

رد ياو شو بحرص أكبر على السؤال الذي يبدو بريئاً: "لم أسمع عن سوء طالع يا سيدتي. لقد أمنت فرق الخان قطعة من الأرض تصل تقريباً إلى حدود منطقة سونغ في الجنوب. أظن أنهم سيعودون بعد سنة، وربما اثنتين".

"هذا جيد يا ياو شو. أنا أتضرع من أجل سلامة الخان".

رد ياو شاو، بالرغم من أنه كان يعرف أنه يسعدنا أن نحفزه للكلام عن دينه: "سلامته لن تتأثر بالتضرع يا سورهناتي، وأنا متأكد من أنك تعرفين ذلك".

سألت بسخرية وهي تتظاهر بأنها مذهولة: "ألا تقوم بواجبك السديني أيها المستشار؟".

تهجد ياو شو. كانت تجعله يشعر بأنه عجوز بطريقة ما، كلما كانت بهذا المزاج.

"لا أطلب شيئاً، باستثناء المزيد من الفهم يا سورهناتي. عندما أفكر في الموضوع، أكتشف أنني أصغي فقط".

"وماذا تسمع حين ترهف السمع؟".

"قال بوذا: عندما يرتعد الناس خوفاً، فهم يذهبون إلى الجبال واليسانين المبحلة، والأشجار والأضرحة المبحلة. أنا لست خائفاً من الموت يا سيدتي، ولا أحتاج إلى أي تفسير يزيل خوفي".

"إذاً، سأتضرع من أجلك أيضاً أيها المستشار؛ كي تجد السلام".

نظر ياو تشو إليها، ثم انحنى لها مجدداً مدركاً أن خادميتها تراقبان باهتمام بالغ.

تمتم: "أنت لطيفة جداً".

رأى أن عينها تلمعان. سيكون يومه مملوفاً بالآلاف التفاصيل: فلبده جيش الخان الذي ينبغي له أن يرسل إليه الإمدادات في أراضي تشن، وجيش آخر في حوارزم بقيادة تشاغاتي، وثالث بقيادة تسوبودي جاهز للتوغل شمالاً وغرباً أبعد مما كانت أمة المغول قد وصلت إليه من قبل. وبالرغم من ذلك، عرف أنه سيمضي معظم يومه مفكراً في الأشياء العشرة التي كان يجب أن يقولها لسورهتاني؛ وقد بدا ذلك ببساطة مغيظاً.

لم يشن أوجيدي حرباً على سوزهو، فالمدينة تقع خلف حدود سونغ، على صفة نهر يانغتسي. حتى إذا لم تكن ضمن إقليم سونغ، فستظل مكاناً يتمتع بحمال أحماد، ولا يمكنه أن يراها تدمر. استراحت فرقتان خارج أسوار المدينة، في حين رافق الخان جاعون من مئة محارب.

عندما مشى أوجيدي مع حارسين في منطقة تكثر فيها البرك والأشجار شعر بالسكينة، وتساءل إن كانت الحدائق في كاراكوروم ستضاهي يوماً ما هذه البرية المخططة على نحو جميل. حاول ألا يظهر حسده لإداري سونغ الذي يدفع حصانه للسير خبيماً بعصبية إلى جانبه.

كان أوجيدي قد ظن أن كاراكوروم مثال للعالم الجديد، لكن موقع سوزهو بجانب بحيرة كبيرة، وشوارعها ومبانيها القديمة جعلت عاصمته تبدو بغضضة، لم تنجزها القرون بعد. ابتسم حين فكّر في رد فعل والده على مثل هذا الإحجاف. كان جنكيز سيسعد بأن يهاجم سوزهو ويتركها أنقاضاً يتصاعد منها الدخان.

تساءل أوجيدي إن كان ياو شو قد جاء من مكان مثل سوزهو. لم يكن قد سأل الراهب قط عن المكان الذي جاء منه. لكن، بدا سهلاً بالنسبة إليه أن يتخيل رجالاً مثله يمشون في الشوارع النظيفة جداً. كان تويي ومونغكي قد ذهبا إلى ساحة السوق بحثاً عن هدايا لسورهتاني. ولم يرافقه إلا اثنا عشر محارباً؛ إذ لم يكن هناك إحساس بوجود خطر في البلدة. كان أوجيدي قد أصدر أمراً إلى رجاله بأنه لن يكون هناك اغتصاب أو تدمير، وبدت عقوبة عصيان أمره واضحة. لسنا، بقي أهالي مدينة سوزهو حائزين، لكن المدينة ظلت سالمة.

كان صباح الحان مليقاً بالغرائب، من عجن البارود الأسود، حيث يتعل كل العمال خيفاً طرية، إلى روعة طاحونة الماء وآلات النول الضخمة التي تنسج القماش؛ لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعله يقود فرقته إلى إقليم سونغ. إذ توجد في المدينة مستودعات حرير، وارتدى كل واحدٍ من محاربه قميصاً منسوجاً من تلك الخيوط التي كانت الوحيدة التي تستطيع منع سهم من تمزيق اللحم. وبطريقته الخاصة، كان القميص أكثر قيمة من الدرع، ولم يستطع أوجيدي أن يخمن عدد الأشخاص الذين أنقذهم. لسوء الحظ، كان رجاله يعرفون قيمته، وبعضهم فقط كانوا يخلعون قمصاتهم الحريرية لغسلها، ولهذا بدت رائحة الحرير المنسخ جزءاً من الجو الحائق الذي يحيط بهم. وعندما يصبح القماش يابساً بفعل الملح والعرق، يفقد ميزته ومرونته. كان بحاجة إلى إنتاج سوزهو كله وأماكن أخرى مثلها، وعرف أن تدمير حقول أشجار التوت الأبيض القديمة التي تغذي عليها الديدان المنتجة للحرير سيضع حداً للإنتاج إلى الأبد. ربما كان والده سيحرقها، لكن أوجيدي لم يستطع فعل ذلك، فقد أمضى وقتاً طويلاً منذ الصباح وهو يشاهد الأحواض حيث تُغلى الديدان المنتجة للحرير في شرفاتها قبل أن تتحلل إلى خيوط. كانت مثل تلك الأشياء غرائب حقيقية. لم يكن العمال قد توقفوا حين مر بهم، وتربثوا فقط لمضغ آخر دودة حين عرضوها للهواء. لم يكن أحد يجوع في مصاطب الحرير في سوزهو.

لم يكن الحان قد أزعج نفسه ليعرف اسم الرجل الذي يتمايل ويتعرق إلى جانبه، ويكافح للحاق به في أثناء قيامه بجولة في حدائق الماء. زفرق إداري سونغ مثل عصفور خائف حين طرح عليه سؤال. كان بمقدورهما التواصل على الأقل، وأوجيدي يدين بفضل ذلك إلى ياو شو، والسنوات التي أمضاها في تعلم اللغة. عرف أن الوقت الذي سيمضيه في حدائق الماء سيكون وجيزاً، وفرقه لا تُهدأ في مثل هذا الرخاء. وبالرغم من انضباط رجاله الشديد، إلا أنه سيواجه مشكلات إذا أبقاهم قرب المدينة وقتاً طويلاً. كان قد لاحظ أن رجال سوزهو شعروا بأن عليهم إبعاد نسايتهم عن مرمى البصر، لكن الإغراءات ستبقى موجودة دائماً. قال أوجيدي: "ألف ثوب من الحرير سنوياً. تستطيع سوزهو إنتاج هذه الكمية، أليس كذلك؟"

"نعم يا مولاي. وزن خفيف، ولون زاو ولامع مصبوغ جيداً، من دون بقع أو خيوط متشابكة".

أوما الإداري على نحو يائس حين تكلم. فمهما يحدث، ظنُّ نفسه هالِكاً. ستنهب جيوش المغول، وسيصل جنود الإمبراطور ليسألوه عن سبب عقد صفقات تجارية مع عدو سيدهم. لم يرغب في شيء أكثر من العثور على مكان هادئ في الحدائق، وكتابة قصيدته الأخيرة ثم شق وريده.

رأى أوجيدي أن عيني الرجل تلمعان وافترض أنه خائف، فأشار بيده. عندها، تقدم حارسه إلى الأمام، وأمسك الإداري من حنجرته. بدا أن اللمعان قد اختفى من عيني الإداري، لكن أوجيدي تابع الكلام وكان شيئاً لم يحدث. "دعه وشأنه، هل تصغي الآن؟ لا تقلق بشأن أسياذك، وإمبراطورك. أنا أحكم الشمال، وستبادلون التجارة معي في نهاية المطاف".

كان أوجيدي يشعر بألم في صدره، ومشى وهو يحمل في يده كوباً من الشراب الأحمر، يُملأ باستمرار. وبإضافة مسحوق قفاز اللعب إليه، كان يهدئ الألم؛ بالرغم من أن أحاسيسه كانت تتخثر أيضاً. أفرغ الكوب ورفعته إلى الأعلى، فتقدم الحارس الثاني إلى الأمام على الفور، وهو يحمل قربة ممتلئة حتى نصفها بالشراب الأحمر. أطلق أوجيدي لعنة حين أراق بعضاً من السائل الساخن على طرف رُده.

قال: "سأرسل كتابسي إلى بيتك عند الظهر". كان عليه أن يتكلم بسبب وحزم حتى لا يلفظ كلماته على نحو غير واضح. لكن، لم يبدُ أن الرجل الضعيف قد لاحظ شيئاً. "سيناقشون التفاصيل. سأدفع فضة، هل تفهم؟ ظهراً... وليس الليلة، أو بعد أيام".

أوما الإداري، وعرف أنه سيلقى حتفه بحلول الظهر، ولم يكن ما يتفق عليه مع هذا الرجل الغريب الذي يتكلم بطريقة سيئة أمراً مهماً. كانت رائحة المغول وحدها تجعله يخنق، ولم يكن الأمر يتعلق بالحرير النتن ودهن الضأن فقط، وإنما برائحة رجال لم يعتادوا مطلقاً على غسل أجسادهم في أقصى الشمال، حيث الهواء الجاف. ففي الجنوب، كانوا يتعرقون، فنصدر عنهم رائحة كريهة. لم يتفاجأ الإداري حين أعجب خاتمهم بالحدائق التي كانت يركها وجدوها أجمل البقاع في سوزهو.

لقت شيء ما في سلوك الرجل انتباه أوجيدي، فتوقف على جسر حجري فوق جدول ماء. رأى أزهار الزنبق تطفو بسكونٍ على سطح الماء، فيما سيقاها تختفي في الماء الداكن.

قال أوجيدي وهو يمدّ كوبه فوق الماء مراقباً الانعكاس في الأسفل: "لقد تعاملت مع أمراء تشن وتجارها سنين عديدة". نظر إلى صورته المنعكسة على صفحة الماء، وبدا وجهه منتفحاً، لكنه تجرّع ما في الكوب، ومدّه ليعاد ملؤه في عملٍ أصبح مألوفاً مثل التنفس. هدا الألم في صدره بعد وقتٍ وجيزٍ، وقال: "هل تفهم؟ إنهم يكذبون ويوحدون ويضعون لوائح، لكنهم لا يفعلون شيئاً. إنهم يارعون في التأجيل، فيما أنا يارع في الحصول على ما أريده. هل يجب أن أوضح لك ما سيحدث إذا لم تنجز عقودي اليوم؟".

رد الرجل: "أفهم يا سيدي".
رآه مجدداً، ذاك الوميض الذي ظهر في عينيه؛ كما جعل أوجيدي لا يثق به. كان الرجل قد خرج بطريقة ما من دائرة الخوف، وأصبحت عيناه أشد حلكة؛ وكأنه لا يهتم بشيء. وقد شاهد أوجيدي هذا أيضاً من قبل، وبدأ يرفع يده ليحعل أحداً يصفع الرجل علّه يستفيق من ذهوله. تراجع الإداري إلى الخلف وضحك أوجيدي، فأراق المزيد من الشراب الأحمر، ووقع القليل منه في الماء مثل نقط الدّم.

"لا مفر مني، حتى في الموت". عرف أنه يتفوه بالحماقات الآن. لكن، انتابه إحساس جيد، وشعر بأن قلبه يتعرض لضغط خفيف. "إذا انتحرت قبل انتهاء الاتفاقيات، فسأجعلهم يدمرون سوزهو. ولن يتركوا فيها حجراً علسي أعسر، ثم سيحرقونها. سيحترق كل ما يفتقر إلى الرطوبة أيها الإداري، هل تفهم؟ سيحترق كل ما يفتقر إلى الرطوبة".

رأى شرارة المقاومة تخبو في عيني الرجل، وتُستبدل بالخنوع، فأوماً أوجيدي. كانت السيطرة على قومٍ يمكن أن يختاروا همدوء الموت رداً على العدوان أمراً صعباً. وهذا أحد الأشياء العديدة التي تعجبه فيهم، لكنه لم يكن يتحلّى بالصبر اليوم. ومن تجربة سابقة، كان يعرف أن عليه جعل خيار الموت يؤدي إلى مصير قساتم، وأن بمقدورهم أن يعيشوا فقط ويستمرروا في خدمته.

"اذهب لتقوم بتحضيراتك أيها الإداري. سأستمع بالبقاء في هذه الحديقة الصغيرة وقتاً أطول قليلاً".

راقب الرجل وهو يتعد مسرعاً لينفذ أمره. وسيعمل حراسه على تأخير السعاة الذين يأتون إليه باستمرار، على الأقل حتى يصبح جاهزاً لمغادرة المكان. كان الحمر تحت ساعديه المكشوفين بارداً. تجرّع ما في كوبه، وشعر بأن أصابعه حادة.

في وقت متأخر من بعد الظهر، امتطى عشرون ألف محارب جيادهم خارج سوزهو مع أوجيدي وتوبي. كان حراس أوجيدي النخبة يشكلون نصف قواته. وهم رجال يحملون أقواساً وسيفاً. وكان سبعة آلاف من محاربيه يمتطون جياداً سوداء ويرتدون دروعاً سوداء عليها شارات حمراء. كان العديد من المحاربين الذين غزا الشيب رؤوسهم قد خدموا مع جنكيز سابقاً، ويستحقون سمعتهم الشرسية. في حين أن الباقين والبالغ عددهم ثلاثة آلاف يحرسونه ليلاً ونهاراً، ويمتطون أحصنة بُنية أو رقطاء، ويرتدون دروعاً عادية. كان بابغي المصارع قد انضم إليهم؛ وهو الهدية الشخصية من خاسار إلى خاتنه. ومع استثناء بطل المصارعة، كانوا رجالاً يُنتقون لذكايتهم بالإضافة إلى قوتهم. كان جنكيز من وضع قاعدة أن الرجل يجب أن يكون حارساً للخان قبل أن يستطيع قيادة ألف محارب في معركة. وقيل إن قليلين منهم يستطيعون قيادة مئة ألف إذا تم اختيارهم للقيام بذلك. كان أمراء النسب يقودون الفرق، لكن حراس الخان هم المحترفون الذين يجعلونهم ينجحون.

لم تقشل رؤيتهم قط في جعل الخان يشعر بالسعادة. فالقوة العظيمة التي يتمتع بها بفضلهم رائعة ومصدر نشوة كبيرة. كانت فرقة خاسار في الشمال، مع خطوط من المستظلعين تربط بينهما، ولن يكون العثور عليه مجدداً صعباً، وقد شعر أوجيدي بالرضا عن عمل الصباح.

وبالإضافة إلى المحاربين، كان قد جلب جيشاً من الكتّاب والإداريين إلى أراضي تشن؛ من أجل تدوين كل ما يظفر به، فقد تعلّم الخان الجديد من فتوحات والده. ومن أجل أن ينعم قومه بالسلام، لا بدّ من وجود قدم على أعناقهم. ولهذا، كانت الضرائب والقوانين تقيهم هادئين ومرتاحين نوعاً ما؛ بالرغم من أنه وجد

هذا أمراً محيراً. لم يعد تدمير أعدائهم ومتابعة الحركة كافيًا بالنسبة إليه، وربما كان وجود كاراكوروم هو الحافز، لكنّ لديه رجالاً في كل مدينة تشن، بيدويون الأوضاع باسمه.

كان قد تناول قرباً من الشراب الأحمر والأسود اليوم، أكثر مما يستطيع أن يتذكر. وفي أثناء انتفاطم شمالاً، أدرك أوجيدي أنه لئلاّ جداً، لكنه لم يهتم لذلك. كانت لديه عقود الحرير، محتومة من الأمير المحلي المذعور بعد أن سحبه من منزله في البلدة ليشهد على الصفقة. كان إمبراطور سونغ سيقدّرهم أو سيمنح أوجيدي عذراً لغزو أراضيه.

كان لا يزال يشعر برغبة في حث ردفيه بسبب جلوسه على السرج الخشبي كل يوم. والتصقت ثيابه بحسده بسبب المسائل التي تفرزها جروحه. لم يعد في وسعه خلع ملابسه من دون أن يشترحي في حمام دافئ، لكن هذا الأمر أيضاً كان مجرد مشقة ثانوية. لم يكن قد توقع أن يعيش وقتاً طويلاً، وبدأ كل يوم ينقضي ممعاً له.

رأى سحب الغبار أمامه بعد رحلة قصيرة كشطت جروحه وجعلتها تنسُرُ مجدداً. كانت أراضى سونغ على بعد عشرة أميال خلفهم آنذاك، وأوجيدي يعرف أنهم لن يتوقعوا مجيئه من الجنوب، وابتسم حين فكّر في الرعب الذي سيلبي ظهور فرقه. في مكان بعيد، كان خاسار يشترك مع آخر جيش استطاع تشن حشده، وكل ما يستطيع فعله هو صدّه بسبب تفوقه العددي عليه، لكنه يعرف أن فرقتي أوجيدي وتولي قادمتان. كانت مذبحه دموية مستقع، وبدأ أوجيدي يغني على صهوة جواده، وهو يمتّع نفسه.

الفصل العاشر



وجهه خاسار نظره الثاقب إلى رايات الخان أوجيدي. لم تكن الأرض مثالية، وهي سهل معشوشب لم تطأه قطعان منذ سنوات، ولهذا نمت شجيرات وأحجار في كل مكان. وقف على سرجه وهو يوازن جسده بسهولة، في حين رعى حصانه العشب.

تمم: "فتى طيب يا أوجيدي".

كان خاسار قد اتخذ موقعاً على تلة صغيرة خارج مدى السهام، لكنه قريب من العدو بما يكفي ليوجه إليه هجماته. بدأ جيش الإمبراطور منهكاً على نحو ظاهر للعيان بعد أيام من الدفاع ضد الفرسان المغول، لكن أفواج تشن كانت منضبطة وقوية، وقد تعلم خاسار ذلك على حسابه. وبين الحين والآخر، كانوا يشكّلون صفاً من رماة الرماح ضد رجاله. منعتهم تضاريس الأرض من شن هجوم شامل بالحراب، وأحيرته على مهاجمتهم بإطلاق موجاتٍ من السهام عليهم. وبانقضاء الصباح، كان رماة قد قتلوا العشرات منهم. لكن جنود تشن استمروا بالتحرك بثبات جنوباً، فيما الفرقة المغولية تنساق وراءهم. رأى خاسار رؤوساً مرهقة تستدير لترى التهديد الجديد، وتحدّق إلى الرايات البرتقالية الخفاقة لخان المغول.

في مكان ما بين صفوف تشن اللامعة تلك، كان شخص معين سيستشيط غضباً لدى رؤيته هذا المنظر، كما فكر خاسار. عندما كان الإمبراطور كسوان فتياً، جثا لجنكيز حين أحرق الخان العظيم عاصمته، وقد حاصر خاسار نفسه الشاب في مدينة كيفنغ قبل أن يُستدعى إلى الديار. شعر كما لو أنّ هناك دمماً وحليياً ساخناً في معدته حين عرف أن إمبراطور تشن في الميدان مرة أخرى، وحياته بين يديه. كانت هذه لحاية طال انتظارها.

بالرغم من ذلك، كان الإمبراطور قد بلغ تقريباً الإمبراطورية الجنوبية، حيث لا تزال أسرته تحكم في عزلة تامة. ولو أن جنكيز حظي بعدة سنوات إضافية، لكان قد دخل تلك الأراضي كما فكّر خاسار. لم يكن يعرف شيئاً عن تقلبات السياسة وتغيراتها بين الأمتين، باستثناء أن جيوش سونغ بالملايين. في هذه اللحظة، بدا كافياً بالنسبة إليه قتل إمبراطور الشمال، والانطلاق على صهوة جواده مع فرقته. كان أسفه الوحيد أن جنكيز لم يعيش ليرى ذلك.

فيما كان خاسار شاردأً في ذكريات كثيفة، استدار قليلاً ليصدر أمراً إلى هو سا وساموكا قبل أن يفكر أنهما ماتا منذ سنوات. ارتعش قليلاً، وفكّر في أن الكثيرين قد لقوا حتفهم منذ أن تواري وأشفاؤه عن أنظار أعدائهم في صدع صغير في الأرض، والشتاء على الأبواب. ومن أولئك المذعورين والجالعين ظهرت قوة جديدة للعالم. لكن، لم يبقَ حياً منها إلا كشيون وتيموج وخاسار نفسه فقط. كان الثمن غالياً، بالرغم من أنه يعرف أن جنكيز لم يكن قد يخل به.

همس خاسار لنفسه وهو يراقب قوات أوخيدي تقترب منه بثبات: "الأفضل منا". كان قد رأى ما يكفي، فجلس على سرجه، وجمفر بصوتٍ حادّ. دفع ساعيان كانا إلى جانبه جوادهيهما ليسيرا خبيأً، وكلاهما مشعّران عن سواعدهما السوداء بسبب الأوساخ. لم يكونا يرتديان إلا ثوبين حريريين وطماقات ليكونا سريعين وخفيفين.

قال خاسار للأول بحدّة: "الآلاف من واحد إلى أربعة للضغط على جناحهم الغربي. لا تدعوا العدو يتعد عن طريق الختان".

انطلق الساعي عبر ساحة المعركة مسرعاً، ووجهه اليافع مشرق من شدة الإثارة، فيما انتظر الثاني بصبر حين راقب خاسار تقدّم الرجال وتراجعهم مثل صفر عحوز يحوم فوق حقل قمح. رأى أرانب برية تندفع نحوه من مكان ما، قبل أن يقتلها أتباعه المتهيجون بسهامهم ويترجلوا عن أحصنتهم لالتقاطها. كانت تلك إشارة أخرى إلى أن الأرض قاسية ومملوءة بالعقبات، وأن الهجوم سيكون أكثر خطورة؛ فإن تعثر الحصان بحفرة فسيقتل فارسه.

وحل خاسار من الفكرة. لم يكن انتزاع نصر سهل ممكناً، ليس اليوم. كان جيش تشن يفوق جيشه عدداً؛ أكثر من ستة مقابل واحد. وحتى بعد وصول

أوجيدي وتولي، ستصبح النسبة اثنين مقابل واحد. كان خاسار قد أغار عليهم وشق صفوفهم في أثناء تحركهم جنوباً، لكنه لم يستطع إرغام الإمبراطور على التوقف والقتال، وقد اقترح أوجيدي نفسه أن يعود ليكون حلقة شاسعة من الجنوب. كانت قد انقضت ثلاثة أيام ببطء مزعج، حتى بدأ يفكر في أن الإمبراطور سيسبق طريقه إلى الحدود وبرّ الأمان قبل أن يعود أوجيدي.

وجد خاسار نفسه يتمنى أن يكون جنكيز قادماً من الجنوب، وفُطر قلبه حين تخيل الأمر، وهز رأسه لإبعاد أحلام رجل عجوز، فقد كان هناك عمل عليه إنجاز.

قال للساعي: "أوصل هذا الأمر إلى يوسب. اشتبك مع الجناح الشرقي، وأرغمه على السير نحو الخان على شكل قمع. استخدم كل السهام إذا كان ذلك ضرورياً. يمكنه قيادة الآلاف من خمسة إلى ثمانية. لدي ألفان احتياطياً. كرّر أوامرك". انتظر خاسار نافذ الصبر حتى كرّرها المستطلع، ثم أمره بالانصراف لينطلق مسرعاً على صهوة جواده.

حدّق خاسار إلى السهل المكشوف، وتساءل عن حال إمبراطور تشن. فكّر في أنه لم يعد فتى صغيراً متعرجاً، ولا بدأ أنه أصبح رجلاً في أوج قوته، لكنه فقد الحق الذي اكتسبه بالولادة. كانت الأراضي التي عرفها يحكمها أمراء مغول، وجيوش والده الخجّارة قد سُحقت، ولم تبقّ لديه إلا تلك الفرق التي يقودها. ربما كان هذا هو السبب الذي يجعله يقاتل بضراوة، كما ظن. وربما كان هؤلاء آخر أمل إمبراطورهم؛ وهم يعرفون ذلك. كانت حدود سونغ قريبة جداً، وهم لا يزالون أقوياء، وعدادهم كبير، مثل دبابير متعددة الألوان.

قاد خاسار جواده عائداً إلى ألفيه الاحتياطيين، حيث تقف أحصنتهم مهدوء وهم يراقبون العدو، واضعين مرافقهم على سروجهم. شدّوا قاماتهم حين اتخذ خاسار موقعه معهم، إذ يعرفون أنه سيلاحظ أدق التفاصيل.

أمامهم، رأوا صفوف تشن تعيد تنظيم نفسها لتتعامل مع التهديد الجديد. وكان رجالها مدحجين بالحراب والرماح. وكما توقع خاسار، بدأوا ينساوون مبتعدين عن الطريق المباشر جنوباً، ولم يكن ليمانع لو أن أوجيدي لم يكن هناك. أراد إمبراطور تشن الوصول إلى حدود سونغ، وإذا كان إرغامه على السير على

طولها من دون أن يعبرها ممكناً، فسيستعب جيشه في نهاية المطاف، وستمزق الفرق المغولية جناحيه إلى أشلاء. لم يكن الغروب سيحل قبل وقت طويل، وسيستعب جنود الإمبراطور المشاة قبل فرسان المغول. كان القضاء على فرسان تشن أول أهداف خاسار. فقد كانوا بعيدين عن أولئك الذين يجمعونهم بعد أيام من إزاحة الدماء وتلقي السهام، في حين يقع أولئك الذين ينجسوا في الوسط، مذلولين ومهزومين.

عندما يصل أوجيدي إلى تشن، سيحدد هذا الأخير نفسه محاصراً بين عدوين. همهم خاسار بصوت مخافت، مستمتعاً بذلك الاحتمال. لم يكن هناك شيء يُضعف المعنويات مثل الخوف من التعرض لهجوم من الخلف.

شاهد أول أربعة الألاف من محاربيه يقودون جيادهم ببطء وسط عاصفة من السهام، وهم يفضون رؤوسهم فوق سروحيهم ويتقون بدروعهم. سقط بعضهم، لكن الباقين شقوا طريقهم رويداً رويداً. جلدتهم أشجار صغيرة، ورأى خاسار أحصنة تعثر، وسقط أحدها حين اغارت الأرض تحتها، لكن الفارس رفع حصانه بقوة كبيرة وتابع طريقه. وعندما رأى خاسار ما حدث، شد قبضته على الجمام جواده.

على بعد خمسين خطوة، كان الهواء مملوفاً بالسهم التي تطن، وكان المحاربون الموجودون في أقرب صفوف تشن يرمون رماحاً، لكن معظمها لم تُصب هدفها، أو وقعت على العشب. كانت صفوف المغول منتشرة على طول الأرض السوعدة، وقد شدت السهام وكألها سهم واحد. تراجع جنود الإمبراطور إلى الخلف فرعين، بالرغم من صيحات ضباطهم، وكانوا قد واجهوا العاصفة نفسها مرات عدة وقد بدأوا يشعرون باليأس. فمن المدى الذي راح يضيق بسرعة، كانت سهام المغول تستطيع اختراق أي شيء تقريباً. شد رجاله السهام فبدت عضلات أكتافهم مفتولة، وأمسكوا الأوتار بأبهامهم العظمية، ولم تكن الأقواس الأخرى تتمتع بتلك القوة، ولا الرجال الآخرون يتمتعون بالقدرة على استخدامها.

أطلق محاربوه سهامهم فوصل صدى صوتها إلى حيث يقف خاسار وهو يراقبهم. أحدثت وابل السهام ثقباً كبيراً في خطوط العدو، وأوقع رجالاً إلى الخلف فبرزت رماحهم وأقواسهم إلى الأعلى على طول الصف. أوما خاسار بحدة، ولم

يكن هو أو جيسي من فاز بالميدالية الذهبية في الاحتفال، وقد ذهب ذلك الشرف إلى رماة تسوبودي. لكن، كان هذا عملاً يعرفه.

سقطت أجساد نلقت عدداً من السهام أرضاً، وانتقلت صرخاتها عبر الهواء إلى حيث يقف خاسار الذي كثر من المنظر. كانوا قد حطّوا تنظيم الجيش، وتاق إلى إصدار أمر بشن هجوم بالقووس والحراب عميقاً داخل صفوفهم. فقد سبق له أن رأى جيوشاً تتمزق إلى وحدات صغيرة تمثل تلك الطريقة، بالرغم من كل قوتها وطيوها وراياتها الملونة.

حافظ محاربوه المغول على الانضباط الذي اكتسبوه من المعارك التي خاضوها عبر العالم. أطلق رجاله سهاماً إثر آخر، واختاروا أهدافهم من رجال يحاولون الهرب أو الاختباء خلف التروس، بينما كانت صفوفهم تتمزق إلى وحدات صغيرة. التقت الأطراف الخارجية مع سيوف تتأرجح، وسقط المزيد من الرجال على كلا الجانبين قبل أن يطلق قادة الألف التقدمة وينسحب محاربوهم إلى الخلف مبتهجين.

تردّدت هتافات خافتة من بين صفوف تشن المنظمة في الخلف. لكن رجال خاسار استداروا آنذاك على صهوات أحصنتهم وأطلقوا سهامهم حين وقف العدو مجدداً. تلاشي الصوت، وصرخ قادة الألف حين انتقلوا إلى موقع جديد واستعدوا للهجوم مجدداً. كانت حركة جيش تشن قد تباطأت على امتداد نصف ميل، وتُرك الجرحى في الخلف في أكوام وهم يصرخون ويتلوون ألقاباً. ثم خاسار: "ها قد جاءوا. الحان يدخل الميدان".

استطاع رؤية حملة رايات أوجيدي في الجيش الذي دخلت جياده ساحة المعركة حياً. استجمعت صفوف تشن قواها لملاقمتهم، وخفض الجنود التروس والرماح التي يمكن أن تجرح حصاناً مهاجماً. وعندما وصلوا إلى بعد مئتي عطفوة، بدأت سهام المغول تنطلق بموجات سوداء، وسُمعت طقطقة إطلاق آلاف السهام مثل نار عظيمة مستعرة؛ إنه صوت يعرفه خاسار مثل أي شخص آخر. وأصبح متأكداً فحاة من أنهم سينالون منهم، وأن الإمبراطور لن يعبر اليوم إلى برّ الأمان.

سمع صوتاً آخر، أعلى من صوت شدّ وتر القوس الذي كان يعرفه منذ الطفولة. ودوى الصوت مثل رعدٍ قوي تبعته عصفة هواء هبت على رجاله. حدّق

خاسار إلى سحابة من الدخان تصاعدت نحو الأعلى، وحجبت جزءاً من الخطوط حيث اشتبكت قوات أوجيدي وتشن.

سأل: "ماذا كان ذلك؟".

أجاب أحد أتباعه على الفور: "إنه بارود يا مولاي. لديهم قدور نارية".

قال خاسار: "في الميدان؟"، ثم أطلق لعنة بصوت عال. كان قد رأى مثل هذه الأسلحة تُستخدم على أسوار المدن ويعرف تأثيرها. وهي قدور معدنية تُملأ بمسحوق أسود، ويمكنها نشر قطع من المعدن الساخن على صفوف رجاله المتراصة. كان يجب رميها إلى مسافة بعيدة حتى لا يتمزق المدافعون أنفسهم إلى أشلاء. لم يستطع أن يتخيل كيف يستطيع محاربو تشن استخدامها من دون أن يقتلوا أبناء قومهم.

وقبل أن يستطيع استجماع أفكاره المشتتة، دوت فرقة عظيمة أخرى. ومن بعيد، بدأ الصوت مكتوماً، لكنه رأى رجالاً يطربون إلى الخلف بفعل قوة الانفجار، ويحطون على العشب مع جياهم وقد تحولوا إلى أشلاء. سعل بعض رجاله حين تشقوا الرائحة المنتشرة في الهواء، وابتهج رجال تشن، وأصبح وجه خاسار قاسياً.

حسّه كل مشاعره الفطرية على جعل حصانه يهرول نحو الأعداء قبل أن يستطيعوا الاستفادة من الأفضلية الصغيرة التي حققوها. كان تقدم أوجيدي قد فقد زحمه، ولم تشتبك إلا طلّات الجيشين فقط، وبدت مثل حشرات تتصارع بعيداً. أرغم خاسار نفسه على التحلي بالهدوء، فلم تكن تلك غارة على رجال قبائل. كان لدى تشن أعداد وأعصاب تكفي لحسارة نصف رجالهم من أجل تمزيق خان المغول، وأب السماء يعرف أن إمبراطور تشن يرغب في ذلك. شعر خاسار بأن رجاله ينظرون إليه، وابتغوا قراره، فأمسك فكه بإحكام مفكراً.

أمر وهو يراقب المعركة: "الزموا أماكنكم، انظروا". كان الألفان اللذان يتولى قيادتهما قد يعنيان الفرق بين النصر والهزيمة أو الضياع في الحشد. كان هذا خياره؛ وقراره.

لم يكن أوجيدي قد سمع دويًا مثل الدوي الذي سمعه منذ لحظات من قبل قط. كان يقود حصانه في الصفوف الخلفية حين اشتبك الجيشان، وقد جأر حين طارت السهام بالآلاف في كل مرة، مراراً وتكراراً، قبل أن يشهر محاربوه سيوفهم

ويضربوا بها. كان الرجال حوله قد اندفعوا إلى الأمام، وكل منهم منشوق إلى إثبات شجاعته والفوز باستحسان الخان. بدت تلك فرصة نادرة لهم ليكونوا في مرمى بصر الرجل الذي يحكم الأمة، ولم يرغب أحد في تقويتها. لذا، استعدوا للقتال مثل الخانين، من دون إظهار أي ألم أو ضعف.

وعندما تقدموا إلى الأمام، رماهم انفجار هائل إلى الخلف، وجعل أذني أوجيدي تطنان. تطلّخ أوجيدي بالتراب بفعل ذلك الانفجار وحاول مترنجاً أن يفهم ما حدث. رأى رجلاً يترجل عن صهوة حصانه، ويقف خدرًا والدم يسيل على وجهه. لقيت مجموعة صغيرة حتفها، في حين أنّ عدداً آخر من رجاله كانوا ينتزعون ويسحبون قطعاً معدنية من أجسادهم. كان الانفجار قد صمّ أذان أولئك الأقرب إليه وجعلهم يشعرون بالدوار. وعندما اندفعت الصفوف إلى الأمام، رأى أوجيدي رجلاً راجلاً يعترض طريق فارس ويقع تحت حوافر حصان ذلك الفارس. هزّ أوجيدي رأسه ليطرد صوت الهواء العاصف. وشعر بقلبه يخفق بقوة، واتسعت موجة عريضة من الضغط في رأسه، وفكّر في رجل كان قد رآه يُعذّب مرة، وخطرت له صورة خاطفة لقطعة جلدية مربوطة حول رأسه ومشدودة بعضا. كانت أداة بسيطة، لكنها تسبب ألماً مبرحاً؛ لأن الجمجمة تطلق وتحتطم في نهاية المطاف. شعر أوجيدي بأن رأسه سينفجر؛ وكان هناك ما يضغطه بشدة.

بدا أن انفجاراً مدوّياً آخر قد رفع الأرض تحتهم. صهلت جياذً وتراجعت إلى الخلف، وغيوها شاحصة، في حين كافح المحاربون بقوة للسيطرة عليها. استطاع أوجيدي رؤية سحابة داكنة ترتفع عالياً في الهواء لدى قوات تشن، ولم يعرف ماهيتها، أو كيف يرد عليها. احترقت فكرة مفاجئة حالة الذهول التي كانت قد سيطرت عليه؛ فقد أدرك أنه قد يموت في هذا السهل المليء بالصخور. لم تكن قضية شجاعة أو حتى تحمّل، وإنما مجرد حظ. هزّ رأسه مجدداً ليصفو ذهنه وكانت عيناه تلمعان، وجسده ضعيفاً، وقلبه واهناً، لكنه بالرغم من كل شيء آخر، كان محظوظاً. سُمعت فرقة أخرى في أرجاء الميدان، تبعها اثنتان أخريان. كان رجال أوجيدي مترددين وذهالين، وقد تسرّروا في أماكنهم. إلى يمينه، كان رجال تسولي قد تقدّموا أكثر، لكنهم بدوا أيضاً مدهوشين من الانفجارات الضخمة التي قتلست رجالاً على كلا الجانبين.

شهر أوجيدي سيف والده بحركة واحدة سريعة، وصرخ متحدياً حين رفعه
عالياً. رأى أتباعه هَوْرَه وأثار ذلك حماسهم، فانطلقوا معه حين ركل حصانه حائاً
إياه على التقدّم إلى الأمام. وكانوا يكشّرون آنذاك للحنان الطائش الذي يهاجم
العدو بنفسه. كانوا جميعاً شباباً، ويرتحلون مع أحب أبناء جنكيز إليه، المميز من
أب السماء، خان الأمة. لم تكن حيواتهم مهمة مثل حياته، وسيضحون بها من
دون أكثرات من أجله.

عندها، حدثت التفجيرات بوتيرة أسرع مع قذف المزيد من الكرات السوداء
التي تفرقع في الجو لتضطّ حول المغول. وعندما اندفع أوجيدي إلى الأمام، رأى
مخارباً راحلاً يلتقط واحدةً منها، فصرخ الخان، لكن الرجل تمزق إلى أشلاء. امتلأ
الجو فجأةً بذهاب يطن، وصهلت الجياد، وصرخ الرجال حين حُرح الجميع بإبر
حديديّة.

اندفع أتباع أوجيدي إلى المعركة، وهم يحمون خاتمهم الذي كان يتقدّم في
الوسط. أوقفت حراب منخفضة تقدّم الجياد، لكن عدداً من رجاله ترجلوا عن
جيادهم وقتلوا حملة الحراب بالسكاكين والسيوف، وفتحوا درباً في حين كانت
الجياد تندافع وتتعرق خلفهم. رأى أوجيدي كرة سوداء أخرى تهب قرب قدميه
تقريباً، ورمى أحد رجاله بنفسه عليها. كان الدوي مكتوماً، لكن ثقباً صغيراً أحمر
بان في ظهر الرجل، واندفعت عظمة منه إلى ارتفاع رجل تقريباً. فسزع أولئك
الموجودون حول أوجيدي، لكنهم وقفوا على الفور مشدودي القامة، وحجلين؛
لأن الخان ربما رأى خوفهم.

أدرك أوجيدي أنه رأى نوعاً من الدفاع ضد تلك الأسلحة، ورفع صوته
ليسمّع عبر الصفوف، وصرخ: "ألقوا بأنفسكم عليها حين تهب، من أجل
خانكم".

كرّر الأمر عبر الصفوف حين كانت الموجة التالية من القذائف تُرمى عالياً،
وظهرت ستُّ كرات حديدية طائرة، كل منها متصلة بفتيلة مشتعلة تصدر أزيزاً.
شاهد أوجيدي بفخر الخارين وهم يكافحون للوصول إليها، ويخنقون التهديد حتى
ينعم أصدقاؤهم بالحياة، فاستدار إلى العدو ورأى الخوف على وجوه مخاربسي
تشن، في حين لم يكن هناك إلا غضب شديد على وجهه.

جأر: "أيها الرماة! افتحوا طريقاً وأحضروا رماحاً. أريد رماحاً هنا".
ظهرت دموع في عينيه، لكن ليس حزناً على أولئك الذين ضحوا بحياتهم، بل
شعر بالفرح في كل لحظة يعيشها ويتنفس فيها. كان الهواء بارداً ومرراً في حلقه،
ومليئاً برائحة المسحوق المحترق الغريبة، لكنه تنفس بعمق، وبدا لبعض الوقت أن
الضغط الذي كان يشعر به في رأسه قد تلاشى حين فتح رجاله ثغرة في صفوف
تشن.

ضرب خاسار بقضيبته على درعه بطريقة لاشعورية استحساناً لمساورات
أوجيدي. كانت الفرقتان المغوليتان قد تراجعتا إلى الخلف بفعل التفجيرات،
وتحركتا بعيداً عن مصدر ذلك الصوت والضوء. وكان خاسار قد رأى أتباع الخان
يتغلبون على خوفهم ويشقون طريقهم داخل خطوط تشن. وفجأة، أصبحت
أصوات التفجيرات مكتومة، ولم يعد يرى نفاث الحجارة والتراب كلما وقعت
إحدى الكرات الحديدية. وبدا الأمر وكأنها تسقط على الجيش المغولي وتُتلعع.
كشّر خاسار من تلك الفكرة وقال لرجاله: "أظن أن الخان يأكل كرات الحديد
تلك. انظروا، إنه لا يزال جائعاً، ويريد المزيد لملء معدته". أخفى خوفه من ذلك
المحوم الطائش الذي يقوم به أوجيدي. إذا مات اليوم، فسيحكم تشاغاي الأمة،
وسيضيق كل ما كانوا قد كافحوا من أجله هباءً.

جال بصره الخبير والثاقب على ساحة المعركة، فيما دفع حصانه للحجري
جنوباً؛ وذلك كي يبقوا على مقربة مما يحدث. في أثناء ذلك على الأقل، لم يكن
إمبراطور تشن قد تردد، وتحرك رجاله بأسرع ما يستطيعون متعثرين بالجثث في
أثناء سيرهم. لم يكن إيقاف مثل ذلك الجيش من قبيل المحاربين البالغ عددهم
نصف عدد محاربي تشن أمراً سهلاً، وتلك مشكلة تكتيكية اختار خاسار في
حلها. فإذا أمر صفوف أقل عدداً بالانتشار مثل شبكة، فبإمكان تشن اختراقها
بمحوم بالرماح. وإذا حافظ على تراص رجاله، فمن الممكن أن يتجاوزهم العدو
من الجناحين مع اندفاع الإمبراطور العنيد خطوة تلو الأخرى نحو الحدود. فكّر
خاسار في أن هذا الأمر مؤلم جداً له. وبالرغم من أنه قريب جداً من الحدود، إلا
أن هناك عدواً يغلي حوله.

قتل المشاريبون في فرقته كما يحلو لهم تقريباً الرجال الذين يقفون في نهاية صف العدو، مختلفين وراءهم أكواماً من الجثث على العشب. لم يكن مقاتلو تشن ليغيروا مسارهم، وبدوا عاقدي العزم على الوصول إلى الحدود. وعندما قاد جواده للسير حياً خلفهم، مرَّ بجانب جندي عالق بين أغصان شجرة شوكية منخفضة، فنظر إلى الرجل ورأى وجهه يختلج وعينه مفتوحتين، ويظهر الألم واضحاً فيهما. عندها مدَّ خاسار سيفه وقطع عنق الرجل. لم يكن تصرفه هذا بدافع الرحمة، لكنه لم يقتل اليوم، وتاق إلى أن يكون جزءاً من المعركة.

شئت هذا الفعل توكيزه قليلاً، ثم أصدر أمراً بصوتٍ حادٍّ لألقي محارب معه. "انطلقوا معي إلى الأمام. لن تفعل شيئاً مفيداً هنا والخان في الميدان".

قاد جواده حياً إلى مسافة مئة خطوة فقط خلف العدو، وهو يبحث عن أفضل مكان وفرصة لتوجيه ضربة، وجلس على السرج منتصب القامة قدر المستطاع، ومحدقاً إلى البعيد على أمل رؤية حاملتي رايات الإمبراطور. كان وانقأ أن هؤلاء سيكونون في مكان ما قريب من قلب الصفوف الضخمة، وأنهم يشكّلون حاجزاً من الرجال والخياد والمعدن لنقل حاكم واحد بانس إلى بر الأمان. مسح خاسار سيفه بخرقه لتنظيفه قبل أن يضعه في غمده، واختار رجاله أهدافهم، ثم أطلقوا سهاماً نحو جنود تشن بدقة لا رحمة فيها. صعب عليه أن يكبح جماح نفسه وبدأ صيره يتفد.

كان هجوم أوجيدي قد جعله يتجاوز الخطوط الخارجية لرماة الرماح. بقيت أفواج تشن منضبطة، لكن الانضباط وحده لم يكن كافياً لتحقيق النصر، وبالرغم من أنها لم تتداع، إلا أن الفرسان المهاجمين اخترقوها. أصبحت خطوطهم مقطّعة الأوصال، وبدأت تتراجع إلى الخلف أو تتناقص أعدادها إلى قلة من الرجال المنهكين الذين يمكن القضاء عليهم باستخدام السهام.

صدحت الأبواق في صفوف تشن، وشهر عشرة آلاف رجل سيوفهم وهجموا وهم يصرخون بتحدٍّ. جرى هؤلاء نحو وابل متواصل من السهام التي كانت تُطلق عليهم من مدى قريب، وسقطت الصفوف الأولى أرضاً وسحقتها الأقدام. ركضوا إلى الأمام كتلة واحدة، ثم وجد مهاجمو كل صف منهم أنفسهم

في مجموعات من اثنين أو ثلاثة؛ فيما ظلّ العشرات وحدهم وهم يواجهون سيوف الخاربيين. وعندما رأوا تلك المذبحة، تردد أولئك الذين كانوا في الخلف حين اندفع المغول إلى الأمام صفّاً واحداً، وجعلوا جيادهم تعدو بأقصى سرعتها، وسنّوا هجومًا كامحاً لا يمكن إيقافه، فما كان من صفوف تشن إلا أن تراجعت إلى الوراء.

رأى تولي أن شقيقه قد توغل عميقاً في تشكيلات العدو، وأن أتباع الخسان يقاتلون معتقدين أنه بمقدورهم شق طريقهم إلى الطرف الآخر. وشعر بالدهشة من شقيقه آنذاك، إذ لم يكن قد توقع أن يراه يفقد صوابه في ساحة المعركة. لكن، لم يكن من الممكن إيقافه وأتباعه يضغطون بقوة للاندفاع أكثر إلى الأمام. قاد أوجيدي حصانه وكأنه لن يتعرض للخطر مطلقاً، ولا شيء سيمسّه بسوء؛ بالرغم من أن الجلو كان مملوياً بالموت والدخان.

لم يكن تولي قد شاهد دحاناً في ساحة معركة من قبل قط. وبدا هذا عنصراً جديداً له، وكره رجاله رؤيته ينساق نحوه. كإل قد اعتاد الرائحة الغريبة، لكن الانفجارات والأصوات المدوية كانت تسبب له أكثر اللحظات رعباً التي عرفها في حياته. لم يستطع التراجع؛ ليس وأوجيدي يتحرك بين الجيش. بدا إحباطهم بسبب عدم قدرتهم على منع الانسحاق جنوباً واضحاً عليهم جميعاً، وكاد الأمر أن يتحول إلى نزاع فوضوي، مع التضحية بأفضلية المغول في السرعة والدقة لمصلحة الغضب العارم.

وجّه تولي ضباط فرقة لحماية الخان، وتحرك بسرعة لدعم جناحي أوجيدي وتوسيع الثغرة التي أحدثها في جيش تشن. وشعر بالفخر حين مرّ ابنه مونغكي الأمر إلى الألف الذين كانوا تحت إمرته، والذين أطاعوه من دون تردد. لم تكن المناسبات التي خرج فيها جنكيز إلى الحرب مع أبنائه كثيرة. وبالرغم من خوفه على سلامة مونغكي، إلا أنه ابتسم وهو يشعر بالسعادة والفخر لدى رؤيته ابنه شاباً قوياً. وعرف أن سورهتاني ستشعر بالفخر حين يخبرها بذلك.

تلاشى الدخان الكثيف مجدداً، وتوقع تولي موجة أخرى من الدوي. كان آنذاك أقرب إلى العدو وجيش تشن يلتف حول رجاله، ويتحرك جنوباً دائماً نحو الجنوب. شتمهم تولي حين كاد جندي من تشن يمر تحت رأس حصانه بشهور،

محاوياً البقاء في صف يتحرك إلى الأمام. قتله تولى بضربة سريعة من حيث يجلس على صهوة جواده؛ بعد أن اختار نقطة على عنقه لا تحميها درعه.

وما إن رفع رأسه حتى رأى مئات آخرين يسيرون بسرعة نحو موقعه، وكانوا يرتدون دروع الجنود العاديين، لكن كلاً منهم يحمل أنبوباً معدنياً أسود. شاهدتهم يتنون تحت ثقلها، لكنهم يتقدمون بخطوات واسعة بثقة غريبة بالنفس. صرخ ضباطهم بأوامر التلقيح والإطلاق، وأدرك تولى أنه يجب عليه ألا يمنحهم وقتاً.

صرخ تولى بأوامره بصوتٍ أحشأً آنذاك، فاستدار ألف من رجاله لمواجهة التهديد الجديد، والسماح لقواتٍ أوجيدي بالتقدم من دون أن يتم التصدي لها. تبع رجاله قائدهم من دون تردّد، واستعملوا سيوفهم، وأطلقوا سهامهم على أي شخص يقف في درعهم.

تعرض جنود تشن لضربات قاتلة في أثناء تعاملهم مع الفتائل والأنابيب، وقد سحقت الجياد بعضهم، في حين مات آخرون وهم يسدّون فتائل مشمعة في فوهات أسلحتهم. وقعت عدّة أنابيب أرضاً، ورداً على ذلك، دفع محاربون مغول جيادهم بعيداً عنها، أو حتى رموا بأنفسهم عليها وغربوهم مغمضة.

لم يصلوا إليها كلها، وسُمعت أصوات انفجارات أقل قوة تنتقل عبر الصفوف. رأى تولى رجالاً يطير بعيداً عنه، ويُمزق إلى أشلاء قبل أن يستطيع حتى الصراخ. وسقط حصان أرضاً، والدم يسيل من صدره. سُمع صوت مدوّ، ثم النف الدخان في سحابة رمادية عظيمة، ولم يعودوا قادرين على رؤية أي شيء. ضرب تولى بسيفه حتى انكسر، فحدّق إلى مقبضه غير مصدّق، ليكتشف أن شيئاً وقع عليه، ولم يعرف إن كان عدواً أو واحداً من رجاله. شعر بالحياة تفارق حصانه فحرّر نفسه منه قبل أن ينقلب عليه، ثم أخرج سكيناً طويلة من حذائه، ورفعها عالياً وهو يعرج، فيما كان الدخان يحيط به. ترددت أصوات المزبد من الانفجارات الغريبة حوله حين أطلقت الأنابيب حشونها من الحجارة والحديد، والتي دار بعضها على الأرض بسرعة من غير جدوى في حين تمدد مطلقوها موتى.

لم يعرف تولى كم مضى من الوقت وهم يقاثلون. وسط الدخان الكثيف، انتابه شعور غامر بالخوف. هذا نفسه، وأرغم نفسه على العمل وسط الضوضاء والفوضى. كان جيش تشن سيصل بحلول المغيب إلى الحدود التي لم تكن تبعد إلا

بضعة أميال إلى الجنوب في ذلك الوقت، لكنهم كانوا يعانون ويموتون مع كل خطوة. وعندما تبدد الدخان، ألقى تولى نظرة سريعة على الشمس، ورآها أقرب إلى الأفق؛ وكأنها قد انخفضت حين كان محاطاً بالدخان. لم يكن يصدق ما حدث حين أمسك حصاناً من دون فارس، والنقط اللحم وهو يبحث على الأرض عن سيف جيد. كان العشب حيث مشى زلقاً وملطخاً بالدماء، وجاشت معدته من رائحة الجثث النتنة المختلطة برائحة المسحوق الأسود المحترق؛ مزيج كرهه لم يرغب في شمه مجدداً.

قاد كسوان حصانه غير متأثر بسيلك الدماء، بالرغم من أنه استطاع أن يشم رائحة البارود في هواء المساء. هاجمت فرقة المغول جنوده النبلاء وصرخت عليهم، ومزقتهم إلى أشلاء بالأسنان والحديد. كان وجه كسوان متجهماً حين حشد إلى الجنوب فوق رؤوسهم، واستطاع رؤية الحدود، لكنه لم يظن أن المغول سيلحقون به حين يجتاز المعبد الحجري البسيط الذي يكوّن الحد الفاصل بين أمتين. وبعوض الحظ، كان جيش تشن قد شق سبيله عائداً إلى الطريق الرئيس، وبدا البناء الحجري الأبيض بقعة بعيدة؛ واحة سلام يتلاقى الجيشان عندها.

تعرق كسوان تحت درعه، عاجلاً من فكرة أن بمقدوره قيادة حصانه وحيداً على طول ذلك الطريق. كان حصانه فحلاً رائعاً، لكن كسوان لم يكن أحمق، ولا يمكنه دخول أراضي سونغ كما لو كان متسولاً. لم يكن جيشه يحتمي جسده فقط، وإنما آخر ثروة تشن أيضاً، في ألف كيس وحقية. كانت زوجاته وأبناؤه هناك أيضاً، متوارين عن الأنظار خلف أسوار من الحديد والرجال الأوفياء، ولم يكن بمقدوره تركهم لرحمة خان المغول.

بفضل ثروته، سيقى ترحيباً من ابن عمه. ومع الجيش، سيحظى باحترام إمبراطور سونغ. سيكون لديه مكان إلى طاولة النبلاء حين يخططون لحملة عسكرية لاستعادة أراضي أسلافه.

وجل كسوان من تلك الفكرة، فلم يكن أحد يحب سلانته كثيراً في بلاط سونغ. كان الإمبراطور ليزونغ رجلاً من جيل والده، ويعتبر أراضي تشن ملكاً له، ويدعي أن مجرد خطأ حصل في التاريخ جعلها لا تصبح من حقه. كانت هناك

إمكانية بأن يضع كسوان يده في جحر جرد، وذلك بإلقائه نفسه في نطاق سلطة سونغ، لكن لم يكن لديه خيار آخر. كان رعاة الماعز المغول يتحولون في أراضيه وكأهم يمتلكوها، ويتدقون إلى كل مخزن، ويستولون على ثروة كل قرية بفرضهم الضرائب التي لن يعرفوا أبداً كيف ينفقونها. بدأ العار المرتبط بذلك كبيراً، لكن كسوان لم يعرف السكنية قط، فقد كبر معتاداً على الإذلال بسبب خسارة مملكته جزءاً بعد آخر لمصلحة عدو من المخربين، ورؤيته عاصمة والده تحترق. كان متأكداً من أن ابن عمه من سونغ لن يقلل من شأن هذا التهديد. كانت أراضيهم قد شهدت غزاة من قبل؛ شيوخ قبائل جمعوا جيشاً ثم ماتوا، والمهارة إمبراطورياتهم على الدوام، بعد أن حطمتها الغطسة وضعف الرجال الأقل شأنًا. كان كسوان يعرف أن لدى الإمبراطور ليونغ حافزاً يحنه على تجاهله والانتظار ببساطة قرناً أو اثنين. مسح العرق عن عينيه، وفكر في أن الزمن داوى أمراضاً عديدة في العالم، لكنه لم يداوِ ألم رجال القبائل هؤلاء. كان المغول قد فقدوا فاتحهم العظيم في أوج قوته، غير أنهم ببساطة تابعوا مسيرته؛ وكان رجالاً واحداً لا بهم. لم يعرف كسوان إن كان هذا قد جعلهم أكثر تحضراً، أو مجرد قطيع من الذئاب تولى أحد أفرادها قيادته.

شدَّ قبضته وهو يشعر بالسعادة حين سمع الانفجارات المتكررة الصادرة عن مدافعه. لم تكن لديه إلا قلة منها، لكنها أسلحة رائعة وخفيفة. كان هذا أيضاً شيئاً يأخذه إلى سونغ: معرفة أساسية بالعدو، بالإضافة إلى وسائل تدميره. لم يكن ذئبٌ ليقف في مواجهة رجل لديه جمار حارقة. وعرف كسوان أن بمقدوره امتلاك ذلك السلاح، إذا تسنى له الوقت وكان لديه المكان المناسب لإنتاجه.

استفاق من أحلام يقظته على صراخ ضباطه الذين كانوا يشيرون إلى الجنوب، فحجب ضوء الشمس الغاربة عن عينيه لينظر إلى البعيد.

كان هناك جيشٌ يقترُب من الحدود، على بعد نحو ميلين فقط. واستطاع رؤية تشكيلات ضخمة تتحرك بسرعة متدفقة من التلال. كانت أفواج سونغ تتعامل مع التهديد - كما فكر - أو ترد على غطسة خان تجراً على دخول أراضيها. عندما راقب كسوان ما يجري، مركزاً بصره، بدأ يدرك أنها لم تكن قوة صغيرة خاصةً بحاكم إقليمي. لم يكن الإمبراطور نفسه سيغادر عاصمته قط من

أجل شن حرب قذرة. ولهذا، بدا واضحاً أنه أحد أبنائه، وربما ورثه؛ فلا أحد غيره يستطيع قيادة مثل ذلك العدد الكبير من الجنود. غطت التشكيلات التي اتخذت شكل مربعات الأرض مثل تطريز على قماش. يتألف كل منها على الأقل من خمسة آلاف رجل، مدربين جيداً ومزودين بكل ما يحتاجون إليه. حاول كسوان أن يعدّهم، لكن هذا بدا مستحيلًا بسبب الغبار والمسافة. شعر الرجال حوله بالفرح، لكنه ركّز بصره مفكرًا، وحدّق حوله إلى قوات المغول التي لا تزال تهدر في إثره.

إذا أغلق ابن عمه الحدود فلن ينجو. حلكُ كسوان وجهه منزعجاً، فتركت أظفاره علامة حمراء عليه. لن يبقوا بالتأكيد مكتوفي الأيدي وهم يشاهدونه وهو يلقي حتفه! لم يكن يعرف، ولا يمكنه ذلك. جعل التوتر الذي يشعر به المادة الصفراء تزداد في معدته مع اقتراب حصانه من المركز الهادئ للعاصفة الهوجاء.

سحب كسوان نفساً عميقاً، وجمع قاذبه، وبدأ بإصدار الأوامر لهم. انتقلت التعليمات عبر الصفوف، وشدّت فرق جيشه التي تقف عند الأطراف أزرها، وركض رجال يحملون تروساً ثقيلة إلى مواقعهم، وأقاموا دفاعاً قوياً سيصد المغول وقتاً كافياً يتيح لكسوان الوصول إلى الحدود. كانت تلك آخر خطة طوارئ لديه للنجاح. لكن، في هذه المرحلة، ربما تصلح أيضاً لإبقاء أكبر عدد ممكن من الجنود أحياء. كان قد خاض معركة دفاعية طوال أيام، وإذا كانت الحدود مغلقة، فسيضطر إلى الاستدارة في مكانه والاشتباك مع الخان. كان عدد جنوده لا يزال أكبر، وكان رجاله متعطّشين إلى رد الضربات التي تلقوها.

بدت الفكرة مغرية، وتساءل كسوان إن كان عليه أن يقاتل حتى إذا فتح جيش الحدود طريقاً يسمح له بالمرور غيره. كان كل ما أراده هو الوصول إلى سرّ الأمان مع عددٍ كافٍ من الرجال ليكون صوتاً قوياً في المجالس التي ستُعقد بعد ذلك. بالرغم من ذلك، بقي رجال خان المغول أقل عدداً، وسيصاب الراعي المغولي الوضع بالذهول، وسيفقد أعصابه لدى رؤيته هذا العدد من الأفواج القوية. كانت أوائل صفوف سونغ قد وصلت إلى الحدود وتوقفت في خطوط مثالية، وقد ارتدى رجالها دروعاً ملونة وحملوا رايات سونغ الخفاقة. عندما حدّق كسوان إليهم، رأى سحابة دخان في الصف، وسمع انفجاراً حين طارت كسرة

صخرية فوق العشب؛ وبالرغم من أنها لم تصب أحداً، إلا أن الرسالة لم تكن موجهة إليه. كان أمير سونغ قد أحضر مدافع إلى الميدان، وهي أنابيب معدنية ضخمة على عجلات يمكن أن تصيب صفاً من الجياد والرجال برمية واحدة. بدأ أن الخان سيضطر إلى استيعاب هذا التفصيل الصغير.

تابع جيش كسوان مسيره إلى الأمام، وشعر كسوان بأن قلبه يتفكك مثل عصقور مع اقتراب رجاله من الصفوف الداكنة.

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل الحادي عشر



لم يصدّق خاسار حجم الجيش الذي يتحرك بسرعة متوجّهاً إلى حدود سونغ، ومنتشراً خلفها. لم تكن الأمة الجنوبية قد خاضت معركة فم الغرير الخاصة بها كما فعلت الأمة الشمالية. ولم يرسل إمبراطورها جيوشاً، ولم يرّها تتمزّق وتدمّر وتعرض لهزيمة نكراء، ولم يهرب جنوده فطر رعباً من فرسان المغول. كان خاسار يكرههم بسبب أناقتهم، وتمنى مجدداً لو كان جنكيز معهم، فقط لسرى شقيقه يستشيط غضباً من هذا المنظر.

امتدت فرق سونغ أميالاً، وفاقّت تشكيلاتها المتحركة جيش تشن الذي اقترب منها من حيث العدد. رأى خاسار أن الاندفاع نحو الحدود قد تباطأ، وتساءل إن كان إمبراطور تشن يعرف إن كان سيُسمح له بالهرب أم سيُردّ على أعقابها! منحت تلك الفكرة خاسار بعض الأمل، وارتياحاً قليلاً فقط من الغضب والسخط اللذين يشعر بهما. لقد فاز بالمعركة! كانت أفواج تشن قد قاتلت لإبقائه بعيداً أياماً، لكنها لم تشنّ هجوماً معاكساً ولو مرة واحدة، وقد أغارت عليهم فقط حين احترق رجاله صفوفها. كانت فرقته قد صبغت الأرض بدمائها، وواجهت تفجيراتٍ وزوابعٍ من المعدن الساخن، وتعرض رجاله لحروق وكسور وتقطيع أوصال. كانوا قد استحقوا النصر، وها هو الآن سيُتزع منهم.

كان جيشه الاحتياطي المؤلف من ألفي رجل لا يزال مفعماً بالنشاط. أرسل خاسار إشارة راية إلى راكبي الجمال لكي يلاحقوا أعداءهم، فانطلق الشبان وهم يمتطون تلك الحيوانات والطبولُ مربوطة إلى أجسادها. وعلى طول الخطوط، أطلقوا دويّاً صاعباً وهم يضربون يساراً ويميناً بكلتا اليدين. كما وثبتت الجياد المدرّعة إلى الأمام عند الإشارة، وأنزل المحاربون رماحهم الثقيلة ببطء، ووازنوها

في عرض معتاد للقوة والمهارة. جرى صف الفرسان قرع الطبول بصراخ هادر من حناجرهم أرفع أعداءهم.

وصل رجال حساسار البالغ عددهم ألفي رجل إلى بعد عشرين خطوة فقط من رجال تشن الخائفين؛ بعد أن ركضوا بأقصى سرعة، وسنح وقت للقائد لسرى بعضهم وهم يفرزون تروسهم الطويلة في الأرض. لكن، ما كان باستطاعة شيء صد هجومه؛ غير حدار قوي من التروس. كان بمقدور ضباط جديدين إيقافهم بأن يضعوا تروساً ورمية رماح معاً في حاجز لا يمكن اختراقه، لكن رجال الإمبراطور كانوا مضطرين إلى السور مذعورين.

كانت جياد المغول مزودة بدروع خفيفة تغطي وجوهها وصدورها، في حين يرتدي المحاربون أنفسهم دروعاً معدنية من عدة طبقات، ويعتمدون خوذاً، ويحملون رماحاً وسيوفاً، وقد ملئت أبحراجهم بالإمدادات، واندفعوا نحو خطوط تشن مثل جبل يسقط.

رأى حساسار أقرب الصفوف بنهار، والرياح والحوافر تمزق الرجال إلى أشلاء. توقفت بعض الجياد وصهلت بغضب، وأبصارها شاخصة حين شد فرسائها الأليمة على أفواهها، وهم يصرخون بغضب لجعلها تجري مجدداً. واندفع آخرون عبر صفوف تشن مباشرة، وتكسرت رماحهم من قوة الضربة، ففسدوا جانباً المقابض المكسورة وتابعوا القتال بالسيوف، مستفيدين من العضلات التي تكوَّنت لديهم طوال عشرين عاماً من الرماية بالأقواس. قاتلوا بضراوة من دون تعب، واخترقوا الصفوف، وهم يضربون إلى الأسفل دائماً نحو الوجوه المزججة.

تلطَّخ حساسار ببقع دم حمراء ساحنة حين نفق حصانه فقفسز عنه، وذاق دم شخص ما على شفثيه فبصق مشمئزاً، وتجاهل الذراع الممدودة من أحد أتباعه الذي حاول رفعه إلى السرج. كان غضبه من هروب الإمبراطور الوشيك يشوش حكمه. مشى على قدميه نحو جنود العدو حاملاً سيفه على ارتفاع منخفض حتى هاجموه. كان خصومه قساة ودقيقين. واندفع مع رجاله بخطوات واسعة إلى الأمام، لكن رجال تشن تراجعوا إلى الخلف بدلاً من الاشتباك معه.

شعر بنظرات جنود الإمبراطور المتجهمة تراقبه بصمت في أثناء ابتعادهم عن طريقه. تأفف حساسار حين علق سيفه في ترس، فتركه ولطم جندياً قبل أن ينتزع

سيفاً آخر عن الأرض. وأنداك فقط اعتلى صهوة جوادٍ خلف محارب؛ ليرى ما يحدث.

بعيداً، كانت الصفوف الأولى لجيش تشن قد وصلت إلى خطوط سونغ.
صرخ خاسار في أذن التابع: "أحضر لي حصاناً".
أدار الرجل حصانه وخرج من الثغرة التي كانوا قد شقوها لأنفسهم، والتي
أغلقت خلفهما، وارتفعت التروس المتهالكة مرة أخرى.
بحث خاسار عن أوجيدي، وهدأ غضبه حين فكر في التهديد، فقد كان
مقدور طفل أن يرى أن الوضع ميؤوس منه. عند مواجهة مثل هذا الجيش، فإن
كل ما تستطيع الفرق فعله هو الابتعاد عنه. وإذا هاجمتهم أفواج سونغ، فسيضطر
المغول إلى التراجع والانكفاء. بدا أن لا خيار أمامهم إلا الانسحاب الهادئ أو
الحرب وكان هناك ذئاباً تلاحقهم. اصطكت أسنان خاسار حتى ألمه فكاه، وبدا أنه
لا فائدة ترجى من الأمر.

دفع كسون حصانه، وظهره مشدود، للحري خيلاً نحو خط سونغ، وأحاط
به ثلاثة قادة يرتدون دروعاً مزخرفة وعباءات. كانوا جميعاً متعصبين وبكسوهم
الغبار، لكن كسون انطلق إلى الأمام وكأنه لا يستطيع العودة أدراجه. وكان
يعرف أن عليه أن يكون أول شخص هناك. طبعاً، كان مدافعو سونغ سيففضون
منح جنود عاديين حق دخول مملكتهم، ووحده كسون يستطيع تغيير ذلك،
بوصفه الإمبراطور الحاكم. كان هذا لقباً من دون أمة. فهو إمبراطور من دون
مدن، لكنه حافظ على وقاره حين وصل إلى أول صفوف الجنود.

لم يتحرك الجنود، ونفض كسون الغبار عن قفازيه المصنفحين، ولم يُظهر
انسزاعاً حين حدّق فوق رؤوس جيش سونغ. استطاع رؤية المغول وهم يمزقون
رجالهم إلى أشلاء، لكنه لم يتحرك أو يهتم بذلك، وبدا أن هناك فرصة بأن يسمح
ابن عمه ليزونغ بتدمير جيشه في أثناء انتظارهم. امتشاط كسون غضباً من تلك
الفكرة. لكن، لم يكن في وسعه فعل أي شيء، فقد جاء إلى أراضي سونغ متوسلاً،
وإذا اختار الإمبراطور القضاء على قوته يمثل تلك الطريقة، فلن يكون بمقدوره
الرد. كانت تلك ضربة قاضية ويمكن أن يوافق عليها: أي أن يترك إمبراطور تشن

المتضرر يدخل، ولكن، بعد أن يجعله يرى جيشه وهو يتقلص إلى بضعة رجال أولاً. سيحمله يأتي على ركبته متوسلاً.

كانت كل خيارات كسوان، وكل خططه وحيله قد انتهت إلى شيء واحد. لقد انتهى به المطاف عند حدود سونغ، وإذا فتحوا له طريقاً يعبر منه، فمن الممكن أن يصل إلى برّ الأمان مع مَنْ يبقى حياً من جيشه. حاول كسوان ألا يفكر في ما قد يحدث إذا قرّر أبناء عمه الخبيثون من سونغ إبعاده عن توازن القوى، ولم يكن غريباً أن يجعلوه يناور مضطراً، وأن ينتظر، ومنتظر، ومنتظر. فمن الممكن أن يهني حصانه واقفاً أمامهم حتى يُنهى جيش المغول ذبح جيشه ويأتي من أجله. بدت هناك إمكانية بالألّا يرفع ليزونغ يداً لإنقاذه حتى في ذلك الوقت.

بدا وجه كسوان جامداً لا يظهر عليه أي انفعال حين أمعن النظر إلى جنود سونغ، وعرف أن ما سيحدث هو مصيره ولا يمكن تغييره. كانت شرارة بيضاء من الغضب كامنة داخله، لكنه لم يظهر شيئاً، بل استدار إلى أحد قادته وسأل عن المدفع الذي استخدمه سونغ.

كان القائد يتعرق على نحو ظاهر للعيان، لكنه ردة وكأهم في تفتيش عسكري: "إنه سلاح ميداني يا جلالة الإمبراطور، يشبه ذلك الذي كنا قد استخدمناه على أسوار المدينة. يُسكب البرونز في قالب ثم يُبرد ويُلمّع. يشتعل البارود بقوة كبيرة، ويقذف كرة تثير الرعب في نفوس العدو."

أوما كسوان وكأنه مفتون. بحق أسلافه، كم يجب أن يطول انتظاره؟ قال بجفاء: "سيكون مثل هذا المدفع الضخم ثقيلًا جداً، ولا بدّ من أن تحريكه على تضاريس وعرة صعب."

أوما القائد وهو يشعر بالسعادة لأن سيده يبادل أطراف الحديث، بالرغم من أنه يعرف الاحتمالات مثل أي شخص آخر.

"يوضع المدفع على عربة خشبية مزوّدة بعجلات يا جلالة الإمبراطور. لكن، نعم، يتطلب الأمر عدّة رجال وثوراً لجرها إلى الموقع المطلوب. وهناك حاجة إلى المزيد من الرجال لحمل الكرات الحجرية، وأكياس البارود، والفتائل. وربما ستحظى بفرصة لتفحص أحدها عن كثب حين تدخل أراضي سونغ."

نظر كسوان إلى القائد مؤنباً لافتقاره إلى اللطف، وقال: "ربما أيها القائد. أحمري الآن عن أفواج سونغ، فأنا لا أعرف كل تلك الرايات".

بدأ الرجل بسرد الأسماء والتواريخ، وهو خبير بذلك كما يعرف كسوان جيداً. أمال كسوان رأسه للإصغاء إلى الصوت الرتيب، لكنه في الوقت نفسه كان يراقب خطوط سونغ. نظر الإمبراطور إلى الأعلى حين احتاز ضابط على صهوة حصان رافع خط الحدود، وحاول ألا يظهر كيف خفق قلبه بقوة.

بدا صعباً بالنسبة إليه أن يسمح لقائده بإهزاء سرد الأسماء، لكن كسوان أرغم نفسه على الإصغاء، وجعل ضابط سونغ ينتظر كليهما. كان جيشه يُذبح في حين يومئ وهو يستمع إلى تفاصيل مملة، لكن وجه كسوان بدا هادئاً ومهتماً.

أخيراً، شعر قائده بأن عليه التزام الصمت فشكره كسوان، وتظاهر بأنه لاحظ وجود ضابط سونغ للتو. ترحل الرجل حين تلاقت عيونهما، وتقدم إلى الأمام، ثم انبطح على الأرض الترابية قبل أن عس بمجيئه الركاب. ولم ينظر إلى كسوان حين تكلم.

"أحمل رسالة إلى ابن السماء".

رد القائد: "قل رسالتك لي أيها الضابط، وسأخبره بها".

انبطح الرجل مجدداً، ثم لهض قائلاً: "جلالة الإمبراطور يرحب بك في أراضيه يا ابن السماء. عسى أن تعيش عشرة آلاف سنة".

لم يكن كسوان ليحطّ من شأنه بالرد على ضابط عادي. كان يجب أن يحمل الرسالة شخص من النبلاء، وتساءل عما يستطيع فعله بسبب هذه الإهانة الماكرة، وبالكاد أصغى إلى قائده وهو ينهي الإجراءات الشكلية. لم ينظر كسوان إلى الخلف حين دفع حصانه للسير إلى الأمام، وسال العرق على ظهره ومن تحت إبطيه تحت درعه، وعرف أن رداءه الداخلي سيعصر ماءً.

تحت خطوط سونغ جانباً حين تحرك، وبدا الأمر وكأن موجة انتشرت على طول صفوفهم مسافة نصف ميل. وبذلك الطريقة يستطيع آخر أفراد جيش تشن المرور بين الصفوف مع إبقاء الحدود مغلقة ضد عدوهما المشترك. عبر كسوان وقادته الخط الخفي، من دون إظهار أيّ مشاعر لأولئك الذين يراقبونهم، وبدأت صفوف تشن تتبعهم، مثل جرح يندمل.

راقب أوجيدي ما يجري وهو يشعر بالغضب، ويكاد لا يصدق ما يراه. فقد رأى خيماً كبيرة تُنصب وسط صفوف سونغ؛ مساحات كبيرة من الخربير بلون الدراق. حفقت في الهواء رايات تُمَيِّز أفواج رماة السهام، ورماة الرماح، وحملة الخراب. كان منظر الفرسان المغممين بالنشاط قد أوقف وطيس معركته، فقد حدثت أفواج من الفرسان إلى السهل الوعر المملوء بالجثث. هل سيستطيع إمبراطور سونغ صدّ هجوم مفاجئ عندما يصبح إمبراطور تشن بأمان؟ كان غروب الشمس وحده ما سيقيد حركتهم، وربما حتى ليس آنذاك. كانت جياد المغول تجري منذ أيام. لذا، كانت مرهقة مثل فرسانها. وإحسان نفسه في الميدان هذه المرة، وأعداؤه يفوقونه عدداً وقد خسِر كل أفضلية له. هزّ أوجيدي رأسه، فقد رأى سحابة الدخان التي تشير إلى وجود أسلحة ثقيلة. كان هذا شيئاً يجب أن يفكر فيه في يوم آخر، لكنه لم يعرف كيف سيتمكن من إحضار مثل تلك الأسلحة إلى ساحة المعركة، فقد كانت بطيئة جداً، وثقيلة بما يكفي بالنسبة إلى جيش مُثَلَّت نقطة قوته الرئيسية دائماً في سرعته ومناوراته. من بعيد، شاهد مجموعة صغيرة من الخيول تتحرك ضمن صفوف سونغ، وظن أن عشرة آلاف جندي لا يزالون يتحركون للحاق بها، لكن إمبراطور تشن أفلت من بين يديه.

شعر أوجيدي بالإرهاق يحل محل طاقة القتال المثيرة، ولم يستطع أن يصدق أنه قد مشى من دون خوف. كان قد واجه أعداءه ونجا من دون إصابات، وفي لحظة واحدة فقط، في حفقة قلب، تعاضم غروره.

ومع ذلك، لقد فشل. وعادت موجة الضغط إلى رأسه، واشتدّت. تخيّل السخرية التي تبدو من دون شك على كل وجه قلق، واستطاع تقريباً سماع همسات بين محاربيه. لم يكن جنكيز ليفشل، وقد استطاع والده انتزاع النصر من الكارثة بطريقة ما.

أصدر أوجيدي أوامر جديدة، فابتعدت الفرق الثلاث عن صفوف تشن المنسحبة. كان الرجال يتوقعون الأمر، وانتظمت الألاف بسرعة وسهولة في تشكيلات مربعة من الجياد، قبالة حدود سونغ.

كان الصمت المفاجئ مثل ضغط. وقاد أوجيدي حصانه بهبط على طول خطوط رجاله، وقد تورّد وجهه وأخذ يتصبب عرقاً. لو أن قادة سونغ أرادوا شنّ

هجوم ضده، لما انتظروا عبور باقي رجال تشن إليهم، وكان بمقدور نصف جيش سونغ شن هجوم في تلك اللحظة. ابتلع أوجيدي ريقه، وحرّك لسانه في فم جاف جداً جعله يظنّ أنه سيختنق. أشار إلى ساع فأحضر له الرجل قربة من الشراب. ورطب السائل الذي تجرّعه من القربة الجلدية بشراة شفتيه. كان الألم الذي يشعر به في رأسه يزداد مع مرور الوقت. وأدرك أن رؤيته قد تشوّشت، وظنّ أولاً أن العرق يسيل إلى عينيه، لكن الأمر استمر على تلك الحال رغم فركه إياهما.

مع انتظام الفرق المغولية في تشكيلاتها، كان مئات المقاتلين لا يزالون يلهثون أو يعضّدون جروحهم. رأى أوجيدي تولي يتقدّم نحوه ممتطياً حصاناً يجري حياً على الأرض الوعرة. التقى الشقيقان وتبادلا نظرة إقرار بالواقع، وأدار تولي حصانه ليراقب إمبراطور تشن وهو يهرب منهم مجدداً. قال تولي برفق: " ذلك الرجل يتجمع بمخبط كبير. لكننا حصلنا على أرضه ومدنه. لقد دمرنا جيشه باستثناء ذلك الحشد من الناجين".

قال أوجيدي بحدة وهو يضعف على صدغيه: "كفى رلاً داعمي إلى أن تضيف عسلاً. يجب أن أرسل جيشاً إلى أراضي سونغ الآن، فقد منحوا أعدائي ملاذاً وهم يعرفون أنني سأرد". وشرب مجدداً من القربة، ثم تابع قائلاً: "ستكون هناك أيام أخرى للانتقام للذين فقدناهم. اجمع الرجال للعودة إلى الشمال بسرعة. لكن، ليس على نحوٍ ظاهرٍ للعيان، هل تفهم؟".

ابتسم تولي. لم يكن أي قائد يجب أن يراه أحد وهو ينسحب. لكن الرجال سيفهمون هذا أكثر مما يدرك أوجيدي، فقد كان بمقدورهم رؤية السور الذي شكله جنود سونغ مثل أي شخص آخر. لم يكن أي من المحاربين المغول يرغب في أن يكون أول من يصرخ لدى مواجهة تلك الحدود المتينة.

عندما استدار تولي مبتعداً، سمع انفجاراً واحداً بعيداً، فاستدار إلى الخلف، ورأى سحابة دخان ترتفع فوق صفّ مدافع سونغ. كان مدفع واحد فقط قد أطلق مقذوفته. ورأى كلا الرجلين شيئاً يرتفع مسافة قصيرة ويشب على الأرض.

توقف ذلك الشيء على بعد مئات الخطوات فقط من الخان وشقيقه. وللحظة، لم يتحرك أحد، ثم هزّ تولي كتفيه وقاد حصانه نحوه. أبقى ظهره مشدوداً

آنذاك، فقد كان يعرف أن عدداً كبيراً من الرجال يراقبه؛ أكثر مما كان موجوداً في الاحتفال في كاراكوروم.

بحلول وقت عودته إلى أوجيدي حاملاً صُرة قماشية، كان خاسار قد قاد حصانه بين الفرق ليرى ما يحدث. أوماً إلى ابني شقيقه، ومدّ يده إلى الصُرة القماشية، لكن تولي هزّ رأسه قليلاً قبل أن يمد يده إلى أوجيدي.

بقيت عينا الخان نظرفان، ورؤيته مشوشة. انتظر تولي سماع أمر من أوجيدي. لكن، عندما لم يسمع شيئاً، قطع الحبل الذي كان ملتقاً حول الصُرة وتأسف اغمتمزاً حين سحب رأساً ملطخاً بالدم من شعره، وكانت العينان مقلوبتين.

نظر خاسار وتولي من دون انفعال حين تدلّى الرأس. حدّق إليه أوجيدي، وعبس حين تعرّف إلى الإداري الذي تناقش معه سابقاً. هل وقعت الحادثة في اليوم نفسه؟ بدا الأمر مستحيلاً، فلم يكن هناك جيش في أراضي سونغ آنذاك. لا بدّ من أنهم كانوا يسرون في أعقابه. كانت الرصالة واضحة جداً مثل الصفوف الصامنة التي وقفت قرب الحدود ولم تحرك ساكناً. الدخول إلى أراضي سونغ ممنوع مهما كان السبب.

فتح أوجيدي فمه ليتكلم لكنه شعر بالمرارة فبشّعتل في رأسه، أسوأ من أي ألم غيره سابقاً، فأصدر صوتاً ضعيفاً وهو عاجز عن فعل أي شيء. لاحظ تولي انزعاجه، فألقى الرأس الملطخ بالدماء أرضاً، ودفع حصانه ليمسك شقيقه من ذراعه.

همس له تولي: "هل من عخطب ما؟".

تأرجح شقيقه فوق السرج، وخاف تولي من سقوطه أمام الفرق. فلو سقط الخان لأريق ماء وجهه أمام جنوده وما كان ليستعيد هيئته مطلقاً. خصوصاً إذا حدث هذا على مرأى من العدو. دفع تولي حصانه ليلتصق بحصان شقيقه، وأبقى يده على كتف أوجيدي لتثيبته، في حين أمسك به خاسار من الجانب الآخر، مرتبكاً وقلقاً. وخطوة بعد أخرى، قادا حصان الخان إلى خطوط المغول، ثم ترجلا عندما أصبحا محاطين بمحاربين يحذقون إليهم.

كان أوجيدي ثابتاً، ويدها تقيضان على السرج كقبضة الموت. بدا أن ملامح وجهه قد تغيرت بطريقة ما. إذ كانت الدموع تسيل من عينه اليسرى بشكل

مستمراً، في حين أن عينه الأخرى بدت واسعة، ويظهر فيها ألم واضح. لكنه لم يرخ قبضته فبدأ تولي بإبعاد أصابع أخيه عن السرج. الهار أوجيدي فحاة وسقط بين ذراعي شقيقه، وأصبح جسده رخواً مثل طفل نائم.

وقف تولي مشدوهاً، وهو يمدق نحو الأسفل إلى وجه شقيقه الشاحب، ثم نظر إلى خاسار فحاة، ورأى التعبير نفسه يتعكس على وجهه.

قال تولي: "لدي ضالع جيد في مخيمي. أرسل ضالعتك إليّ أيضاً، مع أي أطباء تشن أو مسلمين، أفضل من تعرفهم".

لم يجادل خاسار للمرة الأولى، وبقيت نظرتة ثابتة على ابن شقيقه. كان قلقاً، لكنه لم يقوَ على القيام بأي شيء. فقد جعل مصير كهذا خاسار يرتعش.

قال: "حسناً أيها القائد. لكن، يجب أن نوسّع المسافة بين ذلك الجيش وجيشنا قبل أن يقرروا اختبار قوتنا".

"قد الفرق يا عمي، وسأخذ شقيقتي".

أوما تولي وساعده خاسار على رفع أوجيدي على صهوة حصانه، مما جعل الحيوان يصهل من الوزن المضاعف. أمسك تولي شقيقه من صدره، وثبته في مكانه، فيما تدلّت قدما أوجيدي حرتين، وطأطأ رأسه، في حين قاد تولي حصانه إلى الأمام.

عندما غابت الشمس، كان محاربو الخان لا يزالون يتحركون ببطء نحو معسكرهم الذي يبعد أكثر من مئة ميل إلى الشمال عبر السهل. وخلفهم، أشعل جنود سونغ المشاعل على طول حدودهم، وتكوّن أفق زائف استطاعوا رؤيته من أميال بعيدة في أثناء انسحابهم.

شدّ تشاغاتي اللحام حين وصل إلى قمة تلة، ومدّ يده ليربت على جسد حصانه ويفرك أذنيه. توقفت فرقتان خلفه، وانتظرت زوجاته وأبناؤه معهما بصبر. كان قد اختار المكان المرتفع عمداً، فقد أراد أن يشاهد الإمارة التي ظفر بها جنكيز ومنحه أوجيدي إياها. استطاع تشاغاتي أن يرى أميالاً عديدة، وحس أنفاسه ذهولاً من الامتداد الشاسع للأرض التي أصبح يمتلكها الآن؛ الثروة الحقيقية الوحيدة.

كانت سنون عديدة قد انقضت منذ أن اجتاحت جيوش جنكيز المنطقة. وبدا أن اختفاء علامات ذلك المرور العنيف سيستغرق أجيالاً. اهتسم من تلك الفكرة، وفكّر في أن والده كان رجلاً بكل معنى الكلمة. كانت بعض المدن ستبقى أنقاضاً إلى الأبد، وسيعصف الغبار فيها وهي خالية من كل شيء باستثناء الأشباح. بالرغم من ذلك، لم تكن هبة أوجيدي زائفة، فقد بنى مواطنو سمرقند وبتساري أسوارهم وأسواقهم مجدداً. ومن بين كل الشعوب الأخرى، كانوا يعرفون أن ظل الخان طويل، وانتقامه لا رحمة فيه؛ وتحت جناح الحماية ذلك، كانوا قد ازدهرروا وراهنوا على السلم.

حدّق تشاغاتي إلى الشمس الغاربة، ورأى خطوطاً بعيدة؛ قوافل من العربات والثيران والجمال تمتد إلى الشرق والغرب، وتتحه إلى سمرقند؛ وكأنها لطححة بيضاء في الأفق. لم يكن تشاغاتي يهتم بالتحارة كثيراً لكنه يعرف أن الطرق تمتدُ المدن بأسباب الحياة، وتجعلها قوية. كان أوجيدي قد منح أرضاً ذات تربة خصبة، فيها أثمار وقطعان كبيرة. وبدا المنظر أمامه كافياً لجعله يتساءل عن طموحه. ألم يكن كافياً أن يحكم مثل هذه الأرض، بمائها وأعشابها النضرة؟ اهتسم. بالنسبة إلى ابن جنكيز ووريته، لا، لم يكن هذا كافياً.

هبّ هواءٌ حارٌّ على التلة مع غروب الشمس، فأغمض عينيه وواجهه مستمتعاً به وهو يداعب شعره الأسود الطويل. كان سيبي قصرأً قسراً قرب النهر، وسيصطاد مستخدماً السهام والصقور على طول التلال، وسيجعل من أراضي الجديدة وطناً له، لكنه لن ينام أو يحلم. كان لديه جواسيس ومخبرون مع أوجيدي، وتسوبودي، وكل الرجال ذوي النفوذ في الأمة. وسيحين وقتٌ يضع فيه إمارة الحليب والعسل جانباً، ويمد يده مرة أخرى إلى ما كان قد وعد به. كانت فكرة أن يصبح خائناً تجري في عروقه، لكنه لم يعد شاباً أحمر. لذا، يمكن أن ينتظر اللحظة المناسبة.

فكّر في النساء اللواتي تنجهن مثل تلك المدن، بأجسادهن الرقيقة، وروائحهن العطرة، وجمالهن، وشباهن الذي لم يذو في حياة السهول. ربما كان هذا هو الهدف من تشييد المدن؛ أي إبقاء النساء ناعمات وبدينات بدلاً من أن يكنّ قاسيات. وبدا هذا سبباً وجيهاً وكافياً لوجودها. عندما استعد لتابعة طريقه، ضحك بصوت

خافت من فكرة دخول ذئب حظيرة الأغنام. لم يكن سيحتاجها بالنار والسدما،
فالراعي لا يخيف حملانه الجميلة.

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل الثاني عشر



كانت الخيمة تعيق برائحة كريهة، وكان الجو خانقاً فيها. جلس تولي وحاسار على سريرين منخفضين في الزاوية، وهما يراقبان بقلق ضالع أوجيدي وهو يفحص الحان. كان موهرول رجلاً قوي البنية ومربوع القامة، ولحيته عبارة عن خصلة رمادية كثيفة تتدلى من طرف ذقنه. كان حاسار قد حاول ألا يتحدث إلى يده اليمنى؛ اليد التي ميّزته منذ ولادته بأنه شخص لمن يصطاد طرائد أو أسماكاً أبداً. فقد كانت لديه إصبع سادسة، بنية اللون وملتوية. وهي التي جعلت موهرول ضالعاً.

كانت مهنته قد عانت الأمرين منذ أن خان الشخص الذي لم يعد اسمه يُذكر جنكيز قبل سنوات. كان موهرول قد تشاور لوقت قصير فقط مع معالجين يرتدون ثياباً عادية وضالعين آخرين قبل أن يفهمهم. وبدا أن ضالع الحان الخاص لا يزال يتمتع ببعض السلطة ليأمر الآخرين، على الأقل بين أبناء مهنته.

لم يبدو أن موهرول يكثر للشخصين اللذين يراقبانه، فشدّ كل أوصال أوجيدي ولواها، ثم تركها تسقط رخوة حين دفع إهاميه تحت إبطيه وتمتم لنفسه، وبعد ذلك أبدى اهتماماً خاصاً بالرأس والعنق. وبينما كان القائمان ينتظران، جلس موهرول على السرير، ولفّ ساقاً على أخرى، ووضع رأس أوجيدي وكتفيه على حضنه، فحدّق الحان إلى الأعلى قبل أن يفقد وعيه. فحصت أصابع الضالع الرفيعة عظام الجمجمة وضغطت عليها، ثم أحكم موهرول قبضته على يافوخ أوجيدي وهو ينظر إلى الخط المتوسط. لم يستطع حاسار وتولي فهم شيء حين أوما موهرول واستهجن بصوت خافت.

كان جسد الخان لزجاً بفعل العرق، ولم يقل أوجيدي كلمة منذ الهياره عند حدود سونغ قبل يومين. لم يكن مصاباً بأي حرج، لكن رائحة أنفاسه كانت نتنة مثل ثمرة عفنة، وتلك هي الرائحة التي ملأت الخيمة وجعلت خاسار يشعر بأنه على وشك أن يتقيأ. كان معالجو تشن قد أشعلوا عيدان بخور مهدئة قائلين إن الدخان سيساعده على التعافي، وقد سمح موهرول بمثل تلك الأشياء، بالرغم من أنه لم يستطع إخفاء ازدراؤه إياها.

كان الضالع قد عمل آنذاك على فحص جسد أوجيدي طوال يوم كامل، وغمر جسده بالماء البارد، ثم ضربه بقماش خشن حتى نزف الدم تحت الجلد. بقيت عينا الخان تحدقان إلى الخواء وشركتا أحياناً، لكنه لم يستعد وعيه. وعندما قلب إلى جانبه، خرج من فمه مخاط بأشكال لولبية طويلة، وارتخت شفاته.

أدرك خاسار بانساً أن أوجيدي لن ينجو إن بقي على تلك الحال. وبالرغم من أنهم استطاعوا إدخال ماء ودم وحليب دافئ إلى معدته عبر أنبوب رفيع من الخيزران، إلا أنه غصّ ونزف من فمه حين خرجت حمرته. عرفوا أنهم إذا ظلوا يهتمون به مثل طفل فسيبقى حياً إلى الأبد تقريباً، لكن الأمة من دون خان الآن، وهناك أشياء أخرى قد تقتل أي رجل.

كان خاسار قد رفض كل إذن بمغادرة المعسكر. وعند وصول سعاة إليهم، كانت حيادهم تُصادر ويُوضعون تحت الحراسة. بدا أنه من الممكن احتواء الأمر لوقت قصير. لم يكن تشاغاتي قد جهز قواته بعد للعودة إلى كاراكوروم ظافراً. ولكن، بالرغم من ذلك، كان هناك رجال ذوو طموح في الفريق، ويعرفون جيداً كيف سيكون استقبالهم إذا نقلوا إليه هذا النيا. كان تشاغاتي سيكافئهم بالذهب والترقية، والأحصنة، وكل ما يريدونه. وعاجلاً أو آجلاً، سيحس شخص أو أكثر بالإغراء للخروج جلسة في الليل. وإذا لم يتغير أي شيء قبل تلك اللحظة، حتى إن بقي أوجيدي حياً، فسينتهي أمره. فزع خاسار من تلك الفكرة، وتساءل كم سيطول بقاؤه في خيمة الخان. لم يكن يفعل شيئاً جيداً بجلوسه هنا، وهو يتمايل في مكانه مثل رجل عجوز يحمل أوتاداً.

بدا وجه أوجيدي أكثر انتفاعاً مما كان عليه سابقاً؛ وكان سائلاً ما يتجمّع تحت الجلد. كانت حرارته مرتفعة، وجسده يحرق دهنه. انقضى الزمن في الخيمة

ببطء، في حين ارتفعت الشمس في السماء في الخارج، وتجاوز الوقت الظهيرة. راقب تولي وحاسار موهروول وهو يمسك كلتا ذراعي أوجيدي ويضعهما عند المفصلين، ويدع الدم يسيل إلى وعاء نحاسي. نظر الضالع إلى لون السائل بإمعان، وزمّ شفثيه امتعاضاً، ثم وضع الوعاء جانباً وأنشد فوق الخان، وضرب فحاة صدره بقبضة مفتوحة. لم يتغير شيء. تابع أوجيدي التحديق إلى الخواء، وعيناه لا تطرفان إلا نادراً. لم يعرفوا إن كان بمقدوره أن يسمعهم.

أخيراً، أُطبق الصمت على الضالع، وشدّ لحيته بعنف وكأنه يريد انتزاعها، ثم وضع رأس أوجيدي على البطانيات الخشنة مجدداً ولخص. تحرك خادمه لتضميد الجروح التي سببها سيده وهو صامت من شدة الرهبة لأنه يشارك في معالجة خان الأمة.

ومن دون التفكير في مدى سلظنته، أثار موهروول إلى الرجلين اللذين يراقبانه بأن يتبعاه إلى الهواء الطلق، فانضما إليه وهما يتنفسان بعمق لإخراج الرائحة الكريهة من رئاتهما. وقف محاربو الخان حوْطهم والأمل باد على وجوههم، وهم ينتظرون سماع أنباء جيدة. لكن موهروول هزّ رأسه، فاستدار عدد منهم مبتعدين.

قال الضالع: "ليست لدي أدوية لحالته. دمه يجري في عروقه كما ينبغي، لكنه يبدو لي داكناً، من دون روح الحياة. لا أظن أن العلة في قلبه، بالرغم من أنه قيل لي إنه ضعيف. لقد كان يستخدم مساحيق تشن". رفع قارورة زرقاء فارغة باشمزاز. "إنه يخاطر كثيراً بالثقة بحرعائهم وقذارهم. لهم يستخدمون أي شيء لإعداد مساحيقهم؛ من أجنة لم يولدوا بعد إلى ذكر نمر. لقد رأيت ذلك".

قال حاسار بحدّة: "لا أهتم بأيّ من ذلك. إذا لم يكن بمقدورك فعل شيء له، فسأجد آخرين أكثر براعة".

بدا أن موهروول قد استشاط غضباً. ورد حاسار بأن تقدم فوراً، ووقف متعمداً قريباً جداً منه مستفيداً من طوله لمصلحته. تمتم حاسار: "توخّ الحذر أيها الرجل التحيل. لو كنت مكانك، لحاولت وبقيت مفيداً".

قال تولي: "أنت لا تسدي أوجيدي معروفاً بالجدال هنا في الخارج. لا يهم ما قد حدث من قبل، أو الجرعات والمساحيق التي تناوئها. هل يمكنك مساعدته الآن؟".

كان موهروول لا يزال يحدّق إلى خاسار حين رد قائلاً: "جسدياً، إنه لا يعاني من أيّ حطّ. لكنّ روحه ضعيفة، أو أضعفت. لا أعرف إن كان قد لعن وأصبح على هذه الحال بسبب عدو ماء، أو إن كان هذا شيئاً من صنع يديه". زفر الهسواء من فمه.

قال: "أحياناً، يموت الرجال فحسب. إذ يدعوهم أب السماء ويُنتزعون من الدنيا؛ حتى إن كان أحدهم خائناً. ليس هناك جواب دائماً".

ومن دون سابق إنذار، انطلقت يد خاسار وأمسكت رداء الضالع، وقتل القماش حين شدّه إليه. كافح موهروول رداً على ذلك قبل أن يجعله الرغبة في البقاء على قيد الحياة يُنزل يديه. كان خاسار رجلاً قوياً، وكانت حياة موهروول معلقة على حيط وحيد يتمثّل بإرادته الطيبة؛ مما جعل الضالع يسيطر على غضبه.

زجر خاسار: "هناك سحر أسود، وقد رأيته. أكلت قلب رجل وشعرت بالضوء يشع داخلي. لا تقل لي إنه لا يمكن فعل شيء. إذا أراد الأسلاف دماً، فسأريق بحيرات منه من أجل الخان".

بدأ موهروول يتأثر، لكنّ صوته أصبح ثابتاً بعد ذلك: "سيتم الأمر وفقاً لما تقوله أيها القائد. سأضحي بإحدى عشرة مطية هذا المساء، وربما يكون هذا كافياً".

أقلته خاسار، فتعثر موهروول وهو يرجع إلى الخلف.

قال خاسار: "حياتك تعتمد على بقائه على قيد الحياة. هل تفهم؟ لقد سمعت عدداً كبيراً من أمثالك يتفوّهون بوعودهم وأكاذيبهم. إذا مات، فستدفن معه، وستوضع جثتك على التلال للصقور والثعالب".

رد موهروول بجفاء: "أفهم أيها القائد. الآن، يجب أن أجهّز الحيوانات للتضحية بها. وينبغي أن تُذبح بالطريقة الصحيحة، ويُراق دمها من أجل دمه".

كانت هناك مدينة في موقع جيانكينغ طوال ألفي سنة، يغذيها نهر يانغتسي الضخم الذي يعتبر شريان الحياة لكل الصين، وهي عاصمة دول وسلالات قديمة أثريّت بفضل الأصبغة والحبر. بدأ صوت الأنوال حاضراً دائماً وهي تطلق ليلاً ولهاراً لترويد نبلاء سونغ بالثياب والأحذية والأقمشة المزدانة بالرسوم. كانت

رائحة اليرقات المقلية قوية في الهواء، وكانت تُطهى مع الأعشاب والأسمك والزيت لتغذية العمال، وتبدو بنية اللون أو ذهبية.

مقارنة بمدينة سوزهو الصغيرة إلى الشمال، أو قرى صيد الأسماك التي تغذي العمال، كانت جيانكينغ حصناً حقيقياً للقوة والثروة. ويبدو هذا واضحاً لدى رؤية الجنود الذين يبنضون حيوية ويقفون عند كل زاوية، وفي القصور والشوارع المزدهمة بمليون عامل، وهم العمال الذين تتمحور حياتهم حول السدود المنتجة للحرير التي تصنع حولها شرقة من حيوط رائعة يمكن سحبيها وصنع أقمشة جميلة جداً منها.

في البداية، عومل كسوان جيداً حين عبر الحدود وابتعد أميالاً إلى الشمال، ووضعت زوجاته وأولاده في قصور بعيداً عنه، ونقل جنوده مسافة أبعد شمالاً، حيث لا يمكن أن يشكّلوا أي خطر ولم يخبره أحد بموقع نكتاتهم. كان مسؤولو سونغ قد استقبلوه بما يليق بمكانته. وقد تكرم ابن الإمبراطور نفسه باستقباله، واستخدم كلمات عذبة وقعها جميل على الأذان. سيطر كسوان على نوبة الغضب التي هدّدت بأن تتملكه حين تذكّر اللقاء. كان قد فقد كل شيء، وجعلوه يعرف مكانته بأقل الإهانات الممكنة. فرجل مثله معتاد على الكمال يستطيع ملاحظة الإهانة من خلال الشاي الذي يقدمونه له، أو حقيقة أن الخدم الذين أرسلوا إليه أفضاظ، وكسالى. لم يعرف كسوان إن كان الإمبراطور يتوي إذلاله، أو إن كان ابنه الذي تفوح منه رائحة العطر أحق ببساطة. لم يكن الأمر مهماً، فقد كان يدرك أنه ليس بين أصدقاء، ولم يكن ليأتي إلى أراضي سونغ لو لم يكن وضعه ميوساً منه.

كانت أسلحته قد أثارت بعض الاهتمام والإثارة في البداية حين بدأ جنود سونغ يُعدّون لائحةً بأمتعته وأدواته. وجعله ذلك أيضاً يشعر بالانزعاج حين تذكر تكشيراتهم الماكرة. كانت أئمن مقتنياته قد وضعت في ساحة واسعة تجعل بقايا ثروة والده تبدو ضئيلة الشأن. وبالرغم من ذلك، لم يكن كسوان متأكداً من أنه سيرى أباً منها مجدداً، فقد اختفت صناديق من النقود الذهبية والفضية في حزيمة خفية، ربما ليست في المدينة أيضاً. بالمقابل، حصل كسوان على حزمة من الأوراق المزخرفة، مهبورة بأحتم عشرات المسؤولين. بدا أنه وضع ما يملكه في قبضة رجال

يظنون في أحسن حال أنه حليف ضعيف، وفي أسوأ حال أنه عقبة أمام حصولهم على أراضي يدعون أنها لهم.

عندما حدّق إلى جيانكينغ، اصطكّت أسنانه بصمت؛ وهذه هي الإشارة الوحيدة إلى توتره. كانوا قد سحروا من قدره النارية ومدافعه، فمحاربو سونغ لديهم مثل هذه الأشياء بالآلاف، وتصميمات أكثر تطوراً، وبدا واضحاً أنهم يظنون أنفسهم محصّنين. كانت جيوشهم قوية ومزوّدة بعناد جيد، ومدتهم ثرية. أراد جزء منه يشعر بالمرارة أن يقضي المغول على غطرتهم، وكانت معدته تنقبض حين يرى الطريقة التي ينظر بها ضباط سونغ إليه ويهمسون؛ وكأنه قد تخلى ببساطة عن أراضي تشن للرعاة. بدا غريباً بالنسبة إليه أن يشعر بالسعادة حين فكّر في خان المغول وهو يقود محاربه إلى جيانكينغ، ويجعل جيوش سونغ تهرب في حالة من الفوضى.

ابتسم كسوان من تلك الفكرة. كانت الشمس قد أشرقت، ويمكن سماع أنوال الحرير مثل حشرات تنقر عميقاً في جذع خشبي. كان سيمضي اليوم مع أبرز مستشاريه، وسيتكلمون وقتاً طويلاً ويظنّون بأن لديهم هدفاً يريدون تحقيقه في حين ينتظرون أن يلاحظ إمبراطور سونغ وجودهم.

عندما نظر كسوان إلى أسطح مباني جيانكينغ، فرح حرس قريب بوحدة من مئة نعمة مختلفة ترن في أرجاء المدينة في أوقات مختلفة من اليوم، بعضها تشير إلى انقضاء الساعة أو تُعلن عن وصول ساعة، فيما الأخرى تدعو الأطفال إلى المدارس. عند مغيب الشمس، تذكر كسوان قصيدة تعود إلى فترة شبابه فتمتتم بكلماتها مسروراً:

أشعة الشمس تصبح عاقبة فيما تغوص في الغسق. الناس يعودون إلى بيوتهم والذرى الساطعة تصبح داكنة. تطير إوزة برية إلى القصب الأبيض. أفكّر في بوابة مدينة شمالية وأسمع جرساً يُقرع بين وبين النوم.

فاضت عيناه بالدموع حين تذكّر عطف والده على الفتى الصغير النحيل الذي كان عليه، لكنه مسح عينيه قبل أن يراه شخص ما ويتكلم عن ضعفه.

كانت الأحصنة التي انتقاها موهرول كلها صغيرة، ويمكنها أن تنجب مهاراً. وقد أخذها من قطع الجياد الإضافية التابع للفرق، وأمضى نصف يوم في اختيار

كل واحد منها، وحرص على أن تمتنع بلون جميل وجلد لا تشوبه شائبة. وقف أحد المالكين صامتاً وهو يشعر باليأس حين تم اختيار اثنتين من أفضل أفراسه للتضحية بهما؛ وهما نتاج أجيال من الانتقاء والتربية بعناية شديدة. ولم تكن أي منهما قد حملت مهبأراً بعد، وستضيق سلالتهما. جعل اسم أوجيدي أي اعتراض يتلاشى، بالرغم من العلاقة شبه المبهجة بين الرعاة وحيادهم المحبوبة.

لم يكن أحد قد شاهد مثل ذلك الشيء في السهول من قبل، واحتشدت الفرق قرب بعضها حول الخيمة حيث يستلقي أوجيدي، حتى اضطر موهروول إلى أن يطلب منهم الابتعاد. وبالرغم من ذلك، تقدم المحاربون إلى الأمام مع زوجاتهم وأولادهم، تواقين إلى رؤية القربان العظيم. لم تكن حياة أي شخص آخر تستحق مثل هذا الثمن. شاهدوا بافتتان وفزع موهروول وهو يشحذ سكاكينه المخصصة للذبح وبياركها.

جلس خاسار قريباً من أوجيدي الممدد على فراش مغطى بالحرير تحت الشمس الغاربة. كان الخان قد ألبس درعاً لامعة. وبين الفينة والأخرى، كان يفتح فمه ويغلقه بهبطاً؛ وكأنه يلهث طلباً للماء. بدأ من المستحيل رؤية جلده الشاحب وعدم التفكير في جنكيز الذي استلقى ميتاً. فزع خاسار من مجرد التفكير في ذلك، وخفق قلبه بقوة وهو يشعر بحزن شديد، وحاول ألا يتحدث حين جلب أول حصان أبيض وأمسك رحلان قويان برأسه. بقيت الأحصنة الأخرى في مكان بعيد حتى لا ترى عملية الذبح، لكن خاسار كان يعرف أنها ستشم رائحة الدم.

كان الحصان الفتي متوتراً آنذاك، ويشعر بشيء في الجو، وثب على قائمته الخلفيتين، وهز رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل وصهل بصوت عالٍ، وكافح القيضة المحكمة للأصابع على عرقفه. كان جلده القاتح مثالياً، لا تشوبه علامات جروح أو لسعات حشرات، وقد أحسن موهروول الاختيار، وأغلق بعض المحاربين الموجودين أوفاهم بإحكام وهم مذهولون من تقدم مثل هذا القربان.

أشعل موهروول ناراً عظيمة أطول منه أمام خيمة الخان، ثم أشعل غصناً مسن حشب الأرز وأطفاً اللهب، فخرج من الخشب دخان أبيض زكي الرائحة. مشى الضالع إلى أوجيدي وحمل الغصن الذي يخرج منه الدخان وحركه فوق جسده؛ مطهراً الهواء ومباركاً الخان من أجل الشعائر التالية، وبخطوات بطيئة، مشى حول

الرجل المستلقي على ظهره، وهو يتمتم شيئاً ما جعل الشعر على عنق خاسار ينتصب. نظر خاسار إلى ابن شقيقه تولى ووجده يقف مذهولاً، ومفتوناً بالضالع. لم يكن الشاب ليفهم قط كيف كان خاسار قد سمع مرة جنكيز يتكلم بلغة قديمة، ودماء الأعداء على شفثيه.

بدا أن الظلام سيحل سريعاً بعد النظر إلى السنة لب نار موهول. جلس آلاف المحاربين بصمت، وتُقل أولئك الذين كانوا قد جرحوا في القتال إلى مكان بعيد حتى لا تُفسد صرخاتهم الشعائر. أُطبق هدوء كامل، وظنَّ خاسار أن بمقدوره سماع صرخاتهم الخادقة بالرغم من ذلك، ضعيفةً وبعيدةً، مثل الطيور.

قُيدت قائمتا الحصان الخلفيتين والأماميتان معاً بحرص شديد، فضهل انزعاجاً، وكافح وقتاً قصيراً حين دفعه المحاربان من فخذه، حتى لا يستطيع البقاء واقفاً. لم يستطيع الحصان أن يتقدم خطوة واحدة، وسقط متساقلاً، وتمدد ورأسه مرفوع. طوّق أحد المحاربين عنقه مفتول العضلات بذراعيه، مثبتاً إياه، في حين أمسك الآخر قائمتيه الخلفيتين ونظرا إلى الأعلى إلى موهول.

لم يكن الضالع على عجلة من أمره، فنضّرع بصوت عال، وغنسى وهمس تباعاً. قدّم حياة الحصان للأُم الأرض التي ستلقى الدم، وطلب مراراً وتكراراً إنقاذ حياة الخان.

في وسط شعائره، تقدم موهول من الحصان وهو يحمل سكينين، وتابع الغناء والنضّرع فيما اختار مكاناً تحت العنق قرب صدر الحصان، حيث الجلد أبيض طري، واستجمع المحاربان قواهما.

بحركة سريعة، دفع موهول النصل حتى مقبضه في عنق الحصان، فسال الدم غزيراً وداكناً، وغطى يديه. ارتعش الحصان وصهل المأ، وشخر غاضباً وحاول أن ينهض. جلس المحاربان على فخذه واستمر الدم بالتدفق إلى الخارج مع كل خفقة من قلب الحصان، وغطى المحاربين اللذنين كافحاً للإمساك بجسده الزلق.

وضع موهول يده على عنق الحصان، متحسناً كيف يصبح جلده سارداً. كان الحصان لا يزال ينازع، لكنه أكثر ضعفاً. شدَّ شفثي الحصان وأوماً لدى رؤيته اللثة الشاحبة، وبصوت عال نادى الضالع مرة أخرى أرواح الأرض، ومدَّ يده التي تحمل السكين الثانية التي كانت قطعة معدنية ذات مقبض ثقيل بطول ساعده

وحادة النصل. انتظر حتى أصبح تدفق الدم بطيئاً، ثم حزّ بسرعة عنق الحصان
عركاً السكين إلى الأمام وإلى الخلف. اختفى النصل في اللحم، وسال المزيد من
الدم، وشاهد بوبوي الحصان يتسعان ويصبحان داكنين جداً.

كانت ذراعاً موهولاً حين مشى إلى الخان الذي كان مستلقياً من
دون حراك، غافلاً عن كل ما يحدث باسمه. هزّ موهول رأسه قليلاً، ولطّخ وجنتي
الخان بإصبعه بخط أحمر بعرض الإهلام.

لم يجرؤ أحد على الكلام حين عاد إلى الحصان المذبوح، وكانوا يعرفون أن
هناك سحراً في القربان. عندما أبعاد موهول حشرة عن وجهه، أشار الكثيرون
منهم بعلامة ضد الشر من فكرة أن الأرواح تتجمع مثل الذباب حول الجيفة.

لم يبدُ موهول واهن العزيمة حين أشار إلى الرجلين لكي يسحبا الحصان
بعيداً ويجلبا الحصان التالي. كان يعرف أن الأحصنة لن تنقاد بسهولة حين تشم
رائحة الدم، لكنه يستطيع على الأقل تخفيفها برؤية الحصان المذبوح.

مرة أخرى، بدأ الأنشودة التي سنتهي بذيخ الحيوان، أشاح خامسار بنظره
بعيداً، وشرّد الكثير من الخاربين بدلاً من أن يشهدوا كيف يتم التخلص من هذه
الثروة بسكين.

بدأ الحصان الثاني أكثر هدوءاً من الأول، وأقل نشاطاً، وسمح لهم باقتياده،
لكنه شعر آنذاك بشيء ما. بعد لحظة واحدة فقط، فزع، وصهل بصوتٍ عالٍ،
واستخدم كل قوته لشد اللحم بعيداً عن الرجل الذي يمسك به. عندما سحبه
رجال في الاتجاه المعاكس، انقطع اللحم وتحرر منهم، وفي الظلام اندفع مسرعاً نحو
تولي وأوقفه أرضاً.

لم يذهب بعيداً، فقد بسط الخاربون أيديهم واحتزروه بينهم، وأداروه حتى
استطاعوا ربط جلام جديد وإعادةه إلى مكانه.

لخص تولي على قدميه مصاباً بكدمات، ونفض الغبار عنه، ورأى أن موهول
يحدّق إليه بغرابة، فهزّ كتفيه من نظرة الضالع. بدأت الأنشودة مجدداً وقبّد الحصان
الثاني بسرعة، وصار جاهزاً. بدأ ألما ستكون ليلة طويلة، وكانت رائحة الدم
اللاذعة قوية آنذاك.

الفصل الثالث عشر



كانت الأرض حول الخان مخضبة باللون الأحمر، وقد سال الدم من عشرينات الأحصنة على التراب حتى لم تعد الأرض تستطيع استيعاب المزيد فتكوت عليها برك من الدم. طنّ ذهاب أسود كبير وخام حوشم، والرائحة تدفعه إلى الجنون. كان موهرول متعباً آنذاك، وذراعاه المكشوفتان ودهاؤه لا تزال رطبة حين أطفئت المشاعل وبدأت الشمس تشرق. أصبح صوته أجش، ووجهه متسخاً، وقد تجمّع البعوض في سحب في الهواء الدافئ الرطب. كان الضالّح قد أجهد نفسه، لكن الخان بقي مستلقياً ساكناً من دون حراك على الفراش، وعيناه مثل حفرتين مظلتين.

كان المحاربون قد ناموا على العشب، منتظرين النبا، ولم يكونوا قد أخذوا الأحصنة للاستفادة من لحمها. وكانت مكدسة في كومة، وقوائمها بارزة إلى الخارج، في حين بدأت بطولها تنتفخ بالغازات. لم يكن أحد يعرف إن كان تأثير القربان سيصبح أقل إن استهلكوا اللحم، ولهذا كانوا ستركونه ليستغنّ بعد أن يتحرك الجيش. كان الكثيرون منهم قد غادروا مكان الذبح إلى خيمهم ونسائهم. فهم لا يستطيعون رؤية مثل تلك الجياد الرائعة تُقتل.

عند الفجر، جثا موهرول على العشب الرطب وغاصت ركبتاه في الأرض الطرية. كان قد ذبح اثني عشر حصاناً ويشعر بالإرهاق، والانزعاج من الموت. رفض أن يسمح لياسه بالظهور فيما الخان يستلقي عاجزاً، وعلى وجهه كتابة بدم جاف. شعر موهرول بدوار حين جثا، وبدأ صوته يضعف تماماً، لهذا همس وأنشد أناشيد مقلّبة قيلت مراراً وتكراراً حتى تحولت الكلمات إلى موجة صوتية.

قال بصوتٍ أجس: "الخان مكبّل بسلاسل، وتائه ووحيد في قفص من اللحم. أرنى كيف أحطّم قيوده، أعلمني بما يجب أن أفعله لإعادته إلى دياره. الخان مكبّل بسلاسل...".

استطاع الضالع أن يشعر بضوء شمس الفجر الباهت على عينيه المغمضتين. كان قد أصيب باليأس، لكنه ظنّ أن بمقدوره أن يشعر بهمس الأرواح حول جسد أوجيدي الساكن. في الليل، كان موهول قد أمسك معصم الخان وتوثق من نبضه، ووجد أنه هادئ جداً، لكن من دون سابق إنذار، كان أوجيدي يهتز ويتلوّى ويفتح فمه ويغلقه، ويشعّ من عينيه بريقٌ لعدة لحظات بشيء مثل الإدراك. كان موهول متأكدًا من أن الجواب موجود. لكن، يجب عليه فقط أن يعثر عليه. همس موهول بصوتٍ مصيّر: "تعرّ في السماء الزرقاء، إريك في العالم السفلي سيد الظلال، أخبرني كيف أحطّم القيود. دعاه يرى انعكاس روحه في الماء، ويشاهد ظل روحه في ضوء الشمس. لقد قدّمت لكما الدم بالأهبار، ونسفت أحصنة رائعة على الأرض. لقد قدّمت دماء لآسياد الأبيض والأسود التسعة والتسعين. أظهرنا لي القيود وسأحطّمها لتحريره منها. اجعلني المطرقة. بحق التسعة والتسعين، بحق الأرواح الثلاث، أظهرنا لي الطريق". رفع يده اليمنى إلى الشمس، وفتح الأصابع التي كانت سمته المميزة. "هذه أرضكم القديمة يا سادة أرواح تشن. إذا كنتم تسمعون صوتي، فأروني كيف سترضون. اهمسوا بحاجاتكم في أذني. أروني القيود".

أنّ أوجيدي، وأمال رأسه إلى جانبه، فذهب موهول إليه بعد لحظة، وهو لا يزال ينشد. بعد تلك الليلة، والفجر لا يزال رمادياً، والتدى شبه متجمد على العشب الأحمر، استطاع أن يشعر بالأرواح حول الخان، وأن يسمعها تتنفس. كان صوته جافاً، وشعر كما لو أنه قد مضغ عجينة مرّة تركت قشرة سوداء على شفتيه، وقد هام معها في الظلام. لكن، لم تكن هناك أحوبة، أو وميض ضوء وفهم.

"ماذا ستأخذون لتتركوه وشأنه؟ ماذا تريدون؟ هذا الجسد هو قفص خان الأمة، وستحصلون على أي شيء تريدونه". سحب موهول نفساً عميقاً، وهو يشرف على الاختيار. "هل هي حياتي؟ سأضحى بها. أخبروني كيف أحطّم القيود.

ألم تكن الأحصنة كافية؟ يمكن أن أجلب ألفاً إضافية لتصيغ جلده. يمكن أن أنسج شبكة من الدم حوله، كتلة من خيوط داكنة". سحب أنفاساً سريعة، مرغماً جسده على المهات، ورافعاً الحرارة داخله مما قد يؤدي إلى رؤية أكثر قوة. "هل يجب أن أجلب عذارى إلى هذا المكان؟ هل يجب أن أحضر عبيداً أو أعداء". خفت صوته، ولم يعد أحد غيره يسمع. "هل يجب أن أجلب أطفالاً ليموتوا فداءً للخان؟ سيضحون بحياتهم بسعادة. أروني القيود حتى أستطيع تحطيمها. اجعلوني المطرقة. هل يحتاج إلى قريب يضحي من أجله؟ سيضحي أفراد أسرته بحيواتهم من أجله".

تحرك أوجيدي، وطرفت عيناه بسرعة. وفيما كان موهول يراقبه مذهولاً، بدأ الخان يجلس، لكنه سقط إلى الخلف حين انهارت ذراعه اليمنى تحتها، فأمسكه الضالع وأمال رأسه إلى الخلف ليعوي متهجماً مثل ذئب.

تابع موهول يائساً وهو يمسك الخان: "هل هو ابنه؟ بناته؟ أعمامه؟ أصدقاؤه؟ أرسلوا إلي إشارة، حطّموا القيود".

عندما عوى الضالع، استيقظ الرجال من النوم في كل مكان، وجاء المئات من كل الاتجاهات وهم يركضون. انتشر النبا، وعندما جمع به الرجال والنساء رفعوا أيديهم وهتفوا فرحاً، وقرعوا على القدور أو مهمما كان لديهم. أطلقوا موجة دوي من الفرخ، فجلس أوجيدي وهو يشعر بالفزع منها.

قال بصوتٍ ضعيف: "أحضروا لي ماء. ماذا يحدث؟". فتح عينيه ورأى ساحة الدماء وحنة آخر حصان ممدد تحت ضوء الفجر. لم يفهم أوجيدي ما قد حدث، وفرك وجهه، ثم حدّق مرتبكاً إلى قشور الدم الجفاف على راحتيه.

أمر موهول بصوت يكاد يصفى، لكنه أصبح أقوى بسبب ابتهاجه: "انصبوا خيمة جديدة للخان. اجعلوها نظيفة وجافة، وأحضروا طعاماً وماءً نظياً".

نُصبت الخيمة حول أوجيدي، بالرغم من أنه كان يستطيع الجلوس، وتلاشى الضعف الذي كان يشعر به في ذراعه ببطء. وبحلول الوقت الذي حجب فيه اللباد والخشب الشمس المشرقة، كان أوجيدي يشرب الماء ويطلب الشراب، بالرغم من أن موهول لم يسمح بذلك. كان نفوذ الضالع قد ازداد مع نجاحه، ولم يستطع عادمو الخان تجاهل تعبير وجهه الصارم، وفي وقت قصير

فقط، بدا أنه يفرض سلطته على عاتق نفسه. وقف موهروول شامخاً بمقام جديد، وفخر ظاهر للعيان.

انضم حماسار وتولي إلى أوجيدي في الخيمة الجديدة، وكذلك معظم الرجال البارزين في المخيم. كان الخان لا يزال شامخاً، لكنه ابتسم بضعف من تعابير وجوههم القلقة، وبدت عيناه غائرتين وداكنتين، وارتعشت يده حين ناوله موهروول قربة من شاي لاذع الطعم، وطلب منه أن يشرها كلها. عبس الخان ولعق شفثيه حين فكّر في الشراب، لكنه لم يحتاج. كان قد شعر بالموت يضغط عليه وقد أحافه ذلك؛ لأنه ظن أنه استعداد له.

قال أوجيدي بصوت يشبه أنقلس رجل عجوز: "انقضت أوقات استطعت فيها سماع كل شيء، لكنني لم أستطع الرصد ظننت أنني ميت عندها، وأن هناك أرواحاً في أذني. كان...". ضاقت عيناه حين ارتشف الشاي، ولم يمضي قدماً ليخبرهم عن الرعب القاتل الذي شعر به عالقاً في جسده، فيما كان يفقد وعيه ويصحو. كان والده قد قال له إنه لا يجب أن يتكلم أبداً عن مخاوفه. وقال جنكيز إن الرجال حمقى، ويتخيلون دائماً أن الآخرين أقوى، وأسرع، وأقل خوفاً منهم. تذكر أوجيدي ذلك حتى في ضعفه، وكان الرعب الذي شعر به في ذلك الظلام قد آذاه، لكنه لا يزال الخان.

وضع خدماً ملاءات من لبادٍ قاسٍ على الأرض الملطخة بالدماء حوله، وتشرّبت البسطة السميقة الدمّ خلال لحظة، وأصبحت ثقيلة وحمراء، ثم جُلب المزيد منها وكُدس فوق الطبقات السفلية حتى غُطيت كل أرضية الخيمة. جثا موهروول بجانب أوجيدي ومدّ يده ليتفحص عينيه ولثته.

قال أوجيدي: "لقد أبلت بلاءً حسناً يا موهروول. لم أتوقع أن أعود". عبس موهروول وقال: "لم ينتهِ الأمر يا مولاي. لم يكن قربان الأحصنة كافياً". سحب نفساً طويلاً وصمت حين عضّ على ظفر مثلم في يده، وذاق الدم. تابع قائلاً: "أرواح هذه الأرض مملوءة غضباً وكرهية، ولم تُفلت قبضتها عن روحك إلا حين تكلمت عن التضحية بشخص آخر مكانك".

نظر أوجيدي إلى الضالع مرهقاً ومحاولاً عدم إظهار خوفه وقال: "ماذا تعني؟ رأسي يؤلمني يا موهروول. تكلم بوضوح؛ وكأنك تخاطب طفلاً، وسأفهمك آنذاك".

"هناك لمن لعودتك يا مولاي. لا أعرف كم سيطول الأمر قبل أن يختطفوك إلى الظلام. لا أعرف إن كان يوماً، أو حتى بضعة أنفاس أخرى".

تيس جسد أوجيدي وقال: "لا يمكنني التعرض لذلك مجدداً، هل تفهم أيها الضالع؟ لا أستطيع التنفس...". شعر بعينه تخزانه وفركهما بغضب. بدا جسده مثل شريان ضعيف، ولطالما كان كذلك. ثم قال: "أحضر إليّ شراباً أيها الضالع".

"ليس بعد يا مولاي. لا وقت لدينا ويجب أن تفكر بوضوح".

"افعل ما يجب أن تفعله يا موهروول، وسأدفع أيّ ثمن". كان أوجيدي قد رأى الأحصنة الميتة وهز رأسه مرهقاً، ثم نظر عبر جدران الخيمة إلى حيث يعرف أنها لا تزال ممددة. "لديك قطعان الخاصة، وجزائري، وكل ما تحتاج إليه".

"الحياد ليست كافية يا مولاي، أنا أسف. لقد عدت إلينا...".

نظر أوجيدي إليه بحدة وقال: "تكلم! من يعرف الوقت الذي بقي لدي؟".

مرة واحدة، تلثم الضالع كارها ما سيضطر إلى قوله. ثم قال: "قربان آخر يا مولاي. يجب أن يكون من سلالتك. هذا هو العرض الذي أعادك من الموت، وهذا هو سبب عودتك".

كان موهروول يراقب رد فعل أوجيدي بتركيز، ولم يشعر بخاسار حين اقترب منه إلى أن نظر إلى الأعلى ليواجه الرجل الأكبر سناً.

"أيها الوضع...". قال خاسار ذلك بغضب، وبعق على وجه موهروول فيما كان يمسك به ويهزه كما يفعل كلب بجرذ. وتابع قائلاً: "لقد سمعت هذه الألاعيب سابقاً من رجال منلك، وكسرنا ظهر آخر واحد منهم وتركناه للذئاب. هل تظن أن بمقدورك إخافة أسرتي؟ أسرتي؟ أنتظن أنك تستطيع أن تطلب دماً مقابل أنشودائك؟ حسناً، بعدك أيها الضالع. ستموت أولاً، ثم سرتي".

وفيما كان خاسار يتكلم، شهر سكيناً حادة من حزامه، وأبقى يده منخفضة، وقبل أن يتفوه أحد بكلمة، حرك معصمه، وجرح فخذ موهروول. شفق الضالع، وتركه خاسار يسقط على ظهره، ثم مسح الدم عن سكينه، لكنه أبقاها جاهزة في يده، وأخذ موهروول يتلوى الماء ويدها متشابكتان.

هض أوجيدي من فراشه بيظء، وبالرغم من أنه كان ضعيفاً وواهنساً، إلا أن عينيه كانتا تتقدان غضباً. نظر خاسار إليه ببرودة رافضاً أن يخاف منه.

دمدم أوجيدي: "هل جرحت ضالعي في مخيمي يا عمي؟ لقد نسيت أين أنت، ونسيت من أنا".

ردّ خاسار مُبِعِداً السكين ودافعاً ذقته إلى الأمام متحدّياً: "شاهده بوضوح يا أوجيدي... يا مولاي الختان. هذا الرجل يريد موتي، ولهذا يهمس بأن القربان يجب أن يكون شخصاً من أقبالك. إنهم جميعاً غارقون في الأعباء السلطوية وقد سببوا لأسرتي - أسرتك - ألماً كافياً. يجب ألا تصغي إلى كلمة منه. دعنا ننتظر عدّة أيام وسترى كيف ستتعاثى. ستكون قوياً مجدداً، وسأراهن بجيادي كلّها على ذلك".

جثا موهرول على ركبتيه، وكانت اليد التي يضغطها على فخذه حمراء من الدم، وقد شعر بالغيثان والإرهاق من شدة الألم. حدّق إلى خاسار وقال: "لا أعرف الاسم بعد، وهذا ليس خيارى، لكننى أتمنى لو أنه كذلك".

قال أوجيدي برفق: "أيها الضالع، لن تحظى بابني حتى إذا كانت حياتي تعتمد على ذلك، ولا زوجتي".

"زوجتك ليست من دمك يا مولاي. دعنى أحاول مرّة أخرى وأجد الاسم".
أوما أوجيدي موافقاً، وأراح نفسه بالاستلقاء على الفراش، وكاد ذلك الجهد البسيط الذي بذله أن يجعله يفقد وعيه.

نفض موهرول على قدميه مثل رجل عجوز، وانحنى بسبب الألم، فضحك خاسار عليه. تساقطت قطرات الدم من فخذ الضالع، واحتفت في البلاد على الفور.

قال خاسار: "إذاً، افعل ذلك بسرعة، فأنا لا أتحملى بالصبر مع أمثالك، ليس اليوم".

أشاح موهرول بصره بعيداً عنه، خائفاً من رجل معتاد العنف مثل اعتياده التنفس. لم يستطع فك أزار ثوبه وتفحص جرحه وخاسار ينظر إليه شزراً. شعر بأنه غليل وبأن الجرح يؤلمه ويحرقه، لكنه هزّ رأسه محاولاً أن يصحو. كان ضالع الختان ويجب أن يتصرف كما ينبغي، وتساءل موهرول عمّا سيحدث إذا أعطته الأرواح اسم خاسار. لم يظن أنه سيعيش طويلاً بعد ذلك.

فيما كان خاسار يراقبه بازدياد، أرسل موهرول خدومه لجلب عيدان بخور راكضين. أصبح الهواء في الخيمة خانقاً بسرعة، وأضاف موهرول أعشاباً أخرى

إلى وعاء الحرق الخاص به، وتنفس مهدوء جعل الألم في فخذيه مجرد إزعاج بسيط.
بعد وقت قليل، تلاشت تلك الحكمة أيضاً واحتفت.

في البداية، سعل أوجيدي حين دخل الدخان المزعج رتيبه. وكان أحد الخدم قد نحرأ على عصيان أمر موهرول أخيراً، وظهرت قرصة شراب عند قدمي الخان، فشرب منها مثل رجل يقتص من العطش وعاد اللون الوردي إلى وجنتيه. كانت عيناه تلمعان افتناناً وخوفاً حين أمسك موهرول العظام لاستخدامها، وقدمها للرياح الأربع وطلب من الأرواح أن توجه يده.

في الوقت نفسه، أمسك الضالع إناءً يحتوي على عجينة سوداء حبيبية، ومدّ خطماً منها بعرض الإبهام على طول لسانه. كان إطلاق روحه مجدداً في وقت قصير جداً أمراً خطراً، لكنه ممالك نفسه، متجاهلاً الطريقة التي يخفق بها قلبه في صدره. جعل الطعام المر الدموع تفيض من عينيهِ اللتين لعلتا في العتمة. عندما أغلق موهرول فمه، اتسع بؤبؤاه مثل عيون الخيول الميتة.

كان الدم ينزّ ببطء إلى طبقات اللبّاد ورائحته نفاذة. ومع رائحة البحور المخدرة لم يكن بمقدور الرجال المهقين تحمّل الرائحة بسهولة. لكن، بدا أن موهرول يتعش في الجو الخانق، والعجينة تمنح جسده قوة. صدح صوته بأنشودة حين حرّك كيس العظام إلى الشمال والشرق والجنوب والغرب، مراراً وتكراراً، وهو يطلب من أرواح الديار أن ترشده.

أخيراً، ألقى العظام بقوة كبيرة، فتبعثرت على اللبّاد. هل كان طالعاً سيئاً أن يراها تشب وتتعد عنه؟ أطلق موهرول لعنة بصوت عالٍ، وضحك خاسار حين حاول الضالع استنباط معنى وقوعها.

قال موهرول من دون أن يتوجه بحديثه إلى شخص محدد: "عشر عظام... إحدى عشرة... أين الأخيرة؟".

لم يلاحظ أي منهم أن تولي قد أصبح شاحياً مثل الخان نفسه. لم يكن الضالع قد شاهد عظمة الكاحل الصفراء تستقر قرب قدم تولي، ولمس جسده الطري.

كان تولي قد رآها، وقد أخفى في نفسه الرعب الشديد الذي شعر به لدى سماعه أن الشخص يجب أن يكون أحد أقرباء أوجيدي. ومنذ تلك اللحظة، كان

قد تملكه عجز خدر؛ استسلام لمصير لا يمكن أن يتفاداه، فقد أوقعه الحصان النائر، لا أحد غير، وظن أنه قد عرف ما سيحدث آنذاك. أراد جزء منه أن يدوس العظمة عميقاً في الباد، وينفيها بقدمه، لكنه تحلّى بإرادة قوية ولم يفعل ذلك. كان أوجيدي خان الأمة، وهو الرجل الذي اختاره والده ليحكم بعده، ولم تكن أي حياة حديرة بالاحترام مثل حياته.

هس تولي: "إنها هنا". ثم كرّر ما قاله حين لم يسمعه أحد.

نظر موهرول إليه وعيناه تتقدان بفهم مفاجئ.

قال الضالع هسنا: "الحصان أوقعك". كانت عيناه عابستين. لكن، ظهر شيء

يشبه الشفقة على وجهه.

أوما تولي صامتاً.

تدخل أوجيدي ناظراً إلى موهرول بحلّة: "ماذا؟ لا تفكر في ذلك أبداً أيها

الضالع. تولي ليس جزءاً من هذا الأمر، تكلم بحزم، لكنّ الرعب كان لا يزال

بادياً عليه. وكانت يده اللتان تمسكان كوب الشراب ترتعشان؛ وقد رأى تولي

ذلك.

قال تولي: "أنت شقيق أكبر سنّاً يا أوجيدي. إضافة إلى ذلك، أنت الخان،

والرجل الذي اختاره والدنا". ابتسم وفرك وجهه بيده، وبدا صبيحاً للحظة تقريباً.

وتابع قائلاً: "أخبرني مرة أنني سأكون الشخص الذي يذكرك بأشياء قد نسيتهما،

وأنتي سأرشدك بصفنتك سخناً وأكون ذراعك اليميني".

قال خاسار بصوت يكتمه غضب شديد: "هذا جنون. دعني أسفك دم هذا

الضالع أولاً".

فحأة، قال موهرول بحلّة: "حسناً أيها القائد!". تقدم إلى الأمام ليواجه

خاسار بذراعين مفتوحتين وتابع قائلاً: "سأدفع ذلك الثمن. لقد أرقّت دمي سلفاً

منذ قليل. خذ الباقي إن أردت، لكن ذلك لن يغير شيئاً، ولن يبدّل ما ينبغي فعله".

مسّ خاسار يده حيث توجد سكينه تحت حزامه، داخل طيات القماش

المتسخ، لكن موهرول لم يشح بصره عنه. كانت العجينة التي تذوّقها قد أخفت

أي خوف يشعر به، وقد رأى أن حب خاسار لأوجيدي وتولي مقترن بإحباطه.

كان بمقدور القائد العجوز مواجهة جيش، لكنه يضيع ويرتبك بسبب مثل هذا

القرار. بعد بعض الوقت، أنزل موهرول يديه، ووقف بصبر منتظراً أن يدرك خاسار الأمر المحتوم.

في النهاية، كان صوت تولي هو الذي كسر جدار الصمت حين قال: "لديّ ما أنجزه يا عمي، ويجب أن تركني الآن. ينبغي لي أن أرى ابني وأكتب رسائل لزوجتي". كان وجهه صارماً من شدة الألم، لكن صوته بقي ثابتاً حين حدّق خاسار إليه. قال خاسار بفظاظة: "لم يكن والدك ليستسلم. صدّقني، أنا الذي عرفته أفضل من أي رجل آخر".

لم يكن وانثاماً بقوله كما يبدو. في بعض الحالات، كان جنكيز سيضحى بحياته من دون تفكير، مستمتعاً بالإشارة المهيبة. وفي مواقف أخرى، كان سيقاقل حتى آخر نفس غاضب، سواء ألمات أم لا. تمنى خاسار من كل قلبه لو أن شقيقه كشيون كان هنا، فقد كان بمقدوره إيجاد جواب؛ طريقة للخروج من هذا الوضع الشائك. بدا أن الحظ السيئ فقط هو ما جعل كشيون يخرج مع تسوبودي وبساتو إلى الشمال، وللمرة الأولى شعر خاسار بأنه وحيد.

أحس بالضغط من الرجال الأصغر سناً حين نظروا إليه على أمل أن يحدث شيء ما يؤدي إلى اتخاذ قرار ما، لكن كل ما استطاع التفكير فيه هو قتل الضالع، وأدرك أن هذا أيضاً عمل لا طائل منه. كان موهرول صادقاً بكلماته، ووفقاً لما يعرفه خاسار، قال الرجل الحقيقة كاملة. أغمض عينيه وحاول جاهداً أن يسمع صوت كشيون. ماذا سيقول؟ يجب أن يموت أحد من أجل أوجيدي.

رفع خاسار رأسه وفتح عينيه قائلاً: "سأكون قربانك أيها الضالع. ضحّ بحياتي من أجل حياة الخان. يمكنك أن أفعل ذلك، إكراماً لذكري شقيقي، ومن أجل ابن شقيقي".

قال موهرول، وهو يستدير مبتعداً عنه: "لا، لست الشخص المختار، ليس اليوم. الإشارات واضحة، والخيار بسيط كما هو قاس".

ابتسم تولي مكتئباً حين تكلم الضالع، واقترب من خاسار وتعانق الرجلان قليلاً في حين كان أوجيدي وموهرول ينظران إليهما.

قال تولي وهو ينظر إلى الضالع: "عند غروب الشمس يا موهرول. امسحني يوماً لأجهّز نفسي".

"يا مولاي، العلامات واضحة، ولا نعرف الوقت الذي بقي للخان قبل أن يفارق الحياة".

لم يقل أوجيدي شيئاً حين نظر تولي إليه، وتوتر فك تولي حين بذل جهداً للسيطرة على نفسه، وهمس قائلاً: "لن أهرب يا شقيقي، لكنني لست مستعداً للسكين، ليس بعد. امتحني اليوم وسأباركك من الطرف الآخر".

أوماً أوجيدي بضعف، وتعبير وجهه يوحي بما يشعر به من عذاب. أراد أن يتكلم بصوت عالٍ، وأن يرسل موهلول بعيداً ويتحدّى الأرواح الخافدة بأن تعود إليه، لكنه لم يستطع. عجزت له ذكرى صغيرة عن عجزه، ولم يكن بمقدوره أن يعان ذلك مجدداً.

قال أوجيدي أخيراً: "عند غروب الشمس يا شقيقي".

ومن دون كلمة أخرى، خرج تولي من الخيمة بخطوات واسعة إلى الهواء النظيف والشمس. حوله، كان المخيم الشاسع ممثلاً في كل الاتجاهات، وهو يبيض بالحركة والحياة، وبأصوات النساء والأطفال والمحاربين، وصهيل الجياد. خفق قلب تولي ألقاً من مثل هذا المنظر العادي السار، وأدرك بوحدة بأس أن هذا آخر صباح له، وأنه لن يرى الشمس تشرق مجدداً. وقف ببساطة لبعض الوقت مراقباً الشروق، وواضعاً يده فوق عينيه ليحجب عنهما الوهج الساطع.

الفصل الرابع عشر



قاد تولي بمجموعة صغيرة من عشرة فرسان إلى النهر الذي يتدفق بجانب المخيم، وكان ابنه مونغيكي إلى يمينه، وقد بدا وجهه شاحباً من الإرهاق. ركضت جاريتان بجانب تولي الذي ترحل عن صهوة حصانه على الضفة فنزعنا درعه وملاسه الداخلية. خاض تولي في الماء الباردة عارياً، وشعر بقدميه تغوران في الطين الرطب. غسل جسده ببطء، واستخدم الطمي لإزالة الطبقة الدهنية عن جلده، ثم غاص تحت سطح الماء ليغسل جسده.

تعرّت جاريتاه لتدخل الماء معه، وارتعشنا حين أدخلنا أدوات عظمية تحت أظفارهن لتنظيفها، ووقفت كلتا المرأتين والماء يصل إلى حصريهما، وهودهما مشدودة من القشعريرة. لم نسمع أي أصوات مرح أو ضحكات منهما ولم يشعر تولي بالإنارة من منظرهما، في حين أنه في أي يوم آخر كان سيلعب في المياه الضحلة معهما ويرشهما ليحعلهما ترعقان.

بعناية وتركيز، أمسك تولي قارورة من سائل صافٍ ودهن شعره به، ثم عقدته جاريتاه الجميلتان في جديلة سوداء تدلّت على ظهره. كان جلده ناصع البياض عند قفا عنقه، حيث يحميه الشعر من الشمس.

وقف مونغيكي وراقب والده، وكان القادة الآخرون رجالاً بارزين قد شهدوا معارك كثيرة. بجانبهم، كان يشعر بأنه يافع ويفتقر إلى الخبرة. لكن، لم يكن بمقدورهم النظر إليه، وقد التزموا الصمت احتراماً لتولي، وعرف مونغيكي أن عليه عدم إظهار أي انفعال إكراماً لشرف والده. كان القائد سيحسّر بالعار إن رأى ابنه يركي، لهذا وقف مونغيكي مثل صخرة، ووجهه قاس، لكنه لم يستطع إبعاد ناظره عن والده. كان تولي قد أحبرهم عن قراره

وصدمهم جميعاً. لكن، لم يكن باستطاعتهم القيام بشيء في وجه إرادته وحاجة الحان.

أطلق أحدهم صفيراً خافتاً حين رأى خاسار يخرج على صهوة حصانه من طرف آخر من المخيم. وبالرغم من أن القائد يحظى باحترامهم، لكنهم كانوا لا يزالون مستعدين لمنعه من الوصول إلى النهر حين اقترب منه. في هذا اليوم، لم يكونوا مهتمين بكونه شقيق جنكيز.

كان تولي يقف وعيناه مغمضتان في حين يُجدل شعره. جعله الصغير يفيق من ذموله، وأوماً إلى مونغكي للسماح لخاسار بالمرور، وراح يراقب عمه وهو يترجل عن صهوة حصانه ويصل إلى الضفة.

قال خاسار: "ستحتاج إلى صديق لمساعدتك على القيام بالأمر". استقر بصر مونغكي على الجهة الخلفية من رأس خاسار، لكنه لم يلاحظ شيئاً.

أبعد تولي بصره عن النهر بصمت، وأحس رأسه أخيراً موافقاً، وخرج من الماء بخطوات واسعة. مشى جاريته معه، ووقف بصبر حين فركتا القسم السفلي من جسده. شعر بالدفء تحت الشمس، وتلاشى بعض توتره. نظر إلى الدرع الذي تنتظره؛ كومة من الحديد والجلد، وكان قد ارتدى شيئاً مماثلاً طوال حياته حين كان راشداً، لكن الدرع بدت فحاةً شيئاً غريباً، ولأنها من تصميم تشن، لم تناسب مزاجه.

قال لمونغكي الذي كان واقفاً مستعداً بانتظار الأوامر: "لن أرتدي الدرع. اجعلهم يحزمونها. وربما في الوقت المناسب سترتديها من أجلي".

كافح مونغكي حزنه فيما كان ينحني ويجمع القطع بين ذراعيه. نظر خاسار إلى ما يقوم به باستحسان، سعيداً لرؤيته ابن تولي يحافظ على كرامته. كان فخر الوالد يشع من عينيه، بالرغم من أن مونغكي استدار بعيداً من دون أن يرى ذلك. راقب تولي جاريته وهما تشدان ثيابهما لتغطيا عريهما، وأرسل إحداهما حافية القدمين على العشب، ومزودة بتعليمات لجلب رداء وطماقين بعينها من عيمته، إضافة إلى حذاء جديد. ركضت بسرعة، واستدار أكثر من رجل لرؤية ساقها في الشمس.

قال تولي برفق: "أحاول أن أصدق أن هذا يحدث حقاً". نظر إليه خاسار، ومدّ يده ليمسك كفته العارية بدعم صامت حين تابع كلامه قائلاً: "عندما رأيتك قادمًا، انتابني أمل بأن شيئاً قد تغير. أظن أن جزءاً مني لا يزال يتوقع صرخة، إنقاذاً، حتى في اللحظات الأخيرة. إلها شيء غريب؛ أقصد الطريقة التي نعذب بها أنفسنا".
رد خاسار: "أعرف أن والدك سيكون فخوراً بك". شعر بأنه عدم الفائدة، ولا يستطيع العثور على الكلمات المناسبة.

على نحو غريب، كان تولي قد لاحظ أسي عمه وتكلم بلطف: "أظن أنه من الأفضل لي أن أبقي وحيداً في هذه اللحظة يا عمي. لدي ابن ليواسيني، وسينقل رسائلني إلى الدبار. سأحتاج إليك لاحقاً، عند غروب الشمس...". تنهّد عميقاً ثم قال: "أريد منك أن تقف بجانبني آنذاك من دون شك. الآن، لا تزال لسدي رسائل أكتبها وأوامر أصدرها".
"حسناً يا تولي، سأعود عند غياب الشمس. سأخبرك شيئاً واحداً: عندما ينتهي الأمر، سأقتل ذلك الضالع".

ضحك تولي بصوت خافت وقال: "لن أتوقع شيئاً أقل من ذلك يا عمّاه. سأحتاج إلى خادم في العالم الآخر، وسيلبي بلاء حسناً".
عادت الجارية الشابة وهي تحمل ملاء ذراعيها ثياباً صوفية نظيفة. عاري الصدر، شدّ تولي طماقين قاسيين حتى فخذيه، مخفياً عورته عن الأبهصار. وربطت الجارية الخزام حول خصره، في حين وقف تولي فاتحاً ذراعيه، ومحدقاً إلى البعيد. كانت جاريته قد بدأت بالبكاء ولم يوتخهما أي رجل على ذلك، وشعر تولي بالسعادة لسماعه نحيبهما، لكنه لم يجرؤ على التفكير في سورته التي ورد فعلها. راقب خاسار وهو يمتطي حصانه، والنزم الرجل الأكبر سناً الصمت بائساً حين رفع يده اليمنى واستدار لينطلق بعيداً.

جلس تولي على العشب، وجثت الجاريتان بجانبه. كان الخذاء جديداً، ومصنوعاً من جلد طري، لفت المرأتان قدميه بصوف خام، ثم جعلته يتعل الخذاء فوقه، وربطتا شريطه بحركات سريعة ودقيقة.
وأخيراً، لمض. كان الثوب أبسط مما يملكه، كان مصنوعاً من قماش مسطّح قليلاً ومن دون زخرفة على الإطلاق تقريباً باستثناء أزرار على شكل أحراس

صغيرة. كان قطعة قديمة من مقتنيات جنكيز سابقاً ويتميز بتطريز قبيلة الذئاب. مرّر تولي يديه على التصميم الخشن واكتشف أنه يستمد الراحة منه. كان والده قد أهلاه، وربما توجد إشارة إلى قوته القديمة في القماش.

قال لابنه: "امشي معي قليلاً يا مونغكي. هناك أشياء أريدك أن تتذكرها من أجلي".

في نهاية اليوم، انحدرت الشمس نحو الأفق ناشرةً ضوئاً بارداً فقد ألوانه بسطء، فأصبحت السهول رمادية. راقب تولي الشمس وهي تلامس التلال في الغرب، وقد جلس على العشب واضعاً ساقاً على أخرى. كان النهار جميلاً، وقد أمضى بعض الوقت منه وهو يلعب مع جارتيه، ويمتّع نفسه بمباهج الجسد. كان قد عيّن نائبه لقيادة الفرقة، ولاكونا رجل جيد ووفى، ولن يسيء إلى ذكرى تولي، وبحلول الوقت المناسب، حين يكسب مونغكي خبرة أكبر، سيتحى لاكونا جانباً من أجله.

كان أوجيدي قد جاء إليه بعد الظهر، وقال إنه سيعين سورهتاني زعيمة لأسرة تولي، وستمتع بكل الحقوق التي عرفها زوجها، وستحفظ بثروته والسلطة على أبنائه. وعندما يعود إلى الديار، سيمنح مونغكي زوجات تولي الأخريات وجارياته، ويحميهن من أولئك الذين سيغتمون تلك الفرصة. كان الخان سيحافظ على سلامة أسرته، وهذا آخر ما يستطيع أوجيدي تقديمه، لكن تولي شعر بأنه أفضل حالاً بعد سماع ذلك، وأقل خوفاً. تمتى فقط أن يتحدث إلى سورهتاني وأبنائه الآخرين مرة واحدة أخيرة. لم يكن تلقين الرسائل لكتابه أمراً مائلاً، و تمتى لو يستطيع احتضان زوجته مرة واحدة فقط، وأن يضمها إليه بقوة ويشم شذا شعرها.

تهتد، كان العثور على السكينة أمراً صعباً والشمس آخذة بالانحدار. حاول أن يتشبت بكل لحظة، لكن ذهنه خانته، فشرّد ثم صحا فرعاً. انسلّ الوقت من بين يديه مثل الزيت، ولم يستطع الإمساك بلحظة واحدة منه.

كانت الفریق قد تجمعت في صفوف لتشهد تضحيتها. وأمامه على العشب، وقف أوجيدي مع خاسار وموهورول. انتظر مونغكي بعيداً قليلاً عن الثلاثة الآخرين، ووحده فقط حدّق مباشرة إلى والده، بنظرة ثابتة بدت الإشارة الوحيدة إلى الرعب والإنكار اللذين يشعر بهما.

سحب تولي نفساً عميقاً، مستمتعاً برائحة الجياد والأغنام في نسيم
المساء، وشعر بالسعادة لأنه اختار رداءً رائعاً بسيطاً. كانت الدرع ستخنفه،
وتحجزه في الحديد. وبدلاً من ذلك، أحس بحرية تحريك أطرافه، والنظافة
والهدوء.

مشى نحو المجموعة الصغيرة من الرجال، وحدّق مونغكي إليه مثل عجل
مذهول. مدّ تولي يده وجذب ابنه إليه معانقاً إياه لوقت قصير، ثم أفلته قبل أن
يتحول الارتعاش الذي شعر به في صدره إلى نشيج.
قال: "أنا جاهز".

جلس أوجيدي وهو يضع ساقاً على أخرى، وحاسر إلى جانبه. وتردّد
مونغكي قبل أن يجلس إلى جانبه الآخر.

كان هناك حقد مشترك حين شاهدوا جميعاً موهرول وهو يضع شعة في إناء
نحاسي، وخرج أثر ضئيل من الدخان فوق السهل، وبدأ الضالع يُنشد.

كان موهرول عاري الصدر، وجلده مليئاً بخطوط حمراء وزرقاء داكنة،
وعيناه تظهران من قناع بالكاد بدا بشرياً. واجه الرجال الأربعة الغرب، وبينما
كان الضالع ينشد ستة أبيات من أنشودة الموت، حدّقوا إلى الشمس الغاربة التي
يتلعبها الأفق ببطء حتى لم يعد يظهر منها إلا خطّ عريض ذهبي اللون.

ضرب موهرول الأرض بقدميه حين ألهى أبياته التي أنشدها لسلام الأرض،
وطعن سكيناً في الهواء حين نادى أب السماء. ازداد صوته قوة، وخرجت نغمة
مضاعفة من أنفه وحنجرته كانت من بين الأصوات الأولى التي يتذكرها تولي الذي
استمع إليه مذهولاً، وهو لا يستطيع أن يشيح ببصره عن الخطّ الذهبي الذي
يربطه بالحياة.

عندما انتهت أبيات الرياح الأربعة، وضع موهرول سكيناً بين يدي تولي
المشبوكتين. حدّق تولي إلى التصل الأزرق والأسود في الضوء الأخضر، ووجد
السكينة التي يحتاج إليها. كان كل شيء حوله واضحاً ومحددًا بدقة، وتنفس بعمق
حين ضغط نصل السكين على جلده.

مدّ أوجيدي يده وأمسك كتفه اليسرى، وفعل حاسر الشيء نفسه بالكثف
اليمنى. شعر تولي بقولهما، وحزهما، وبدّد ذلك آخر مخاوفه.

نظر إلى مونفكي ورأى عيني الشاب تفيضان دموعاً، لم يكن هناك عسارٌ في ذلك.

قال تولي: "اعين بوالدتك يا فتى". ثم نظر إلى الأسفل وسحب نفساً عميقاً وقال: "حان الوقت. أقدم نفسي قرباناً للخان. أنا شامخ وقوي وشاب، وسأحل محل شقيقي".

اختفت الشمس في الغرب، ودفع تولي السكين في صدره باتجاه القلب. خرج كل الهواء من رئتيه في نفس طويل ومتحسرج، واكتشف أنه لم يعد بمقدوره التنفس، وكافح للسيطرة على فزعه. كان يعرف ما يجب أن يفعله، فقد شرح له موهروول كل تفصيل من الشعائر. كان ابنه يراقب وعليه أن يتحلّى بالقوة.

كان جسد تولي قد أصبح متشنجاً وقاسياً، وأصبحت كل عضلة متوترة حين أخذ نفساً ولوى السكين بين أضلاعهم وهو يطعن قلبه. كان الألم جمرة حارقة في صدره، لكنه سحب السكين ونظر مشدوهاً إلى تسزيف الدم الذي خرج معها. بدأت قوته تتلاشى، وعندما بدأ يسقط إلى الأمام أمسك خاسار يده بأصابع يده قوية. أدار تولي عينيه إليه شاكراً وهو غير قادر على الكلام. رفع خاسار يده عالياً، مبقياً قبضته مغلقة حتى لا يُلقي السكين.

تراخي جسد تولي حين ساعده خاسار على وضع النصل على عنقه، وبدأ متجمداً كرجل جليدي، في حين يسيل دمه الدافئ على العشب. لم ير الضالع وهو يضع وعاءً تحت عنقه، وتدلّى رأسه إلى الأمام وأمسكه خاسار من عنقه. استطاع تولي أن يشعر باللمسة الدافئة وهو يموت.

قدم موهروول الوعاء الممتلئ دماً إلى أوجيدي، وجثا الخان مطأطفاً رأسه وهو يحدّق إلى الظلام. لم يترك جثة تولي، ولهذا بقيت واقفة، وثابتة بين الرجلين. قال موهروول: "يجب أن تشرب يا مولاي، في حين أُلهمي أنا الأمر".

سمعه أوجيدي وأمسك الوعاء بيده اليسرى وارتشف منه، وغص بدم شقيقه الدافئ، وسال القليل منه على ذقنه وعنقه. لم يقل موهروول شيئاً، وشدّ الخان مسن أزر نفسه وقاوم الرغبة في التقيؤ. عندما فرغ الوعاء، رماه أوجيدي بعيداً في العتمة، وبدأ موهروول ينشد الأبيات الستة مرة أخرى من البداية، داعياً الأرواح لكي تقرب وت شاهد القربان.

وقبل أن يُنهي إنشاد نصف الأبيات، سمع موهروول أوجيدي وهو يتقيأ على العشب. كان الظلام حالكاً آنذاك ولا يسمح برؤية أي شيء وتجاهل الضالع الأصوات.

انطلقت سورھتاني بقوة وهي تصرخ: تشوا! وترغم حصانها على الجري بأقصى سرعته في السهول البنية. انطلق أبناؤها معها وأثاروا مع الجياد الإضافية سحابة صغيرة من الغبار ارتفعت خلفهم. ونحست الشمس الحارة، تحركت سورھتاني عارية الذراعين، ومرتدية رداءً حريرياً أصفر وطماقبن من جلد الغزال، ومنتعلة حذاءً طرياً. كانت متسخة، ولم تستحم منذ وقت طويل، لكنها ابتهجت حين جرى حصانها فوق الأرض القديمة للقبائل.

كانت الحشائش جافة جداً، والوديان عطشى، وقد جفَّ القحط كل شيء باستثناء الأنهار العريضة. ومن أجل ملء قُرب الماء، كان عليهم أن يخفروا في طين النهر حتى ينزل الماء في الخفرة، مرّاً ومملوعاً طشياً. كان الحرير قد أثبت قيمته مجدداً في تنقية الماء من الوحل وإخراج الديدان من السائل الثمين.

في أثناء رحلتها، رأت عظام الأغنام والثيران؛ أشكالاً بيضاء مزقتها ذئاب وتعالب إلى قطع صغيرة. وبالنسبة إلى أي شخص آخر، ربما لم يكن منح زوجها مثل هذه الأرض الجافة سيبدو مكافأة عظيمة، لكن سورھتاني كانت تدرك أن هذه المنطقة قد شهدت أوقاتاً قاسية على الدوام، وأن مثل هذه البقعة تنتج رجالاً أقوياء ونساءً أقوى. كان أبناؤها قد تعلموا آنذاك التشفُّف في استهلاك الماء، وتعلموا ألا يتحرَّعوه وكأنهم دائماً قرب جدول. وبالرغم من أن شهور الشتاء شديدة البرودة وشهور الصيف حارة جداً، إلا أن هناك حرّية في المساحة الشاسعة، وستهطل الأمطار مجدداً. كانت تتذكر من طفولتها تلالاً مثل حرير أخضر، تمتد إلى الأفق في كل الاتجاهات. وبالرغم من أن الأرض تعرَّضت للقحط والبرد، إلا أنها ستتحدّد عمّا قريب.

من بعيد، استطاعت رؤية جبل دليون - بولداخ؛ قمة ذات أهمية رمزية تقريباً في أساطير القبائل. كان جنكيز قد ولد في مكان ما قرب ذلك الجبل، ووالده ياسوحي قد امتطى حصانه مع أتباعه هناك، وهو يحمي قطعانته من الغزاة في الشهور الأبرد من السنة.

ثبتت سورهناتي ناظرينها على صحرة مختلفة حمراء اللون، كان جنكيز قد تسلقها مع أشقائه حين كان العالم أصغر وكل القبائل متناحرة مع بعضها. جارى أبنائها الثلاثة سرعتها، وتعاطمت التلة الحمراء أمامهم. هناك، كان جنكيز وكشيون قد عثرا على عش صقر، وأنزلا فرخين رائعين نقلاهما إلى والدهما. استطاعت سورهناتي أن تتخيل الإثارة التي شعرا بها، وأن ترى وجهيهما في ملامح أبنائها.

تمت فقط لو أن مونغكي معهم، بالرغم من معرفتها أن هذه حماقة أم. كان على مونغكي أن يتعلم القيادة، وأن يخرج في حملة عسكرية مع والده وعميه، فلم يكن المحاربون يترمون ضابطاً لا يعرف شيئاً عن التضاريس أو التكتيكات. تساءلت إن كانت والدة جنكيز قد أحييت بكثر كما تحب هي ابنها البكر. ووفقاً للروايات، كان بكثر رزينا جداً تماماً مثل مونغكي. لم يكن ابنها البكر يستسلم بسهولة للضحك، أو يشعر بومضات خاطفة من التبصر، أو يتمتع بحسن الدعابة الذي يميز فتى مثل كوبلاي.

راقبت كوبلاي الذي كان يمتطي حصانه، وحذيلة شعره تهمت في الهواء. كان نحيلاً مثل والده وحده. سابق أولادها بعضهم بعضاً في الغبار، وأسعدها شباهم وقوتهم مثل شباهها وقوتها.

كان تولى ومونغكي غائبين منذ عدة شهور، وبدا صعباً عليها أن تغادر كاراكوروم، لكنها تعرف أن عليها أن تجهز نجيماً لزوجها، وأن تستطلع الأرض. كانت مهمتها نصب الخيام في ظل دليون - بولداخ، والعتور على مراعي جيدة في السهول حول الأهمار، وقد جاء آلاف الرجال والنساء معها إلى السوطن. لكن، عليهم الآن أن ينتظروا وفقاً لرغبتها في أثناء ذهابها إلى التلة الحمراء.

ربما سيقود مونغكي يوماً ما جيشاً مثل تسوبودي، أو يصبح رجلاً صاحب نفوذ تحت إمرة عمه. كان الحلم في مثل هذا اليوم أمراً سهلاً، فيما الهواء يجعل شعرها يتطاير إلى الخلف في لحر من الخيوط الحريية.

نظرت سورهناتي خلفها لتتوَق من وجود تابعي زوجها، وكان انسان من أشرس المحاربين تحت إمرة يمتطيان حصانيهما قرب الأسرة. وبينما كانت تراقبهما، رأت رأسيهما يستديران يميناً ويساراً، وهما يبحثان عن أقل خطر،

فابتمت. قبل أن يغادر، كان تولي قد أصدر أوامر واضحة جداً بشأن الحفاظ على سلامة زوجته وأبنائه، وربما كان صحيحاً أن تلال ديارهم وسهولها خالية على نحو خاص من أي أسر بدوية، لكنه بالرغم من ذلك شعر بالقلق. فكّرت في أنه رجل رائع، وإذا تحلّى بجزء يسير فقط من طموح والده، فسيحظى بمرتبة عظيمة. لم يكتب مزاج سورھتاني من تلك الفكرة، فمصيب زوجها لم يكن بيدها لتشكّله كيفما شاءت، وهو أصغر أبناء جنكيز، وقد عرف في سن مبكرة أن أشقاه سيتولون القيادة وأنه سيتبهم.

كان أبنائها قضية مختلفة، وقد تدرّبوا جميعاً حتى أصغرهم أربك - بوك ليكونوا محاربين وعلماء منذ اللحظة التي استطاعوا المشي فيها، وجميعهم يجيدون قراءة نصوص تشن الملكية وكتابتها. وبالرغم من أنها نصرانية، إلا أنهم تعلّموا ديانة تشن وسونغ، حيث توجد القوة الحقيقية. وبغض النظر عمّا يحمله المستقبل، كانت تعرف أنها قد أعدتكم بأفضل ما تستطيع.

ترجّلت المجموعة الصغيرة عند أسفل التلة الحمراء، وصرخت سورھتاني سعادة حين رأت صقوراً تحلّق عالياً فوقهم وكأنها بقع صغيرة. كان جزء منها قد فكّر في أن إشاعة وجودها مجرد تباهي راع، وطريقة لتكريم قصة جنكيز، لكنها موجودة فعلاً، وعشها في مكان ما بين الصخور.

ظهر تابعا زوجها وانحنيا كثيراً أمامها، وهما ينتظران أوامرها بصبر.

قالت وقد شعرت بالإنارة كأنها فتاة صغيرة: "سيتسلق أولادي إلى العرش". لم تكن تحتاج إلى شرح أي شيء، فقد نظر كلا التابعين نحو الأعلى إلى الطيور الخلقية. ثم تابعت قائلة: "استطلعا المنطقة بحثاً عن الماء. لكن، لا تبتعدا".

خلال لحظات، وثب الرجلان إلى سرجهما وانطلق حصاناهما وهما يجريان حياً، فقد كانا يعرفان أن سورھتاني تنوع النوع نفسه من الطاعة الفورية مثل زوجها. كانت قد تعرّعت بجانب رجال ذوي نفوذ، وتزوجت من أسرة الخان العظيم في سن مبكرة جداً، وتعرف أن هؤلاء الرجال يفضلون تلقي الأوامر، وأن تولّي القيادة يتطلب إرادة كبيرة، وهي تتمتع بتلك الإرادة.

كان كوبلاي وهولغو آنذاك عند سفح التلة الحمراء، يحجبان عيونهما عن الشمس بحثاً عن موقع العرش. كان الوقت متأخراً في السنة، وإذا كانت هناك فرائح،

فستكون قوية، وربما تستطيع مغادرة العش والظيران وحدها. لم تعرف سورهتاني إن كان أولادها سيصابون بخيبة أمل، لكن هذا لم يكن مهماً، فقد جعلتهم جزءاً من إحدى الحكايات التي تدور حول حياة جنكيز، ولن ينسوا أبداً التسلق، سواء أآزرلوا فرحاً أم لا. كانت قد منحتهم تجربة سيخرونها لأولادهم يوماً ما.

شهر الصيف أسلحتهم وبدأوا يتسلقون الجزء السهل، في حين سحبت سورهتاني كيساً من الجبن من تحت السرج. كانت قد سحقت قطع الجبن القاسي بنفسها وحوّلتها إلى قطع صغيرة؛ حتى لا تسبب قروحاً في جلد الحصان في أثناء تحللها في الماء. كانت العجينة الصفراء الكثيفة مرّة ومنعشة، وهي من الأطعمة المفضلة لديها. لعقت شفتيها حين أدخلت يدها داخل الكيس، ثم مصّت أصابعها حتى لم يبقَ عليها شيء.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليلب القليل من الماء الذي تحمله أحصنة التحميل وسقاية الحيوانات باستخدام قربة جلدية، وعندما أنهت هذا العمل، بحثت سورهتاني في خراج السرج حتى وجدت بعض التمور الجافة والحلوة. نظرت إلى التلة وهي تشعر بالذنب حين قضمت واحدة، فقد كانت تعرف أن أولادها يجنون هذه الثمار الشهية النادرة، لكنهم لم يكونوا يجانبها. استطاعت رؤيتهم يصعدون إلى الأعلى، ويتسلقون بسهولة مستفيدين من سيقانهم القوية والنحيلة، وعرفت أن الشمس ستغيب بحلول وقت عودتهم، وأنها ستبقى بمفردها حتى ذلك الحين. قيّدت الحصان بحبل حتى لا يهيم على وجهه بعيداً، ثم جلست على العشب الخاف، بعد أن وضعت بطانية السرج على الأرض.

غفت سورهتاني بعد الظهر مستمتعة بالعزلة والسكينة. أحياناً، كانت تُخرج ثوباً تعمل على تطريزه بخيوط ذهبية من أجل كوبلاي. وقد بدا أنه سيكون رائعاً حين تنتهي من العمل عليه، وقد انكبّت على الغرزات وهي تقطع أطراف الخيوط بأسنان بيضاء قوية. وفي دفء الشمس، كان من السهل أن تشعر بالنعاس وأن تغفو لبعض الوقت. عندما استيقظت، اكتشفت أن وقت الظهر قد مضى ليصبح الجو معتدل البرودة، فنهضت وتمطّت وهي تتأهب. كانت هذه أرضاً جيدة وشعرت بأنها في ديارها هنا، وقد حلمت بجنكيز حين كان شاباً فتورّد وجهها تعرقاً، لكنه لم يكن حتماً تشارك فيه أبنائها.

من بعيد، أثارت حركة فارس انتباهها، وكانت تلك موهبة فطرية تولد مع الأجيال؛ إذ تمثل رؤية عدو مفتاح النجاة. عبست وحجبت الشمس عن عينيها، ثم ضمت يديها على شكل أنبوب لتركز بصرها إلى مسافة أبعد. لكن، حتى مع استخدامها خدعة المستطلع القديمة تلك كان الشكل الداكن مجرد بقعة.

لم يكن تابعا زوجها قد ناما بعد الظهر، وانطلقا على صهوتي حصانتهما بأقصى سرعة لاعتراض طريق الفارس الوحيد. شعرت سورهتاني بأن إحساسها بالطمأنينة يتضاءل ويتلاشى حين وصلا إلى الرجل، وتحولت النقطة الوحيدة إلى عقدة أكبر.

تمتمت لنفسها: "من أنت؟".

كان من الصعب ألا تشعر بوحزة قلبي، ففارس وحيد لا يمكن أن يكون إلا أحد السعاة الذين يقطعون آلاف الأميال من أجل الخان وقادته. وبوجود أحصنة نشيطة، يمكنهم قطع مئة ميل في اليوم، وأحيانا اجتياز مسافة أطول إذا كانت المسألة مسألة حياة أو موت. لم تكن قوات الخان في إقليم تشن تبعد أكثر من عشرة أيام وفقاً لتقدير مثل هؤلاء الرجال. رأيت الفارسان الثلاثة وهم يقتربون من التلة الحمراء معاً وتفألصت معدتها وهي تشعر بوجود خطب ما مفاجئ.

خلفها، سمعت ضوضاء أبنائها وهم يعودون من تسلقهم، وأصواتهم خافتة ومرحة. لكن، لم تكن هناك صرخات ابتهاج. كانت فراخ الصقور الصغيرة قد غادرت العش، أو طارت من أيديهم الجشعة. بدأت سورهتاني تحزم أمتعتها، وتلف إبراهيم وبكرات خيوطها الثمينة في صرة قماشية، وتربط العقد بخنجره على نحو فطري. فعلت ذلك بدلاً من أن تقف لا حول لها ولا قوة، واستغرق الأمر منها وقتاً طويلاً لتجهيز خرج السرج، وتحميل قرب الماء بعناية.

عندما استدارت إلى الخلف، ارتفعت يدها إلى قمها حين تعرقت الفارس الوحيد الذي يتوسط التابعين. كانوا لا يزالون بعيدين قليلاً، فصرحت طالبة منهم أن يسرعوا. وعندما اقتربوا، رأيت كيف يتمايل مونغكي على السرج مرهقاً جداً. كان الغبار يعلوه، وجانبها حصانه قد كُسي بطبقة من الأوساخ حيث قضى حاجته من دون أن يترجل. كانت تعرف أن المستطلعين لا يفعلون ذلك إلا إن كان عليهم نقل الأنبياء إلى الدبار بسرعة كبيرة، فخفق قلبها فرغاً. لم تتكلم حين

ترجل ابنها البكر وترنح، وكاد أن يقع حين خائته قدماه، لكنه تشبّث يوتسد السرج، واستخدم يده اليمنى ليفرك مواضع التشنجات. أخيراً، التقت عيونهما ولم يضطر إلى الكلام.

لم تلبث سورهتاني آنذاك. وبالرغم من أن جزءاً منها عرف أن زوجها قد مات، إلا أنها وقفت شامخة، والأفكار تتسارع في ذهنها. كانت هناك أشياء كثيرة يجب أن تقوم بها.

قالت أخيراً: "أهلاً بك في عيمي يا بني".

استدارت إلى الطالبين وهي مذهولة تقريباً، وطلبت منهما إشعال نار وتحضير الشاي. وقف أبناؤها الآخرون بصمت مختارين من منظر المجموعة الصغيرة.

قالت برفق: "اجلس معي يا مونغيكي".

أوما ابنها وقد احمرّت عيناه إرهاباً وحزناً، جلس في مكانه على العشب بجانبها وأوما إلى كوبلاي، وهولغو، وأريك - بوك الذين كوّنوا حلقة محكمة حول والدتهم. عندما أصبح الشاي لاذع الطعم جاهزاً، أفرغ مونغيكي الكوب الأول ببضع رشقات لإزالة الغبار من حلقة. كان يجب عليه أن ينطق بالكلمات، وكادت سورهتاني تصرخ لتوقفه، وقد اضطربت مشاعرها. إذا لم يتكلم مونغيكي، فلن يكون الأمر صحيحاً تماماً، وعندما تخرج الكلمات، فستغير حياتها وحياة أبنائها وستكون قد فقدت حبيبها.

قال مونغيكي: "والدي مات".

أغمضت والدته عينها للحظة، وقد تمزّق آخر أمل لديها، وسحبت نفساً عميقاً.

همست بغصّة: "كان زوجاً جيداً، ومبارباً قاد عشرة آلاف من أجل الخان. أحببته أكثر مما ستعرفون يوماً". جعلت الدموع عينها كبيرتين، وأصبح صوتها حشناً حين غصّت بسبب الأسى الذي تشعر به. ثم تابعت قائلة: "أخبرني كيف حدث الأمر يا مونغيكي، ولا تُغفل شيئاً".

الفصل الخامس عشر



شدّ تسوبودي لجام حصانه عند حافة جرف صخري، وانحنى فوق سرجه لينظر إلى الوادي في الأسفل. كان قد أمضى يوماً على دروب الماعز ليصل إلى هذا المكان، واستطاع الرؤية مسافة عشرين ميلاً من مثل هذا الارتفاع، وشملت نظرتة تلالاً وقرى، وأهواراً وبلدات. كان هر فولغا المريض يتدفق إلى الغرب، لكنه لا يمثل عقبة حقيقية، وقد أرسل آنذاك رجالاً يخوضونه لاستطلاع حزرر وضفاف خلفه. كان قد غزا تلك الأراضي من قبل، وأبشتم حين تذكر قيادته رجاله عبر الأهوار المتجمدة. لم يكن الروس قد صدقوا أن أحداً يستطيع تحمّل شتائهم؛ لكنهم كانوا مخطئين. لم يكن أحد باستثناء جنكيز فقط يستطيع إعادته في ذلك الوقت، وعندما أمره الخان العظيم بالعودة إلى الديار، فعل تسوبودي ذلك، لكن هذا الأمر لن يتكرر مجدداً، فقد أطلق أوجيدي يده هنا. كانت حدود تشن مؤمنة إلى الشرق، وإذا استطاع اجتياح الأراضي إلى الغرب، فستسيطر الأمة على السهول الوسطى من البحر إلى البحر، وهي إمبراطورية شاسعة جداً على نحو لا يمكن تخيله. تاق تسوبودي إلى رؤية الأراضي خلف الغابات الروسية، على طول الطريق إلى البحار الباردة الأسطورية والشعوب البيضاء الشاحبة التي لا ترى الشمس أبداً. مع مثل تلك الرؤية، كان من السهل أن يتخيل خيوط نفوذه تمتد عائدة إليه. وقف تسوبودي وسط مجموعة من السعاة والجواسيس، وكان لديه على امتداد مئات الأميال حول البقعة التي يوجد فيها رجال ونساء في كل سوق، وقرية، وبلدة، وحصن، ولم يكن لدى بعضهم أي فكرة عن أن النقود التي تُدفع لهم تأتي من جيوش المغول. كان بعض مستطلعيه ومخبريه من قبائل تركية، وهم يفتقرون إلى طبقات الجلد حول عيونهم التي تميّز محاربيه، في حين أن آخرين جاءوا من أولئك

الذين حنّدهم تسوبودي وباتو آنذاك أو أرغموا على ذلك. خرج هؤلاء وهم يتركون من رماد كل بلدة، مشردين وبائسين ومستعدين لقبول كل ما يطلبه غرائم منهم في سبيل الحفاظ على حياتهم، وتدفقت فضة الخان مثل نهر عبر أراضي تسوبودي فاشترى معلومات كما يشتري اللحم والملح وغير ذلك، وقدرها أكثر. أدار القائد رأسه حين ظهر باتو عند المنعطف الأخير ودفع حصانه نحو قمة التلة قبل أن يترجل. حدّق باتو إلى الوديان في الأسفل وتعبير الاستياء والملل بساير على وجهه. عبس تسوبودي، إذ لم يكن بمقدوره تغيير الماضي، كما أنه لا يستطيع تحدّي حق أوجيدي الخان في ترقية شاب نكد لقيادة عشرة آلاف؛ رغم أنّ وجود مرافق غير مع الجيش يمكن أن يُلحق به ضرراً بالغاً. كان الشيء الغريب أن تسوبودي واطّب على تدريبه ليكون أكثر مدمر فاعلية على الإطلاق، وبدأ أن الوقت وحده سيمنحه الرؤية والحكمة، وهما الشيطان اللذان كان باتو يفتقر إليهما آنذاك.

جلسا وقتاً طويلاً صامتين قبل أن ينفذ صير باتو كما كان تسوبودي يعرف أنه سيحدث. فلم يكن هناك هدوء لدى المحارب الشاب الغاضب، أو سكينه داخلية. بل كان يستشيط غضباً بشكل مستمر، وقد شعر بذلك كل أولئك الذين حوله.

قال باتو: "لقد جئت يا تسوبودي الباسل". ونطق لقب القائد ساحراً، فجعل صفة الباسل تبدو استهزاءً. "ما الذي لا تراه إلا عينك؟".

رد تسوبودي وكأن لا علاقة له بالأمر، وصوته هادئ قدر استطاعته على نحو يُغيظ: "عندما نتابع تحركنا، لن نستطيع رجالك رؤية التضاريس يا باتو، وربما سيضلّون الطريق، أو تعترضهم عقبة ما. هل ترى تلك الللال المنخفضة هناك؟". نظر باتو إلى حيث أشار تسوبودي.

"من هنا، يمكن أن ترى كيف تمتد معاً تقريباً، وبينها فسحة من الأرض بعرض... ميل، وربما ميلين؛ أربعة أو خمسة أميال بالنسبة إليّ، بحساب مسافات تشن. يمكن إخفاء متين على الجنائين لنصب كمانن. إذا استدرجنا السروس إلى معركة على بعد أميال فقط، فسيعربهم انسحاب زائف إلى تلك الللال ولن يخرجوا منها أبداً".

قال باتو: "هذا ليس شيئاً جديداً. أعرف بشأن الانسحاب الزائف. كنت أظن أن لديك شيئاً مثيراً للاهتمام أكثر ويستحق أن أجعل حصاني يصعد إلى هنا".

أبقى تسوبودي عينيه الهادئتين مسمرتين على الشاب للحظة، وقد بادله باتو النظرة بثقة وقحة.

سأل: "نعم، أورلوك تسوبودي؟ هل من شيء تود قوله لي؟".
رد تسوبودي: "من المهم اختيار الأرض، ثم استطلاعها جيداً بحثاً عن عقبات متوارية عن الأنظار".

ضحك باتو بصوت خافت، وحنق إلى الأسفل مجدداً. وبالرغم من كل تبجحهِ وغطرسته، إلا أن تسوبودي لاحظ أنه يستوعب كل تفصيل من الأرض، وبصره يتحرك ذهاباً وإياباً وهو يحفظها. لم يكن طالباً لطيفاً، لكن ذهنه حاد أكثر من أي شخص عرفه تسوبودي، وبدا صعباً ألا يفكر في والده أحياناً، وبددت الذكريات انسراج القائد.

تابع تسوبودي حديثه قائلاً: "أخبرني، ماذا ترى في فرقنا؟".
هز باتو كتفيه. في الأسفل، استطاع رؤية حمسة أرغال تتحرك ببطء على الأرض، وتطلب الأمر منه نظرة واحدة فقط ليتفحصها.
"نسير منفصلين ولهاجم معاً. خمس أصابع تغطي أكبر مساحة ممكنة من الأرض، ويبقيها السعاة على اتصال ببعضها للرد بسرعة على أي استعراض للقوة. أظن أن جدّي وضع القاعدة، وقد أثبتت نجاعتها منذ ذلك الوقت".

كشّر باتو من دون أن ينظر إلى تسوبودي، وكان يعرف أن القائد مصدر المعلومة التي تسمح لجيش صغير باكتساح مناطق شاسعة، وتدمير بلدات وقري أمامه، وترك أرضاً يتصاعد الدخان منها خلقه. كانوا لا يجتمعون إلا حين يظهر عدو قوي، ويجعل السعاة السريعون مثل السهام الفرق تتسابق مكونة قبضة متلاحمة لتحطيم المقاومة قبل متابعة التقدم.

"بصرك قوي يا باتو. أخبرني ماذا ترى غير ذلك؟".
كان صوت تسوبودي هادئاً على نحو يثير الغضب ووقع باتو في الفخ، وصمم على أن يثبت للرجل المحوز أنه لا يحتاج إلى دروسٍ منه.

تكلم بسرعة، واستخدم يده ليضرب الهواء: "مع كل فرقة، هناك مستطعون في المقدمة في مجموعات من عشرة أشخاص. إلمم بتقدمون ثمانين ميلاً ويبحثون عن عدو. القلب مكوّن من الأسر، والأمتعة، والخيام، والثيران، والجمال، وقسارعي الطبول، وخيام متداعية بالألوان. هناك أدوات كبر متحركة على عربات مزوّدة بعجلات خشبية مدعّمة بالحديد. أظن أنك مسؤول عن هؤلاء أيها القائد. يسير فنية ومحاربون مشاة هناك، ويكوّنون دفاعنا الأخير إذا أثار محاربوننا، وتوجد حولهم قطعان الأغنام والماعز، وطبعاً المظليات الإضافية؛ ثلاثة أحصنة لكل رجل".

تكلم بسرعة كبيرة، مستمتعاً بفرصة إظهار معرفته: "حلف هؤلاء بصطف فرسان الفرقة في صفوف؛ في تشكيلات المئات: أبعد قليلاً، هناك حاجز الفرسان المتقدم، وهم أوائل الذين يتصدّون لأي هجوم بالسهم. أخيراً، لدينا حراس نهاية الفرقة الذين يمشون بثقل على جانبيها ويمكن أن يصلوا إلى المقدمة من دون قيادة جيادهم عبر تشكيلات أي شخص آخر. هل يجب أن أذكر أسماء الضباط؟ أنت الأورلوك تتولّى القيادة العامة؛ كما قيل لي. وأنت لا تتمتع بنسبٍ يستحق الذكر، ولهذا، أنا الأمير الذي يظهر اسمه على الأوامر؛ حميد جتكيز خان. إنه ترتيب غريب، لكننا سنناقشه في وقت آخر. أنا أقود فرقة، مثل القيادة كشيون، وجيسي، وتشولجيني، وغويوك. قادة المئات بترتيب الأقدمية هم...".

قاطعه تسوبودي قائلاً بلطف: "هذا كافٍ يا باتو".

"إلوجي، موكالي، ديجي، تولون، أونغور، بوروكول...".

قال تسوبودي بحدّة: "كفى. أعرف أسماءهم".

قال باتو رافعاً حاجبه: "فهمت. إذاً، لا أفهم ما الذي أردت مني تعلّمه بإضاعة نصف يوم في صعود هذه الصخرة معك. إذا كنت قد اقترفت أخطاء فيجب أن تعرضها عليّ. هل أنا مخطئ أيها القائد؟ هل أغضبتك بطريقة ما؟ يجب أن تخبرني؛ حتى أستطيع معالجة الخطأ".

حدّقت عيناه إلى تسوبودي، وسمح للمرارة التي يشعر بها بأن تظهر للمرة الأولى. سيطر تسوبودي على غضبه، وأحس بأنه يثور داخله فأحكم قبضته على غضبه قبل أن يقضي على شاب لا ذنب له إلا شعوره بالضغينة وغطرسته. كان يبدو مثل جوشي تماماً، وتسوبودي يعرف أن لديه سبباً ليشعر كذلك.

أخيراً، قال تسوبودي مهدوء: "لم تذكر الاحتياطين". ردّاً على ذلك، ضحك باتو بصوت خافت بغيض.

"لا، ولن أفعل. محتوننا البائسون لا ينفعون لشيء إلا لالتقاط قذائف أعدائنا. سأعود إلى فرقتي أيها القائد."

بدأ يدير حصانه، فمدّ تسوبودي يده وأمسك بلجام الحصان. حدّق باتو إليه، لكن، انتابه شعور بأنه لا يجب أن يمدّ يده إلى السيف المعلق على خصره. قال تسوبودي: "لم أمنحك بعد إذناً للمغادرة".

كان وجهه لا يزال خالياً من أي انفعال، لكن صوته أصبح حشناً، وأصبحت عيناه قاسيتين جداً. ابتسم باتو، ورأى تسوبودي أنه على وشك أن يقول شيئاً سيمزق الغاملة المتكلمة بينهما. كان لهذا السبب يفضل التعامل مع ضباط رفيعي المستوى، لديهم فكرة ما عن العواقب، ولا يجازفون بحياتهم في لحظة مزاج سيئ.

تكلم تسوبودي بسرعة وحزم لتوجيهه قائلاً: "إذا انتابني أدنى شك بشأن قدرتك على التقيّد بأوامري يا باتو، فسأعيدك إلى كاراكوروم". بدأ باتو يسحب نفساً، وتلوّن وجهه حين تابع تسوبودي بقسوة: "يمكن أن تقدم شكواك لعمّك هناك، لكنك لن تخرج معي مجدداً. إذا كلّفك باحتلال قلعة، فينبغي أن تدمر فرقتك برمتها بدلاً من أن تفضل. إذا طلبت منك الذهاب إلى موقع، فينبغي أن تجعل أحصنتك تنهار للوصول إليه في الوقت المناسب. هل تفهم؟ إذا عدلتني في أي شيء، فلن تكون هناك فرصة أخرى. هذه ليست لعبة أيها القائد، ولا أهتم برأيك سي، على الإطلاق. الآن، إذا كان لديك شيء تقوله لي، فافعل ذلك".

في سنّ العشرين، كان باتو قد نضج بعد السنوات التي تلت فوزه بسباق الأحصنة في كاراكوروم، فسيطر على غضبه بسرعة أدهشت تسوبودي، وكبح جماح مشاعره وبدهاها، حتى بدت عيناه خاليتين من أي تعبير. أظهر ذلك أنه رجل وليس صبياً، لكن ذلك يجعله خصماً أكثر خطورة.

قال باتو هذه المرة من دون أي سخرية في صوته: "يمكنك أن تثق بي يا تسوبودي الباسل. بعد إذتك، سأعود إلى فرقتي".

أمال تسوبودي رأسه، ودفع باتو حصانه للهرولة عائداً على درب المساعز الذي يؤدي إلى سفح التلة. حدّق تسوبودي خلفه لبعض الوقت، ثم كثر. فكّر في

أن عليه إعادته إلى كاراكوروم. فلو حصل هذا الأمر مع أي ضابط آخر، لأمر بجلده وربطه إلى حصان يجره إلى الديار بطريقة مخزية. لكن، وحدها ذكرباته عن والد باتو وجدته قيّدت يدي تسوبودي. كانا رجلين يُحتذى بهما، وربما يصبح الابن على شاكلتهما، إلا بالطبع إن دفع نفسه إلى حتفه أولاً. كان يجب أن يُمتحن، ويكتسب الثقل الروحي الذي لا يأتي إلا من معرفة حقيقية بالبراعة، وليس من غطرسة فارغة. أوماً تسوبودي لنفسه حين نظر إلى الأراضي أمامه، وعرف أنه سيحظى بفرص عديدة لجعل مزاج الشاب يشتعل غضباً.

كانت الأراضي الروسية شاسعة ومكشوفة، وتناسب نوع الهجوم الذي يفضّله تسوبودي. فحتى بيوت النبلاء هناك وبلداتهم لا يحميها أكثر من سياج من الأوتاد الخشبية. بعضها كانت قائمة منذ عقود أو حتى قرون، لكن آلة حرب المغول تغلبت على عقبات مثل تلك في أراضي تشن، وحطّمت منحنيقاتهم الأسبحة الخشبية القديمة، وسحقت أحياناً أولئك المختبئين خلفها. اضطرت الرماة المغول إلى التلازم مع غابات أكثر كثافة مما شاهدوه من قبل، وتمتد أحياناً آلاف الأميال، ويمكن أن تختبئ فيها قوات عظيمة من الفرسان. كان الصيف الأخير حاراً والأمطار الغزيرة تعني أن الأرض طرية جداً ولا يمكن التحرك فوقها إلى الأمام بسرعة كبيرة. لم يكن تسوبودي يحب المستنقعات قط، لكنه بدأ يكوّن رأياً يتمثل في أنه لو لم يكن قد جاء إليها، لكان حثيئاً قد ارتكب خطأ في الهجوم إلى الشرق، فالأراضي إلى الغرب لا تزال ثمة بانعة، ولم يكن تسوبودي قد رأى حتى هذا الوقت قوة تستطيع تحدي فرقه في أثناء تقدمها فيها. كان اندفاع المغول قد نقلهم مئات الأميال نحو الشمال، وجلب الشتاء ارتياحاً مباركاً من الذباب والمطر والأمراض.

في السنة الأولى، كان قد التزم الجانب الشرقي من لهر فولغا، مفضلاً أن يسحق أي تهديد محتمل من المنطقة التي ستصبح جزءاً من طريق الإمدادات إلى كاراكوروم. وبالرغم من بعد المسافات، إلا أن تدفق الفرسان استمر. كانت أولى محطات الطريق قد بُنيت خلف فرقه، محصنة مثل أي شيء آخر في الأراضي الروسية. لم يكن تسوبودي يهتم بالبنية بالأبنية، لكنها ضمنت حيوياً وأسرجة وقطاعاً وأسرع المظليات لكل ما يحتاج إلى سرعة في نقله.

جمع تسوبودي معظم ضباطه القبايين في صباح يوم ربيعي على مرج بجانب بحيرة مملوءة إوزاً برياً. كان مستطلعوه قد أمضوا الصباح وهم يُوقعون آلاف الطيور في الشباك، أو يجعلونها تظفر ليصطادوها، وانهمكت النساء في المخيمات بتنظيف الطيور وتحضيرها لشيها عند المساء، وتركن أكواماً كبيرة من الريش تُبعثر على العشب مثل زيت مُراق.

راقب باتو باهتمام يخفيه بحرص حين قدّم تسوبودي واحداً من أقوى محاربيه. ولم يكن من الممكن رؤية وجه الرجل تحت خوذة من الحديد المصقول. وكان كل ما يرتديه قد غنمه من أماكن أبعد إلى الغرب. حتى إن الحصان كان وحشاً أدهم مثل الليل، وأعلى عند الكفّين مرة ونصف من أي حصان مغولي، ومثل فارسه، كان مدرّعاً بالحديد؛ من الصفائح حول عينيه إلى الغطاء المصنوع من الجلد القاسي والمعدن لحماية الجزء الخلفي منه من السهام.

نظر إليه بعض الرجال والجشع ظاهراً في عيولهم، لكن باتو ازدري هذا الحيوان. ونظراً إلى ضخامته، ومع مثل تلك الدرع التي تمثل عبئاً كبيراً، كان متأكداً من أنه بطيء؛ على الأقل في الهجوم والدفاع في المعركة.

قال تسوبودي: "هذا ما سنواجهه حين نتحرك غرباً. سنواجه رجالاً في أفضاص حديدية يكوّنون القوة الأخطر في ساحة معركة. ووفقاً لرهبان نصاري في كاراكوروم، لا يمكن إيقافهم في الهجوم، وهم وزن من المعدن والجلد يمكن أن يسحق أي شيء لدينا".

تسمّر الرجال القادة منزعجين، وغير قادرين على تصديق هذا الادّعاء الغريب. وشاهدوا بافتتان تسوبودي وهو يقرب حصانه من الحيوان الأضخم، فبدأ صغيراً بجانب الرجل والحصان، لكنه استخدم اللحم بلطف لجعله يسير حوله في دائرة كاملة.

قال: "ارفع يدك حين تراني يا تانغوت".

لم يمض وقت طويل حتى فهموا، فقد كان مدى النظر الذي كشفه تسوبودي ضيقاً، وفي الأمام فقط.

"حتى مع رفع الجزء الأمامي من الخوذة، إنه لا يستطيع أن يرى شيئاً عند الجانب أو الخلف، وسيكون صعباً بالنسبة إليه أن يستدير بسرعة وهو مدرّع بهذا

الحديد". مدّ تسوبودي يده وضرب بقيضته على درع صدر المحارب التي رتت مثل
حرس.

"صدر الدرع محمي جيداً، وتحتة طبقة من حلقات حديدية، مثل قماش
معدني، وهو يؤدي وظيفة مشابهة لأنواعنا الحربية، لكنه مصنوع لمقاومة الفؤوس
والسكاكين أكثر من مقاومته السهام".

أشار تسوبودي إلى فتى يحمل رماً طويلاً، فجرى الفتي نحو المحارب المدرّع
ورفع الرمح إليه، ثم نقر على ساقه ليلفت انتباهه.

قال تسوبودي: "هذه هي الطريقة التي تُستخدم بها. ومثل أحصنتنا الثقيلة،
لها تدفع ضد العدو مباشرة، وفي الهجوم لا يكون هناك شق أو ثقب في
دروعهم".

أوماً إلى تانغوت، وشاهدوا جميعاً المحارب وهو يتعد على سهولة حصانه
الذي جرى خيباً، ووقعته المعدنية الثقيلة تجلجل مع كل خطوة.

على بعد مئتي خطوة، أدار الرجل حصانه الثقيل الذي انتصب على قائمته
الخلفيتين وأعاد أذنيه إلى الورا. دفع الفارس حصانه بعقبه فاندفع إلى الأمام،
وقوامه الغليظة تطأ الأرض بقوة. رأى باتو كيف أن انخفاض رأس الحصان يجعل
درعي الصدر والمحممة متصلان معاً، وتكونان معاً ترساً لا يمكن اختراقه. انخفض
الرمح، واخترق رأسه الهواء في دوائر حين ركز على صدر تسوبودي.

وجد باتو أنه يحبس نفسه فأطلق زفيراً، منزعجاً من نفسه لوقوعه تحت تأثير
تسوبودي. راقب ببرودة حين وصل المحارب إلى أقصى سرعته، ورمحه سلاح فتاك.
هدرت الحوافر، وانتابت باتو رؤية مفاجئة عن صف من رجال ممائلين يكتسحون
ساحة معركة، فابتلع ريقه لدى تفكيره في ذلك.

تحرك تسوبودي بسرعة، مندفعاً إلى الجانب مع حصانه. شاهدوا المحارب
المدرّع يحاول تصحيح تصويبه، لكنه لم يستطع أن يستدير بتلك السرعة الكبيرة
وتجاوز تسوبودي.

رفع تسوبودي قوسه وشدّ وترها بحركة سلسلة، وسدّد بسهولة. كانت
مقدمة الحصان مدرّعة مثل فارسه، وهناك طبقة من الدرع على طول خط الظهر،
لكن الرقبة مكشوفة وعارية.

اندفع سهم تسوبودي وانغرز في اللحم فضهل الحصان، وخرج دم قانٍ مسن حطمه.

صرخ تسوبودي بصوتٍ يعلو على الضوضاء: "ليسوا محميين مسن الجانبيين بالنسبة إلى رامي سهام جيد". تكلم من دون كبرياء. كان ممدود أي من الرجال الموجودين إطلاق ذلك السهم. اتسموا من فكرة القضاء على مثل هولاء الأعداء الأقوياء بتنفيذ مناورة سريعة وإطلاق السهام.

استطاعوا جميعاً سماع صهيل الحصان المعبّ وهو يحرك رأسه إلى الجانبيين من شدة الألم. وببطء، جثا على ركبتيه فترجل المحارب عنه، ثم ألقى رعبه وشهر سيفاً طويلاً، وتقدّم نحو تسوبودي.

تابع تسوبودي: "لنهزم هولاء الرجال المدرّعين، يجب أولاً أن نقتل الأحصنة. الدرع مصممة لتحتب مسار السهم من الأمام. كل شيء مصنوع ليناسب الهجوم. لكن، على الأقدام، يصبحون مثل السلاحف؛ بطيئين ويفتقرون إلى الرشاقة".

لتوضيح ما يقصده، اختار سهماً سميكاً ذا رأس فولاذي طويل، وبدا شيئاً فظيلاً ومصقولاً ولامعاً، من دون أشواك تخفف سرعته.

رأى المحارب الذي كان يقترب منه ما يفعله فتردّد؛ ولم يكن يعرف الحدّ الذي يمكن أن يصل تسوبودي إليه لتوضيح وجهة نظره، لكنه يعلم أن القائد سيكون قاسياً بالقدر نفسه مع رجل يفقد أعضائه. انقضت لحظة التردد، ومشى المحارب متثاقلاً إلى الأمام، وهو يكافح لرفع قدميه وذراعيه الثقيلة بسرعة حتى يستطيع استخدام سيفه.

قاد تسوبودي حصانه مستخدماً ركبتيه، وجعله يتراجع إلى الخلف بعيداً عن مدى السيف. شدّ الوتر مجدداً، وشعر بالقوة العظيمة حين سحب السهم الذي يبلغ طوله ثلاث أقدام حتى أذنه. وعندما أصبح المحارب على بعد بضعة خطوات فقط، أطلق تسوبودي السهم وراقبه باهتمام حين احترق الصفائح الجانبية.

سقط المحارب بقوة محدثاً جلية معدنية. كان السهم عالقاً في درعه، وظهر الريش بوضوح حين وقع، فكشّر تسوبودي من المنظر.

"إنهم يتمتعون بقوة واحدة فقط؛ حين يشكّلون صفّاً ويواجهون عدواً أمامهم. إذا سمحنا لهم باستخدام هذه القوة، فسيكتسحوننا كما يقصّر المنجل

القمح. أما إذا تفرقنا وتصبنا هم الكمائن، ونقدنا انسحابات وهمية وطوقناهم، فيصبحون مثل أطفال بالنسبة إلينا".

راقب باتو رجال تسوبودي وهم يحملون المخارب المختصر بعيداً متعريفين ورازحين تحت العبء الثقيل. بعيداً، جردوا المخارب من درعه، وكشفوا عن جسد مكسو بثوب مصفح اخترقه السهم. كان عليهم أن يكسروا السهم ليحسروا الصفيحة ويأخذوها إلى تسوبودي.

"وفقاً لأولئك النصارى المتبحرين الذين يتمنون إخافتنا، لم يظهر هؤلاء الفرسان نذ في ساحة المعركة منذ مئة سنة". رفع الصفيحة المعدنية واستطاع كل شخص هناك رؤية ضوء الشمس يلمع عبر الثقب الصغير. تابع قائلاً: "لا يمكن أن تترك قوة رئيسة أو مدينة خلفنا أو إلى جانبنا. لكن، إذا كان هذا أفضل ما لديهم، فستفاجئهم كما أظن".

رفعوا أقواسهم وسيوفهم آنذاك وهم يهتفون باسم تسوبودي. انضم باتو إليهم، حريصاً على ألا يكون الوحيد الذي يعزّد حمارج السرب، ورأى بصير تسوبودي يستقر عليه لبعض الوقت، وظهرت نظرة رضا على وجه القائد حين رأى باتو يهتف باسمه مع الآخرين. ابتسم باتو من فكرة رفع رأس تسوبودي عالياً بمثل تلك الطريقة، لكنها بدت مجرد وهم. كان الجيش قوياً، لكنه يعرف أنه بحاجة إلى تسوبودي لقيادته غرباً ضد جيوش جرارة من الفرسان، وللتغلب على رجال الحديد أولئك. بالنسبة إلى باتو، كان الرجال أمثال تسوبودي مسنين ويقربون من نهاية زمنهم، وستأتي فرصته على نحو طبيعي. لذا، هو لا يحتاج إلى اقتناصها بالقوة.

كان تشاغاي قد بنى قصرأ صيفياً على ضفة نهر جيحون، وكانت إمارته تصل جنوباً إلى كابول. من أجل الموقع، كان قد اختار قمة عالية قرب النهر حيث يهب دائماً تسييم عليل، حتى في أكثر الشهور حراً. كانت الشمس قد جعلته غيلاً وداكن البشرة؛ وكان كل الرطوبة قد تبخرت من جسده، وتركته قاسياً مثل شجرة بتولا قديمة. حكم مدن بخاري وسمرقند وكابول بكل ثرواتها، وقد تعلم المواطنون هناك التعامل مع حرارة الصيف، وتناول أشربة باردة، وأخذ قيلولة بعد الظهر قبل الاستيقاظ مجدداً. قام تشاغاي باختيار نحو مئة زوجة جديدة من تلك

المدن وحدها، وقد أنجبت العديد منهن آنذاك أبناء وبنات. كان قد عمل بتوصية أوجيدي حرقياً لإنجاب جيش جديد، واستمتع بصوت الأطفال وهم يصرخون في غرف المواليد في جناح النساء الخاص به.

انقضت أوقات اشتاق فيها إلى سهول دياره المتجمدة، وكان الشتاء شتياً عابراً في أراضيه الجديدة، مع وعد دائم بالعودة إلى الحياة الخضراء. وبالرغم من أن الليالي كانت أفضل، إلا أن قوم إمارته الجديدة لم يسبق لهم أن عرفوا مفهوم البرد القارس الدائم الذي كَوَّن شعب المغول، والسهول العالية النائية التي يجب على المرء أن يكافح فيها للحصول على كل وجبة، والحياة والموت المفاجئ المرتبطين بمصير المرء. كانت أراضيه تحتوي على بساتين تبن وفاكهة، وتلال غناء، وأثمار متدفقة تفيض كل بضع سنوات ولم تحف بعد من الذاكرة الحية.

كان قصره الصيفي قد بُني وفقاً لمواصفات قصر أوجيدي نفسه في كاراكوروم ومقاييسه؛ بعد أن تم تصغير كل أبعاده بحرص. لم يكن أوجيدي أحمق كما يظن بعضهم، ولم يكن أي خان عظيم ليستمتع ببناء وجود يناقس قصره، وتوحي تشاغاتي الحرص ليقى داعماً بدلاً من أن يكون تهديداً من أي نوع.

سمع خادمه يقترب على طول الرواق الرخامي الذي يقود إلى قاعة الاستقبال المطلّة على النهر. كان التساهل الوحيد الذي أقدم عليه سونتاي بشأن الطقس انتعال خفين مفتوحين مزودين بمسامير حديدية تطلق وتتردد صداها قبل وقت طويل من ظهوره. وقف تشاغاتي على الشرفة وهو يستمتع بمنظر طيور البط السني كانت تحبط لتستقر في مناطق القصب على طول الضفتين. فوقها، حلّق نسر أبيض الذيل في سكون تام، صامتاً وفتاكاً.

عندما دخل سونتاي، استدار تشاغاتي وأشار إلى قارورة على الطاولة. كان الرجلان قد أحبا الشراب الشائع جداً بين المواطنين والمنكّه بطعم اليانسون. استدار تشاغاتي مجدداً ليواجه النهر حين قرع سونتاي الكوبين ببعضهما وسكب الشراب، ثم أضاف بعض الماء فأصبح لونه أبيض مثل حليب الفرس.

أمسك تشاغاتي الكوب من دون أن يشيح ناظره عن النسر الذي يحلّق فوق النهر، وركّز بصره قبالة الشمس الغاربة حين هبط النسر فجأة وانقضّ على المياه وارتفع مجدداً وهو يحمل سمكة تتلوى بين مخالبه. طارت طيور البط فرجة وابتسم

تشاغاني. عندما يرد الهواء في المساء، اكتشف تشاغاني أن حنيناً إلى الوطن ينتابه. كانت تلك أرضاً مناسبة لأولئك الذين سيأتون بعده، وقد كان أوجيدي كريماً.

قال تشاغاني: "لقد سمعتَ الأنباء". كان هذا بياناً لا سؤالاً، فأى رسالة تصل إلى قصره الصيفي يجب أن تمر بين يدي سونتاي في مرحلة ما.

أوما سونتاي مقتنعاً بالانتظار لسماح رأي سيده. ولأولئك الذين لا يعرفونه، كان يبدو مثل أي محارب آخر، لكنه أحدث ندوباً على وجنتيه وذقنه بخطوط واضحة باستخدام سكين كما فعل بعضهم، مما يلقي الحاجة إلى الخلاقة في المعارك. كان سونتاي متسخاً دائماً، وكان شعره كثراً يدهنه بزيت قديم وكرهه الرائحة، وكان يزدي العادات الفارسية في الاستحمام، ويعاني بشوراً وطفحاً منتشرًا، ويبدو بعينه الداكنتين وجسده النحيل مثل قاتل فاس.

قال تشاغاني برفق: "لم أتوقع أن أخسر شيئاً آخر بهذه السرعة". أفرغ الكوب في حلقة وتجمشاً. ثم تابع قائلاً: "مات اثنان، ولم يبقَ إلا اثنان منا". "سيدي، يجب ألا نقف بجانب النافذة لنناقش مثل هذه الأمور. هناك دائماً آذان تسمع".

هز تشاغاني كتفيه، وأشار بكوبه الفارغ. مشى سونتاي معه، والنقطة بمهارة دورق الشراب المنكّه باليانسون حين يتجاوز الطاولة. جلسا وجهاً لوجه إلى طاولة مزخرفة مصنوعة من خشب أسود مطلي بالذهب، من مقتنيات ملك فارسي. لم يكن وضعها في وسط الغرفة ثماماً رمزياً، فسونتاي يعرف أن أي شخص مرهف السمع لا يمكن أن يصغي إليهما بأن يضع أذنيه على الجدران الخارجية. كان يشك في أن أوجيدي لديه جواسيس في القصر الصيفي الجديد؛ تماماً كما وضعهم سونتاي مع تسويدوي وأوجيدي وخاسار وكشيون، وكل الرجال القادة السدين استطاع الوصول إليهم. كان الولاء لعبة صعبة، لكنه أحبها.

قال سونتاي: "لدي تقارير عن التوبة التي عاناها الخان. لا يمكنني القول إلى أي حد اقترب من الموت من دون مقابلة الضالع الذي اعتنى به، لكنه ليس أحد رجالي لسوء الحظ".

"مع ذلك، يجب أن أكون جاهزاً للحركة عند بغيء أول ساعٍ على جواد يجري بأقصى سرعته". بالرغم من موقع الطاولة، إلا أن تشاغاني لم يستطع مقاومة

الرغبة في النظر حوله ليتأكد من أن لا أحد يسمعه، وانحسني إلى الأمام وصوته خافت جداً.

"استغرق الأمر تسعة وأربعين يوماً لأسمع بالأمر يا سونتاي. هذا ليس جيداً، وإذا كنت أريد الحصول على الإمارة العظيمة، فيجب أن أحظى بأخبار أفضل وأسرع. عندما يقع أوجيدي في المرة القادمة، أريد أن أكون هناك قبل أن يبرد جسده، هل تفهم؟".

مسّ سونتاي جبينه وفمه وقلبه بأطراف أنامله في إشارة إلى الاحترام والطاعة. "إرادتك تقودني يا مولاي. أصيب أحد أقرب خدمي في رحلة صيد بريسة، وقد استغرق الأمر مني وقتاً لاستبداله في حاشية الخان العظيم. على كل حال، لدي رجالان آخرون جاهزان لتبيل ترقية ليكونا من بين موظفيه الشخصيين. بعد بضعة شهور فقط، سيكونان جزءاً من مجالسته الداخلية".

"افعل ذلك يا سونتاي. لن تسنح لنا إلا فرصة واحدة فقط لتولي زمام المبادرة. لا أريد أن يجمع ابنه الضعيف القبائل قبل أن أقصرف. اخدمني جيداً في هذا وسترتقي معي. أمة والدي قوية جداً بالنسبة إلى شخص لا يستطيع السيطرة على شيء، حتى على جسده".

ابتسم سونتاي قليلاً، وفرك جلد وجنتيه المتغضن البشع، ومنعته خيرة السنين من الموافقة على الخيانة، أو حتى من الإيماء برأسه. كان قد أمضى وقتاً طويلاً مع الجواسيس والمخبرين ولم يتكلم قط من دون أن يزن كلماته بحرص شديد. كان تشاغاتي معتاداً على صمته، وملاً الكوبين مجدداً، وأضاف بعض الماء الذي يخفف من الطعم المرّ قليلاً.

قال تشاغاتي: "لنشرب نخب شقيقي تولي".

نظر سونتاي إليه عن كثب. لكن، كان هناك ارتياح حقيقي في عينيه. رفع المسؤول عن جواسيس الخان كوبه وأخفض بصره.

تابع تشاغاتي: "كان سيجعل والدي فخوراً بمثل تلك التضحية. وبالرغم من أن هذا جنون، إلا أن هذا الأمر بالنسبة إلى أب السماء جنون مجيد".

شرب سونتاي، مدركاً أن تشاغاتي كان يشرب معظم النهار آنذاك، وبداً ذلك واضحاً من عينيه المحترقتين وحركاته الثقيلة. ومقارنة به، اكتفى سونتاي بأن

يرتشف القليل من كوبه، وغصّ تقريباً حين ربت نشاغاني على كتفه وضحك، فأراق السائل الأبيض على القماش.

"الأسرة كل شيء يا سونثاي، ولا تظن أهدأ أنني نسيت ذلك...". شرد، واستغرق في الذكريات لبعض الوقت، ثم تابع قائلاً: "لكنني كنت خيار والسدي لأخلفه. مرّ وقت كُتب فيه مصري علي حجر ونُقش عميقاً. والآن، يجب أن أفعل هذا بنفسني. لكن، هذا ليس أكثر من تحقيق أحلام الرجل العجوز".

قال سونثاي، وهو يعيد ملء كوب نشاغاني: "أفهم يا مولاي. إنها غاية تستحق إنجازها".

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل السادس عشر



كان تسوبودي واثقاً تقريباً أن هطول المطر لن يدوم، فقد بدت قوة قطرات المطر مدهشة وهي تنهمر على فرقه. كانت السماء سقفاً من غيوم سوداء، والبرق يومض من دون انتظام فيكشف عن صور ساطعة من ساحة المعركة. لم يكن تسوبودي ليقا تل في مثل هذا اليوم لو أن العدو لم يتحرك إلى الموقع في الظلام. كانت تلك حركة شجاعة، حتى بالنسبة إلى فرسان يمتطون جيادهم وهم مسلحون مثل محاربه.

كان لهر فولغا وراءهم، وقد استغرق الأمر سنة أخرى لتأمين الأراضي خلف النهر، وهي السنة الثانية التي تنقضي منذ أن غادروا كاراكوروم. كان قد اختار أن تكون حملته شاملة، وأن يلسع الرجال الكبار، ويهاجم بلداتهم ومدنهم المحصنة على جبهة واسعة حتى يجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاتحاد ضده. وبذلك الطريقة، يمكن لفرقه أن تدمرهم جميعاً، بدلاً من تمضية سنوات في مطاردة كل دوق ونبيل أقل شأنًا، أو مهما كانت التسميات التي يطلقونها على أنفسهم. طوال شهور، كان تسوبودي قد رأى غرباء يراقبون فرقه من قسم الستلال، لكنهم يتوارون عن الأنظار حين يتحداهم، ويختفون في غابات كثيفة. بدأ أن سادهم لا يعرفون الوفاء لبعضهم بعضاً، ووجد نفسه مرغماً في بعض الأحيان على القضاء عليهم الواحد تلو الآخر. لم يكن ذلك كافياً، ولم يجرؤ على ترك مدينة أو جيش رئيس سليماً من أجل تغطية مساحة الأرض التي يريدها. كانت تلك شبكة معقدة من التضاريس والمعلومات، وأصبحت إدارتها أصعب مع مرور كل شهر، وبدأ رأس حربه يتسع أكثر فأكثر، وموارده تتمدد، واحتاج إلى المزيد من الرجال.

كان مستطلعهوه قد خرجوا أمامه كالمعتاد في تتابع متواصل، لكن بعضهم - من دون سابق إنذار - لم يعودوا منذ بضعة أيام. وعندما فقد أولهم، استعد تسوبودي للهجوم، وانقضى يومان كاملان تقريباً قبل أن يظهر عدوه في مرمى البصر.

كان الظلام لا يزال حالكاً وزخات المطر البارد تضرب جلودهم حين صدحت أبواق التحذير، وانتقلت من رجل إلى آخر. كانت فرق المغول قد اتحدت معاً على بعد أميال، وكونت كتلة واحدة من الخيول والهارين. لم يكن هناك تخيم منفصل ومحدد لأولئك الذين لا يُحسنون القتال؛ بدءاً من الأطفال ووصولاً إلى النساء العجائز في العربات، فضّل تسوبودي أن يتحركوا في أمان الجيش الرئيس. اتخذ فرسانه مواقع على الجوانب، وكل رجل منهم يخفي قوسه ويخشى اللحظة التي سيضطر فيها إلى إطلاق سهام في المطر. كانوا جميعاً يحملون أوتاراً إضافية، لكن المطر أفسدها بسرعة، ومدّد القطع الجلدية وسلب السهام قوتها.

كانت الأرض طرية وموحلة سلفاً حين بزغ ضوء الصباح الرمادي تدريجياً، وعرف أنها ستعيق حركة العربات. بدأ تسوبودي ينظّم طوقاً من العربات خلف ساحة المعركة، واستمر طوال الوقت يجمع المعلومات. كان الكثيرون من مستطلعيه قد لقوا حتفهم، لكن آخرين كافحوا لجلب الأنباء إليه، فوصل بعضهم جرحى، وكان هناك سهم يبرز من ظهر أحدهم قرب الكتف. قبل أن يستطيع تسوبودي حتى رؤية الأفق، كان قد قدر أعداد العدو الذي كان يتحرك نحوه بسرعة محسّطراً ليفاجئ فرق المغول، ويقاوم كلاً منها على حدة.

ابتسم من تلك الفكرة. لم يكن رجل قبائل همجياً ليفاجأ مع طلوع الفجر، ولم يكن من الممكن تمزيق رجاله بشن هجوم مباغت عليهم. كان النبلاء الروس يتصرفون مثل مثل يصدُّ غازياً؛ من دون أن يتوقفوا للتفكير.

تحركت الفرق بسهولة في التشكيل، وكل جاعون من مئة عشارب يتبع الفرق الأخرى في الظلام، وتقدمت الفرق وتراجعت للحفاظ على مواقعها. تحدّث القادة الخمسة إلى تسوبودي تباعاً وأصدر إليهم الأوامر من دون تردد، وتفرّقوا على سهوات جيادهم التي انطلقت بأقصى سرعتها لينقلوا الأوامر على طول سلسلة القيادة.

كان من عادات تسوبودي استجواب الأسرى؛ إذا لم يشتري الذهب ما يحتاج إليه. كانت موسكو أمامهم، وهي مركز القوة في الإقليم، وقد حدّد الأسرى موقعها على لهر موسكوف، وكان تسوبودي يعرفه أيضاً. بدأ أن كسل السروس متغطرسون، ويعتبرون أنفسهم سادة السهول الوسطى؛ الأمر الذي جعل تسوبودي يتسم لنفسه مجدداً.

كان هطول المطر الغزير قد بدأ بعد أن شن فرسان العدو هجومهم، لكنهم لم يتوقفوا بالرغم من ذلك، وبدأ أن الأرض الطرية ستعيقهم مثلما ستعيق محاربيهم. كانت فرقه أقل عدداً - كما هي الحال دائماً - والقوات الاحتياطية التي ازدهاها باتو جيدة بشكل كافٍ لتدافع عن الجناحين وتمنع تطويقهم. وقد طلب تسوبودي من أفضل رجاله تدريبها باستمرار، وأقاموا سلاسل قيادة. كانوا آنذاك أكثر ممن مجرد حشد من الفلاحين، ولن يضحى بهم من دون سبب وجيه. وبالنسبة إلى عينيه الخبيرتين بدت تشكيلاتهم من الجنود المشاة غير منضبطة مقارنة مع انضباط فرقه، لكن أعدادهم كبيرة، ويقفون في الطين حاملين قهوساً وسيوفاً وتروساً.

كان تسوبودي قد أصدر أوامره، وظلّ ما تبقى مرتبطاً بالأفراد القيسادين، ورجاله يعرفون أن الخطط يمكن أن تتغير خلال لحظة إذا لظهر عامل جديد، ويمكن أن تسري موجة الأوامر مجدداً وتتغير التشكيلات بسرعة لا تمكن العدو من التصرف.

لم يسطع الضوء من بين الغيوم، وأصبح المطر فحاة أشد غزارة، بالرغم من أن الرعد هدأ لبعض الوقت. وبحلول ذلك الوقت، استطاع تسوبودي تمييز فرسان يتحركون على التلال ويبدون مثل لطححة. قاد حصانه إلى جانب فرقه كي يتوسّق من كل تفصيل، في حين كان الساعة ينتقلون مسرعين عبر الميدان. ولولا المطر، لكان قد قسم قواته وأرسل باتو إلى أحد الجانبين لتطويق العدو أو محاصرته. ولكن، وفقاً لحلمهم آنذاك، كان قد اختار أن يظهر بطيماً وأحرق وهو يقود حشداً واحداً من المحاربين الذين يندفعون على غير هدى إلى العدو؛ لأن هذا ما سيتوقعه الروس من فرسان مدرّعين.

نظر تسوبودي إلى حيث يوجد باتو مع فرقته، وظهر موقع الشاب واضحاً في الصف الثالث؛ تحدده مجموعة من الراهات، لكن تسوبودي عرف أنه ليس هناك.

كان هذا ابتكاراً أيضاً، فالجيوش تركزت سهامها على الضباط والملوك، وقد أصدر تسوبودي الأوامر لكشف تلك المواقع بالرايات، على أن يكون القادة على أحد جانبي الصفوف. كان حملة الرايات يرتدون دروعاً ثقيلة ومعنواهم عالية لاعتقادهم أنهم يخدعون العدو بمثل تلك الطريقة.

مست كتلة من الطين البارد التي قذفها حافر الحصان وجنة تسوبودي فمسحها. لم يكن الروس بعينين أكثر من ميل، وأجرى الحسابات في ذهنه مع اقتراب الجيشين من بعضهما. ماذا يمكن أن يفعل غير ذلك؟ كثر من تلك الفكرة. كان نجاح الخطة يعتمد على التزام باتو بأوامره. لكن، إذا فشل القائد الشاب أو تمرد، فسيكون تسوبودي مستعداً. لن يمنح باتو فرصة ثانية، بغض النظر عن هوية والده وجدّه.

توقف هطول المطر من دون سببٍ إنذار، وامتلاً الصباح فجأة بأصوات الخيول والرجال، وأصبحت الأوامر واضحة بعد أن كانت مكتومة. كان الأمير الروسي قد وسع خط الجبهة حين رأى أعدادهم مستعداً لتطويقهم، وبدت إحدى الخاضعتين الروسيتين تكافح للحاق بالباقيين على الأرض الموحلة، وحيولها تغوص في الطين وترتفع مجدداً. كان هذا ضعفاً، فأرسل تسوبودي مستطلعين إلى قادته للتوثق من أنهم قد لاحظوا ذلك.

أبقى الفرق معاً على بعد ثمانية خطوات عن العدو، وهذه مسافة بعيدة جداً ولا يمكن أن تصل إليها السهام، في حين سيترك المدفع في الخلف في أثناء التقدم على مثل هذه الأرض الطرية. رأى تسوبودي أن الخاضعتين الروسيين يحملون رماحاً وأقواساً، لكنه لم يستطع رؤية الخيول الضخمة التي يمتطيها فرسان مدرعون، وبدأ أن ذلك النبيل الروسي يفضل الدروع الخفيفة والسرعة على القوة، مثل تسوبودي نفسه. عرف تسوبودي أنه إذا كان الأعداء يفهمون حقاً تلك القدرات، فسيكون التغلب عليهم صعباً. لكن، لم تظهر عليهم أي علامة تشير إلى مثل هذا الفهم. كانوا قد رأوا قواته الأقل عدداً تتحرك ببطء في كتلة واحدة، وأياً يكن قانسدهم، فقد اختار تشكيلاً بسيطاً لسحق رجال قبائل ورعاة.

على بعد أربعين خطوات، طارت السهام الأولى عالياً، أطلقها حمقى يافعون يفترقون إلى الخيرة على كلا الجانبين، لكن أباً منها لم يصب رجاله، وأخفى معظم

بحاربه أوتار أفواسهم، وأبقوها مغطاة حتى اللحظة الأخيرة. إذ لم يكن رجاله الذين يصنعون أفواسهم سيخاطرون بتدميرها نتيجة انقصاص أوتارها، فالأسلحة ثمينة، وهي أحياناً الشيء الوحيد القِيم الذي يمتلكونه إضافة إلى الحصان والسرّج.

رأى تسوبودي الأمير الروسي الذي يقود القوات. ومثل موقع باتو الزائف، كان محاطاً برايات وحرّاس، غير أنه لم يكن بالإمكان إغفال الحصان الضخم في وسط الجيش، وفارسه الذي يجلس مرتدياً درعاً تلمع مثل الفضة تحت المطر. كان رأس الرجل مكشوقاً، وعلى بعد مئتي خطوة استطاع تسوبودي أن يصرى بعينيه الثاقبتين لحية شقراء. أرسل فارساً آخر إلى باتو ليتوثق من أنه قد لاحظ ذلك الرجل، لكن هذا لم يكن ضرورياً، فعندما ابتعد الساعي مسرعاً، رأى تسوبودي باتو وهو يشير بيده ويصدر الأوامر إلى قائده.

قصف الرعد مجدداً فوق رؤوسهم ورأى تسوبودي للحظة آلاف الوجوه المضاءة في صفوف العدو حين نظر الرجال إلى الأعلى، وأدرك أن الكثيرين منهم ملتحون. ومقارنة بالوجه المغولي الذي لا يبت في شعير كثيف، كانوا مثل دبة ضخمة تقرب منهم ببطء. طارت السهام حين أطلق فرسانه آلافاً منها عالياً في الهواء. وبالنسبة إلى السهام الأولى، استخدم كل رجل من بين عشرة رأساً يصفر منحوتاً ومحرّزاً ليصدر صوتاً عالياً في الهواء. كانت هذه السهام تُوقع ضرراً أقل من السهام ذات الرؤوس الفولاذية، غير أن صوتها كان مرعباً وبصم الأذان. في الماضي، انفرط عقد الجيوش، وهرب المقاتلون من الوابل الأول. كثر تسوبودي لدى سماعه الطبول تفرغ نغمتها الخاصة في انسجام مع العاصفة التي تتضائل إلى الشرق.

تقرّست السهام إلى الأعلى، ثم انخفضت بقوة، ولاحظ تسوبودي الطريقة التي يحمي بها الروس القائد الأشقر بالثروس، متجاهلين سلامتهم. سقط بعض حرّاس الرجل، لكن بدا أن التقدم الثابت أصبح أسرع بعد ذلك، وتقلّصت المسافة بينهم بسرعة. أطلق فرسان المغول عاصفة أخرى من السهام قبل أن يتراجعوا في اللحظة الأخيرة ويسمحوا لحملة الرماح بالتقدم عنهم. كانت تلك لحظة جنون باتو، كما أمر تسوبودي تماماً، وسيتحدى حفيد جنكيز القائد الأشقر شخصياً، وسيوقع الفارس المدرّع بالحديد مثل هذا العمل.

صدحت الطبول الضخمة، وحنّت القرع حين ضرب فتیان الجمال الفسّور الضخمة على كلا الجانبين. وعندما دفع أفراد فرقة باتو جيادهم للسير حياً لتنظيم تشكيل الحربة، وانطلقوا أمام الفرق، صاح المخاربون بصرخة مجلجلة تبث الرعب في القلوب.

الهمرت السهام من الفرسان الروس، وسقطت بكثافة على حاملي الرايات في الصف الثالث من التشكيل الرئيس الذي تحيط به أعلام خفاقة، لكنّ هؤلاء رفعوا تروسهم فوق رؤوسهم وثبتوا في أماكنهم. وأمامهم، قاد باتو ثلاثة آلاف رجل في هجوم على قلب القوة الروسية.

راقب تسوبودي ما يجري بهدوء، راضياً لأن أعصاب الشاب على قدر المهمة. كان رأس الحربة سيحقق هدفاً واحداً فقط. شاهدتهم تسوبودي وهم يفتحون ثغرة في الصفوف الروسية بواسطة السهام، ثم يندفعون مستخدمين الرماح ومتوغّلين عميقاً. كان القائد الأشقر يشير إليهم، وصرخ على رجاله حين رمت قوات باتو الرماح المكسورة وشهر أفرادها السيوف المقوسة قليلاً والمصنوعة من الفولاذ الصلب. سقط رجال وخيول، لكنهم استمروا بالندفاعهم، وقيل أن تخفي عن الأنظار بين الحشود، رأى تسوبودي باتو عند رأس الحربة الدامي وهو يدفع خصائه إلى الأمام.

استشاط باتو غضباً وهو يضرب وجهاً يزار، وحرّك نصل سيفه في فم الرجل فتدلّى فكّه رخواً. ألمته ذراعته التي تحمل السيف، لكن دمه كان يغلي، وشعر أن بمقدوره المقاتلة طوال اليوم. كان يعرف أن تسوبودي يراقبه؛ هذا التكتيكي القاسي، أورلوك باهادور الذي يضحى باخاريين وكانهم لا شيء بالنسبة إليه. حسناً، سيرى الرجل العجوز كيف يتم الأمر.

توغلت قوات باتو الهجومية في صفوف الروس مستهدفةً الأسمير وراياته الطويلة. انقضت لحظات استطاع فيها باتو رؤية المخارب الأشقر ودرعه اللامعة، والذي لا بدّ أنه عرف أنهم قادمون إليه، مخاطرين بكل شيء للقضاء عليه. كان هذا هو نوع الهجوم الذي يمكن أن يشنه جيش روسي.

كان باتو يعرف الخطة الأصلية، وقد أطلعه تسوبودي عليها قبل أن يكلفه بمهمته التي تقضي بأن يضرب بقوة حتى يبدأ الروس بالإحاطة برجاله، وأنذاك فقط

يمكنه أن يشق طريقه إلى الخارج مجدداً. ابتسم لنفسه بمرارة، فلم يكن من الصعب أن يدعى الذعر في تلك المرحلة. سيجعل الانسحاب الوهمي القلب المغولي ينهار، وستدب فيه الفوضى مع تراجع الفرق. سيحذون فرسان العدو عبر جناحي الجنود المشاة بعيداً، وسيجعلونهم ينتشرون فوق الأرض، ثم سيغلقون فكّي الملزمة عليهم. وإذا نجا أي منهم من الفخ، فستضربهم قوات كشيون الاحتياطية المختبئة على بعد ميلين خلفهم في غابة كثيفة من كلا الجانبين. كانت تلك خطة جيدة، إذا استطاعت القوات الاحتياطية الدفاع عن الحاصرتين، وإذا نجا باتو. عندما ضرب بسيفه حد جوادٍ محدثاً جرحاً كبيراً فيه، تذكر التحدي في عيني القائد حين أصدر الأمر له. لم يكن باتو قد أظهر له أيّاً من الغضب الشديد الذي يعمل داخله. كان اختيار تسوبودي له أمراً طبيعياً، فلم يكن أحد غيره شوكة في خاصرته منذ عدّة شهور! كان ضباط فرقة قد تبادلوا نظرات الإذعان حين سمعوا الأوامر، ولكنهم بالرغم من ذلك لم يترددوا في إنجاز المهمة؛ ولم يتخاذل أي منهم عن الانطلاق مع حفيد جنكيز.

شعر باتو بالغضب مجدداً حين فكّر في ولانهم الضائع سدى. كم اقترب من العدو؟ هل اقترب مني خطوة؟ أم ثلاثه؟ أم أكثر؟ احتشدوا حوله، وسيوفهم هتت، وتروسهم تتلقى ضرباته، ومرّت سهام من أمام وجهه. كانوا يرتدون دروعاً جلدية، لكنّ سيفه حاد بشكلٍ كافٍ لاختراقها بطعنة، أو حتى لتمزيقها في أثناء مروره بهم. لذا، كان يتركهم وهم يشهقون بسبب أضلاعهم التي تنزف دماً. لم تكن لديه فكرة عن الوقت الذي أمضاه في الاندفاع إلى الأمام بين الفرسان والخيول، بعيداً أكثر فأكثر عن الأمان والفرق، وكل ما يعرفه هو أن عليه اختيار اللحظة المناسبة جيداً. إذا تعجّل، فسيشعر الروس بالأكيدة وسيغلقون صفوفهم خلفه ببساطة. وإذا تأخر، فلن يبقى عدد كافٍ من المحاربين المنهكين لتنفيذ الانسحاب الوهمي. كان رجاله قد اختاروا اللحاق به إلى فم الوحش، ليس بسبب تسوبودي، وإنما من أجله. شعر بأن هجومه يتباطأ بعد أن أحيط بالمحاربين المغول. وكانت كل خطوة تجلب المزيد من المقاتلين الروس إلى خاصرته، فتتعدد قواهم على مساحة أوسع، مثل إبرة تنفرز بقوة في قطعة لحم. شعر باتو بالخوف الشديد، وأمسك ترساً من الجلد والخشب وشده نحو يده اليسرى، وطعن من فوقه الرجل خلفه. دفع

السيف في حسد الرجل بغضب شديد ثم ضربه بالمقبض، فترجع العدو إلى الخلف ووجهه ملطخ بالدم.

بقي ثلاثة محاربين في الصف معه حين دفع حصانه أربع خطوات أخسرى إلى الأمام، وقتل رجلاً ليفسح المجال أمام حصانه. ومن دون سابق إنذار، اختفى أحد مرافقيه، وتبين أن سهماً أصابه في حنجرته وسقط إلى الخلف على سرجه فصهل الحصان وركل بخوافه وذعره يزداد. كان الوقت قد حان بكل تأكيد، ونظر باتو حوله. هل فعل ما يكفي؟ شعر بالألم الناجم عن ضرورة اتخاذ القرار المناسب. لم يكن بمقدوره التراجع باكراً جداً ومواجهة تعبير تسوبودي الصارم. كان يفضل الموت على أن يعتقد ذلك الرجل أنه قد فقد أعصابه.

كان النظر إلى عيني رجل عرف جنكيز صعباً على الدوام. كيف يمكن أن يتلاءم مع تلك الذكريات؟ الجد الذي صهر أمه، ولم يعرفه باتو قط. الوالد الذي خان الأمة وقُتل مثل كلب في الثلج. كان ذلك وقتاً آخر.

تلقى باتو ضربة على ذراعه المدرعة، فلم يصب بأذى، في حين أصيبت ذراع مهاجمه بجرح بليغ. لطخته المزيد من الدماء، وسمع صراخاً في كل مكان. ظهر الروس الذين واجههم شاحيين غضباً أو خوفاً، وحاملين تروساً ثقيلة مملوءة سهماً مغولية. استدار باتو لبدأ الانسحاب، وفي لحظة واحدة، رأى عبر صفوف الأعداء القائد الأشقر يجلس مهدوء وهو يراقبه، وكان قد شهر سيفه الضخم.

لم يتوقع تسوبودي قط أن يتوغل رأس الحربة إلى ذلك الحد. رأى باتو أن رجاله مستعدون ليشقوا طريق العودة. وبالرغم من أنه لم يكن يحمل أي إشارة تدل على رتبته - الأمر الذي كان سيحمله هدفاً لكل رام روسي - إلا أن محاربيه راقبوه، وحاطروا بحيواتهم ليدفعوا عنه. كان معظم الروس لا يزالون يواجهون المقدمة، حيث تشتبك الفرق معهم صارخةً ومطاردةً. لكن باتو ظن أن رجاله سيفظفرون بالنصر حين تبدأ الفوضى. كان قريباً جداً. من كان يظن أن انسداد رأس الحربة يمكن أن يصل إلى الأمير الروسي؟

سحب باتو نفساً عميقاً، وجار محذراً رجاله: "لن ننسحب!".

دفع ردي حصانه بعقبسي حذائه فاشرباً حصانه على قائمته الخلفيتين وهو يركل بقائمته الأماميتين. اندفع باتو إلى الثغرة ضارباً بسيفه بقوة. أصابه شيء من

الجانب، وشعر بموجة ألم سرعان ما تلاشت قبل أن يعرف إن كانت خطيرة. رأى القائد الأشقر يرفع سيفه وترسه، وصهل الحصان الضخم. كان الأمير الروسي قد قرر عدم الانتظار، واستشاط غضباً من التحدي. تنحى حملة المتاريس الذين كانوا يقفون حوله جانباً، واندفع حصان الحرب إلى الأمام.

صاح باتو وهو يشعر بالإثارة، وهذر تحقيراً وغضباً. لم يكن يعرف إن كان بمقدوره اختراق الصفوف المتماسكة الأخيرة، لكن الأمير نفسه تقدم عبر الفرسان الوقحين. رأى باتو سيف الرجل يرتفع خلف كتفه، وأصبح الحصانان وجهاً لوجه، لكن حصان باتو كان منهكاً ومصاباً بكدمات نتيجة الحركة المستمرة، وبآلاف الخدوش والجروح الناجمة عن الجري عبر خط القتال.

رفع باتو سيفه عالياً محاولاً أن يتذكر كلمات تسو بودي عن ضعف الفرسان. بدا الرجل الأشقر الملتحي مثل عملاق حين اقترب منه. وكان مغطى بالفولاذ ولا يمكن إيقافه. لكنه لم يكن يعتمر خوذة، وباتو شاب وسريع. عندما نزل النصل الروسي نحوه بقوة تكفي لشطره إلى نصفين، دفع باتو حصانه إلى اليمين، بعيداً عن السيف الساحق، وضرب بسيفه بقوة وهو يمدد بعيداً بشكل كافٍ ليصل إلى حنجرة الرجل خلف لحيته.

أطلق باتو لعنة حين كشط سلاحه المعدن. وبالرغم من أنه اقتطع جزءاً من اللحية، إلا أن الرجل نفسه لم يُصب، لكنه حار مذهولاً. كان الحصانان يصرخان في مساحة ضيقة عاجزين عن التحرر من ذلك الوضع، وقد أصبح كلا الرجلين واقفين جنباً إلى جنب، وجانبهما الأيسر الأضعف مكشوقاً. ارتفع سيف الأمير مجدداً، لكنه كان بطيئاً وثقيلاً، وقبل أن يستطيع تسديد ضربة، كان باتو قد ضربه ثلاث مرات على وجهه فحرج وحتيته، وبتز جزءاً من فكه، فترنح الأمير الروسي حين ضرب باتو درعه، واتبعت الصفيحة المعدنية التي تحمي صدره.

أضحى وجه الأمير ملطخاً بالدماء، وأسنانه مكسورة، وفكّه يتدلّى رخواً. كان سيموت بالتأكيد من مثل هذا الجرح الفظيع الذي أصيب به، لكن عينيه ومضتا، وحرك ذراعه اليسرى المدرعة بالحديد مثل عصا، وضرب باتو على صدره. كان باتو يقود حصانه بضغط من ركبتيه ولم يكن لديه لجام بمسكه. أنقذه قربوس السرج الخشبي العالي، ودار بزواية مستحيلة. بدا أنه فقد سيفه، ولم

يتذكر أنه أفلته من يده. سحب سكيناً من غمده على ساقه وهو يستشيط غضباً، وقرزها في الفوضى الحمراء لفك الأمير، وحركها يمناً ويساراً على اللحية الشقراء التي كانت كثيفة وتلمع بلونٍ أحمر.

سقط الأمير أرضاً، وتعالّت صرخات الرعب من حملة راياته وخدمه. رفع باتو كلتا يديه ابتهاجاً بالفوز، وجأر وقتاً طويلاً وبصوتٍ عالٍ؛ لأنه حي ومنتصر. لم يكن يعرف ما يفعله تسوبودي، أو ما سيظنه القائد به. كان هذا قرار باتو وقد واجهه الأمير، لكنه هزم عدواً قوياً وشديد البأس، ولم يهتم لبعض الوقت إذا قتله الروس. كانت تلك لحظة باتو وقد استمتع بها.

في البداية، لم يرَ الموجة التي سرت عبر صفوف الروس مع انتشار النبا. وفي ما يتعلق بنصف الجيش، حدث ذلك في الخلف، وانتقل خبر وفاة الأمير صراخاً من وحدة إلى أخرى. وقبل أن يخفض باتو ذراعيه، كان بعض النبلاء الأبعد قد أداروا أحصنتهم وبدأوا ينسحبون آخذين آلافاً من الفرسان النشيطين معهم. شاهدتهم أولئك الذين حاولوا الاستمرار بالقتال يذهبون، فصرخوا غاضبين في ساحة المعركة، وأطلقوا أبواقهم. كان الأمير ميتاً، وكانت جيوشه مدهولة من نذير الشوم ذلك. لم يكن هذا يومهم المنشود، لم يكن يوم انتصارهم، وتحولوا من مقاتلين عاقدي العزم إلى رجال خائفين حين سمعوا النبا، وتراجعوا عن فرق تسوبودي ليحشدوا قواهم، بانتظار أن يتولى شخص آخر القيادة.

غير أن هذا لم يحدث. فقد أرسل تسوبودي وحدات انطلقت على طول الجناحين، فيما الجياد الهزيلة تقذف كتلاً من التراب مثل المطر في أثناء عَدْوِها. انهمرت سهام على الصفوف الروسية مرة أخرى، وانفصلت أحصنة تسوبودي الثقيلة عن المقدمة ثم عادت إليها مجدداً على شكل رؤوس حراب مثل تلك التي قادها باتو إلى قلب الجيش الروسي. شنت ثلاث هجمات منفصلة على الصفوف المتقدمة، وبدا واضحاً أن المدافعين يفتقرون إلى الحماسة، فقد رأوا قوادهم من النبلاء يغادرون، والأفواج والوحدات تبدأ بالانسحاب. لم يكن من الممكن الطلب منهم البقاء والتعرض للقتل. فرّ المزيد من الروس وهم ينظرون إلى الخلف نحو القلب الذي يتكمش حيث لا يزال رفاقهم يقاتلون ويموتون. كان ذلك كافياً، فقد مات الأمير وفعلوا ما في وسعهم.

راقب تسوبودي مهدوء الهيار الجيش الروسي، وتساءل عما سيحدث لفرقه إذا رآته يسقط، لكنه كان يعرف الجواب. كانوا سيمضون قدماً، ويثبتون في مواقعهم. في الفرق، لم يكن المحاربون يرون قادتهم كثيراً، ولا يعرفون جيداً إلا قائد الفرقة، وهو رجل انتخبوه من بينهم. كانوا يعرفون شكل ضابط المئة، وربما حتى قائد الألف، وأولئك الذين يمثلون السلطة، وليس أي قائد بعيد. عرف تسوبودي أنه إذا سقط، فسيكمل الجيش مهمته ويعين قائداً آخر مكانه. هذا هذا عملاً بارداً، لكن البديل يتمثل في أن يشاهدوا تدمير جيش نتيجة موت شخص واحد.

أرسل تسوبودي سعاة إلى قائده مهتناً إياهم ومُصدراً أوامر جديدة. تساءل إن كان أولئك الذين غافروا الميدان يتوقعون أن يتحركهم بغادرون، ولم يكن بمقدوره أن يفهم دائماً الجنود الأجانب الذين يواجههم، بالرغم من أنه تعلم كل ما يستطيع عنهم. كان يعرف أن بعضهم ربما يتوقعون أن يعودوا إلى بيوتهم؛ لكن بدت تلك حماقة من جانبهم. لماذا تترك رجالاً قد يواجهونك مجدداً يوماً ما أحياء؟ كانت الحرب مثل لعبة، وتسوبودي يعرف أنها ستكون مطاردة طويلة تستغرق أسابيع وشهوراً أيضاً، قبل أن يقتل رجاله آخر واحد منهم. لم يكن بحاجة إلى تنبيههم إلى حماقتهم وإنما إلى تدميرهم والمضي قدماً. فرك عينيه متعباً فجأة. سيكون عليه أن يواجه باتو، هذا إذا بقي الشاب حياً. لقد عصى أوامره، وتساءل تسوبودي إن كان بمقدوره أن يعاقب قائداً بعد أن أهداه مثل هذا النصر.

نظر تسوبودي حوله إلى الرجال الذين يهتفون مبتهجين بالقرب منه، وزم شفتيه امتعاضاً حين رأى أن باتو في صلب اهتمامهم. كان نصف الجيش الروسي لا يزال في الميدان، في حين أن محاربيه يمررون قُرب الشراب بين بعضهم مهلّلين مثل الأطفال.

أدار تسوبودي جواده ودفعه للهرولة ببطء نحو ذلك المكان. أطبق الصمت على أولئك الذين تجاوزهم حين أدركوا أن القائد بينهم، ونشر حملة راياته قطعاً لة من الحرير رفرفت وخفقت في النسيم.

مر باتو باقترابه منه، وكان قد بدأ يشعر آنذاك بالضرب المبرح الذي تلقاه. عينيه وإحدى وجنتيه متورمتين، الأمر الذي جعل وجهه يبدو مائلاً. دم والعرق، وتفوح منه رائحة أحصنة رطبة وقوية، وقطع من درعه

تدلكى راحة، وهناك دماء متخثرة تظهر على جلده من إحدى أذنيه ونزولاً إلى ردايه. ولكنه بالرغم من ذلك بدا مبتهجا، ولم يكن بمقدور وجه تسوبودي المتجهم أن يفسد مزاجه.

قال تسوبودي: "أيها القائد، أنت تهدر الوقت". كنتم الرجال حول باتو أصواتهم، ومع تلاشيها، تابع تسوبودي كلامه مهدوء: "لاحق الجيش الروسي أيها القائد، ولا تدع أحداً منهم يفلت. اعثر على أمتعتهم في معسكرهم وامنع سلبها". نظر باتو إليه، وهذا فحاة.

تابع تسوبودي: "إذاً، أيها القائد، هل ستواجههم مجدداً غداً، بعد أن تكون قد أهدرت هذه الأفضلية؟ هل ستسمح لهم بالوصول إلى بر الأمان في موسكو أو كيف؟ أم ستطارد الروس الآن، مع الفرق الأخرى تحت إمرة؟".

استدار المحاربون حول باتو متعجبين عنه بحركة مفاجئة، مثل فتيان يُضبطون متلبسين بالسرقة. لم ينظروا إلى تسوبودي، ووجهه باتو حدق إليه. توقع تسوبودي نوعاً من الرد السريع، لكنه أساء الحكم على وجهه.

جاءت مجموعة أخرى من الفرسان على جياذ تجري خيباً عبر الصفوف. كانت مذبحه العدو قد بدأت، وحملة الرماح والرماة يقضون عليهم وكألمهم في رحلة صيد. رأى تسوبودي أن غويوك ابن الخان يقوم تلك المجموعة، ونظرته ثابتة على باتو فيما كان يقترب، في حين بدا أنه لم يلاحظ تسوبودي.

صرخ غويوك وهو يوقف حصانه إلى جانبه: "باتو باهادور! كان هذا رائعاً يا ابن عمي، لقد رأيت كل شيء. بحق أب السماء، ظننت أنك لن تتمكن من العودة أبداً، لكن عندما وصلت إلى الرجل النبيل..."، لم تسعفه الكلمات، فربت على ظهر باتو إعجاباً وتابع قائلاً: "سأذكر ذلك في تقاريري إلى والدي. يا لها من لحظة!".

ألقي باتو نظرة على تسوبودي ليرى كيف يتقبل مثل هذا المديح، ولاحظ غويوك ذلك فاستدار.

قال غويوك: "هأنينا على مثل هذا النصر يا تسوبودي". كان مغروراً ومبتهجا، وغافلاً كما يبدو عن لحظة التوتر التي قاطعها. "يا لها من ضربة! هل رأيت أيها منها؟ كاد الدم أن يتجمد في عروقي حين رأيت الأمير يتقدم ليقضي عليه".

أمال تسوبودي رأسه إقراراً بذلك وقال: "بالرغم من ذلك، يجب ألا يُسمح للروس بإعادة تجميع قواتهم. حان الوقت لمطاردتهم وملاحقتهم على طول الطريق إلى موسكو. ستخرج فرقك أيضاً خلفهم أيها القائد".

هزّ غويوك كتفيه قائلاً: "إذاً، فلنكن مطاردة. إنه يوم رائع". غافلاً عما يدور حوله، ربت غويوك على كتف باتو مجدداً، وانطلق بعيداً مع رجاله مصدراً الأوامر إلى مجموعة أخرى لكي ترافقه. أطبق الصمت حين ابتعد، وكشّر باتو وهو ينتظر. لم يقل تسوبودي شيئاً، وأوماً باتو إلى نفسه، ثم أدار حصانه وانضم إلى ضباط فرقته، وترك تسوبودي يحدّق إليه من الخلف.

الفصل السابع عشر



انعطفت سورھتانى حول الزاوية بكامل زينتها وأناقتهما، ورافقھا أبناءھا والخدم. كانت تعتبر من أفراد أسرة الخان بسبب زواجھا من تولى! لقد ظنت أنه ربما لن يعود أبداً من أراضي تشن التي بدأ لها قد ابتلعت جيشه لوقت طويل؛ مع غياب أي كلمة عن عودتهم. لكن، عندما عاد إلى الديار أخيراً، لم يستدعھا أو تسمع شيئاً منه على الإطلاق. لم تكن لتقبل أي تأخير آخر من مسؤولين مغرورين لا يؤدون عملهم كما ينبغي، والذين رفضوا مقابلة سعاتھا وخدمھا وأعادوهم بخفي حين من دون أي عذر. أخيراً، جاءت إلى كاراكوروم بنفسھا.

وبدلاً من السماح لها برؤية الخان؛ ليتكلما عن الحزن والأسى اللذين يتشاطرانھا، أوقفھا مسؤول تشن بارز الفكين وتاعم اليدين. ما الذي كان أوجيدي يفكر فيه حين وظّف في حاشيته أمثال هؤلاء الذين تفوح منهم رائحة العطر؟ ما نوع رسالة القوة التي سيرسلھا هذا إلى الأقل لطفاً من سورھتانى؟

كان أحد رجال الحاشية قد أوقفھا مرة، لكن أولادھا الأربعة جميعاً معها اليوم. كانت ستري أوجيدي اليوم! وبغض النظر عن مقدار حزنه فهي ستشاركه فيه. فقد خسّر الخان شقيقاً، لكنها خسرت زوجها ووالد أبنائها. وإذا كان هناك وقت يمكن إقناع أوجيدي فيه بأي شيء، فسيكون الآن. بدت الفكرة مثيرة: رجل يمثل قوة جنكيز يستلقي في غرفته مثل قصبة مكسورة. كان القصر مليئاً بالشائعات التي تتناقضها الألسن عن أنه لا يتكلم ولا يأكل إلا للمامأ، ويستطيع كل من يصل إليه الحصول على ما يريد، لكنه أصدر الأوامر بمنع زيارته. حسناً، ستخبره كيف آذنتھا تلك الإهانة، وستبدأ المفاوضات من تلك النقطة. مرّت تحت لوحات جدارية زيتية من دون أن تنظر إليها، فتركيزھا منصب على أشياء أكثر أهمية.

كان الرواق الأخير طويلاً، وتردّدت أصدااء وقع خطوات مجموعتها في القاعات الحجرية. وبالرغم من أنها رأت رجالاً وحرّاساً أمام الباب النحاسي المصقول، إلا أن سورهناني اندفعت نحوه، وأرغمت أبناءها على اللحاق بها. سيتصيب رجل البلاط البدين والقصير عرفاً حين يعرف بقدميها، فالخان شقيق زوجها، وهو مريض وغارق في الحزن. كيف يجزرو محصني من تشن على اعتراض طريقها لرؤية أحد أفراد أسرتها؟

عندما اقتربت، نظرت من غير طائل بحثاً عن الحرير فاقع اللون الذي يفضّله الرجل، وكادت أن تشعر على إحدى الدرجات حين رأت ياو شو مكانه. لم يكن هناك أثر للرجل الذي تجادلت معه في الصباح، وقد استدار ياو شو ليواجهها، وظهر موقفه واضحاً من وقتها. عدّلت سورهناني حطّنها، وتابعت طريقها إليه، وتخلّصت من غضبها مثلما تتخلّص الأفعى من جلدها مع كل خطوة.

وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى الباب النحاسي اللامع كانت تسير بخطوات عادية، وابتسمت ابتسامة واسعة لمستشار الخان، لكنها بالرغم من ذلك كانت تستشيط غضباً من وجود تشن آخر يوقفها عند الباب، ولا سيما شخص يتمتع بمثل تلك السلطة. لم يكن من الممكن إجبار ياو شو على الخنوع، أو تهديده، ولم تضطر إلى النظر إلى أنبائها اليافعين لتعرف أنهم يخافون من الرجل الذي بعلمهم. فبين الحين والآخر، كان ياو شو يجلد الفتيان الأربعة كلهم لمخالفتهم أوامرهم، وقد ضرب كوبلاي ضرباً مبرحاً حين وضع الفتي عقرهاً في حذائه.

واجهها آنذاك، وبدا وجهه منقراً مثل الحرّاس الذين يقفون إلى جانبيه. "الخان لا يستقبل زواراً اليوم يا سورهناني. أنا أسف لأنك جئت من دون جدوى. لقد أرسلت إليك ساعياً عند الفجر لأطلب منك عدم الحضور".

أحفت سورهناني اتزعاجها خلف ابتسامة، فقد كان تخصيص منزل لها بعيد جداً عن القصر دليلاً آخر على أن أشخاصاً آخرين غير أوجيدي قد اتخذوا ذلك القرار. كانت متأكّدة من أن الخان سيمنحها جناحاً في القصر إن عرف أنها جاءت.

ارتقت سورهناني إلى مستوى التحديّ الواضح على ملامح ياو شو ووجهه الخالي من أي انفعال.

همست له: "ما هذه المكيدة؟ هل قتلتم الخان يا ياو شو؟ لماذا لا يتحول أحدٌ في أروقة كاراكوروم إلا رجال تشن هذه الأيام؟".
وعندما شهِق ياو شو مذهولاً، تكلمت مع ابنيها من دون أن تشيح ببصرها عن المستشار.

"جهّزاً سيفيكما يا مونغكي وكوبلاي. لم أعد أثق بهذا الرجل، فهو يدّعي أن الخان لن يري زوجة شقيقه الحبيب".

سمعت ضليل معدن خلفها، لكن الأهم من ذلك أنها رأَت الشك المفاجئ الذي بدا على وجوه الخراس المغول على كلا جانبي ياو شو.

قالت: "لدى الخان جيش من الخليم والكتاب والمحظيات والزوجات، وبالرغم من ذلك لا يبدو أن أحداً منهم هنا. أين زوجته توروجين؟ لماذا ليست هنا لتعشني به في مرضه؟ كيف يعقل أنني لا أحد أحداً يقول إنه راه حياً منذ أيام، وحتى منذ أسابيع؟".

أثلج صدرها حين رأَت رباطة جأش ياو شو الاستثنائية تتداعى من تلك الاتهامات، فقد تورّد وجهه على الفور، وفقد توازنه حين نظقت بتلك الكلمات.

رد: "الخان مريض جداً كما تقولين، وقد طلب أن يسود الهدوء قصره. أنسا مستشاره يا سورهناتي، وليس من شأني إخبارك بالمكان الذي ذهبت إليه أسرته، أو مناقشة ذلك في الرواق".

رأت أنه يكافح حقاً بسبب الأوامر الصعبة التي تمّ توجيهها إليه، فتابعته الضغط عليه بعد أن شعرت بنقطة ضعفه المتمثلة بلطفه أساساً.

"قلت إن الأسرة قد ذهبت يا ياو شو. غوبوك مع تسوبودي، ولا أعرف بنات أوجيدي، أو أولاده من الزوجات الأخريات. إذا، توروجين ليست هنا، أليس كذلك؟".

طرفت عيناه من السؤال البسيط.

تابعت: "فهمت، ربما هي موجودة في القصر الصيفي، على ضفة لهر أورخون. نعم، ذلك هو المكان الذي سأرسلها إليه إذا كنت أنوي اغتصاب السلطة في هذه المدينة يا ياو شو، وإذا كنت أنوي قتل الخان في سريره واستبداله. ولكن، بمن؟ شقيقه تشاغاتي؟ سيكون هنا خلال لحظة. هل هذه خطتك؟ ماذا يوجد خلف هذا الباب يا ياو شو؟ ماذا فعلت؟".

كان صوتها قد ارتفع وأصبح أقوى. فزع ياو شو من التيرة الحادة، لكنه بدا متردداً. لم يكن بمقدوره أن يطلب من الخراس إبعادها بالقوة، ليس وابناها مستعدان للدفاع عن والدتهما. كان واضحاً جداً أن أول حارس سيحاول وضع يده على سورھتاني سيفقدها، فلم يعد مونغكي، خاصة، ذلك الفتي الكتيب الذي عرفه سابقاً. أبقى ياو شو عينيه على سورھتاني متعمداً، لكنه استطاع أن يشعر بمونغكي يحدّق إليه ببرودة، ويتحدّاه أن يبادلہ النظرات.

حاول ياو شو مجدداً: "يجب أن أنفذ الأوامر التي صدرت لي يا سورھتاني. لن يمر أحد عبر هذا الباب، ولن يُسمح لأحد بلقاء الخان. فهو ليس مضطراً إلى الرد عليك وكذلك أنا. الآن أرجوك، انفضي اليوم في المدينة، واستريح، وتساولي الطعام. أرجوك، سيراك غداً".

أحسّت سورھتاني برغبة في مهاجمته، لكن ياو شو لم يتقاعس عن أداء واجباته. كان أبناؤها قد أخبروها كيف اخترع سهماً عن وتر القوس المشدود في حدائق القصر. بدا ذلك منذ أمدٍ بعيد، حين كان زوجها لا يزال حياً. شعرت بالدموع تترقرق في عينيها فطرفتهما للتخلص منها. كان هذا وقت الغضب، وليس وقت الأسى. وهي تعرف أنها إذا سمحت لنفسها بأن تبدأ بالبكاء فلن تعبر الباب اليوم.

سحبت نفساً عميقاً، ثم صرخت: "جريمة! الخان في خطر! تعالوا بسرعة!". صرخ ياو شو بصوت أعلى: "ليس هناك خطر!". كانت المرأة بمنونة! ما الذي تأمل أن تجنيه وهي تصرخ مثل قطعة تحترق؟ سمع وقع خطوات تجري وتقترب فأطلق لعنة بصوتٍ خافت. كانت الليلة التي سبقت تنصيب أوجيدي خاناً لا تزال ذكرى مؤلمة بالنسبة إلى الخراس، وهم يرذون على أي تهديد محتمل بعرض ضخم للقوة.

وخلال لحظات، سدّ الرواق من كلا الجانبين بمحاربين يركضون، يقودهم ضباط يرتدون دروعاً سوداء وحمراء مصقولة، وقد شهروا سيوفهم. رفع ياو شو كلتا ذراعيه، وأظهر راحتي كفيّه مفتوحتين وخاليين من أي سلاح علسي نحو واضح.

شرع يقول: "هذا خطأ...".

قالت سورهناني بحدة وهي تستدير لمواجهة الرجل القائد: "لا يوجد خطأ يا أخون".

تأوّه ياو شو بصوت منخفض. كانت تعرف اسم الضابط بالطبع، فسورهناني تمتلك ذاكرة استثنائية في مثل تلك الأمور، لكن جزءاً من غطتها كان على الأرجح أن تعرف أسماء الضباط المناوبين. كافع المستشار بحثاً عن كلمات مناسبة تنقذ الموقف ثم قال: "السيدة مضطربة".

تجاهله الضابط وتكلم مع سورهناني مباشرة: "ما المشكلة هنا؟".

نظرت سورهناني إلى الأسفل وهي تمزّ رأسها، وظهرت دموع في عينيها مما أزعج ياو شو.

"بدعي مسؤول تشن أن لا أحد يستطيع رؤية الخان، وعلر مدى أيام، لم أسمع كلمة منه. إنه يتكلم على نحو مشبوه يا أخون، وأنا لا أثق بما يقوله".

أوماً القائد، وهو رجل سريع البديهة والفعل - كما هو متوقع من شخص يمثل رتبته - ثم استدار إلى ياو شو.

"يجب أن تتنحى جانباً أيها المستشار. ينبغي لي أن أطمئن على الخان".

شرع ياو شو يقول: "أصدر أوامر..."، لكن الضابط همز كنفه فقط.

"سأراه. تنحّ جانباً، الآن".

وقف الرجلان ساكنين وهما يحدّقان إلى بعضهما وكأهمما الوحيدان في الرواق. كان ياو شو قد أصبح في وضع حرج، ورأت سورهناني أن هناك احتمالاً لنشوب نزاع قصير ودام في الرواق في أي لحظة، فنكلمت لتكسر حاجز الصمت.

قالت: "سترافقنا طبعاً يا ياو شو".

وجّه ياو شو نظره إليها بسرعة، لكنها كانت قد منحه طريقاً للخروج فسلكه.

قال وقد ظهر التوتر والغضب على وجهه: "حسناً". استدار إلى أخون وقال:

"قلقك ليس له ما يبرره. على أيّ حال، لن تسمح لرجال مسلحين مثل هؤلاء

بالمثول أمام الخان. يجب أن يُجرّدوا جميعاً من أسلحتهم أولاً".

بدأت سورهناني تحتج، لكن ياو شو بدأ عاقد العزم، وقال مستعيداً توازن

القوى: "أنا أصر".

قالت سورهناني بدلاً من إضاعة الفرصة: "سيقتون هنا". في الحقيقة، لم تكن تمنع أن يبقى أبنائها في الخارج، مع دروعهم وسيوفهم. كانوا قد أفادوها بدعمهم إليها عند الباب، ولكنها لا تريد أن يسمعوها كل شيء بعد ذلك.

رفع ياو شو العارضة النحاسية الصغيرة التي تقفل الباب الرئيس مكشوراً. وكانت عبارة عن قطعة مزخرفة منقوشة ومسبوكة على شكل تين يتكوّر حول وسط الباب. كانت تلك العارضة من بين تأثيرات تشن الأخرى في الخان؛ كما فكّرت سورهناني والباب يُفتح. أنعشتهم عصفه ربيع، وتبع ياو شو وأخون إلى الداخل.

لم تكن هناك مصابيح مضاعة، لكن نوراً خافتاً كان يدخل عبر نافذة واحدة مفتوحة. كان المصراعان قد فتحا بقوة جعلت أحدهما ينحرف عن مكانه، ويتعلق بمفصلة مكسورة. تحركت ستائر حريرية طويلة في الغرفة، وأصدرت حفيفاً وهي ترتطم بالجدار مع هبوب الهواء.

كانت الغرفة باردة على نحو لا يُصدق، وظهر بخار أنفاسهم فوراً مثل ضباب أبيض. أغلق الباب الخارجي خلفهم، وارتعشت سورهناني عندما وقع بصرها على الشخص الممدد على أريكة في وسط الغرفة. كيف يستطيع أوجيدي أن يتحمل درجة الحرارة المنخفضة هذه وهو لا يرتدي إلا ثوباً حريرياً رقيقاً وطماقين؟ كانت ذراعاه مكشوفتين، وقدماه زرقاوين، فيما كان مستلقياً على ظهره ناظراً إلى السقف.

لم يتعرف إليهم، وتعتمد ياو شو للحظة وهو يشعر بالخوف من أن يكونوا قد فقدوا الخان. لكنه رأى بخاراً حفيفاً يخرج من فم الخان ساكن الجسد، فتنفّس بجدداً.

للحظة، لم يكن أي منهم واثقاً بشأن ما سيفعله بعد ذلك. رأى الضابط أن الخان لا يزال حياً، وبدا أن مهمته قد انتهت عند هذا الحد، لكن وقاره منعه من أن يغادر ببساطة؛ على الأقل حتى يعتذر عن انتهاك حرمة الخان. كان ياو شو هادئاً أيضاً، ويشعر بالذنب؛ لأنه أخفق في تنفيذ الأوامر. لقد تلاعبت سورهناني بهم جميعاً.

طبعاً، كانت أول من تكلم.

قالت سورھتاني: "مولاي الخان". ورفعت صوتها ليطلق على الضوضاء التي تصدرها الستائر، لكن أوجيدي لم يرد. "لقد جئت إليك في فترة حزني يا مولاي".

لم يسمعوا شيئاً بالرغم من ذلك، وراقبها يا شو باهتمام حين أمسكت فكّها بقوة مسيطرة على غضبها على نحو ظاهر للعيان. أشار المستشار إلى الضابط ليصطحبها بعيداً، فرجع الضابط يده ليمسك ذراعها.

عندها، هزّت سورھتاني كتفها لتبعد تلك اللمسة، وتابعت كلامها: "ضحّي زوجي بحياته من أهلك يا مولاي. كيف ستستفيد من توضيحتي؟ أهذه الطريقة؟ استنظر الموت في غرفة متجمدة؟"

قال يا شو مذعوراً: "هذا يكفي". وأمسك ذراع سورھتاني بقبضة قوية، وأدارها إلى الخلف نحو الباب. تجمّد الثلاثة حين سمعوا صريراً خلفهم. كان الخان قد لمّض عن أريكته، وارتعشت يده قليلاً حين استدار ليواجههم وقد بدا جلده أصفر شاحباً، وعيناه محترقتين.

نحت وطأة تلك النظرة الباردة، جثا الضابط المسؤول عن حراس الخان، وأحنى رأسه إلى الأرض.

قال أوجيدي بصوت هامس وأجش: "المض يا الخون. لماذا أنت هنا؟ ألم أقل إنني أريد أن أترك وحدي؟".

"مولاي الخان، أنا أسف. لقد فهمت أنك ربما تكون مريضاً أو تحتضر". ابتسم أوجيدي مبهتجاً: "أو ربما حصل الأمران معاً يا الخون. حسناً، لقد رأيته، اخرج الآن".

تحرك الضابط بسرعة كبيرة وغادر الغرفة. عندها، حدّق أوجيدي إلى مستشاره، ولم يكن قد نظر إلى سورھتاني بعد بالرغم من أنه لمّض ليدى سماعه صوتها.

قال أوجيدي: "اتركني وحدي يا يا شو". انحنى مستشاره كثيراً، ثم شدّ قبضته على ذراع سورھتاني وبدأ يقودها للخروج من الغرفة.

صرخت: "مولاي الخان!".

قال ياو شو بحدة وهو يسحبها: "كفى!". ولو أفلت قبضته عن ذراعها لوقعت، لكنها ترنحت بانسة وغاضبة.

وقالت: "أبعد يدك عني. أوجيدي! كيف يمكن أن تراني أتعرض لمحوم من دون أن تفعل شيئاً؟ ألم أقف معك في ليلة السكاكين، في هذا القصر تحديداً؟ كان زوجي سرد على هذه الإهانة. أين هو الآن؟ أوجيدي!".

كانت قد أصبحت عند الباب حين رد الخان قائلاً: "انصرف يا ياو شو، ودعها تقترب مني".

شرع ياو شو بقولها: "مولاي، إنها...".

"دعها تقترب مني".

ألقت سورهناني نظرة حقد صافٍ على المستشار حين فركت ذراعها ووقفت منتصبة. اتحنى ياو شو مجدداً، ثم غادر الغرفة من دون أن ينظر إلى الخلف، وقد حلا وجهه من أي تعبير. طلق الباب خلفه همدوء وتنفست ببطء عذبة سعادتها. لقد أصبحت في الداخل، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة؛ لكنها الآن مع الخان، وحدهما.

راقبها أوجيدي تقترب، وشعر بالذنب، لكنه نظر إلى عينيها. وقبل أن تتكلم مجدداً، سمعا وقع أقدام وصوت أدوات زجاجية ومعديّة. توقفت سورهناني حين رأت خادماً الخان باراساغور يدخل الغرفة حاملاً طبقاً.

تمتم أوجيدي: "لدي زائرة يا باراس".

حدّق الخادم إلى سورهناني بعناية واضحة.

"الخان ليس بخير. يجب أن تعودي في وقت آخر".

تكلم بثقة رجل مؤمن؛ وكان خدمته للخان فوق كل اعتبار آخر. ابتسمت سورهناني له، وتساءلت إن كان قد أخذ دوراً أكثر تأثيراً في أثناء مرض الخان، فقد بدا بالتأكيد سعيداً بالاهتمام بأوجيدي.

وعندما لم تتحرك، زمّ باراساغور شفتيه، ووضع الطبق بجانب سيده فصدر عنه صوت سخافت، ثم واجهها.

قال بصوتٍ أعلى قليلاً مصراً على كلامه: "الخان ليس على ما يرام، وليس بإمكانه أن يقابل الزوّار".

رأت سورھتاني سخطه المتزايد، ولهذا تكلمت بصوتٍ أعلى من صوته:
"شكراً على الشاي يا باراساغور. سأخدم الخان بدلاً منك. هل تتذكر مكانتك؟".
غمغم الخادم للحظة، ونظر إلى أوجيدي. وعندما لم يقل الخان شيئاً، انحنى
باراساغور وهو يشعر تجاهها بكرامية شديدة وغادر الغرفة. أضافت سورھتاني
مقداراً صغيراً من ملح بني إلى السائل الذهبي الذي يتصاعد البخار منه؛ إنه ملح
لمين جداً ومهمٌ للحياة. أخيراً، أضافت حلياً من ورق صغير، وحركت السائل.
كانت أصابعها بيضاء وواثقة.
قال أوجيدي: "اخدميني".

جثت أمامه برشاقة ورفعت الكوب وهي تحني رأسها.

قالت: "أنا رهن أمرك يا مولاي الخان".

ارتعشت قليلاً من لمسة يديه حين أخذ الكوب منها. كان بارداً مثل الجليد
في هذه الغرفة حيث يهبّ الهواء البارد باستمرار. ومن تحت جفنيها المنخفضين،
رأت وجهه مليئاً بالبقع وداكناً؛ كان هناك كدمات عميقة داخله. وعندما نظرت
إليه عن كثب رأته عروفاً مثل تلك الموجودة على الرخام في قدميه، وبدت عيناه
صفراوين شاحبتين حين نظر إليها. ارتشف الشاي، وتلاشى البخار في الهواء.
استقرت سورھتاني في مكانها، وجثت عند ركبتيه، ونظرت إلى وجهه.

قالت: "شكراً لك لأنك أعدت ابني إليّ. لقد أراحني أنني سمعت الخير منه".

أشاح أوجيدي بصره بعيداً عنها، ونقل الكوب من يده إلى أخرى حين
أحرقته حرارته بشرته الباردة. تساءل إن كانت تعرف مدى جمالها وهي تجنو
على ركبتيها وظلها مشدود والهواء يداعب شعرها. بدت رائحة، فراقبها
بصمت مفتوناً بها. منذ عودته إلى كاراكوروم، لم يكن قد تكلم عن مسوت
تولي، وشعر بأن سورھتاني على وشك أن تفاتحه بالموضوع، فانكمش إلى الوراء
على الأريكة المنخفضة محتضناً الكوب الذي يمثّل مصدر الدفء الوحيد بين
يديه. لم يستطع تفسير الإرهاق والضعف اللذين يشعر بهما. كانت شهور قد
انقضت من دون أن يلاحظ ذلك، وبقيت التحذيرات ماثلة أمامه مسن دون أن
يقوى على مواجهتها. لم يكن بمقدوره أن يستنهض همته عند الفجر أو
الغروب، وانتظر الموت ولعن بطء مجيئه.

لم يكن بمقدور سورهتاني أن تصدّق التغييرات التي طرأت على أوجيدي. كان قد غادر كاراكوروم بكل حيويته، وهو يشرب ويضحك باستمرار مبتهجاً بانتصاره بعد أصبح خاناً. كان قد خرج مع فرق النخبة لتأمين حدود تشن، ونجح في تحقيق نصر صعب في الميدان. بدأ تذكر تلك الأيام مثل النظر نحو الخلف؛ إلى فترة الشباب. فقد أصبح أوجيدي الذي عاد رجلاً مستأً على نحو ظاهر للعيان، وظهرت تغضنات عميقة على جبينه وحول عينيه وفمه، ولم تعد عيناه تذكرهما بجنكيز، أو تبدو فيهما تلك الشرارة القديمة، أو الخطر، ولم تعد نظراته هادئة. لم يكن ما حصل نافعاً.

قالت فجأة: "كان زوجي بصحة جيدة، ولربما كان سيعيش لسنوات عديدة، وسيرى أبنائه يكبرون ويصبحون رجالاً راعين. ربما كان سيرزق بأولاد آخرين، ويتزوج مزيداً من النساء. وبمرور الوقت، كان سيصبح جَسداً. أود أن أفكر في الفرع الذي كان سيحضر به في تلك السنين".

انكمش أوجيدي إلى الخلف أكثر، وشعر وكأنها تمسحه، لكنها تابعت كلامها من دون تردد، وصوتها حاسم وواضح حتى يتمكن من سماع كل كلمة: "كان لديه إحساس بالواجب نادر جداً اليوم يا مولاي الخان، ويعتقد أن مصلحة الأمة تأتي قبل صحته وحياته، أو قبل سعادتي، أو حتى حياة أبنائه. إنها رؤية والدك يا مولاي: وهي أن الأمة يمكن أن تنشق من قبائل السهول، ومقدورها العثور على مكان لها في العالم، وتستحق مثل ذلك المكان".

شرح أوجيدي يقول: "أنا... لقد قلت إنه...".

قاطعت سورهتاني، فظهر الغضب في عينيه للحظة قبل أن يتلاشى.

"لقد رمى مستقبله في الريح. لكن، ليس من أجلك فقط يا مولاي. لقد أحبك، إلا أن الأمر لم يكن متعلقاً بالحب فقط، وإنما بإرادة والده وأحلامه أيضاً، هل تفهميني؟".

قال أوجيدي متعباً: "بالطبع أفهم".

أومأت سورهتاني وتابعت: "لقد متحك حياة - إنه بمثابة أب ثانٍ لك - لكن، ليس من أجلك فقط، وإنما من أجل أولئك الذين سيأتون من بعدك من سلالة والده؛ الأمة التي ستأتي ولا تزال تتكون من أولاد، ومن أطفال سيولدون لاحقاً".

أشار أوجيدي بيده محاولاً أن يوقف سيل كلماتها وقال: "أنا متعب الآن يا سورهتاني، وربما سيكون من الأفضل..."

همست سورهتاني: "وكيف استخدمت هذه الهبة النفيسة؟! لقد أبعدت زوجتك عنك، وتركت مستشارك يتحول في قصر فارغ. حراسك يشيرون المتاعب في المدينة كما يشاعون، وقد سُئِقَ اثنان منهم أمس... هل تعرف هذا؟ قتلا جزأراً من أجل فخذٍ من لحم البقر. أين نفس الخان على أعناقهم، والإحساس بأنهم يخضعون لسلطنتك؟ أهو موجود في هذه الغرفة وأنت تجلس وحيداً؟"

"سورهتاني..."
"ستموت هنا، وسيحدونك جثة هامدة، وستكون تضحية تولى قد ذهبت هباءً. إذاً، أخبرني كيف سأبرر تضحيته من أجلك؟!"

احتلحت مشاعره، ولذوهها رأته أنه يكافح كي لا يبكي. لم يكن أوجيدي الآن ابن جنكيز الذي سيفرز غاضباً من كلماتها، وإنما كان رجلاً بائساً.
قال أوجيدي: "ما كان يجب أن ادعه يقوم بذلك. منذ متى حصل ذلك؟ أهي شهور أم أيام؟ لا أدري."

قالت سورهتاني، وقد نسيت مركزها بسبب سخفها: "ما هذه الحماسة؟ ستعيش أربعين سنة، وستخافك أمة كبيرة وتحبك. سيولد مليون طفل في عهدك وتحت رعايتك إذا غادرت هذه الغرفة وأبعدت عنك هذا الضعف."

قال أوجيدي: "أنت لا تفهمين". لم يكن هناك إلا رجلان فقط يعرفان الضعف الذي شعر به. وإذا أخبر سورهتاني، فإنه يخاطر بأن تنتشر تلك المعلومة في المخيمات وبين الفرق. لكنهما كانا وحدهما، وهي تجرأ أمامه، وقد بدت عيناها واسعتين في العتمة. كان بحاجة إلى شخص ما.

قال بصوتٍ خافت جداً: "قلبي ضعيف. لا أعرف حقاً الوقت الذي بقى لدي. ما كان يجب أن أسمح له بأن يضحى بنفسه من أجلي، لكنني كنت..."،
تلعثم عند قوله تلك الكلمات.

قالت سورهتاني في سرّها حين فهمت الأمر أخيراً: آه زوجي. غصت بنوبة مفاجئة من الأسى. آه حبي! نظرت إليه، وعيناها تلمعان من الدموع التي تترقق فيهما وقالت: "هل كان يعرف؟ هل عرف تولى؟"

قال أوجيدي وهو يشيح ببصره بعيداً: "أظن ذلك".

لم يكن متأكداً من إجابته؛ كان قد علم أن ضالعه قد ناقش ضعف جسده مع شقيقه وعمه، لكنه لم يسأل تولي عن ذلك. فبعد أن خرج من النهر المظلم الذي كاد أن يغرق فيه، وعاد إلى الحياة وهو يغص ويلهث، كان أوجيدي يتمسك بأي شيء يُعرض عليه. في ذلك الوقت، كان سيفعل أي شيء من أجل يوم واحد فقط في الضوء. الآن، يصعب عليه أن يتذكر ذلك الحنين إلى الحياة؛ وكأنه شخص آخر. كانت الغرفة الباردة بحريها الذي يتموج في الهواء مملوءة بطريقة ما بتلك الذكريات. نظر حولها، وطرقت عيناه مثل شخص يستيقظ من النوم.

قالت: "إذا كان قد عرف، فستكون تضحيتك أكبر، وسيبأ آخر حتى لا تضيع يوماً آخر من حياتك. إذا كان بمقدوره رؤيتك الآن يا أوجيدي، فهل تريد أن يظن أنه ضحى بحياته من أجل أمر لا يستحق ذلك؟ هل تريد أن يخلل بك؟".
شعر أوجيدي بوحزة غضب من كلماتها، وسأل: "كيف تجرؤين على الكلام معي بمثل هذه الطريقة؟".

كان قد توقف عن الطرف بعينه مثل مصباح قدم، وبدا أن النظرة التي تبتها عليها فيها أثر من الحنان القديم. رحبت سورهناتي بها، بالرغم من أنها كانت لا تزال تفكر في ما قد سمعته. إذا مات أوجيدي، فمن سيقود الأمة؟ تبع الجواب السؤال من دون توقف. سيعود تشاغاتي إلى كاراكوروم بعد أيام، وسيدخلها منتصراً ليقبل إرادة أب السماء الكريمة. صكّت أسنانها من مجرد التفكير في سعادته. قالت: "المض. قف يا مولاي. إن لم يكن لديك وقت طويل، فلا تزال هناك أشياء كثيرة يجب فعلها. يجب ألا تضيع يوماً آخر؛ صباحاً آخر! تشبث بحياتك بكلتا يديك وشدها إليك؛ لأنك لن تحظى بحياة أخرى في هذا العالم".

هم أوجيدي بأن يتكلم، لكنها مدّت يدها إليه، وجذبت رأسه نحوها، وقبلته بقوة على شفتيه. كانت أنفاسه وشفته باردة. عندما تركته، تروّج إلى الخلف، ثم وقف على قدميه وهو يحدّق إليها متشككاً.

قال: "ما هذا؟ لدي زوجات بما يكفي يا سورهناتي".

"نصرفت هكذا لأرى إن كنت لا تزال حياً يا مولاي. ضحى زوجي بحياته من أجل هذه الأيام الثمينة، بغض النظر عن عددها. باسمه، هل يمكن أن تثق بي؟".

كانت تعرف أنه لا يزال يشعر بالدوار. وبالرغم من أنها قد أيقظت جزئياً منه، إلا أن ضباب اليأس - ربما بسبب عفاقير تشن - بدا كثيفاً، ويجعل أحاسيسه متبلدة. رأت وميض اهتمام في عينيه حين نظر إليها وهي تحثو أمامه، واستجمع إرادته مثل عصا تطفو على سطح فيضان؛ فنظهر للعيان تارة قبل أن تختفي في الأعماق.

"لا يا سورهتاني، أنا لا أثق بك".

ابتسمت وقالت: "هذا متوقع يا مولاي، لكنك ستعرف أنني إلى جانبك".
لحضت وأغلقت التوافذ، وحجبت الهواء العاصف أحياناً.
"سأستدعي خدمك يا مولاي. ستشعر بحال أفضل بعد أن تتناول طعاماً مناسباً".

حدّق إليها عندما نادى باراساغور، وأصغرت للرجل واهلاً من الأوامر. نظر باراس إلى أوجيدي من فوق كتفها، لكن الخان هو كتفيه فحسب موافقاً. كان وجود شخص آخر يعرف ما يحتاج إليه مريحاً، وأثارت هذه الفكرة فكرة أخرى.
"يجب أن أعيد زوجتي وبناتي إلى القصر يا سورهتاني. إنهن في المنزل الصيفي على ضفة نهر أورخون".

فكرت سورهتاني للحظة، ثم قالت: "أنت لا تزال متوعدكاً يا مولاي. أظن أنني يجب أن أنتظر بضعة أيام قبل أن أستدعي أسرتك وخدمك. ستفعل ذلك بروية".

خلال فترة زمنية قصيرة، ستكون الشخص الوحيد الذي يستمع إليه الخان، وبأمر عليه ختمه ستجعل ابنتها مونغكي ينضم إلى تسوبودي في رحلة عظيمة، حيث يكتب التاريخ. لم تكن مستعدة للتخلي عن هذا النفوذ بسرعة كبيرة.
أوما أوجيدي غير قادر على مقاومتها.

الفصل الثامن عشر



كانت الأرض مكتسية بقشرة من صقيع الحريف. وصهلت الجياد فخرج بخاراً أبيض من أفواهها حين تجاوز مونغكي زوجاً آخر من مستطلمي تسوبودي. كان يشعر آنذاك بالرهبة من القائد، لكن، لا شيء جعله مستعداً لقيادة عشرة آلاف محارب فوق آثار الدمار التي خلفها الرجل، وفي الأرض وراء لهر فولغسا، وعلى امتداد مئات الأميال غرباً، تعرضت بلدات وقري للتهب أو التدمير. كان قد تجاوز مواقع ثلاث معارك رئيسة، ولا تزال توجد فيها أعداد كبيرة من الطيور الجارحة والحيوانات الصغيرة التي احتشدت حول تلك الكمية الهائلة من اللحم المتعفن. بدا أن الرائحة قد وصلت إليه، وشعر مونغكي بما مع كل هبة هواء.

رأى مستطلعين يتدفعون مسرعين على صهوات جيادهم أمامه على مدى أيام، قبل أن يرى جيش المغول الرئيس الذي أمضى الصيف في معسكر يشبه كاراكوروم كما كانت قبل أن يبني الخان مدينته. ورأى عدداً كبيراً من الخيام البيضاء في مشهدٍ مسالم تظهر فيه نيران المواقد، وقطعان ضخمة من الجياد من بعيد. هزّ مونغكي رأسه مندهشاً حين قاد حصانه خبيلاً للاقتراب من المعسكر.

بالطبع كانوا قد عرفوا راياته، لكن تسوبودي أرسل بالرغم من ذلك ألف محارب للقائه، فيما الفرقة لا تزال على مسافة بعيدة عن المعسكر الرئيس. قبل مونغكي التدقيق الصامت من قبل رجال القائد، وعرف ضابطهم ورأى الرجل يومي. عرف مونغكي آنذاك أن تسوبودي قد أرسل رجلاً يمكن أن يتوثق من هويته بالنظر إليه، وشاهد بافتتان الضابط وهو يشير إلى مرافق رفع يوقاً نحاسياً طويلاً إلى شفثيه. دوت النغمة في الهواء، ونظر مونغكي حوله مدهوشاً حين ردّ عليها آخرون يمناً ويساراً، وظهرت أحصنة ورجال على بعد أقل من ميل على

كلا الجانبين. كان تسوبودي قد أرسل قوة لتحيط به وتطوقه، وقد اختبأت مع أحصنتها بين الأشجار وخلف حيد يرتفع عن سطح الأرض، ويفسر ذلك كيفية شق القائد بارد الأعصاب طريقه بعيداً تلك المسافة عن الديار.

بحلول وقت وصولهم إلى المعسكر الرئيس، أخلبت فسحة لهم؛ حقل فارغ شاسع يصل إلى نهر صغير. توثرت أعصاب مونغكي، وفكر في سره: أرهم البرجحة البارد.

لذا، عندما باشرت فرقته أعمال المعسكر المعتادة، وبدأ أفرادها ينصبون الخيام بفاعلية وسرعة، ترحل مونغكي عن سهوة حصانه. كان عشرة الآلاف الذين يخضعون لإمرته، والأحصنة التي أحضروها معهم بحاجة إلى أرض بحجم بلدة كبيرة، وقد استعد تسوبودي لاستقبال هذا العدد من المقاتلين والأحصنة.

استدار مونغكي بسرعة عندما سمع صرخة فرح فرأى عمه كشيون يمشي على الأعشاب الممهدة. بدا أكبر سناً، وبهرج كثيراً. راح يراقبه بتعير متحهم، لكنه صافحه بقوة حين مدّ يده.

قال كشيون: "لقد كنت أنتظر رؤيتك منذ أيام، سيرغب تسوبودي في سماع أنباء الديار هذا المساء. أنت مدعو إلى خيمته بصفتك طبيباً، وستروّده بمعلومات جديدة". وابتسم حين رأى أن مونغكي قد أصبح شاباً وتابع: "أفهم أن والدتك لديها مصادر لا يمتلكها مستظلعونا".

حاول مونغكي إخفاء ارتباك. كانت كاراكوروم على بعد ثلاثة آلاف ميل إلى الشرق، وقد استغرق الأمر منه أربعة شهور من السفر الشاق ليصل إلى القائد. انقضت أوقات في الشهر السابق حين كان تسوبودي يتحرك بسرعة كبيرة ظنّاً فيها مونغكي أنه لن يلحق به أبداً. ولو لم يتوقف القائد ليربح قطعانه ورجاله، لكان مونغكي لا يزال يرتمل حتى الآن. وبالرغم من ذلك، تكلم كشيون وكأن كاراكوروم تقع خلف الوادي التالي.

قال مونغكي بعد صمت قصير: "معلوماتك دقيقة يا عمي. لدي عدّة رسائل من الديار".

"هل هناك أي شيء لي؟"

"نعم يا عمي. لديّ رسائل من زوجتيك، ومن الخان أيضاً".

"ممتاز، سأخذها الآن".

فرك كشيون يديه معاً متحمساً، وأخفى مونغكي ابتسامته حين أدرك أن هذا هو السبب الرئيس لحيء عمه لحيثته بمثل تلك الطريقة. ربما لم يكونوا مشغولين جداً ليرغبوا في معرفة أبناء جديدة عن الديار. ذهب إلى حصانه الذي كان يرعى عشياً يكسوه الصقيع، وفتح جيب السرج، ثم أخرج حزمة من السرق الأصفر الملوّث بالشحم.

نظر كشيون حوله حين فرزها مونغكي.

"لم تكن لتحضر فرقة والدك لحماية الرسائل يا مونغكي. إذا، هل ستبقى؟".

فكّر مونغكي في الجهود التي بذلتها والدته لجعل أوجيدي يُعيّنه - هو ابنها البكر - قائداً لهذا الجيش. كانت تصدق أن مستقبل الأمة يكمن في الشرف العسكري الذي يمكن أن يظفر به في المعركة، وأن كل من يعود من الغرب الشاسع ستكون له يد على عنان المصير. وتساءل إن كانت محقة.

قال وهو يسلم عمه الرسائل الخاصة به: "بإذن من القائد تسوبودي، نعم".

ابتسم كشيون وأخذ الرسائل، وربت على كتف مونغكي وقال: "أنت متسخ ومتعب كما أرى. استرح وتناول الطعام ربما تُنصب خيامك. سأراك الليلة".

نظر كل من مونغكي وكشيون إلى الأعلى حين جاء فارس آخر يقود حصانه خبياً عبر المعسكر نحوهما.

كان الرجال ينتشرون على كل أرض الوادي، فيما المعسكر ونيوانه التي يتصاعد منها الدخان تمتد بعيداً؛ إلى حيث يصل بصر مونغكي. ومع الحاجة المستمرة إلى الماء، والطعام، والخشب، وحفر المراحيض، وآلاف تفاصيل العيش البسيطة، بدأ المكان يعج بالنشاط والحركة الدائمة. كان الأطفال يركضون في كل مكان، وهم بصرخون ويتظاهرون بأنهم محاربون. وكانت النساء يراقبنهم بإمعان في أثناء قيامهنّ بالفب واجب مختلف، في حين كان المحاربون الحقيقيون يتدربون أو يجرسون القطعان.

قاد تسوبودي حصانه ومرّ عبر أولئك جميعاً، وبصره ثابت على مونغكي. كان يتحرك بسرعة، ويرتدي درعاً جديدة ونظيفة ومزينة جيداً حتى يتحرك

بسهولة. كان لون حصانه بنياً نحاسياً، ويكاد يكون أحمر تقريباً تحت ضوء الشمس. ولم ينظر القائد تسوبودي إلى اليمين ولا إلى اليسار. بذل مونغيكي جهداً ليثبت بصره، ورأى تسوبودي يعبس قليلاً، ثم دفع القائد ردف حصانه بعقبى قدميه ليزيد سرعته، فاقترب الحصان منه مسرعاً، ثم وقف وهو يلهث ويضرب الأرض بخوافه.

قال تسوبودي مخاطباً مونغيكي بلقبه الرسمي من دون تردد: "أهلاً بك في عيبي أيها القائد".

انحنى مونغيكي هدهوء، وكان يدرك أنه حظي بالمنصب فقط بسبب نفوذ والدته على الخان. كانت تضحية والده قد جعلت الابن يرتقي الصفوف. وهذا أمر صائب، فقد شارك في حرب ضد تشين، وهو متأكد من أنه سيبلي بلاءً حسناً مع تسوبودي.

وفي صدى لأفكاره، نظر تسوبودي إلى الفرقة التي جاءت من كاراكوروم. قال تسوبودي: "شعرت بالأسف حين سمعت نبأ وفاة والدك. كان رجلاً رائعاً، وبمكنتنا بالتأكد الاستفادة منك هنا". بدأ واضحاً أن تسوبودي سعيد برؤية هؤلاء المحاربين الإضافيين، فهذا يرفع عدد فرقة إلى ست فرق، ولديه عدد مماثل تقريباً من قواته الاحتياطية. لقد ابتسم أب السماء من دون شك لهذه الحملة.

تابع تسوبودي كلامه قائلاً: "لديك شهر أو اثنان قبل أن تتحرك. يجب أن تنتظر بجمد الأنهار تماماً، وبعد ذلك سنشن هجوماً على مدينة موسكو".

قال مونغيكي قبل أن يستطيع كبح جماح نفسه: "أسفعل هذا في الشتاء؟". ولا رتياحه، ضحك تسوبودي بصوت خافت.

"الشتاء هو وقتنا. إنهم يغلقون مدغم في شهور البرد، ويضعون أحصنتهم في الأسطبلات، ويجلسون حول نيران عظيمة في منازل حجرية ضخمة. إذا أردت جلد دب، فهل ستهاجمه في الصيف حين يكون قوياً وسريعاً، أم ستدق عنقه حين يكون ناعماً؟ يمكننا تحمل البرد يا مونغيكي. لقد استوليت على ربازان وكولومنا في الشتاء. سينضم رجالك إلى الدوريات، وسيلتحقون بالتدريب على القور، فهذا سيقبهم مشغولين".

أوما تسويودي إلى كشيون الذي التحن، في حين طقطع القائد بلسانه ودفع الحصان الأحمر للسير حياً بعيداً عنهما.

قال مونغيكي: "إنه... مثير للإعجاب. أنا في المكان الصحيح، كما أظن".
قال كشيون: "بالطبع أنت كذلك. هذا لا يُصدّق يا مونغيكي. وحده جدك كانت له هذه اللمسة على الحملة. هناك أوقات أظن فيها أنه يمتلك روحاً حربية من نوع ما. إنه يعرف ما سيفعلونه. في الشهر الماضي، أرسلني إلى وسط مكان قفر وجعلني أنتظر فيه. بقيت هناك لمدة يومين، إلى أن جاءت قوة تتطلق بسرعة من فوق التلة، وتتكون من ثلاثة آلاف فارس مدرّع لنجدة توفغورود"، ابتسم حسين تذكر ما حصل وتابع: "أين ستكون أمتاً بخلاف ذلك؟ في المنزل؟ كنت محقاً في الشيء، إلى هنا. لدينا فرصة واحدة لترغم العالم على الخضوع لنا يا مونغيكي، وإذا فعلنا ذلك، فستكون هناك قرون من السلام. أمّا إذا فشلنا، فستحول كل ما بناه جدك إلى رماد في جيل واحد فقط؛ ليس هناك غير هذين الاحتمالين يا مونغيكي. هذه المرة، لن نتوقف حتى نصل إلى البحر. أقسم إنه إذا تمكن تسويودي من إيجاد وسيلة لوضع الأحصنة على متن السفن، فلربما لن يوقفنا ذلك أيضاً".

قاد تشاغاي حصانه على طول جروف باميان الصحرية الشاهقة مع ابنه البكر بايدور. وإلى الشمال الشرقي من كابول، كانت الجروف الحمراء المائلة إلى اللون البني تمتد خارج الأراضي التي منحه أوجيدي إياها؛ لكن أسرته لم تعترف بالحدود قطعاً. كثر حين فكّر في ذلك، وشعر بالسعادة؛ لأنه يقود حصانه في حرارة معتدلة، في ظل ذرى داكنة. كانت مدينة باميان قديمة، واستقبلت منازلها فاتحين وحيوشاً من قبل، لكن تشاغاي لم يدخل نزاعاً مع الفلاحين هناك، ورجال ورجاله في المناطق حول مهر جيحون. لكن، لم يكن هناك سبب لتسرك القري والبلدات تتحوّل إلى أنقاض يتصاعد الدخان منها.

مع امتداد ظل الخان فوقهم، كانوا يزدرون حقاً، فقد جاءت آلاف الأسر المهاجرة لتعيش في الأراضي حول إمارته، مدرّكة أن أحداً لن يجرؤ على تحريك جيش يصل إلى سمرقند أو كابول. كان تشاغاي قد جعل سلطته واضحة في الستين الأوليين؛ بعد أن سيطر على منطقة يسكنها قطعاً طرق متوحّشون وقبائل

عملية عدائية، وذبح معظمهم، ودفع الباقين بعيداً مثل الماعز لينقلوا النبا إلى أولئك الذين لم يعرفوا بما حصل. لم تضع الرسالة، وصدّق الكثيرون من أهل القسرى أن جنكيز نفسه قد عاد، ولم يزعج رجال تشاغاتي أنفسهم بتصحيح الخطأ.

أصبح بايدور الآن طويل القامة. وكانت عيناه صفراوين شاحبتين؛ وهذه هي الصفة التي تميّز سلالة الخان العظيم، وتضمن له طاعة فورية بين أولئك الذين عرفوا جنكيز. راقبه تشاغاتي عن كثب وهو يوجّه حصانه عبر الأرض صعبة التضاريس. كان هذا عالماً مختلفاً - كما فكّر تشاغاتي - وكتيباً قليلاً؛ فعندما كان في مثل عمر بايدور، نشب صراع بينه وبين شقيقه الأكبر جوشي، ولم يُبد أي منهما استعداداً للتنازل عن احتمال أن يصبح الخان بعد والدهما. كانت تلك ذكرى مريرة، ولسن ينسى تشاغاتي أبداً اليوم الذي تخامها فيه والدهما وعين أوجيدي خلفاً له.

كان الهواء حانقاً طوال اليوم. لكن، عتدياً بدأت الشمس تميل إلى الغروب أصبح الهواء أكثر برودة، واستطاع تشاغاتي أن يسترخي ويستمتع بالمنظر والأصوات حوله. كانت إمارته منطقتة شاسعة؛ حتى إنها أكبر من الديار، وقد ظفر جنكيز بها، لكن تشاغاتي لم يكن ليزدري هبة شقيقه. بدأت المنحدرات أقرب، ورأى بايدور ينظر إليه نحو الخلف ليتوثق من المكان الذي يرغب في الذهاب إليه. قال: "إلى أسفل الجرف الصخري. أريدك أن ترى إحدى العجائب".

ابتسم بايدور، وشعر تشاغاتي بنوبة عطف وفخر. هل أحسن والده يوماً بمثل هذا الشعور؟ لم يكن يعرف. للحظة، تمثى أن يكون جوشي حياً حتى يتمكن من إبلاغه كيف أضحت الأمور مختلفة، وكيف أصبح عالمه أكبر من الإرث الصغير الذي تقاتلا من أجله. كانت الأفاق واسعة بما يكفي لهم جميعاً كما أدرك آنذاك. لكن الحكمة التي يكتسبها الإنسان مع تقدّمه في العمر تصبح أفضل بعد أن يغيب أولئك الذين فشلوا. لم يكن بمقدوره استعادة سنوات شبابه أو أن يعيشها بفهم أكبر. كم كان نافذ الصبر سابقاً، وأحقق! كان قد أقسم عدّة مرات ألا يقترب الأخطاء نفسها مع أبنائه. لكن، بدا أن عليهم هم أيضاً اختيار دروبهم. فكّر آنذاك في ابن آخر له لقي حتفه في غارة شتّى بعض رجال القبائل البائسين، وقد كان حظّه العاثر هو الذي ساقه إليهم حيث يخيمون. جعلهم تشاغاتي يعانون الأمرين من أجل وفاة ذلك الفتى، وتعاضم حزنه ثم تلاشى بالسرعة نفسها. لقد رافقه

الموت في حياته دائماً، لكن تشاغاني نجا في حين أن رجالاً آخرين - ربما أفضل منه - سقطوا، وبدا أنه من سلالة محظوظة.

عند أسفل الجرف الصخري، استطاع تشاغاني رؤية مئات البقع الداكنة، وعرف من رحلاته السابقة أنها كهوف؛ بعضها طبيعية، لكن معظمها حُفرت في الصخر من قبل أولئك الذين فضلوا الملاحة الباردة على المنازل المصنوعة من الحجر في السهل. كان اللص الذي رآه في ذلك اليوم قد شيّد قاعدته في تلك الكهوف، وبعضها تنوغل في الأرض مسافة كبيرة، لكن تشاغاني لم يظن أنها ستكون مهمة صعبة جداً. كانت الفرقة التي تسير خلفه قد جلبت معها حطباً كافياً لسد مدخل كل كهف، ولإخراجهم منها باستخدام الدخان مثلما تغادر الدببة البرية ملاحظتها.

كان هناك شكلان غامضان يرتفعان فوق أعمدة الدخان الداكن أمام فتحات الكهوف. وبدا هذان الشكلان محفورين في الصخور. رأتهما عينا بايدور الثاقبان من مسافة ميل، وأشار إليهما بإثارة محذراً إلى والده ليحصل على جواب. ابتسم تشاغاني له وهزّ كتفيه؛ بالرغم من معرفته الجيدة لهما. كان هذا أحد الأسباب التي جعلته يحضر ابنه معه في هذه الرحلة. كبر الشكلان الداكنان حين اقتربا منهما، حتى إن بايدور شدّ لجام حصانه عند قاعدة أكبرهما، وقد شعر بالرهبة حين ميّزت عيناه الشكل داخل الجرف الصخري.

كان ذلك الشكل تمثالاً ضخماً؛ أكبر من أي شيء صنعه الإنسان وراه بايدور من قبل، ويمكن رؤية طبّات رذائه محفورة في الصخر البني. كانت إحدى يدي التمثال مرفوعة وراحتها مفتوحة، والأخرى ممدودة وكأنها تقدم قرباناً. ولم يكن مثيله أصغر بكثير. تمثالان مبتسمان ينظران إلى الشمس الغاربة.

سأل بايدور مذهولاً: "من صنعهما؟" كان يهيمّ بالاقتراب منهما أكثر، لكن تشاغاني طلق بلسانه ليقفه. كان بصر المقيمين في الكهوف حاداً، وهم يجيدون استعمال القوس، ولم يكن ينفع أن يستفزّهم ابنه. قال: "إلّهما تمثالاً بوذا".

رد بايدور: "هنا؟! أهالي تشن بعيدون جداً". وفتح كفيه وأغلقهما. وبدا واضحاً أنه يريد أن يتوجّه إليهما وأن يلمسهما.

قال تشاغاني: "معتقدات الرجال لا تعرف حدوداً يا بني. وبالغصلة، هناك مسلمون ونصارى في كاراكوروم. ولا تنسَ أن مستشار الخان أحد أولئك البوذيين".

قال بايدور: "لا أفهم كيف استطاعوا نقل هذين التمثالين... لا، لقد حُفرا هنا، وأبعدت الصخور عنهما".

أوما تشاغاني سعيداً بذكاء ولده الحاد. كان التمثالان قد نُحنا في الصخور نفسها، وظهرتا على هبنتهما تلك نتيجة جهد شاق.

"وفقاً للرجال المحليين، إلهما يقفان هنا منذ أمدٍ بعيد لا يتذكره أحد. وربما حتى منذ آلاف السنين. هناك تمثال الحربي في التلال، وهو تمثال ضخم لرجل يستلقي على الأرض".

شعر تشاغاني بفخر غريب؛ وكأنه مسؤول عنهما. وكانت سعادة ابنه البسيطة مصدر فرح له.

سأل بايدور: "لماذا أردت أن تُريني إلهما؟ أنا شاكر لك. إلهما... مدهشان. لكن، لماذا أُرِيتني إلهما؟".

ربت تشاغاني على خطم حصانه الأملس مستحسماً أفكاره.

قال: "لأن والدي لم يكن يعتقد ببناء المستقبل. فقد اعتاد أن يقول إن أفضل سبيل يسلكه الإنسان لتمضية حياته هو الحرب مع أعدائه. جاءت الغنائم والأراضي والذهب التي رأيتها مصادفة تقريباً بفضل تلك المعتقدات. وهو لم يسمع إليها بنفسه قط. لكنك ترى هنا برهاناً يا بايدور. ما نبتيه يمكن أن يدوم وأن يتذكره الناس؛ ربما بعد ألف جيل".

قال بايدور بهدوء: "أفهم هذا".

أوما تشاغاني وقال: "اليوم، سُرغم اللصوص وقطّاع الطرق الذين يسكنون الكهوف على الخروج منها باستخدام الدخان. كان بمقدوري دك الحرف الصخري بالمنحنيقات، وتحويله خلال شهور أو سنوات إلى أنقاض، لكنني اخترت ألا أفعل هذا بسبب هذين التمثالين. إلهما يذكراني بأن ما نصنعه يمكن أن يبقى بعدنا".

عند غروب الشمس، وقف الأب والابن وهما يراقبان الظلال التي تتحرك على وجهي التمثالين الصخريين الضخمين. وخلفهما، صرخ قادة الفرقة، وصرخوا

لرحالهم حتى نُصبت خيمة الخان، وأشعلت النيران لتحضير وجبة المساء. كان الرجال في الكهوف سينتظرون ليلة أخرى، وربما سيحاول بعضهم الهرب في الظلام، لكن تشاغاتي جعل محاررين يختبئون على الطرف الآخر، وينتظرون أي شخص يحاول الفرار.

عندما جلسوا لتناول الطعام، راقب تشاغاتي بايدور وهو يضع ساقاً علىي أخرى، ممسكاً كوب الشاي بيده اليمنى، وممسكاً بيسراه مرفقه تلقائياً. كان ابنه محارباً وشاباً رائعاً، ولا تزال أمامه سنوات ملؤها العتقوان.

قبل تشاغاتي الشاي وطبقاً كُدِّست عليه كتلٌ من خبز الفطير ولحم الضأن المتبل جيداً ذي رائحة زكية.

قال أخيراً: "أمل أنك تفهم الآن لماذا عليّ إرسالك بعيداً يا بني."

توقف بايدور عن المضغ، وتابع تشاغاتي كلامه:

"هذه أرض جميلة وبانعة وغنية بالحيوات، ويستطيع الرجل أن يقود حصانه هنا طوال اليوم، لكنها ليست المكان الذي سيصنع فيه الأمة تاريخها. لا يوجد صراع هنا؛ حتى إذا أخذت في الحسبان العدد القليل من المتمردين ولصوص الماشية. لا، المستقبل يُكتب في الغرب البعيد يا بايدور، ويجب أن تكون جزءاً منه." لم يتكلم ابنه، وبدت عيناه داكنتين في الظلمة. أوما تشاغاتي سعيداً لأن كلامه لم يضع سدى، ثم مدّ يده إلى ثوبه، وسحب حزمة من الرقي.

"بعثت رسائل إلى شقيقي الخان، أطلب فيها السماح لك بالانضمام إلى تسوبودي، وقد منحني ذلك الإذن. ستأخذ فرقتي الأولى لتكون تحت إمرتك، وستتعلم كل ما تستطيع تعلمه من تسوبودي. أنا وذاك الرجل لم نقاتل على الجانب نفسه دائماً، لكن، لا يوجد معلم أفضل منه. وفي السنوات القادمة، ستساوي حقيقة أنك عرفت القائد تسوبودي الكثير في عيون الرجال."

ابتلع بايدور لقمته بصعوبة، وأحنى رأسه. كانت تلك كبرى أمانيه، ولم يعلم كيف عرفها والده. وبالرغم من أن الولاء أبقاه في الإمارة، إلا أن قلبه بقي معلقاً بتلك الرحلة العظيمة؛ على بعد آلاف الأميال إلى الشمال الغربي. لذا، أحس حين سمع قرار والده بأن الفرح يغمره.

قال بصوت متوتر: "لقد شرفتني."

ضحك تشاغاني بصوت خافت، ومدّ يده ليعبث بشعر ابنه قائلاً: "انطلق بسرعة أيها الفتي. إذا كنت أعرف تسويدي جيداً، فأنا متأكد من أنه لن يخطف سرعته من أجل أي شخص".

قال بايدور: "كنت أظن أنك ربما سترسلني إلى كاراكوروم".
هزّ والده رأسه، وقد تجهم وجهه فجأة، ثم قال: "لا مستقبل يُكتب هناك. نثق بسي في ما يتعلق بهذا الأمر. إن المكان هناك ماء راکد، حيث لا شيء يتحرك ولا حياة تنشط. لا، المستقبل في الغرب".

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل التاسع عشر



أنت الريح ثم همت مثل كائن حي يسحب الهواء بصعوبة في أثناء تنفّسه. استمر هطول الثلج، لكنه لم يحجب الدروب. قاد تسوبودي ورجاله خيولهم على طول نهر موسكوفيا المنحند تحتهم. كان الجليد يبدو مثل عظام بيضاء في العتمة. وكانت مدينة موسكو تقع أمامهم، وكاتدرائياتها ودور عبادتها ترتفع عالياً في الأفق. حتى في الظلام، توهجت المصابيح خلف المصاريع الخشبية في الجدران. كانت معظم البيوت في المدينة مغلقة وموصدة في منتصف الشتاء، فالبرد القارس يقتل العجوز والضعيف.

تقدم المغول بمهدين وهم يطأطئون رؤوسهم، وحوافر الخيول ولحُمها مغطاة بالقماش. كان النهر الذي يمشون عليه يصل إلى وسط المدينة، وعريضاً جداً ولا يمكن حراسته أو سدّه، ويمثّل نقطة ضعف طبيعية. رفع الكثير من الشارين أبصارهم إلى الأعلى حين مرّوا تحت جسر من الخشب والحجارة يمتد فوق النهر المنحند على أقواس مثبّطة بأعمدة ضخمة. لم يسمعوا أي صيحة عالية تصدر من الجسر نفسه؛ إذ لم يكن نبلاء المدينة قد فكّروا في أن أي جيش غزو ربما يكون مجنوناً بما فيه الكفاية ليمشي على الجليد إلى وسطهم.

سارت فرقان فقط على بحرى النهر متجهتين إلى موسكو، في حين اتجه باتو ومونغكي إلى الجنوب، وهما يغزوان البلدات ويتوثقان من عدم وجود قواتٍ تخرج لاعتراض جيوش المغول. كان غويوك وكشيون أبعد شمالاً؛ ليمنعا جيش الإغاثة من أن يشق طريقه بالقوة لإنقاذ المدينة. لم يكن هذا ممكناً، وبدا أن الفرق المغولية هي الوحيدة التي تستطيع التحرك في أكثر شهور السنة برودة. كان الهواء القارس قاسياً، وشدّ البرد وجوههم وأيديهم وأقدامهم، وأفقدتهم قوتهم، لكنهم تحمّلوا

رغم ذلك. ارتدى الكثيرون منهم عباءات فوق دروعهم، ووضعوا دهن الضأن على المناطق المكشوفة من جلودهم، ولفوا أنفسهم بطبقات من الحرير، وتجمّدت أقدامهم على الرغم من صوف الأغنام الذي حشوا به أحذيتهم، وفقد عدد منهم أصابع أقدامهم بالرغم من كل ما فعلوه. كانت شفاههم متشققة آنذاك، ولعابهم متجمداً، لكنهم بقوا أحياء. وعندما نقصت المون، شربوا الدم من مطباتهم، وملأوا أفواههم بالسائل الحار الذي يمكن أن يغذيهم. أصبحت الجياد هزيلة، على الرغم من أنها تعلّمت أن تخفر في الثلج لترعى الأعشاب المتجمدة تحته، فقد ترعرعت هي أيضاً في أرض قاسية.

تحرك مستطلعو تسوبودي بسرعة أكبر من سرعة القوّة الرئيسيّة، وهم يخاطرون بأحسنتهم على الأرض الجليدية ليحلبوا أول تحذير عن أي دفاعات منظمّة. بدت المدينة صامتة على نحو غريب، وعزّز الثلج مثل ذلك الهدوء في الجو، حتى إن تسوبودي استطاع سماع الأناشيد. لم يعرف اللغة، لكنّ، بدا له أن الأصوات البعيدة تلائم البرد، وهزّ رأسه. كان الطريق الجليدي جميلاً على نحو عجيب بفضل الظلال وضوء القمر، لكنه لم يكن مكاناً مناسباً للتأمل. كان هدفه سحق أي شخص يتمتع بالقوّة ليقف أمامه؛ وعندها فقط يستطيع المضي قدماً، بعد أن يعرف أن حاصرته جيّشه ومؤخره بأمان.

لم تكن المدينة نفسها كبيرة، وقد بُنيت كاتدرائياتها على أراضٍ عالية فوق النهر، وحوفاً بمجموعة من منازل رجال الدين والأسر الثرية. نُحِت ضوء القمر، كان من الممكن رؤيتها وهي تمتد نزولاً على التلال إلى بلدة مليئة بمبانٍ أصفر، تنائر في المنطقة هناك. كان النهر يغذيها كلها بالمياه ويمتصها الحياة، كما يحمل الآن الموت إليها. ارتفع رأس تسوبودي حين سمع صوتاً يصرخ في مكان قريب منهم، بنبرة عالية وحادة. بدا الذعر واضحاً، وعرف أنهم قد رأوهم أخيراً، لكنه دُهِش؛ لأن الأمر استغرق كل ذلك الوقت. صاح الصوت وصرخ، ثم غصّ حين استفاد أحد المستطلعين الذين ينطلقون على طول الضفتين مما سمعه وحدّد مكانه. كان دم أحمر قانٍ سراقٍ على الثلج؛ وها هو أول شخص يلتقي حتفه في هذه الليلة. لكن صوت المراقب سُمع، ولن يطول الأمر قبل أن تُقرع الأجراس البعيدة وتطلق إنذاراً في الظلام الساكن.

كان الصمت يسود الكاتدرائية، والهواء يعبق برائحة البحور الذي يتصاعد من المبخرة دحاناً أبيض. جلس الدوق الأعظم ياروسلاف مع أفراد أسرته على المقاعد الخشبية المخصصة لهم، مطأطأ رأسه ومستمعاً إلى الكلمات التي كُتبت قبل ثمانية قرون.

لم يكن الدوق مرتاحاً، بالرغم من محاولته وضع هموم العالم جانباً، واستمداد الراحة من إيمانه. من يعرف أين سيضرب المغول اللعينون لاحقاً؟ إنهم يتحركون بسرعة كبيرة، وقد مزقوا الجيوش التي أرسلها. كان ثلاثة آلاف من أفضل فرسانه قد قتلوا في بداية الشتاء، بعد أن خرجوا للعشور على جيش المغول وتحديد موقعه، وليس للاشتباك معه، فلم يعودوا. كان كل ما لديه شائعات عن بقع دماء وُجدت على التلال، وغطاها الثلج الآن.

فرك الدوق ياروسلاف كفيه معاً حين ملأ البحور الكئيف رثيه.

كانت المقاعد الخشبية مزدحمة، ولكن ليس بسبب الاحتفال بالميلاد فقط. تساءل ياروسلاف عن عدد الذين سمعوا عن الذئب ذي الفم الأحمر الذي يصطاد في التلال وعلى الثلج؟! كانت الكاتدرائية مكاناً للقضاء والأمان، بالرغم من أنها باردة كثيراً حيث إنه بإمكان المرء أن يرتدي معطفاً ثقيلاً من الفراء. هل هناك مكان أفضل ليلجأ إليه المرء في مثل هذه الليلة؟

كانت الكلمات التي يقولها رجل الدين مريحة في مثل هذه الليلة. عرف ياروسلاف أن عليه تركيز أفكاره على الاحتفال بالميلاد.

مسّت يد زوجته ذراعه، وأدرك أنه يجلس مغمضاً عينيه، وهو يهتز بصمت مثل السيدات العجائز. كان عليه أن يحافظ على رباطة جأشه، فهناك عيون كثيرة تراقب ما يحدث، ويتطلع الجميع إليه لحمايتهم، لكنه شعر بالعجز والضياع. لم يوقف الشتاء جيوش المغول. ولو أن أشقاه وأبناء أعمامه وثقوا به لتمكّن من إرسال قوة إلى الميدان لتدمير الغزاة، لكنهم عوضاً عن ذلك ظنوا أنه يدبر مكيده للاستيلاء على السلطة وتجاهلوا رسائله ومبعوثيه. ما أصعب أن يكون المرء محاطاً بمثل هؤلاء الحمقى! كان الشعور بالسكينة صعباً بالنسبة إليه؛ حتى في مثل هذه الليلة.

ترددت أصداء صوت رجل الدين بتواتر منتظم. لم يعرف ياروسلاف إن كانت جيوش المغول ستهاجم مدينتيه فلاديمير وموسكو. هل سيصلون إلى كييف؟

لم تكن سنوات كثيرة قد انقضت منذ أن توغلوا عميقاً في الغابات والسهول الجرداء، وقتلوا كما يشاءون، ثم احتفوا مجدداً. وتناقل الناس عدّة قصص وأساطير عن "التتار" المخيفين. بدا أن هذه القصص كل ما تخلفوه وراءهم في المرة الماضية. ومثل عاصفة، كانوا قد ضربوا ثم احتفوا.

لم يكن لديه شيء يمكن أن يردعهم، وبدأ ياروسلاف يفرك كفيه معاً مجدداً، ويتضرّع بصدق وإخلاص لكي تنحو مدينته وأسرته. كان يعلم أن الله رحيم، وأن المغول لا يعرفون الرحمة.

بعيداً، استطاعوا جماع صرخات خافتة. رفع الدوق بصره إلى الأعلى ليجد زوجته تحدّق إليه، وتعبير الارتباك باقٍ على وجهها. استدار إلى حيث سمع وقع أقدام بحري. لم يكن سيُستدعى في مثل هذه الساعة بالتأكيد. ألا يستطيع ضباطه تولّي زمام الأمور لليلة واحدة من دونه، في حين يجد السلوان في دار العبادة؟ لم يكن يرغب في أن ينهض عن مقعده. تردد، وسمع وقع خطى المزيد من الأقدام. وحين صعد شخص الدرج مسرعاً إلى برج الجرس. انقضت معدة ياروسلاف برعب مفاجئ؛ لا، ليس هنا، ليس هذه الليلة.

بدأ الجرس يُقرع فوق رأسه، ورفع نصف الموحشين في الكاتدرائية أبصارهم إلى الأعلى، وكان بمقدورهم الرؤية عبر العوارض الخشبية. رأى ياروسلاف رجل الدين ديمتري يمشي نحو فوق بسرعة وهو يكافح للسيطرة على خوفه. لكن، قبل أن يصل رجل الدين إليه، انحنى إلى الأسفل وهمس في أذن زوجته.

"خذني الأولاد الآن، واستقلي العربة إلى الثكنات لتنجوا بحيواتكم. اعشري على قسطنطين؛ ستجدينه هناك مع حيولي. اخرجي من المدينة، وسأتبعكم حين أستطيع ذلك".

شحب وجه زوجته رعباً لكنها لم تردد، وجمعت بناتها وأبناءها وساقتهن أمامها مثل إوز يشعر بالنعاس. بدأ الدوق ياروسلاف يتحرك آنذاك، فغادر مقعده، ومشى بخطوات واسعة في الممر الأوسط. كانت كل العيون مسرّة عليه، ولحق رجل الدين ديمتري بالدوق وتجرأ على أن يمسك ذراعه، وتكلم معه بصوت خافت وأجش.

"هل هناك هجوم؟ هل هم التتار؟ هل يمكنك الدفاع عن المدينة؟"

توقف الدوق ياروسلاف فجأة، فاصطدم الرجل العجوز به. في ليلة أخرى، ربما كان سيأمر بجلد رجل الدين بسبب وقاحته، لكنه لم يكن ليكذب في دار العبادة.

"إذا كانوا هنا، فلا يمكنني صدّهم، لا. اعين برعينك، يجب أن أنقذ أسرتي".
تراجع رجل الدين إلى الخلف وكأنه تعرض لضربة، وفغر فمه رعباً. وفوق رأسيهما، استمر قرع الجرس، فنشر اليأس عبر المدينة.

سمع الدوق صراخاً بعيداً حين أسرع بالخروج من المكان، فيما حذاء ركوب الخيل الذي ينتعله ينزلق على الحصى المتجمدة. رأى عربة أسرته تتحرك آنذاك؛ شكلاً داكناً يتعد في الظلام، وجميع فرقعة سوط الخوذي تتردد على كلا الجانبين. استطاع سماع صوت ابنه العالي يتلاشى بعيداً، غافلاً عن الخطر كما قد يكون أي طفل آخر.

كان الثلج قد بدأ يهطل مجدداً، وارتعش ياروسلاف وهو واقف مكانه، وتسارعت الأفكار في ذهنه. طوال شهر، كان قد سمع تقارير عن فظائع المغول، وعرف أن مدينة ريزان قد أصبحت أنقاضاً يتصاعد منها الدخان، فذهب إلى هناك بنفسه مع مجموعة من حراسه فقط، وتقياً اثنان منهم على الثلج بسبب ما شاهدها. كانوا رجالاً أشداء معتادين على الموت، لكنهم واجهوا دماراً شاملاً، وعلى نطاق لم يعرفوه قط. كان عدوهم لا يقيم وزناً للشرف. فقد خاض حروباً ودمر مدناً ليسحق إرادة عدوه. تقدم الدوق نحو حصان معاونه الذي يصهل، وكان حصاناً غير مشدّب العرف وسريعاً وأسود مثل الليل.

قال بحمّة: "ترجل، عد إلى الثكنات سيراً على قدميك".
قال الرجل فوراً: "حاضر يا صاحب النياقة". وأخرج قدميه من الركاب وقفز إلى الأسفل على الثلج.

عندما اعتلى الدوق الحصان، وجد أن السرج لا يزال دافئاً، وتراجع المعاون إلى الخلف وحيّاه. لم ينظر ياروسلاف إليه، وإنما أدار الحصان، ودفع بعقبه ردف الحصان، فقعقت الحوافر على الطريق الحجري حين انطلق الحصان مبتعداً. لم يكن من الممكن جعله يعدو بسرعة على الجليد من دون أن يخاطر بالسقوط الذي ربما

يقتله هو والحصان أيضاً. سمع صرعات قريبة منه، ثم صليل فولاذ على فولاذ؛ ضربة سيف انتقل صوتها في الهواء المتحمّد من مكان لا يعلمه إلا الله. حوله، كانت المدينة النائمة تستيقظ، وظهرت شموع ومصابيح قرب النوافذ، وتأرجحت في أيدي الرجال الذين خرجوا ليقفوا في الشارع وهم يصرخون مستفسرين. لم يكن أي منهم يعرف شيئاً، وأكثر من مرة، تعثروا ووقعوا حين حاولوا تفادي الحصان الأسود وحياله.

لم تكن الشككات بعيدة، وتوقع تقريباً أن يرى عربة أسرته أمامه. كان بمقدور الخوذي أن يرغم الخيول على الجري بسرعة كبيرة، فهي ستبقى ثابتة بفضل ثقل العربة والأشخاص داخلها. تضرّع الدوق ياروسلاف بصوت خافت، وطلب من الله أن يحمي صغاره. لم يكن بمقدوره هتاف المدينة من المغول القادمين، وكل ما يستطيع فعله هو الهروب. أخطر نفسه، أن هذا هو القرار التكتيكي الصائب، لكن العار الذي شعر به أحرقه حتى في البرد.

عندما انطلق على صهوة الحصان، تجاهل الأصوات التي نادته، وعرف أنه لن يكون هناك ناجون كثير، ليس والعدو قد جاء في منتصف فصل الشتاء. لم يكن أحد يتوقع ذلك، كما قال لنفسه. كان قد جمع جيشه قرب كيف استعداداً للقتال ربيعاً، وجلس مقاتلوه في معسكر شتوي خلف سياج خشبي ضخم، على بعد نحو ثلاثمئة ميل إلى الجنوب الغربي. لم يكن لديه إلا ألفا رجل في موسكو وهم ليسوا أفضل جنوده، والكثيرون منهم حرجى ومحمضون الشتاء في رغد المدينة بدلاً من معسكرات الجيش، حيث يمثل الزحار والكوليرا تهديداً دائماً. قسّى الدوق فواده لدى تفكيره في ما سيكون عليه مصيرهم، فقد كان عليهم أن يقاتلوا ليمنحوه وقتاً للفرار. لم يكن بمقدوره إلا أن يأمل ألا يكون جيش المغول قد سدّ الطرق إلى خارج المدينة بعد، وأن أحدها لا يزال مفتوحاً؛ من أجل أسرته.

سطع ضوء القمر على الثلج المتساقط فوقه حين عبر جسراً خشبياً فوق نهر موسكوفا المتحمّد. ألقي نظرة عليه حين قعقت حوافر حصانه فوق الخشب العتيق، وتسمّر على السرج لدى رؤيته النهر الأبيض مغطىً بخيول ورجال. كانوا ينتشرون آنذاك على الضفتين مثل دم مسفوح وأسود في الليل. استطاع سماع المزيد من الصرعات حين اقتحموا المنازل قرب النهر، فأخفض رأسه وتابع سيره، واضعاً

السيف المزخرف في غمده. شعر بالذعر عندما شاهد أشخاصاً داكئين يتسلقون عوارض الجسر الخشبي. أما رجالان؟ لا بل أربعة. كانوا قد سمعوا وقع حوافر حصانه. وعندما رآهم طنّ شيء بجانب وجهه بسرعة. تمتى أن يكون الحصان الأسود هدفاً صعباً، ودفع بعقبسي قدميه ردي حصانه مجدداً؛ غافلاً فجأة عن الأرض الزلقة. لاح رجل قربه عند جانبيه الأيمن فركله ياروسلاف، وشعر بسوخزة ألم تسري في ساقه حين التوت ركبته من أثر الصدمة. سقط الرجل بصمت بعد أن تحطم صدره من حذاء تلك الضربة، وأصبح الدوق حراً آنذاك، والطريق الأبيض مفتوح أمامه حين وصل إلى نهاية الجسر.

شعر بالسهم يصيب حصانه، وأن الحيوان أماً وصهل بقوة أكبر مع كل خطوة، وتباطأت سرعته، فركله ياروسلاف بقدميه وانحنى إلى الأمام وهو يحاول أن يحصل على آخر اندفاعه منه. كانت يده قد أمسكت اللحم منذ سن مبكرة، وشعر تقريباً بالحياة تخرج من جسد الحصان الذي كافح للمضي قدماً مذعوراً، وواجه يخته على الاستمرار في السير. انعطفت حول زاوية خلفاً الجسر وراه، لكن قلب الحيوان الكبير لم يستطع نقله إلى مكان أبعد، وسقط بقوة على الأرض، من دون سابق إنذار، حين المارت قائمته الأماميتان. وقع ياروسلاف، وأمال رأسه محاولاً أن يتدحرج حين سقط على الأرض. وعلى الرغم من الثلج، كانت الأرض مثل الحديد فاستلقى مذهولاً. كان يعرف أن عليه أن ينهض بطريقة ما على قدميه قبل أن يأتوا بحثاً عنه. كافح للوقوف وهو يشعر بأنه مصاب بالدوار وضعيف، وفرغ حين طقطقت ركبته. ما كان ليصبح، فقد استطاع سماع أصواتهم خلف الزاوية.

بدأ يترنح مبتعداً بطريقة فطرية أكثر من كونها وعياً بأي غاية يحققها. شعر بأن ناراً تشتعل في ركبته حين مذبذبه إليها، وعض شفته ليوقف صرخة ألم. بدأت ركبته تتورم آنذاك. كم كانت الثكنات تبعده؟ أصبح المشي مؤلماً، ولم يكن بمقدوره إلا أن يجر ساقه المصابة. اغرورقت عيناه بدموع غير مرغوب فيها حين وجد نفسه مضطراً إلى وضع ثقله عليها، وترنح مع كل خطوة يخطوها. أضحى الألم أشد حتى ظنّ أنه قد يقع مغشياً عليه فوق الثلج. هل كان بمقدوره أن يتحمل وقتاً أطول؟ وصل إلى زاوية أخرى وسمع خلفه أصواتاً تعلو، وعرف أنهم قد وجدوا الحصان.

كان الدوق قد رأى الجثث المحترقة في رهازان، وأرغم نفسه على المشي بسرعة أكبر بضع خطوات، لكن ساقه لم تساعد و كان لا سيطرة له عليها. ارتطم بالأرض بقوة وعض لسانه، وشعر بدم كربه الطعم في فمه.

كان ضعيفاً ولا يزال يشعر بالدوار، اغثنى وبصق على الأرض. لم يكن بمقدوره أن يجثو ليلتقط أنفاسه ويسترد قوته، فركبته لا تزال تسبب له ألماً فظيعاً حتى حين يمسيها. لذا، بدلاً من ذلك، مذبذبه إلى الجدار، ورفع نفسه إلى الأعلى بذراعيه. توقع أن يسمع في أي لحظة وقع أقدام تجري نحوه حين لحقت حيوانات المغول به؛ تجدها ربما رائحة الدم. استدار ياروسلاف ليواجههم، مدركاً أنه لم يعد يستطيع الحرب.

ومن حيث يقف بجانب جدار منزل، رأى مجموعة من المغول الذين يمشون سراً على الأقدام، ويوجهون خيولهم إلى حيث تقودهم آثاره، فتأوه لدى رؤيته ذلك. كان الثلج لا يزال بهطل، لكن آثار قدميه ستبقى ظاهرة للعيان ساعة أخرى، أو أكثر. لم يكونوا قد رأوه بعد، لكن أيًا كان يستطيع سلوك ذلك الطريق؛ حتى الطفل. نظر حوله بائساً بحثاً عن المساعدة، ومدركاً على نحو مؤلم أن كل جنوده في الثكنات. ستكون أسرته الآن على الطريق الجنوبي الغربي متجهة إلى كييف، ووفقاً لما يعرفه عن قسطنطين، سيرسل الجندي العجوز الأشيب مئة من أفضل الرجال وخبولاً معها.

لم يعرف ياروسلاف إن كان الباقون سيثبتون في مواقعهم ويقاومون أم سيخفون ببساطة في الظلام، وسيتركون المواطنين لمصيرهم. استطاع أن يشم آنذاك رائحة دخان في الهواء، لكنه لم يستطع إبعاد ناظره عن الرجال الذين يلاحقونه. فبسبب انفعاله ذاك، ظن أنه قد ابتعد عنهم مسافة أطول، لكنهم لم يكونوا بعيدين عنه أكثر من خمسين أو ستين خطوة، وكانوا يشيرون آنذاك في اتجاهه.

جاء خيال من الجسر وهو يقود حصانه خيماً على الطريق، ورأى ياروسلاف الرجال يشدون قاماتهم من حيث يقفون محذقين إلى آثاره. بدوا لعينيه مثل كلاب تواجه ذئباً؛ فقد وقفوا وهم يطأطئون رؤوسهم. أصدر الرجل أوامر لهم، وبدأ ثلاثة من الرجال الأربعة بالحرك فوراً، وحذق الأبحر إلى الظلال التي تخفي

الدوق؛ وكان بمقدوره أن يراه. حيس ياروسلاف أنفاسه حتى تبيّدت أحاسيسه. أخيراً، وأما الرجل الأخير متجهماً وامتنطى حصانه، وأداره عائداً إلى الجسر. راقبهم الدوق وهم يذهبون بمشاعر مختلطة. لم يكن يصدّق أنه سيعيش، لكنه اكتشف في الوقت نفسه أن المغول يتميزون بانضباط ورتب وتكتيكات. كان شخص أعلى رتبة قد أمر الرجال بالاستيلاء على الجسر والحفاظ عليه، وقد سحبتهم المطاردة القصيرة بعيداً عنه. لكن مسؤولاً مهماً من نوع ما عثر عليهم وأعادهم إلى أماكنهم. لقد نجا. لكن، عليه أن يواجههم في الميدان؛ وقد أصبحت المهمة الآتية أصعب كثيراً.

ترنّح حين انطلق بمشي مجدداً، وجعله الألم يطلق لعنات بصوت خافت. كان يعرف شارع النساخين، والتكنات لا تبعد عنه كثيراً. لم يكن في وسعه إلا أن يتضرّع لكي يكون هناك شخص لا يزال ينتظرونه.

وقف تسوبودي وحيداً في برج حجري، وهو ينظر إلى المدينة المتجمدة. وليصل إلى النافذة، اضطر إلى السير ببطء وحذر ليضاهي جرساً برونزياً ضخماً أصبح أخضر داكناً بمرور الزمن. وعندما حدّق إليه جيداً في ظلمة الليل، رأى أجزاء منه تعكس ألسنة اللهب؛ فتبدو وكأنها بقع من الذهب الأصفر تتحرك في الهواء. نقر بأصابعه على السطح المنقوش للحرس، واستمع بتكاسل إلى نغمته العميقة التي صدحت لوقت طويل.

كان هذا الموقع يلائمه تماماً. وفي ضوء النيران البعيدة، استطاع رؤية نتيجة هجومه المباغت على طول الطريق الجليدي. تحته، كان الحاربون المغول ينفلتون من كل عقال، وسمع ضحكاتهم حين مزّقوا ستائر حريرية عن الجدران، ورموا أقفاحاً وكؤوساً على الأرض الحجرية العتيقة على نحو لا يُصدّق. كانت هناك صيحات في الأسفل، بالإضافة إلى الضحكات.

لم تجابههم مقاومة كبيرة، ولقي الجنود الموجودون هناك حتفهم بسرعة حين انتشر المغول في الشوارع. كان الاستيلاء على المدينة عملاً دائماً دائماً، ولم يكن الرجال يتلقون ذهباً أو فضة من تسوبودي أو قادتهم. وبدلاً من ذلك، كانوا يتوقعون أن يكسبوا غنائم وجواري في كل مكان يقودهم إليه، ويجعلهم هذا الأمر

تواقين إلى الهجوم حين يحدّقون إلى أسوار مدينة. لكن، عندما يصبحون داخلها، يتنحّى الضباط جانباً.

لم يكن بمقدور أيّ منهم أن يسيطر على المخارين بعد ذلك، إذ يصبح من حقهم أن يطاردوا النساء والرجال في الشوارع. كانت رؤية المخارين وهم يتحدّرون إلى مثل تلك الحال تؤذي مشاعر تسوبودي. وبصفته قائداً كان عليه إبقاء بعض الوحدات صاحبة تحسباً لهجوم مضاد، أو لظهور عدو جديد في الصباح. كانت الفرق قد أبقت الكثير من المخارين غير المحظوظين على أهبة الاستعداد، فوقفوا وانتعشوا طوال الليل وهم يستمعون إلى الصرخات والمرح الصاحب، ويتمنون لو كان قد سُمح لهم بالانضمام إليهم.

زَمَّ تسوبودي شفثته انزعاجاً. كان يجب أن تُحرق المدينة، ولا حرج في ذلك. لم يكن يهتم بتاتا لمصير المواطنين فيها، فهم ليسوا قومه. لكن، رغم ذلك بدأ الأمر... إسرافاً وغير لائق. لم يكن يروق له أن يرى فرقة تعيثُ فساداً في المدينة لحظة سقوط سورها. ابتسم متعباً حين فكّر في ردود أفعالهم إذا عرض عليهم راتباً منتظماً بدلاً من الغنائم. كان جنكيز قد أخيره مرة أنه لن يصدر أبداً أمرٌ لن يطيعوه. لذا، لا يجب أن يدعهم يرون حدود سلطته. كانت الحقيقة أن بمقدوره استدعاهم من المدينة، وسيمثلون لأمره، ويتخلون عن كل شيء، سواء أكانوا ثلثين أم صاحين، وسيمتطون بحيلهم عائدين إليه؛ سيفعلون ذلك بالتأكيد، ولكن مرة واحدة فقط.

سمع ضحكاً أحسنّ يقترّب وصوت امرأة تنشج فزفر انزعاجاً حين أدرك أن الرجال يصعدون الدرجات. بعد لحظات فقط، رأى اثنين من محاربيه يسحبان شابة ويبحثان عن مكان هادئ. تجمّد الأول حين رأى الأورلوك واقفاً بجانب نافذة برج الجرس في الكاتدرائية. ورغم أن المخارب كان ثملاً وبجّاراً، إلا أن نظيرة تسوبودي شقّت طريقها إليه عبر الضباب. حاول الرجل أن ينحني على الدرجات وهو مندesh فتعثّر، وصرخ رفيقه خلفه يشتمه.

قال المخارب بمحمماً ومطأطأ رأسه: "سأتركك بسلام يا أورلوك". سمع رفيقه ذلك فصمت، لكن المرأة استمرت بمقاومتها.

أدار تسوبودي وجهه إليها وعيس. رأى أن ملابسها مصنوعة من قماش فاخر. كانت ابنة أسرة ثرية، لقي أفرادها على الأرجح حتفهم أمامها. كان شعرها السني

الداكن مربوطاً بمشيك فضي لكنه متحرر منه تقريباً، ويتدلى بخصلات طويلة، ويتطاير فيما هي تحاول الإفلات من قبضة المخارئين. نظرت إلى تسوبودي الذي رأى رعبها، وكاد يستدير ويتركهما يغادران المكان برفقتها. لم يكن المخاربان مثلين جداً، ولن يجروا على الحركة حتى بأذن لهما بذلك. لم يكن لدى تسوبودي أولاد أحياء، أو بنات.

قال تسوبودي بحدة، مفاجئاً الجميع - حتى نفسه - حين تكلم: "أتركاها هنا". كان القائد الجليدي، الرجل الخالي من المشاعر، لكنه يفهم نقاط ضعف الآخرين التي لا يشاركهم إيها. كانت الكاتدرائية جميلة بطريقتها الخاصة، وفيها أقواس حجرية مزخرفة أعجبتته. قال لنفسه إن هذه الأشياء هي التي تمس أحاسيسه، لا ذعر الفتاة الشديد.

أفلتها المخاربان واحتفيا نزولاً على الدرج بسرعة كبيرة، سعيدين لألحما أفلتا من دون عقاب أو واجبات إضافية. وعندما تلاشت قعقة حذائيهما، استدار تسوبودي مجدداً لينظر إلى المدينة. رأى مزيداً من الحرائق آنذاك، وأجزاء من موسكو تتوهج حمراء بفعل ألسنة اللهب. بحلول الصباح سيصبح معظمها رماداً، وستكون الحجارة ساحة جداً وستفتت الجدران.

سمع لهاثها وصوت حفيف حين التصقت بالجدار.

سأل بلغة تشن وهو يستدير إليها: "هل تفهميني؟".

نظرت إليه بلا انفعال وتهدت. لم تكن اللغة الروسية قريبة من أي من اللغات التي يعرفها. ورغم أنه تعلم بضع كلمات، إلا أنها لم تكن كافية لتعرف أنها بأمان. حدثت إليه وتساءل كيف سيشعر أب في مثل هذا الموقف. كانت تعلم أنها لا تستطيع الهروب عائداً أدراجها، فقد كان رجال عنيفون ومملون يتحولون في دار العبادة وفي الشوارع حولها. لم تكن لنذهب بعيداً، وبدا الوضع أكثر هدوءاً في برج الجرس. تنهد تسوبودي حين بدأت تشج بركة، ورفعت ركبتيها إلى صدرها وهي تنوح مثل طفل.

قال بحدة، منسزِعاً فحاة من إفسادها لحظة السكينة تلك: "اصمني". كانت قد فقدت حذاءها في مكان ما كما لاحظ؛ إذ كانت قدمها مخدوشتين وحافيتين. التزمت الصمت حين سمعت نبرته، وراقبها لبعض الوقت حتى رفعت بصرها إليه، فمد يديه لتوثق من ألحما خاليتان.

قال ببطء وهو يشير إلى صدره: "منيا زافوت تسوبودي". لم يكن بمقدوره أن يسألها عن اسمها، وانتظر بصر حتى يخف تورثها قليلاً.
قالت: "آنيا". تبع ذلك وابل من الأصوات التي لم يميّزها تسوبودي.
تابع بلغته الخاصة، وقال مشيراً إليها: "ابقي هنا. أنتِ بأمان هنا. سأذهب الآن".

بدأ يمشي ففزعت في البداية، لكن عندما أدركت أنه يحاول تجاوزها للوصول إلى الدرج الحجري، صرحت خوفاً، وتكلمت مجدداً، وعيناها واسعتان.
تنهّد تسوبودي وقال: "حسناً، سابقى. تسوبودي سيقى حتى تشرق الشمس، هل تفهمين؟ ثم سأغادر، وسيفادر الجنود، ويمكن أن تعثري على أسرتك آنذاك".

رأت أنه يستدير عائداً إلى النافذة، وبعضية زحفت على الأرضية حتى جلست قرب قدميه.

ثم تسوبودي: "حكيز خان، هل سبق لك أن سمعت بهذا الاسم؟". رأى عينيها تتسعان وأوماً لنفسه، وظهر شعور بالانزعاج نادر على وجهه.
"سيتكلمون عنه ألف سنة يا آنيا، وأكثر، وسيقنى تسوبودي مجهولاً؛ الرجل الذي انتصر في المعارك من أجله، وأطاع أوامره. اسم تسوبودي مثل دحان في النسيم".

لم تستطع أن تفهمه، لكن صوته كان لطيفاً، فضمت ساقها بقسوة أكبر، وتكوّرت قرب قدميه.

"إنه ميت الآن أيتها الفتاة. لقد رحل. وقد بقيت أنا لا أكفر عن ذنوبي. أنتم النصاري تفهمون هذا كما أظن".

نظرت إليه بلا انفعال، وحرّر عدم فهمها ما يقوله كلمات بقيت عالقة عميقاً في صدره.

قال تسوبودي بلطف: "لم تعد حياتي ملكاً لي، وكلمتي لا قيمة لها، لكن الواجب يستمر يا آنيا طالما بقيت أنتفس. هذا كل ما بقي لدي".

كان الهواء متجمداً، ورأى أنها ترتعش، فتنهّد وخلع عباءته وألقاها عليها. راقبها تتكوّرت تحت طياتها حتى لم يعد يظهر منها إلا وجهها. اشتد إحساسه بالبرد

من دون العباة التي كانت تغطي كتفيه، لكنه رَحَبَ بتلك المشقة، وبدت روحه
المعنوية في الدرك الأسفل، وتضخّم الحزن الذي يشعر به حين وضع يديه على
العتبة الحجرية للنافذة وانتظر بزوغ الفجر.

salmanlina
www.mlazna.com

الفصل العشرون



تميّز ياو شو عبقراً حين واجه سورهناني، وبدت رائحة العطر في الغرفة أقوى مما هي عليه عادة. كانت مزهوية بمنزلتها الجديدة مثلما تفتخر بأنواعها المترفة، وتستمد البهجة من عدد الخدم الذين يعتنون بها. كان أوجيدي قد منحها ألقاب زوجها، وبضربة واحدة، سيطرت على الأراضي الوسطى في سهول المغول؛ مسقط رأس جنكيز نفسه. لم يسع ياو شو إلا أن يتساءل إن كان الخان قد فكّر في كل شيء حين قدم العرض لتولي قبيل وفاته.

كانت أيّ امرأة أخرى ستدير الأراضي مهدوء، وحفاظ على الألقاب من أجل أبنائها حتى تنقلها إليهم، وذلك بالتأكيد هو ما قصده أوجيدي. إلا أن سورهناني فعلت أكثر من ذلك. ففي هذا الصباح تحديداً، أرغم ياو شو على أن يدمغ ويختم أمراً للحصول على أموال من خزينة الخان. كان ختم تولي الشخصي قد استخدم على الأوراق، ويوصفه مستشاراً لم يكن بمقدور ياو شو أن يرفضه، ونحت ناظره حمل حراسها كميات كبيرة من الذهب والفضة على عربات خشبية ونقلوها بعيداً، واستطاع أن يتخيل فقط ما ستفعله بالمعادن الثمينة؛ كأن تبني لنفسها قصرًا أو قرية أو طريقاً في البراري.

عندما جلس ياو شو في حضرتها، ردّد مقطعاً ميجلاً في ذهنه، ثم جعل أفكاره تهدأ. كانت قد منحته إذناً للمثول أمامها بوصفها أعلى منزلة منه. وكانت تدرك تماماً أن أسلوبها يزعج مستشار الخان. لم يكن غافلاً عن حقيقة أن خدم أوجيدي أسرعوا لتقدم الشاي لهما، ولم يشك في أن سورهناني قد اختارت أشخاصاً يعرفهم شخصياً لتؤكد سلطتها.

بقي ياو شو صامتاً حين تناول الكوب وارتشف منه، ولم يكن هناك شسيء
 يضاهي جودة شاي تشن؛ هذه الأوراق التي جاءت على الأرجح من مخزون الخان
 الخاص، وجرى شراؤها بثمن باهظ من مزارع الشاي في هانغزو. عبس ياو شو
 لنفسه حين وضع الكوب أرضاً، وفكّر في أنه خلال بضعة شهور فقط احتلّت
 سورهناتي مكانة بارزة لدى الخان. بدت طاقتها استثنائية، لكن ياو شو تفاجأ رغم
 ذلك من مهارتها في معرفة احتياجات الخان. وما أثار انزعاجه على نحو خاص
 أنه احترم الأوامر التي صدرت له، وقيل حاجة أوجيدي إلى السرية والعزلة. لم يكن
 المستشار قد فعل شيئاً خاطئاً، لكنها نشطت بطريقة ما في القصر، وبسطت
 سلطتها المفاجئة على الخدم، وكأنها ولدت لتفعل هذا. وفي أقل من يوم، كانت قد
 أنثت جناحاً من الغرف القريبة من جناح أوجيدي، وافترض الخدم أنها قد حظيت
 بموافقة الخان، لكن ياو شو شكّ في أنها قد تجاوزت الخطوة التي حصّتها بما مئة
 مرة، وأن سورهناتي قد غرست نفسها في القصر مثل قردة نختمت تحت الجلد.
 راقبها بإمعان وهي ترتشف الشاي، وأثار انتباهه ثوبها الأخضر المصنوع من حرير
 أخضر رائع، والطريقة التي عُقد بها شعرها بقطعة فضية، وجلدها المغطى بمسحوق
 شاحب حتى بدا مثل الخزف تقريباً؛ فهو بارد ومثالي. كان ثوبها وسلوكها يوحيان
 بأنها امرأة نبيلة من تشن، لكنها حدّقت إليه بنظرة قومها الهادئة والمباشرة. وبدت
 النظرة بحد ذاتها تحدّياً له وكافح حتى لا يقبل التحدي.

سألت: "هل الشاي منعش أيها المستشار؟"

أمال رأسه وهو يجيب: "إنه جيد جداً. لكن، يجب أن أسأل...".

"هل أنت مرتاح؟ هل أطلب من الخدم أن يجلبوا وسادة لظهرك؟"

فرك ياو شو إحدى أذنيه قبل أن يستقر في مكانه مجدداً. "لا أحتاج إلى
 وسائد يا سورهناتي. ما أريده تفسير للأوامر التي وصلت إلى غربي في الليلة
 الماضية".

"أقلت الأوامر أيها المستشار؟ أليست مثل هذه الأمور مرتبطة بك وبالخان؟
 هذا بالتأكيد ليس من شأني".

كانت عيناها واسعتين وبرهنتين، وأخفى سخطه بأن طلب المزيد من الشاي.
 ارتشف السائل لاذع الطعم مرة أخرى قبل أن يحاول مجدداً.

"أنا واثق أنك تعرفين يا سورهناني أن حراس الخان لن يسمحوا لي بالتحدث إليه".

كان هذا إقراراً مُذلاً، وتضرج وجهه حين تكلم، متسائلاً كيف استطاعت أن تقف بين أوجيدي والعالم، يمثل ذلك الحدق. كان كل الرجال حول الخان قد احترموا رغباته، لكنها تجاهلتها، وعاملت الخان وكأنه معتل أو طفل. كان قد شاع في القصر أنها تعتني به كما تفعل دجاجة مع فرخها. لكن، بدلاً من أن ينزعج أوجيدي، بدا أنه يجد السكينة في ذلك الدلال. لم يكن في وسع ياو شو إلا أن يأمل أن يستعيد عافيته بسرعة، ويرمي الذئبة خارج القصر ويحكم بنفسه مجدداً.

"إذا شئت أيها المستشار، يمكن أن أسأل الخان عن الأوامر التي قلت إنها أرسلت إليك. على أي حال، إنه متنوعك روحياً وجسدياً، ولا يمكن طلب أجوبة منه حتى يصبح قوياً مجدداً".

قال ياو شو: "أعرف هذا يا سورهناني". صلت أسنانه للحظظة، ورأت العضلات تهرت في فكه. "على الرغم من ذلك، لا بد أن هناك خطأ. لا أظن أن الخان يريد مني أن أغادر كاراكوروم في رحلة لا معنى لها إلى بلدات تشن الشمالية لجمع الضرائب. سأبتعد عن المدينة شهوراً".

قالت وهي تمزكتفيتها: "ومع ذلك، إذا كانت تلك هي الأوامر الموجهة إليك فستطيعها يا ياو شو، أليس كذلك؟".

ازدادت شكوكه، رغم أنه لم يفهم كيف لها أن تصدر أمراً بإرساله بعيداً. وجعله هذا أكثر تصميماً على البقاء وتحدي سيطرتها على الخان في ضعفه.

"سأرسل زميلاً لي لتنفيذ الأمر، فالوضع يستلزم بقائي هنا في كاراكوروم". عيست سورهناني قليلاً وقالت: "أنت تخاطر كثيراً أيها المستشار. في حالة الخان الصحية، لن يفيد أن تغضبه بعصيانك إياه".

"لديّ فعلاً أعمال أخرى، مثل إعادة زوجة الخان من القصر الصيفي حيث بقيت تلك الشهور الطويلة".

جاء دور سورهناني لتبدو منزعجة، وقالت: "لم يستدع توروجين". رد: "إنها ليست خادمته. وهي مهمة كثيراً برعايتك زوجتها. عندما سمعت أنك على علاقة وثيقة معه، قيل لي إنها أصبحت متشوقة للعودة لتشكرك شخصياً".

كانت عينا سورهناني باردتين حين نظرت إلى المستشار، واحتفى اشتمزازهما المتبادل بصعوبة حلف آداب السلوك والهدوء.

"هل تكلمت معها؟"

"عبر المراسلة بالطبع. أظن أنها ستصل بعد بضعة أيام". في لحظة إلهام، حرّف الحقيقة قليلاً لفائدته، وهو يشارك في اللعبة. "لقد طلبت أن أكون هنا لاستقبالها، ولتعرف آخر أنباء المدينة. وها أنت تعرفين الآن لماذا لا يمكنني مغادرة المكان في مثل هذا الوقت".

أحنت سورهناني رأسها قليلاً وقالت: "لقد كنت... تودي واجباتك بإتقان كما أرى. هناك عمل كثير ينبغي إتخاذ للترحيب بعودة زوجة الخان، ويجب أن أشكرك لأنك أعلمتني في وقت مناسب".

تقلّصت عضلة في جبينها؛ الأمر الذي أشار إلى تورّتها الداخلي، وراقبها يار شو مبتهجاً، وهو يعرف أنها تشعر بنظرته إلى تلك البقعة. واختار تلك اللحظة ليزيد من انسزاعها.

"من جانبي، سأود كذلك أن أناقش الإذن الذي منحه أوجييدي لابن شقيقه للسفر إلى تسوبودي".

قالت سورهناني وهي ترتعش: "ماذا؟ لن يكون مونغكي شاهداً على ما يجمعه المستقبل أيها المستشار، وإنما سيساعد على تكوينه. إنه أمرٌ صائبٌ أن يكون ابني حاضراً حين يحرر تسوبودي الغرب. أم يجب أن يعزى الفضل كله إلى أورلوك؛ لأنه منحنا حدوداً آمنة؟".

"آسف، لم أعنِ ابنك تحديداً، وإنما بايدور بن تشاغاني. إنه يلحق بخطوات تسوبودي أيضاً. آه، كنت أظن أنك قد سمعت بذلك".

حاول ألاّ يتسم وهو يتكلم. بالرغم من كل علاقاتها في قلب المدينة، إلا أن سورهناني لم تكن على صلة بشيكنه من الجواسيس ومرّوجي الشائعات التي تمتد آلاف الأميال في كل اتجاه. على الأقل ليس بعد. راقبها وهي تسيطر على دهشتها حتى استقرت مشاعرها. وبدا تحكّمها بنفسها مثيراً للإعجاب، وكان عليه أن يذكر نفسه بأنّ جماها يخفي ذكاءً أكبر من الذكاء الموجود لدى معظم من يعرفهم.

الحنى ياو شو إلى الأمام حتى لا يستطيع الخدم حوضها استراق السمع بسهولة.
"إذا كنتِ حقاً إنسانة تتطلع إلى المستقبل، فإني أستاذ أنك لم تفكيري في
انضمام بايدور إلى الرحلة العظيمة غرباً. إذ إن والده هو الأقرب في سلسلة النسب
ليصبح حاناً".

قالت سورهناتي بحدة: "بعد ابن أوجيدي؛ غويوك".
أوما ياو شو وقال: "هذا صحيح طبعاً. لكن، لم تمضي سنوات طويلة بعد على
امتلاء تلك الأروقة والغرف برجال مسلحين يتنافسون للحصول على ذلك. ربما
لن يحدث ذلك مجدداً، فالأمراء يجتمعون مع تسوبودي يا سورهناتي، وإذا كنتِ
تخططين لوصول أحد أبنائك إلى الإمارة يوماً ما، فيجب أن تحذري من المخاطر
التي ينطوي عليها ذلك. يتمتع غويوك، وياتو، وبايدور بالحق نفسه الذي تدعينه
لابنك، ألا تظنين هذا؟".

حدّثت إليه سورهناتي وكأنه قد منّ بده إليها، فابتسم ووقف في إشارة إلى
انتهاء الاجتماع.

"سأتركك لتتناولي الشاي بالإضافة إلى الأطعمة اللذيذة يا سورهناتي. لقد
وجدت أن مثل هذه الرفاهية زائلة. لكن، استمتعي بما في هذه اللحظة".
وعندما تركها جالسة تفكّر، وعد نفسه بأن يكون موجوداً ليشاهد عودة
زوجة الخان إلى كاراكوروم. كانت تلك سعادة لن يحرم نفسه منها بعد كل
شهور التوتر تلك.

وقف الجنود مرتعشين في ظل بوابة ضخمة مصنوعة من ألواح خشبية سوداء
قديمية، مربوطة معاً بحبال تأثرت سلباً ببرد الشتاء، وبدت البوابة مثل سور حوهم.
كان هناك رجال في الحصن مهمتهم اليومية تفقد الحدود في الخارج، والسير بحرص
على طول الممشى للتأكد بأبدي متحمدة من أن كل حبل لا يزال مثل الحديد في
البرد، ويستغرق ذلك منهم معظم النهار تقريباً. كان الحصن يشبه بلدة أكثر مسن
كونه معسكراً يحشد داخله عدّة آلاف.

فكّر بافل في أن الساحة أمام البوابة مكان مناسب للوقوف أو بقعة آمنة، وبدا
أنه سيظلّ هنا لأنه من بين آخر من جاءوا في الليلة السابقة. كان الجنود الذين

بضربون الأرض بأقدامهم ويدفعون أيديهم تحت آباطهم طلباً للدفع، يشعرون بقوته تلوح فوقهم، وحاولوا ألا يفكروا في اللحظات القادمة حين ستفتح ثيران هالحة البوابة وسيخرجون ليواجهوا الذئاب.

ابتعد بافل عن الرجال الأقرب إلى البوابة، وتحسس سيفه بعصبية، وهو يرغب في أن يشهره مجدداً وينظر إليه. كان جدّه قد أخبره عن أهمية بقاء نصله حاداً، لكنه لم يقل له ما يجب أن يفعله إذا مُنح سيفاً قديماً، وفيه أثلام وخدوش أكثر مما يصدق. كان بافل قد شاهد الجنود الحقيقيين وهم يمزرون حجر شحذ على طول نصلهم، لكنه لم يتحل بالشجاعة ليطلب استعارة أحدها. ولم يبدُ هولاء من نوع الرجال الذين سيرضون أي شيء لغنى. لم يكن قد شاهد الدوق العظيم بعد، رغم أنه مدّ عنقه وتناول قدر استطاعته. كان هذا شيئاً سيخبر جدّه عنه حين يعود إلى المنزل مجدداً. تذكر ديدوشكا - جدّه - كراكو، وادّعى الرجل المعجوز أنه قد رأى الملك في شبابه، رغم أن هذه ربما كانت مجرد قصة.

ناق بافل إلى اللقاء نظرة على المغامرين الأحرار؛ القوقازيين الذين كان الدوق قد اشتراهم من أجل هذه الحملة بنهر من الذهب. حاول ألا يرفع آماله بشأن وجود والده بينهم، فقد رأى جزءاً منه الحزن في عيني جدّه كلما تكلم عن الشاب الشجاع الذي ذهب لينضم إلى الفرسان. كان بافل قد شاهد والدته تبكي في المنزل حين تظنُّ أنه لا يستطيع رؤيتها، وشكُّ في أن يكون والده قد هجرهم ببساطة، كما فعل الكثيرون في فصول الشتاء القاسية جداً، فقد كان شخصاً دائم التحوال. كانوا قد غادروا كراكو بحثاً عن أرض يشترونها، لكن تبين لهم أن العمل الزراعي لا يعد إلا خطوة واحدة عن الموت جوعاً، وأقل متعة من غيره بكثير، وأن المزارعين الروس أسوأ من أولئك الذين تركوهم خلفهم.

كان هناك دائماً رجال يسافرون إلى كييف أو موسكو بحثاً عن عمل، ويعدون بأن يرسلوا أموالاً إلى أسرهم، لكن قلة منهم فعلت ذلك، وعدداً أقل منهم عاد إلى الوطن. هزُّ بافل رأسه. لم يكن طفلاً، وتمتّى وجود بعض الحقيقة في كل تلك الأكاذيب. كان لديه سيف وسيقاتل من أجل الدوق إلى جانب هولاء الخيالة الأقوياء الفظيّن. ابتسم متسلّياً، وفكّر في أنه سيبحث رغم ذلك عن وجه والده بينهم؛ والده الذي سيبدو متعباً ومتغضناً من العمل الشاق، وحليفاً تماماً حتى

لا يُصاب بالقمل. ثمّنى أن يتمكن من التعرف إليه بعد تلك المدة الطويلة. كان القوقازيون في مكان ما خارج الحصن، يمتطون خيولهم فوق الثلج. كان البرد قارساً حين أشرقت الشمس، وصارت الأرض مغطاة بالطين نتيجة حركة الرجال والخيول. فرك بافل كفيه معاً بقوة، وأطلق لعنة بصوت عالٍ حين دُفع من الخلف، فهو يستمتع بالتفوّه بالشتائم. استخدم الرجال حوله تعبيرات لم يسمعها من قبل، وقذف المهاجم الذي لم يره بشيئة سيئة. تلاشى سخطه حين رأى فتى عداء يحمل أقراص عجين مملوءة لحمًا وأعشاباً. مدّ بافل يديه بسرعة ورفع قرصين يتصاعد البخار منهما حين كافح الفتى ليتجاوزوه. أطلق الصبسي لعنة بسبب تلك السرقة، لكن بافل تجاهله، ودرس واحداً في فمه قبل أن يلاحظ أحد ذلك، وبأخذه منه. كان الطعام للذيذاً، وسأل سائل على ذقنه وتحت السترة الضيقة المدرّعة التي حصل عليها هذا الصباح، والتي منحته شعوراً بأنه رجل، ويحمل ثقل رجل. كان قد ظنّ أنه سيخاف، لكنه شاهد آلاف الجنود في الحصن وأعداداً كبيرة من القوقازيين في الخارج، ولم يظهر عليهم الخوف رغم أن وجوهاً كثيرة بدت صارمة وهادئة. لم يتكلم بافل مع أولئك المنتحنين أو أصحاب الشوارب الكثة. وكان لا يزال يأمل أن تثبت لحيته، لكن لم يكن هناك شيء بعد. شعر بالذنب حين فكر في شفرة حلاقة والده في الحظيرة. فطوال شهر أو نحو ذلك، ذهب باستمرار إلى هناك كل مساء، ومرّرها على وجنتيه إلى الأعلى والأسفل. فقد قال الفتيان في القرية إن هذا الأمر يجعل الشعر ينمو بسرعة أكبر، لكن لم يظهر ما يشير إلى صدق ذلك، على الأقل حتى هذا الوقت.

صدحت أبواق في مكان بعيد، وبدأ الرجال يصرخون وهم يلقون الأوامر في كل مكان حولهم. لم يكن هناك وقت لتناول قرص العجين الثاني، لهذا دفعه بافل تحت سترته، وشعر بالحرارة تنتشر على جلده. ثمّنى لو أن جدّه هنا ليراه. كان الرجل العجوز قد ذهب بعيداً عن المنزل ليجمع الحطب على بعد أميال، ويبقى الأكوام مكانها إلى أن يشدّ الشتاء قبضته. بكت والدته طبعاً حين جلس بافل ضابط تجنيد الدوق إلى الباب الخلفي، وتحت ناظري الرجل، لم تستطع أن ترفض؛ ممأماً كما عهطت للأمر. مشى مرفوع الرأس خلف ضابط التجنيد، ولا يزال يتذكر مزيج الإثارة والارتباك الذي بدا على وجوه الآخرين على الطريق؛ الذين كان

بعضهم أكثر سناً من بافل، وتصل لحية أحدهم إلى صدره تقريباً. شعر بخيبة أمل لعدم رؤيته أباً من فتيان القرية الآخرين في الحصن، ولم يكن لديه شك في أنهم هربوا من ضابط التحنيد. كان قد سمع عن فتية يختبئون في مخازن القش ويستلقون على الأرض مع الماشية لتفادي نداء الدوق. لم يكن آباؤهم قوقازيين، ولم ينظر بافل إلى القرية حين غادرها - ولو مرة واحدة على الأقل - ليرى والدته تأتي إلى تخومها وهي ترفع يدها له. تمني أن يشعر جدّه بالفخر به حين يسمع ما فعله. ورغم أن بافل لم يكن وثاقاً من رد فعل الرجل العجوز، إلا أنه سيفلت على الأقل من الجلد، إن لم يُعَلِّب جدّه بتصرفه. كثر حين فكّر في الشرير العجوز واقفاً في الساحة مع دجاجاته، من دون أن يجده من يتلقى ضربات سوطه.

بدا واضحاً أن شيئاً ما يحدث، ورأى بافل سوتسكي يتجاوزته مسرعاً، وهو الضابط الوحيد الذي يعرفه. ظهر الرجل متعباً، ورغم أنه لم يلاحظ بافل، إلا أن هذا الأخير تبعه. إذا كانوا سيخرجون، فإن مكانه مع المئة كما قيل له. لم يعرف بافل أباً من الأشخاص الذين يمشون معه، لكن هذا هو المكان الذي يجب أن يتواجد فيه. وبدا على الأقل أن سوتسكي يهدف إلى تحقيق غاية ما. عمرا البوابة معاً، وأخيراً رأى الضابط بافل يقف خلفه.

قال: "أنت أحد رجالي". ثم أشار إلى مجموعة أكبر بقليل من دون أن ينتظر رداً.

مشى بافل وستة آخرون إليها، وهم يتسمون لبعضهم بخجل، وبدوا أشخاصاً يفتقرون إلى الرشاقة وهم يقفون حاملين سيوفهم، وستراتهم المدرعة الضيقة تصل إلى ركبهم تقريباً. وكانوا يفكرون أكفهم المتحمدة بعد أن أصبحت حراء وزرقاء شاحبة من شدة البرد. ابتعد سوتسكي ليهتم ببعض أولئك المختفين الذين يتولى مسؤوليتهم.

قفز بافل حين صدحت الأبواق مجدداً. هذه المرة صدحت الأبواق من داخل الحصن، وضحك أحد الرجال الذين كانوا معه على نحو بغض من رد فعله، وكشف عن أسنان بنية ومكسورة. اتقدت وجنتا بافل غضباً، فقد كان يتوقع نوعاً من رباط الإخوة الذي وصفه جدّه، لكنه لم يره في الساحة المتحمدة، مع رجال يتولون على الطين، ووجوههم النحيلة تتلوى من شدة البرد. بدأ الثلج بهطل من

السماء البيضاء فوقهم، وأطلق عدد من الرجال لعنات لأنهم يعرفون أن هذا سيجعل يومهم أصعب.

راقب بافل ثيراناً بنية تزفر بخاراً تُساق خلفه وقد رُبطت إلى البوابات بحبال. هل سيخرجون الآن؟ لم يستطع رؤية سوتسكي في أي مكان، وبدأ أن الرجل قد احتفى تماماً حين أصبح بافل بحاجة إلى طرح كل أنواع الأسئلة عليه. استطاع رؤية ضوء النهار عبر البوابات حين فُتحت نحو الداخل، وصرخ الضباط على الأشخاص المتجمعين في الساحة ليرغموهم على التراجع إلى الخلف، فاندفع الحشد إلى الداخل مثل نفس يسحب. كان بعض الرجال يواجهون الثغرة المتسعة. لكن، دبت الفوضى مجدداً في مكان ما في الخلف، واستدارت الرؤوس لترى ما يحدث. سمع بافل أصواتاً ترتفع ألماً وعضباً، فأمال عنقه لينظر خلفه، وهز الرجل الذي كان قد ضحك منه رأسه.

قال بفظاظة: "مخرجت السياط أيها الفتي، سمرسلونا إلى المعركة مثل حيوانات تُساق إلى الساحة. إنها طريقة ضباط الدوق".

لم يحب بافل الرجل الذي تكلم، وتحديدًا لأنه انتقد الدوق نفسه، فأشاح بصره بعيداً عنه بدلاً من أن يرد عليه، ثم تقدم إلى الأمام حين بدأ الرجال في الخلف يدفعونه إلى الساحة المكشوفة. فُتحت البوابة أمامه على مصراعها، ومهرم الضياء بعد أن أمضوا وقتاً طويلاً في ظلها.

كان باتو يشعر بألم شديد في رتيه وحلقه، وكان البرد قارساً جداً مما جعله يتنفس بصعوبة. حرت أحصنة فرقه حبيباً معاً، وقدّر محاربوه المسافة التي تفصلهم عن الفرسان الروس؛ كانوا يتصبون عرقاً من المناورات حين أشرقت الشمس. كل ما استطاعوا فعله آنذاك هو التحرك باستمرار، فالتوقف يعني أن يتجمد العرق والموت ببطء غافلين عن فقدانهم أحاسيسهم.

بعد وقت قصير من بزوغ أول ضوء، جعل تسوبودي ميمته تتقدم إلى الأمام، وباتو على رأسها. لم يخافوا من الجندين والمتطوعين الذين جمعهم الدوق في حصنه الكبير، فهؤلاء يمكن لمزيقهم بالسهام. كان الخطر يأتي من فرسان العدو. وشعر باتو بالفخر لأنه أول من سيتصدى لهم. كانوا قد شنوا هجوماً وهمياً على

الميسرة عند الفجر، وأرغموا الروس على تجميع صفوفهم هناك. وعندما سحب الدوق رجالاً من جناحه الآخر، انتظر باتو إشارة تسويودي، ثم تقدم بسرعة، وشاهد أعداداً كبيرة من الخيول، ورأى الصفوف تتسارع متجهة إلى فرقته، ومتقدمة إلى الأمام مثل موجة بعد أن صدرت لها الأوامر. كان الدوق قد جمع قوة ضخمة للدفاع عن كييف، لكن لم يتوقع أحد منهم أن يقاتل في الشتاء، فالبرد قاتل.

تحسس باتو وتر قوسه، ثم شدّه إلى الخلف وهو يقود حصانه، وشعر بأن هذا الفعل يرخي العضلات الضخمة في كتفيه. كانت السهام كثيرة في الكنانات على ظهورهم، واستطاع سماع الريش يصدر حفيفاً لدى احتكاكه ببعضه.

شاهد الدوق الخطر، ورأى باتو الرجل وراياته الجميلة إلى أحد الجانبين. صدحت الأبواق لتنقل أوامره، لكن تسويودي كان قد أرسل مونغكي إلى الميسرة، وصار الجناحان يتقدمان إلى الأمام مقتربين من القوة الرئيسة. كان أورلوك يقود القلب مع جيسي وكشيون. وكان أنقل فرسانه مسلحين بالحراب، وبدأ أن كل من يخرج من الحصن سيواجه بصف أسود ضخمة من المحاربين المغول المستعدين له.

أوما باتو لحملة راياته، وبدأ علم ضخمة من الحرير البرتقالي يتحرك إلى الأمام والخلف، ظاهراً للعيان على طول الصف. سُمع صوت جذب أوتار آلاف الأقواس، وبدأ أن صفيراً طنّ في الهواء. طارت أربعة آلاف سهم أطلقتها الصفوف الأولى، ومدّ المحاربون أيديهم إلى الخلف، وأمسك كلّ منهم سهماً آخر ووضع على القوس فيما كانت أحصنتهم تجري حياً كما تعلموا أن يفعلوا حين كانوا صغاراً، ثم رفعوا أنفسهم قليلاً عن السرج، واستفادوا من ركبهم للتوازن على سهوات أحصنتهم التي كانت تندفع مسرعة تحتهم. لم تكن هناك حاجة كبيرة إلى الدقة من هذا المدى القريب، وارتفعت السهام عالياً، ثم هبطت على الفرسان القوقازيين، فجعلت الجو ضبابياً ثم تركته صافياً وحلقت الموت في أعقابها.

امهّرت خيول لدى العدو، وردّ أولئك الذين يحملون أقواساً، لكن لم يكن بمقدورهم مضاهاة المسافة التي تصل إليها سهام المغول، وسقطت سهامهم قبل وصولها إلى أهدافها. خفف باتو السرعة حتى لا يهدر هذه الأفضلية، وجعلت

إشارته الصف الذي ينطلق خيلاً يبطئ إلى المرولة ثم المشي، لكن إطلاق السهام استمر، مع كل سادس دقة قلب، مثل ضربات مطرقة على سندان.

أرغم الفرسان الروس أحصنتهم على التقدم عبر وابل السهام، واندفعوا بتهور إلى الأمام في حين رفعوا تروسهم عالياً، وحشمو على السروج منكفئين قدر استطاعتهم. كان الجناحان سيشتبكان حول البلدة المسورة، ودفع باتو نفسه إلى الصف الأمامي، فرجاله يتوقعون رؤيته هناك منذ هجومه الشرس على الأمير الروسي. وغلى الدم في عروقه حين واجه العدو وفرقه حوله.

لم يكن هناك توقف أو إرجاء لموجات السهام. وعندما شاهد الخيالة المغول المسارات المقوسة للسهم عدلوا وضعية أقواسهم وأطلقوا سهامهم على ارتفاع أقل، ثم بدأوا يختارون أهدافهم. لم يكن المهاجمون الروس يرتدون دروعاً فولاذية مثل حراس الدوق الشخصيين، وبدأ أنه ينبغي لتسويدي أن يقضي على أولئك الموجودين في القلب. استمر القوقازيون التابعون للدوق يتساقطون في اندفاعهم نحو عاصفة السهام التي يبدو أنها لا تترك مكاناً لرجل أو حصان.

وجد باتو كنانته خالية فكشّر، وعلّق قوسه على خطّاف سرجه من دون تفكير، ثم شمر سيفه وقلّده في ذلك الرجال على طول الصف. كان الجناح الروسي قد تعرض لضربة قاسية، وسقط الكثيرون من الرجال خلف صفوف المهاجمين، وأولئك الذين نجوا لا يزالون يقاتلون، لكن الكثيرين منهم جرحوا وترنحوا على سروجهم، وقد أصابت السهام رثاقهم. تحشّرت أصوات أولئك تحدياً رغم كل شيء، لكن المغول قضوا عليهم حين شقوا طريقهم في صفوفهم، وضربوهم بقبضات وسواعد مدرّعة، واستخدموا السيوف بدقة متناهية.

قضت فرقة باتو على من بقي على قيد الحياة حتى تجاوزت أسوار الحصن، ولمح القائد البوابات الضخمة تُفتح، لكنها أصبحت خلفه آنذاك، واستمر بطارد عدواً يتعلق بسرجه بصعوبة ويحاول الفرار. أسرع المحاربون المغول على صهوات خيولهم، وصاحوا على أهداف رئيسة لبعضهم بعضاً. شعر باتو بفخرهم وسعادتهم حين أومأوا إليه، فقد كان هذا أفضل الأوقات؛ حين تدبّ الفوضى في صفوف العدو ويمكن اصطلياد محاربيه مثل قطع من الغزلان.

عندما فتحت البوابات كلياً، دُفع بافل إلى الخارج نحو الضوء الساطع، وكان الثلج قد جعل الفجر يبدو مبهرأً. طرفت عيناه ارتباكاً وخوفاً، وسمع أصواتاً كثيرة تصرخ، لكنه لم يفهم أيها منها. شعر سيفه وتقدم إلى الأمام، لكن الرجل أمامه توقف فجأة؛ الشخص نفسه الذي تكلم معه في وقت سابق.

قال بافل: "تحرك!".

آنذاك، كان يُدفع من الخلف، وبصق الرجل ذو الأسنان المكسورة حين حدّق إلى الخارج نحو جيش المغول الذي يندفع نحوهم، ويوجه حرايه إليهم صفاً واحداً.

تمتم الرجل: "يا الله أنقذنا". ولم يعرف بافل إن كان هذا تضرعاً فعلاً. سمع الرجال خلفه يطلقون صيحة حربية، ويحاولون حث بعضهم على المضى قدماً، لكن الصوت بدا ضعيفاً بسبب الريح، وشعر بافل بيديه تضعفان ومعدته تتقلص.

أصبح صف المغول أكبر، وأخذت الأرض تهتز أكثر تحت وقع حوافر جيادهم. شعروا جميعاً بذلك، واستدار الكثيرون منهم إلى بعضهم بعضاً. بدأ الضباط بصرخون، ويشيرون إلى المغول، ووجوههم حمراء في أثناء تحفيزهم الجنود. تابع الصف تحركه، ولم يكن بإمكان أحد أن يتوقف؛ لأن أولئك الذين يسرون في الخلف يدفعونهم فوق الثلج. حاول بافل إبطاء خطواته، لكن رجالاً مترددين مثله دفعوه إلى الأمام.

صاح أحد الضباط: "من أجل الدوق!". وردّ قلة منهم ذلك، لكن أصواتهم كانت واهنة وسرعان ما أطبق الصمت عليهم. اقتربت فرقة المغول منهم؛ وبدأ أن الظلام سيكتسحهم جميعاً.

الفصل الحادي والعشرون



سمع كشيون الضحك قبل أن تصيح المجموعة في مرمى البصر، وفزع حين آلمته ساقه المصابة. كان جرح قدمه في فخذه قد تقيح، وصار مضطراً إلى تصريف القيح منه مرتين يومياً - كما يضحى طبيب تسوبودي المسلم - لكن، لم يبدُ أن هذا يساعد. أزعجه الجرح شهوراً، والتهب من دون سابق إنذار، وجعله يشعر بأنه عجوز حين يقترب من الضباط الشباب، وهو يعرج مثل رجل مُقعّد. كان عجوزاً بالطبع، وسواء أكان يعرج أم لا، فسيجعلونه يشعر بأثر السنين.

سمع صوت غويوك يرتفع فوق أصوات الآخرين، وهو يسرد قصة ما عان انتصارات باتو. تنهّد كشيون لنفسه عندما تجاوز آخر خيمة، وتوقفت الضوضاء حين رآه غويوك. استدار الآخرون ليروا ما أثار اهتمام الشاب.

صاح غويوك مبتهجاً: "لقد غلى الشاي للتو أيها القائد. أهلاً بك لنشرب كوباً معنا، أو شيئاً أقوى إذا كنت تفضل ذلك". ضحك الآخرون وكان غويوك قال دعاية رائعة، وأخفى كشيون شعوره بالألم؛ فقد كان يافعاً أيضاً في ما مضى.

كان الأربعة مستلقين مثل أشبال، وتأفف كشيون حين أحفض جسده على حصيرة من اللباد، ومدّ ساقه عليها بحرص. لاحظ باتو فخذ كشيون المتورمة بالطبع، فلم يكن شيء يفوته مطلقاً.

"كيف حال ساقك أيها القائد؟"

قال كشيون بحمّة: "متقيحة".

امتعض باتو من نبرة كشيون، وتلاشت مشاعره فوراً. لعن كشيون نفسه، فقد جعله بعض الألم والتعرق يصرخ في وجوه الفتيان مثل كلب عجوز سيئ الطباع. نظر حوله إلى المجموعة الصغيرة، وأوماً لبایدور الذي وجد صعوبة جمّة في

إخفاء الإثارة الكبيرة التي يشعر بها لانضمامه إلى الحملة. بدا المحارب الشاب قلقاً وعيناه تلمعان لوجوده في مثل هذه الصحبة، ولمعاملتهم إياه كئيد لهم. تساءل كشيون إن كان أيُّ منهم يعرف خيانات آباءهم، أو إن كانوا يهتمون بذلك.

أمسك كشيون كوب الشاي بيده اليمنى، وحاول الاسترخاء في أثناء احتسائه الشراب، لكنهم لم يستأنفوا الحديث فوراً بحضوره. كان قد عرف آباءهم جميعاً حتى جنكيز نفسه، وبدت وطأة السنين ثقيلة عليه كما فكّر، واستطاع أن يرى تولي في مونغكي، وجعلته الذكرى يشعر بالخزن. ظهرت ملامح تشاغانبي على وجه بايدور في الخطوط العامة والفك البارز، وبدا أن الزمن وحده سيقدر إن كان سيتحلّى بمثل قوة ذلك الرجل أيضاً، وعرف كشيون أن الفتى لا يزال لديه شيء يبته مع هذه الصحبة، وأنه لم يصبح أحد قادة المجموعة بعد.

انتقلت أفكار كشيون إلى باتو. وعندما نظر إليه، وجد أن الشاب يراقبه وقد رسم على وجهه شيئاً يشبه الابتسامة؛ وكان بمقدوره قراءة أفكاره. بدا واضحاً جداً أن الآخرين يوقرونه، لكن كشيون تساءل إن كانت صداقتهم الجديدة ستتحو من تحديات السنين. فكّر وهو يرتشف الشاي أنهم عندما يتنافسون في الإمارات فلن يرتاحوا كثيراً بوجود بعضهم بعضاً.

ابتسم غويوك بسهولة، فهو الشخص الذي يتوقع أن يرث الحكم. لم يكن غويوك قد حظي بوالدٍ مثل جنكيز يعودُه احتمال المشقات، ويجعله يفهم مخاطر الصداقة السهلة. ربما كان أوجيدي ليناً جداً معه، أو ربما كان محارباً عادياً يفتقر إلى الفسوة التي تميّز رجالاً مثل جنكيز.

فكّر كشيون في قرارة نفسه وهو يتذكر أحلامه وأبعاده الماضية: "رجالاً مثلي". كانت رؤية المستقبل في أقرباء يسترخون شيئاً حلواً ومرّاً في الوقت نفسه. فقد أظهروا له احتراماً، لكنه لم يظن أنهم يفهمون الفضل الذي يدينون له به. أحس أن الشاي حامض في فمه حين راودته تلك الفكرة، رغم أن أسنانه كانت متعفنة في مؤخر فمه، وكان طعم كل شيء بذوقه سيئاً بالنسبة إليه.

قال باتو فجأة: "هل هناك سبب لتزورنا في هذا الصباح البارد؟"
رد كشيون: "جئت لأرحب ببايدور في المعسكر، فقد كنت بعيداً حين وصل مع فرقة والده".

قال غويوك فوراً: "مررت به أبها القائد. لقد ترعرعنا جميعاً على أيدي آباتنا".
لم يلحظ كيف تيبس باتو. إذ لم يكن والده جوشي قد فعل شيئاً له، لكنه
الآن يجلس مع الآخرين؛ مع أبناء أعمام وأمراء، وهو قوي مثلهم ورمحاً أفسى
منهم. لم يغفل كشيون عن حنيفة المشاعر التي ظهرت على وجه الشاب، فأومأ
لنفسه، ولمنى بصمت لهم جميعاً حظاً طيباً.

قال كشيون: "حسناً، لا يمكنني تبديد الصباح بالجلوس هنا. يجب أن أمرن
هذه الساق بالمشي كما قيل لي؛ لإبقاء الدم الفاسد متحركاً".
وقف على قدميه متألماً، وتجاهل ذراع غويوك التي امتدت إليه. كانت ساقه
توله مجدداً. قرّر أن يعود إلى الطبيب ويتحمّل سكينه التي تغرز في لحمه لإخراج
القبح البني الذي يملأ فخذيه. عيسى من ذلك الاحتمال، ثم أمال رأسه نحو المجموعة
وعرج مبتعداً.

قال غويوك حزيناً، وهو ينظر إليه: "لقد رأيت عذبة أشياء في زمانه".
رد باتو: "إنه مجرد رجل عجوز. سترى أكثر منه". كحشر في وجه غويوك
وتابع: "مثل قعر بضع قُرب شراب أسود كبدية. أخرج مخزونك الخاص يا
غويوك. ولا تظن أنني لم أسمع بالصناديق التي يرسلها والدك إليك".
تورد غويوك حجلاً حين أصبح محط الاهتمام، وصرخ الآخرون طالبين منه
أن يحضر الشراب، فابتعد عنهم مسرعاً ليحلب القُرب إلى أصدقائه.
قال بايدور بصوت قلق: "طلب مني تسوبودي تقديم تقرير عن عند مغيب
الشمس".

هزّ باتو كتفيه وقال: "وستفعل ذلك، رغم أنه لم يقل إنه يتوجب علينا أن
نكون صاحين. لا تقلق يا ابن عمي، ستقدم عرضاً للشرير العجوز. ربما حان
الوقت لكي يدرك أننا نحن أمراء الأمة، وأنه مجرد موظف لدينا، مثل رسّام... أو
صانع آجر. إنه ماهر يا بايدور، وذلك كل ما هو عليه".

بدا بايدور متضيقاً، فقد انضم إلى الجيش بعد المعارك حول كيف، ويعرف
أن عليه أن يثبت نفسه لأبناء أعمامه. كان باتو أول من رحّب به، لكن بايدور
كان يتمتع بمصافة كافية ليرى الضغينة لدى الرجل الأكبر سناً، وبقي حذراً من
المجموعة، رغم أنهم أبناء أعمامه وأمراء الأمة نفسها. لذا، احتار أن يلتزم الصمت،

واسترحى باتو إلى الخلف على كومة من أكياس الحبوب. ولم يمض وقت طويل قبل أن يعود غويوك وهو يحمل قُرْباً كبيرة من الشراب الأسود.

كان ياو شو قد بذل جهوداً كبيرة تحضيراً لاجتماع سورهتاني مع زوجة الخان، ولم يكن القصر الصيفي الذي يقع على ضفة نهر أورخون يعد مسير أكثر من يوم تقريباً للمستطلع، لكن زوجة الخان لم تسافر قط بتلك السرعة. وعلى الرغم من كل استعجالها الظاهر، إلا أن نقل موظفيها وأمتعتها استغرق معظم الشهر. كان ياو شو قد شعر بسعادة خفية لدى رؤيته تؤثر سورهتاني يزداد يوماً وهي تنشط في أرجاء القصر والمدينة، وتتوثق من حسابات الخزينة، وتفكر في ألف شيء، ربما تُعاتب عليه في أثناء رعايتها الخان.

في تلك الأثناء، ونتيجة قلة الرسائل والجمعاء، استعاد حرّيته في مكتبه، ولم يعد ينزعج باستفسارات سورهتاني المستمرة ومطالبها التي تستهلك جزءاً من وقته وموارده. ولم يعد يُستدعى في كل ساعات النهار والليل ليشرح قضية سياسية، أو بعضاً من مظاهر الألقاب والسلطات التي حظيت بها بدلاً من زوجها. بدا هذا تطبيقاً مثالياً للسلطة كما قرّر: أقل قوة ممكنة لتحقيق النتيجة المطلوبة.

في اليومين السابقين، كانت أروقة القصر قد اكتظت بجيش من خدم تشن الذين أخرجوا أي شيء مصنوع من القماش إلى الساحة لينفضوا عنه الغبار قبل أن يعيدوه إلى مكانه بحرص، ووضعوا فاكهة طازجة في براميل مليئة بالثلج ونقلوها إلى المطابخ تحت الأرض، ووضعوا كميات كبيرة من ورود قطفوها في القصر حتى عبق المكان كله بشذاها. كانت زوجة الخان عائدة إلى منزلها، ويجب ألا تُصاب بالإحباط.

مشى ياو شو بخطوات واسعة في رواق مهوئ، مستمتعاً بأشعة الشمس الخفيفة في يوم صافٍ وبارد. كان فرحاً بمنصبه، ويعرف أن لا أحد سيحدّثه مستشار الخان إذا اختار أن يكون موجوداً حين تعود توروجين. بدا أن واجبه يحتم عليه الترحيب بها. ولم يكن في وسع سورهتاني فعل الكثير بشأن ذلك.

سمع بوقاً يصدح في ضواحي المدينة ويتسم لنفسه، فقد أصبحت عربة أمتعتها في مرمى البصر أخيراً. كان لديه وقت كافٍ ليذهب إلى مكاتبه ويرتدي ثوبه

الرسمي الأكثر أناقة؛ فرداؤه الحالي متسخ. لامس القماش فيما كان يبحث خطاه إلى جناحه. وبالكاد لاحظ الخادم وهو ينحن كثيراً عند إطار الباب حين تجاوزه. كان يحتفظ بأنواب نظيفة في صندوق كبير. وعلى الرغم من أنها ستكون بالية قليلاً إلا أن حشب الأرز سيكون قد صالحها من العث بالتأكيد. احتساز الغرفة بمخطوات سريعة، وانحنى فوق الصندوق، وعندما سمع الباب يُغلق خلفه، وحين استدار بسرعة مدهوشاً، سمع طقطقة ثم صرير مفتاح في القفل.

نسي ياو شو أمر الصندوق، ومشى إلى الباب وجرب فتحه، وهو يعرف أنه لن يفتح. كانت تلك أوامر سورهناتي طبعاً، وابتسم تقريباً حين فكّر في حراة هذه المرأة التي حبسته داخل غرفته. شعر بانزعاج كبير؛ لأنه الشخص المسؤول عن وضع أقفال على أبواب غرف القصر، على الأقل تلك التي تحتوي أشياء ثمينة. كانت الدروس التي تمّ تعلّمها من تلك الليلة الطويلة ماثلة في الأذهان؛ حين أرسل تشاغاتي رجالاً إلى القصر لنشر الرعب والدمار، ووجدوها الأبواب القوية أنقذت الخان آنذاك. مرّ ياو شو يديه على الخشب، وأحدث جلده القاسي صوتاً خافتاً. ثمّم لنفسه: "حقاً يا سورهناتي؟!".

قاوم رغبة ملحة تحثّه على تحريك المقبض أو الصراخ طلباً للمساعدة؛ فقد كان القصر كله مشغولاً هذا الصباح. وعلى الرغم من وجود خدم يمرّون مسرعين في الخارج، إلا أن وقاره لم يكن يسمح له بطلب المساعدة لإخراجه من غرفته التي حُبس فيها.

ربت على الباب براحة يده مختبراً قوته. منذ الطفولة، كان قد عوّد جسده احتمال الصعاب. وطوال سنوات، كان يبدأ كل يوم بألف ضربة على ساعديه. كانت العظام قد تكسّرت إلى شظايا صغيرة ثم التحمت وتضخّمت حتى أضحت بمقدوره إطلاق كل قوته من دون أن يخاف من تحطيم رصغيه، لكن الباب بدا صلباً على نحو يوهن العزيمة. وهو لم يعد شاباً يافعاً. ابتسم لنفسه بحزن، ونحس جانباً فكرة الرد العنيف الذي قد يقوم به الشباب.

تحركت يده الحسّاستان إلى المفصلات بدلاً من ذلك، واكتشف أنها أسافين حديدية بسيطة توجد داخل حلقات حديدية، إلا أن الباب بُنيت في مكانه حين كان مفتوحاً، لكنه مغلق الآن، وسيمنعه الإطار من رفعه إلى أعلى. نظر حوله في

أرجاء مكثيه. لكن، لم يرَ سلاحاً فيه، وبدا الصندوق ثقيلًا جداً ليضرب الباب به، أما ما تبقى - دواته، وأقلامه، وورقه - فخفيف جداً ولا فائدة منه. تمسّم لعنة بصوت خافت. كانت نوافذ الغرفة مغلقة بقضبان حديدية، وعالية وصغيرة جداً حتى لا يتجمده ربيع الشتاء في أثناء عمله.

خلع يابو شو نعليه ومدد ساقيه قليلاً، فقد تبيّستا أيضاً. سيقدر الزمن إن كان بمقدوره احتراق باب من دون استعمال أي شيء. اختار أضعف نقطة؛ حيث بُت لوح خشبي بالإطار الرئيس، وسحب نفساً عميقاً وهو يجهز نفسه.

وقفت سورهتاني عند البوابة الولى لكاراكوروم، وقد اتانها القلق لسبعض الوقت بشأن المكان الذي ستقبل فيه زوجة أوجيدي. هل سيبدو الأمر تحدياً إن أرغمتها على عبور المدينة إلى القصر قبل أن تلتصقا؟ لم تكن واثقة من ذلك؛ لأنها لا تعرف توروجين جيداً، وكل ما تتذكره عنها هو أنها امرأة حنون بقيت هادئة في الليلة الطويلة حين تعرض أوجيدي لهجوم في جناحه. قالت سورهتاني لنفسها إنها لم تفعل شيئاً خاطئاً، ولا أحد يمكنه لومها لاعتنائها بالخان. كانت تعرف جيداً أن مشاعر أي زوجة بشأن امرأة شابة قد لا تكون منطقية دائماً. وبغض النظر عن مجريات اللقاء، بدا أنه سيكون حساساً على أقل تقدير. كانت سورهتاني قد جهزت نفسها بأفضل ما تستطيع، والباقي سيحدّده أب السماء وأم الأرض، وتوروجين نفسها.

كان منظر الحاشية مثيراً للإعجاب فقد كان المرافقون يمتدّون إلى الخلف على طول الطريق مسافة ميل، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العربات. كانت سورهتاني قد أمرت بفتح بوابات المدينة حتى لا تخين توروجين، لكنها خافت من أن تمرّ زوجة الخان بما مرور الكرام؛ وكأنها غير موجودة. راقبت بعصبية الصفوف الأولى من الخيالة تمر من تحت البوابة، والعربة الضخمة وهي تقترب منها تجرّها ستة ثيران، وتتحرك ببطء، وتصر بصوت عالٍ يُسمع من مسافة بعيدة. كانت زوجة الخان تجلس تحت مظلة، وأربعة عيّدان من شجر التولا تدعم السقف الحريري، والجانبان مفتوحان. فركت سورهتاني كفيها معاً حين رأت توروجين تعود إلى زوجها وكاراكوروم. لم يكن هذا مطمئناً، وشعرت

سورهناني بعيني المرأة تبحثان عنها من بعيد، ثم تستقران عليها وكأنها مذهولة. ظننت أن بمقدورها رؤية وميضهما، وعرفت أن توروجين ستري امرأة ضئيلة الحجم وجميلة ترتدي ثوب تشن من الحرير الأخضر، وشعرها معقود بمشبك فضي كبير مثل يد رجل.

تسارعت أفكار سورهناني حين توقفت العربة على بعد بضعة خطوات فقط من حيث تقف. بدا أن المكانة هي القضية المهمة والشيء الوحيد الذي لم تستطع أن تحدده في الأيام السابقة. كانت توروجين زوجة الخان طبعاً، وعندما التقتنا سابقاً، بدا أنها في منزلة أعلى اجتماعياً من سورهناني. لكن سورهناني حظيت منذ ذلك الوقت بكل ألفاظ زوجها وسلطانه. لم تكن هناك سابقة كهذه في التاريخ القصير للأمة، وبالتأكيد لم تملك أي امرأة أخرى قط حق قيادة فرقة إذا اختارت هي ذلك. هذا إصدار مثل هذا القرار مؤشراً على احترام الخان لتضحية زوجها.

سحبت سورهناني نفسها عميقاً ببطء حين رأت توروجين تتحرك إلى حافة العربة، وتمد يدها ليساعدها أحدهم على النزول. بدت المرأة ذات الشعر الأشيب أكبر سناً، لكن زوجة الخان كانت ستتحني لتولي إذا رأته واقفاً أمامها، وستتكلّم معه أولاً. ومن دون معرفتها كيفية تصرف توروجين معها، لم ترغب سورهناني في أن تتخلى عن أفضليتها الوحيدة. كانت تتمتع بالمكانة لتطلب الاحترام، لكنها لم ترد أن تصبح المرأة الأكبر سناً عدوة لها.

حانت لحظة اتخاذ القرار بسرعة، لكن انتباهها تحوّل إلى صوت وقع أقدام بحري. رفعت كل من سورهناني وتوروجين بصرها إلى الأعلى في الوقت نفسه الذي عبر فيه ياو شو البوابة. كان وجهه صارماً من شدة الغضب، وعيناه تلمعان حين نظر إليهما. نحت سورهناني مفاصله ملطخة بالدماء قبل أن يشبك يديه خلف ظهره وينحني على نحو رسمي ليرحب بزوجة الخان.

ربما فعلت ذلك تشبهاً به، لكن سورهناني تخلّت عن وقارها. وعندما استدارت توروجين لتواجهها انحنى كثيراً أيضاً.

قالت سورهناني وهي تشد قامتها: "أهلاً بعودتك يا سيدي. الخان يسترد عافيته ويحتاج إليك أكثر من أي وقت مضى".

استرخت توروجين قليلاً واختفى توترها، وبدا ذلك واضحاً من الطريقة التي تكف بها. وعندما راقب ياو شو ما يحدث متوقفاً شيئاً ما، ابتسمت المرأة الأكبر سناً، ولغضبه الشديد، رأى سورهتاني تقلد التعبير نفسه.

قالت توروجين بصوت دافئ: "أنا واثقة أنك ستخبريني كل ما أريد معرفته. شعرت بالأسى لدى سماعي ما حدث لزوجك. كان رجلاً شجاعاً؛ أكثر مما كنت أعرف".

وجدت سورهتاني نفسها تتورد سخلاً، وارتاحت على نحو تعجز الكلمات عن وصفه؛ لأن زوجة الخان لم توبخها أو تبدأ شجاراً معها. انحنت مجدداً فحاةً، وهي تحسّ بمشاعر حياة نغمها.

قالت توروجين وهي تضع ذراعها حول ذراع سورهتاني: "انضمي إلي على متن العربة يا عزيزي. يمكن أن نتكلم في الطريق إلى القصر. هل هذا ياو شو الذي أراه هنا؟".

ثم ياو شو: "سيدتي".

"أريد رؤية الحسابات أيها المستشار. أحضرها إلي في جناح الخان عند غروب الشمس".

رد: "طبعاً يا سيدتي".

يا له من خداع! كان قد تمّنى أن يشاهد هرتين تتشاجران بغضب من أجل أوجيدي. ولكن، بدلاً من ذلك بدا أنهما قد قيّمتا بعضهما، ووجدتا شيئاً تحبانسه بعد مجرد نظرة ونحية. لم يكن سيفهم النساء مطلقاً، كما فكّر، فهن لغز الحياة الكبير. آلمته يدها ونبضها وجعاً بسبب تحطيمه ألواح الباب الخشبية. وشعر بالتعب فحاةً. لم يرغب في شيء أكثر من العودة إلى مكتبه والاسترخاء وتناول شيء ساخن. راقب بإحباط وخذل سورهتاني وتوروجين وهما تشيكان يديهما على متن العربة، وتجلسان إلى جانب بعضهما مثل عصفورتين وتثرثران. تحرك الرتل بصرخات من المحوذين والمحارين المرافقين له، ولم يمض وقت طويل قبل أن يجد ياو شو نفسه يقف وحيداً على الطريق الترابي. خطرت له فكرة أن الحسابات ليست في حال تسمح لأي شخص باستثنائه بقراءتها. يجب عليه أن ينجز أعمالاً كثيرة قبل غروب الشمس، وقبل أن يخلد إلى الراحة.

كانت كاراكوروم أبعد ما تكون عن الهدوء حين شق الخيالة طريقهم عبر الشوارع، فقد جرى استدعاء حراس الخان الخاصون من نكناهم ليقفوا في الطرقات ويعدوا حشود المحيين، إضافة إلى أولئك الذين يرغبون في إلقاء نظرة على توروچين. كانت زوجة الخان تعتبر بمثابة أم للأمة. لذا، تعرض الحراس لتدافع شديد، وابتسمت توروچين حين انطلقوا عبر الشوارع إلى القبة والبرج الذهبيين لقصر الخان.

قالت توروچين وهي تهر رأسها تعجباً: "لقد نسيت أن عدداً كبيراً من الناس يعيش هنا". كان الرجال والنساء يرفعون أطفالاً نحوها على أمل أن تكرمهم بلمسة، في حين صرخ آخرون باسمها، أو صاحوا بدعوات للخان وأسرته. شبك الحراس أذرعهم معاً عند تقاطع الطرقات، وكافحوا لمقاومة موجة البشر.

عندما تكلمت توروچين مجدداً، استطاعت سورهناتي رؤية تورد باهت على وجنتيها.

قالت توروچين: "فهمت أن أوجيدي يعتمد عليك كثيراً".

أغمضت سورهناتي عينيها في لحظة استياء. ياو شو.

قالت: "منحتني العناية به شيئاً أفعله في فترة حروبي". بدا أن عينيها تقرآن بالذنب، وأمعنت توروچين النظر إليها باهتمام، فهي لم تكن تتمتع بهذا الجمال الأثاذ؛ حتى في شبها.

"يبدو أنك قد أغضبت مستشار زوجي على الأقل. وهذا شيء يُحسب لك".

ابتسمت سورهناتي وقالت: "إنه يظن أن أمنيات الخان يجب أن تُحترم. أنا... لم أحترمها. أظن أنني أزعجت أوجيدي بجعله يؤدي واجباته مجدداً. إنه ليس في أحسن حال يا سيدي، لكنني أظن أنك سترين تغييراً فيه".

ربت زوجة الخان على ركبتيها، مطمئنة إلى ثرثرة سورهناتي. بحسب الأرواح، لقد حظيت المرأة بالقباب زوجها بأقل إزعاج ممكن! وإذا لم يكن ذلك كافياً، فقد اعتنت بالخان ليسترد عافيته؛ في حين كان الرجل يرفض رؤية زوجته أو مستشاره. كان جزء منها يعرف أن أوجيدي اختار أن يموت وحيداً في قصره، وأبعدها عنه بنوع من التسليم بالأمر الواقع لم تستطع فهمه. بطريقة ما، كانت قد ظننت أن عصيانه سيعني رؤيته منهاراً تماماً. لم يكن قد سمح لها بالاقتراب منه في حزنه، ولا يزال هذا يؤلمها.

كانت سورهناني قد فعلت ما عجزت توروجين عن فعله، لذا شكرت الشابة بصمت؛ أياً تكن الطريقة التي حققت بها ذلك. حتى إن يابو شو اضططر إلى الاعتراف بأن معنويات أوجيدي أصبحت أفضل. بدا جيداً أن تعرف أن سورهناني يمكن أن تصبح عصبية مثل أي فتاة، فهذا يجعلها أقل إثارة للخوف.

أمعنت سورهناني النظر إلى السيدة الحنون بجانبها. كان قد انقضى وقت طويل جداً منذ أن أظهر لها أحد هذا النوع من العاطفة. ووجدت أنها تحب المرأة أكثر. لم يكن بمقدورها أن تعبر لها عن مدى ارتياحها لعدم وجود ضغينة بينهما، فتوروجين لم تكن من أولئك الزوجات الحمقات اللواتي يعدن إلى المنزل غاضبات. لو كان أوجيدي يتمتع بأحاسيس غريب لاستدعاها إليه منذ لحظة عودته، وداوى نفسه بين ذراعيها. ولكنه بدلاً من ذلك، اختار انتظار الموت في غرفة متحمدة، واعتبر ذلك رفضاً للخوف في وجه الموت. وقد عذّب نفسه بذنوب الماضي وأخطائه؛ حتى لم يعد بمقدوره أن يتفقد نفسه.

قالت توروجين: "أنا مسرورة لأنك كنت هنا من أجله يا سورهناني". ازداد احمرار وجهها فحاة، واستعدت سورهناني للسؤال الذي كانت تعرف أنه سيُطرح عليها.

قالت توروجين: "أنا لست فتاة بافاعة أو عذراء تتورد حملاً. يتخذ زوجي لنفسه عدة زوجات... وعدة جوارٍ وخادِمات يعتنن بكل ما يحتاج إليه. لن يؤذيني الأمر، لكنني أود أن أعرف إن كنت قد اعتنيت به بكل الطرائق".

قالت سورهناني وهي تبسم: "ليس في السرير. كاد أن يمكسك بسي مرة حين كنت أشرف على حمامه، لكنني ضربته بفرشاة أقدام".

ضحكت توروجين بصوت خافت وقالت: "هذه هي الطريقة المناسبة للتعامل معهم يا عزيزتي حين يشعرون بالإثارة. أنت جميلة جداً كما تعرفين، وأظن أنني كنت سأغار منك لو فعلت ذلك".

ابتسمتا لبعضهما، وأدركت كل منهما أنها قد وجدت صديقة لها، ونساءلت كلتا المرأتين إن كانت الأخرى ستقدّر هذا الأمر كثيراً.

الفصل الثاني والعشرون



تحرك تسوبودي غرباً في الربيع والصيف التاليين، وترك الإمارات الروسية خلفه ووصل إلى حدود خرائطه. انتشر مستطلعه أمام الفرق متحوّلين في إقليم مجهول بالنسبة إليهم طوال شهور، وهم يسمون خرائط لوديان وبلدات وبحيرات، ويكونون صورة عن الأرض التي تمتد أمامهم. سجل أولئك الذين يجيدون القراءة والكتابة ملحوظات عن قوة الجيوش التي واجهوها، أو الأرتال المتحركة من اللاجئين الذين يهربون من أمامهم. أما أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة فقد جمعوا أعوداً في حزم من عشرة، تمثل كل منها ألفاً. كان هذا نظاماً قاسياً. لكن، بدا أن تسوبودي مقتنع بالتحرك في الصيف والقتال كل شتاء، معتمداً على نقاط قوة قومه. كان أمراء تلك الأراضي الجديدة ونبلؤها قد ضعفوا بسبب طريقة الحرب تلك. وبالرغم من ذلك، لم يُظهروا شيئاً يمكن أن يهدد محاربيه الفرسان.

افترض تسوبودي أنه سيواجه في نهاية المطاف جيوشاً تماثل تلك التي قادها إمبراطور تشن، وأنه في مرحلة ما سيوحد الأمراء الأجانب قوائم ضد الغازي. سمع شائعات عن جيوش مثل أسراب الجراد، لكنه لم يعرف إن كان ما سمعه مبالغاً فيه. وإذا لم يتحد الأمراء الأجانب معاً، فسيقضي عليهم واحداً تلو الآخر. ولن يتوقف، لن يتوقف أبداً حتى يرى البحر.

قاد حصانه إلى مقدمة رتل أقرب الفرقتين إليه، وهو يتوثق من الإمدادات التي كان مونغكي قد وعد بإرسالها بعد اكتشافها بمحض المصادفة. أرغمهم إبقاء أعداد كبيرة في الميدان على التحرك باستمرار، فالخيول تحتاج إلى سهول واسعة من الأعشاب الطرية، والجنود المشاة المنهكون يمثلون مشكلة تكبر كل يوم. كان هؤلاء يحققون هدفاً حين يُستخدمون بقسوة، وترسلهم فرق تسوبودي أمامها

فيرغمون الأعداء على استخدام كل السهام قبل أن يلتقوا قوات المغول الرئيسية. بتلك الطريقة، كانوا يؤدون واجبه على أحسن ما يرام. لكن أي شيء حسي أو يتحرك يجب اصطاده لإطعام الرجال؛ ليس قطعان الماشية والأغنام فقط، وإنما الثعالب والغزلان والذئاب والأرانب البرية والطيور؛ وكل ما يمكنهم العثور عليه. تحولوا في الأرض، ولم يتركوا شيئاً حياً خلفهم. فكّر في أن تدمير القرى شيء رحيم، فالموت السريع أفضل من ترك الناس يهلكون جوعاً من دون حبوب أو لحم للشئ القادم. أحياناً، كانت فرق تسوبودي تجرّ مهجورة، وأماكن مملوءة أشباحاً منذ سنوات خلت، حين أرغم وباء أو مجاعة الناس على مغادرتها. لم يبدؤوا مستغرباً حين وجد أنهم يتجمعون في مدن كبيرة، ففي مثل تلك الأماكن يمكن أن يدعوا أنهم بأمان وأن يستمدوا الراحة من الأعداد الكبيرة والأسوار العالية. لم يكونوا يعرفون بعد مدى ضعف تلك الأسوار أمام فرقهم، فقد دمر ينكينغ وإمبراطور تشن داخلها، ولم يشاهد شيئاً في الغرب بمثل تلك المدينة الحجرية.

أغلق تسوبودي فكّيه بشدة حين رأى باتو بصحبة غويوك مجدداً. كان مونغكي وبايدور على بعد مئات الأميال، أو ربما سيحدهما هنا أيضاً كما فكّر. بدا أن الأمراء الأربعة قد أصبحوا أصدقاء، وهذا شيء ربما يكون مفيداً كفاية لو أن باتو لم يكن الشخص الذي يجتمعهم. وربما لأنه الأكبر، أو لأن غويوك يعتبره قدوة، بدا أن باتو يضبط إيقاع الآخرين. كان يُظهر احتراماً كبيراً لتسوبودي كلما تكلم معه. لكن، هناك دائماً تلك الابتسامة الساحرة. لم تكن تظهر بوضوح يتسبح لأورلوك فرصة التصرف، لكنها رغم ذلك موجودة، وشعر بأنها مثل شوكة في ظهره؛ بعيدة ولا يمكن الوصول إليها أو اقتلاعها.

شدّ تسوبودي لجام حصانه حين وصل إلى مقدمة الرتل، وخلفه كانت فرقة باتو تسير إلى جانب فرقة غويوك. لم يكن هناك أيّ من المنافسة الشرسة المعتادة بين هؤلاء الهاربين؛ وكألم يستمدون تصرفاتهم من قائدٍ لهم اللذين يسيران في الأمام. تأفف تسوبودي من الصفوف المنتظمة، ولم يكن بمقدوره أن يعيب ذلك عليهما. لكن، اعتدل في صدره شعور بالغضب لدى رؤيته غويوك وباتو يتكلمان طوال اليوم وكألمهما يقودان حصانيهما إلى وليمه زقاف وليس في أرض معادية.

شعر تسوبودي بغضب واستياء، فلم يكن قد تناول طعاماً اليوم، وقاد حصانه
عشرين ميلاً منذ الفجر متفقداً الأرتال التي تشق طريقها عبر الأرض. كظم غيظه
حين اتحنى باتو نحوه وهو جالس على سرجه.

صاح باتو: "هل لديك أوامر جديدة يا أورلوك؟".

رفع غويوك بصره إلى الأعلى أيضاً، وقرب تسوبودي حصانه منهما، بحارياً
سرعتهما. لم يزعج نفسه بالرد على السؤال الذي لا طائل منه.

قال تسوبودي: "هل وصلكما قطع الأبقار الذي أرسله مونغيكي؟". كان
يعرف أنه وصل، لكنه بدا بحاجة إلى التطرق إلى الموضوع. أوما غويوك فوراً.
"قبل الفجر تماماً، متنا رأس. لقد ذبحنا عشرين ثوراً، والباقي في القطعان
حلقتنا".

قال تسوبودي لهما باقتضاب وحفاة: "أرسلنا ستين بقرة إلى كشيون، فليست
لديه أبقار". لم يكن يحب الظهور هيبة من يطلب معروفاً.

ثم باتو: "ربما لأن كشيون يجلس في عربة بدلاً من أن يمتطي حصانه ويخرج
بحثاً عن اللحم".

كاد غويوك أن يغص حين حاول أن يكتفم ضحكته. وحدث تسوبودي إليهما
معباً برودة. لم يكن كافياً بالنسبة إليه أن يتصرف ابن الخان كصاحب، وبدلاً من
غطرسة باتو شيء يجب أن يواجهه ويسحقه في نهاية المطاف. ثم تسوبودي أن
يتجاوز باتو سلطته قبل أن يصل الأمر إلى القتل. فهو شاب وجامح، وبدلاً
تسوبودي واثقاً من أنه سيقترف غلطة ما.

جاء مستطلع بسرعة ليقدم تقريره، واستدار تسوبودي تلقائياً ليجد الرجل
يتجاوزته متحياً نحو باتو. سحب ببطء نفساً طويلاً حين رآه المستطلع وفرغ، ثم
اتحنى هذا الأخير كثيراً على السرج.

قال لباتو: "نحن نقرب من القرية بجانب النهر أيها القائد. طلبت إبلاغك
حين نصبح ضمن المدى".

سأل باتو: "والنهر نفسه؟". كان يعرف أن تسوبودي قد استطلعه قبل أيام
ببحثاً عن معابر وجسور. ظهرت ابتسامة السخرية على فمه مجدداً، وهو يعلم أن
محمود تسوبودي سماع كل كلمة.

"هناك معبران ضحلان في دربنا أيها القائد، وأفضلهما إلى الشمال".

"حسناً، سنسلك ذلك الطريق. دلّ عبيدي عليها، ثم قدنا عبرها".

رد المستطلع: "حاضر يا مولاي". انحنى لباتو، ثم لتسوبودي، قبل أن يدفع

بعقبه ردي في حصانه الذي انطلق على طول صف اغارين المتحركين إلى الأمام.

سأل باتو ببراعة: "هل هناك شيء آخر يا أورلوك؟ لدي أمور أنجزها هنا".

"أقيما معسكرًا عندما تصبحان بجانب النهر، ثم لتأتيا كلاكما لرويتي عند

غروب الشمس".

وأما بنظران إلى بعضهما ثم يشيحان بهصرهما بعيداً قبل أن يضحكا، فصكّ

تسوبودي أسنانه وابتعد عنهما. كانت لديه أنباء عن مدينتين خلف الجبال؛

مدينتين قال مستطلعهو إنهما تعصّان باللاجئين الذين هربوا من فرق المغول. وبدلاً

من التحضير لحملة ضد بودا وبست، بدأ أنه يتعامل مع قيادة يتصرفون مثل

الأطفال. تساءل إن كان بمقدوره ضم غويوك إلى جانب، وجعل الشاب يقدم على

شيء بفعل الواجب أو الكرامة، وأوماً لنفسه وهو يقود حصانه. فمنذ هجومه

الباهر على قلب الجيش الروسي، أخذ باتو يتخطى سلطة أورلوك تدريجياً. وإذا

استمر الأمر على هذه الحال، فسيكلفهم أرواحاً، وربما سيقضي عليهم جميعاً. لم

يكن الوقت مبكراً على إمساك المشكلة من خناقها، أو حتى الرجل. وبدأ أنه لا

مكان في الحملة لتحدي سلطته؛ حتى من أبناء جنكيز وأحفاده.

انطلق القادة على سهوات جيادهم إلى خيمة تسوبودي عند مغيب الشمس.

كانت الفرق نائمة حولهم، في محيط مليء بالخيام الباهتة؛ يمتد إلى حيث يمكن

للبصر أن يصل، وتحتشد في وسطه مجموعة من الرجال المقاتلين. كانت الأغلبية

العظمى من الروس - سواء أكانوا أولئك الذين نجوا من تدمير بلداتهم ومدنهم أم

عدداً أقل بكثير جاء للحصول على الغنائم - قد تعقبوا الجيش في الوديان،

وعرضوا أسلحتهم وقوتهم، وأصبح معظمهم ضباطاً على الآخرين بوصفهم

أشخاصاً يميزون أحد طرفي السيف عن الآخر. كانت أدواتهم مما يستطيعون

الحصول عليه. وكان أفضل الطعام يذهب إلى الفرق المغولية؛ لذا كانوا هزلي

وجائعين دائماً.

كان بافل أحدهم، وكان غيلاً مثل ذئب متوحش، ومصاباً دائماً بكدمات أو متعباً من التدريب. لم يفهم نصف ما اضطر إلى القيام به، لكنه فعله؛ فحسرى في الصباح وهو يقفز خلف الفرق عشرة أميال في كل مرة. كان قد فقد سيفه الصديء في المعركة الوحيدة التي خاضها، ونجا بحياته بشق النفس، ومزقت الضربة التي طرحته أرضاً جزءاً من جلد فروة رأسه، وجعلته يفقد وعيه. وعندما أفاق أخيراً، وجد الحصن يحترق، والفرق تنتظم في معسكر ضخم، والموتى ممددين حيث لقوا حتفهم، وبعض الجثث قد جردت من ثيابها. شعر بأن وجهه متيبس بفعل الدماء التي سالت عليه وتجمدت؛ بدءاً من شعره ووصولاً إلى ذقنه. ولم يجرؤ على أن يمسه، رغم أن كتلة صلبة غطت عينه اليمنى.

كان بمقدور بافل أن يتسلى بعيداً آنذاك لولا ذلك الرجل ذو الأسنان العفنة، الذي تجاوزه وهو يحمل قربة من سائل مو. جعل الشراب بافل يتقيأ، لكن الرجل ضحك بطريقته البغيضة، وقال إن اسمه الكسي وإلهما قد قاتلا معاً. جعله الكسي يمشي معه عبر المعسكر إلى حيث يستلقي أنحار يون المغول على الأرض لملسين؛ وتصفهم نائم. اصطحبه إلى رجل لثلاً ندوب سينة وجهه، وجعلت بافل يفرغ.

قال الكسي: "إنه بولاني النسب، ومجرد فتى مزرعة، لكنه لم يهرب".

كان الرجل كثير الندوب قد تأفف، ثم تكلم بالروسية، وأخبره أن بمقدورهم ضم سيف آخر. رفع بافل يديه الخاليتين، ولم تكن لديه فكرة عن المكان الذي اختفى فيه سيفه آنذاك، وشعر بأن العالم لا يزال يدور حوله. تذكر قول الرجل إن جمجمته قد تعرضت لضربة شديدة قبل أن يفقد وعيه.

كانت حياته الجديدة قاسية، والطعام قليلاً، لكنه حصل على سيف جديد من دون شقوق وصدأ. جرى مع الفرق وتحمل؛ حتى أصبح الزفير الذي يخرج من رتبه ساخناً بما فيه الكفاية ليحرق، ونيض قلبه وكأنه سينفجر. حاول ألا يفكر في المزرعة التي غادرها وترك فيها والدته وجدّه، اللذين سيعتبان بالأرض الصغيرة، ويراقبان المحاصيل وهي تنمو وتجهز للحصاد. لن يكون هناك ليساعدهما هذه السنة.

كان بافل لا يزال صاحبياً حين رأى ثلاثة رجال يمتطون الخيول يتقدمون نحو الخيمة الكبيرة في وسط المخيم. وعرف أن الطويل بينهم صاحب الوجه القاسي هو

باتو، حفيد جنكيز. تعلّم بافل كل الأسماء التي استطاع تعلّمها، وبدأ أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه أن يستفيد بها من الفوضى الجديدة في حياته. لم يعرف هوية الشخص الذي كثر بسخف حين قال باتو تعليقاً، وتحسّس بافل مقبض سيفه بأصابعه في الظلام، متمنياً أن تكون لديه القوة ليمشي نحوهم بخطوات واسعة ويمزقهم إلى أشلاء. لم يكن قد شهد مقتل الدوق، لكن الرجال الآخرين هزّوا رؤوسهم وأشاحوا بأبصارهم بعيداً حين سأل عن ذلك، ولم يبدُ أنهم يهتمون للأمر مثله.

اتقرب بافل من الخيمة من دون أن يراه أحد. كان يعرف اسم قائدهم، رغم أنه وجد صعوبة في جعل فمه ينطق به. تسويدى - كما كانوا يدعونه - هو الشخص المسؤول عن حرق موسكو. مدّ بافل عنقه ليراه. لكن، عندما ترجل القادة الثلاثة، حثبت حيوتهم المنظر، فتنهّد بافل. أصبح بمقدوره أن يجري مسافة أطول مما كان يتخيل قبل بضعة شهور فقط، وبدأ الهروب مغرباً حين تختفي القمر، رغم أنه رأى مصير بعض الرجال الذين حاولوا ذلك. لقد أعيدها كأشلاء، وألقيت كتل من لحمهم إلى الآخرين، إهانة لهم. لم يكن قد انضم إليهم، إلا أنه يظن أن رفاقه الذين يتضورون جوعاً قد تناولوا تلك الأشلاء الملتطحة بالدماء، فالجوع يفتك بالمعدة سريعة الغثيان.

شم رائحة الشاي ولحم الضأن المشوي التي حملها النسيم، وامتلاً فمه لعاباً. كان يشعر بالجوع منذ أن غادر المزرعة. لكن، لن يحصل على الطعام قبل الصباح، و فقط بعد أن يجري ويملأ العربات حتى تولد ذراعاه وكتفاه. فرك بقعة على ظهره حين فكّر في ذلك، وتحسّس العضلة الجديدة هناك. لم يكن ضخماً، وإنما شديد الاحتمال نتيجة تعوّد العمل بصمت، وفي الظلام، قال لنفسه إن بمقدوره الهرب مع ولادة القمر التالي. وإذا أمسكوا به، فسيكون قد حاول على الأقل، لكن عليهم أن يقودوا حيوتهم بسرعة وقوة ليفعلوا ذلك.

أحفض باتو رأسه ليدخل الخيمة، وشدّ قامته حين حيّا أولئك الموجودين داخلها. كان قد اصطحب غوبوك وبايدور معه، وشعر بالسعادة لدى رؤيته مونغكي هناك. أوما باتو له، لكن مونغكي اكتفى بالنظر إليه قبل أن يملأ فمه مجدداً

بلحم الضأن الساخن. ذكر باتو نفسه بأن مونغكي قد خسر والده أيضاً، وأن هذا ربما سبباً لتشاطرها الحزن. لم تكن حقيقة أنه لا يشعر إلا بالكراهية تجاه والده تمثل عقبة إذا تعامل مع الشاب بحرص، فقد كانوا جميعاً أمراء الأمة، وتربّطهم صلة قرى مع جنكيز لا يستطيع تسوبودي أن يدعيها أبداً. استمتع باتو بالفكرة، وبالإحساس بالهوية الذي منحته إياه معرفته أنه جزء من تلك المجموعة. لا، إلهم مجموعته، وهو قائدهم. كان أكبرهم، رغم أن جسد مونغكي ضخّم ومفتول العضلات، وتعبه صارم مثل رجل حجير. فكّر باتو في أن التأثير فيه سيكون صعباً. كان غويوك وبادور مجرد فتين مقارنة به، وبافعين ومتحمسين لكل شيء، وبدأ سهلاً بالنسبة إليه أن يتحيل أن يحكم الإمبراطورية معهما.

قبل أن يجلس، حياّ كشيون وجيسي وتشولجيتي وانحنى لهم قليلاً. المزيد من الرجال العجائز. لاحظ أن فخذ كشيون متورمة كثيراً، وأسوأ بكثير مما كانت عليه سابقاً. كان القائد يجلس على فراش منخفض من القش، ويمد ساقه المتضخمة أمامه. أظهرت نظرة سريعة إلى وجه كشيون عينيّن متعبتين وجلداً أصفر داكناً من المرض، وظن باتو أن عمّه الأكبر لن ينجو في الشتاء القادم. لكن هذه هي حال الدنيا؛ يموت العجوز ليفسح مجالاً للشباب، ولم يدع ذلك يزعجه.

كان تسوبودي يراقبهم، وعينه باردتان، وهو ينتظر أن يستكمل باتو أولاً. ابتسم باتو ابتسامة عريضة، وجعلته أفكاره مبهتاً.

قال: "إنها ليلة رائعة يا أورلوك. يقول رجالي إنه أفضل مرعى رأوه منذ أن غادروا الديار. لقد كسبت الخيول طبقة من الدهن لن تصدّقها".

رد تسوبودي بحفاوة: "أجلس يا باتو، أنت موضع ترحيب هنا. غويوك، بادرور يوجد شاي في المغلاة. ليس هناك خدم الليلة، لهذا اسكب الشراب لنفسيكما".

انطلق الشاهان لتنفيذ المهمة، وسمع الجميع رنيناً وضحكات خافتة حين سكب الشاي المغلي من وعاء معدني ضخم على الموقد في وسط الخيمة، تحت فتحة الدخان. راقب تسوبودي بادرور وهو يعطي باتو كوباً مليئاً بالسائل الذي يتصاعد منه البخار. ورغم أن هذا التصرف بدا طبيعياً جداً، إلا أن مثل هذه الأشياء الصغيرة لها دائماً تأثير في السلطة. ففي وقت قصير فقط، بدا أن باتو قد وجد

لنفسه تابعاً آخر. ربما كان تسوبودي سيعجب بموهبة باتو في القيادة لو لم تتعارض مع سيطرته على الجيش، وقد تمتع والده جوشي بالمهارة نفسها في الماضي. كان تسوبودي قد سمع بالاسم الذي أطلقه باتو على الجيش، وبدا صعباً ألا يسمع به، فمع انقضاء سنوات على بدء الحملة أصبح استخدام اسم "القبيلة الذهبية" شائعاً تقريباً، كما هي الحال دوماً. بدا أن نصف الرجال يظنون أن باتو يتولى القيادة العامة، ولم يفعل الرجل شيئاً ليغير رأيهم. أطبق تسوبودي فكّيه بإحكام حين فكّر في ذلك.

كان أوجيدي قد كرم ابن جوشي غير الشرعي بألقاب ومنحه السلطة، وأكد ذلك رغم اعتراضات تسوبودي. في الحقيقة، لم يُلحق باتو العار بنفسه، وإنما مضى قدماً أبعد من ذلك فقد نظم فرقته جيداً، واختار ضباطه بعناية. كان بمقدور بعض الرجال كسب الولاء، في حين لا يستطيع آخرون إلا المطالبة به. وبدا مزعجاً على نحو غريب إدراك أن باتو من النوع الأول، فالرجال من هذا النوع خطرون دائماً، وتكمن الصعوبة في التعامل معهم، وتوجيه طاقاتهم؛ إذا لم يكن الأوان قد فات. شرع تسوبودي يقول همساً على نحو متعمد حتى يميلوا نحوه ليسمعوه: "بحسب هنغاريا فرسان، ويمتلكون قطعاناً كبيرة، ويستخدمون السهول الوسطى مثلنا تماماً. إنهم ليسوا بدواً. لقد بنوا مدينتين على ضفتي نهر الدانوب، اسماهما على التوالي بست وبودا، لكن دفاعاهما ليست محكمة؛ رغم أن بودا تقع على التلال، في حين تقع بست في سهل".

توقف عن الكلام لتلقي الأسئلة.

قال باتو فوراً: "هل هناك دفاعات؟ أسوار؟ أسلحة؟ خطوط إمداد؟".

"ليس لبست أسوار. أبحرني المستطعمون عن وجود قصر حجري على إحدى التلال بجانب بودا، وربما يكون مقر إقامة ملكهم. اسمه...".

تابع باتو: "ليس اسمه مهماً. لا يبدو أن الاستيلاء على هاتين المدينتين مهمة صعبة. لماذا تنتظر مجيء الشتاء؟".

رد تسوبودي وعينه تنقدان غضباً: "اسمه بيلا الرابع. سننتظر حلول الشتاء؛ لأننا نستطيع عبور النهر حين يتجمد. وكما حدث في موسكو، إنه يمنحنا طريقاً بين المدينتين؛ إلى القلب مباشرة".

شعر غويوك بالتوتر بين الرجلين، فوضع يده على ذراع باتو الذي أبعدها غاضباً.

تابع باتو: "فرقتي جاهزة للانطلاق اليوم يا أورلوك. أحبرني المستطلعون أننا نستطيع عبور الجبال إلى الغرب قبل الشتاء. يمكن أن نصل إلى هاتين المدينتين قبل هطول الثلج للمرة الأولى. أنت من قلت إن السرعة مهمة، أم إن الخذر هو المهم الآن؟".

قال جيبي بمدّة فحاة: "احتفظ بغطرسك لنفسك أيها الفتى".
انتقلت نظرة باتو إلى الرجل الأكبر سناً. كان جيبي قد خرج مع جنكيز إلى التلال الأفغانية، وهي داكن البضرة ونحيل، ووجهه متغضن بفعل السنين والخبرة. شجر باتو ازدراء.

"لا داعي لترك الأهداف الرئيسية إلى الشتاء أيها القائد. وأنا واثق أن أورلوك يعرف هذا. سيود بعضنا أن يرى نهاية الفتوحات قبل أن يصبحوا مسنين. بالنسبة إلى الآخرين، فات الأوان على ذلك سلفاً".

وقف جيبي على قدميه بسرعة، لكن تسوبودي رفع يده أمامه فلم يتحرك من موقعه. ضحك باتو بصوت خافت وتابع: "لقد نفذت كل أوامر تسوبودي".
نظر حوله حين تكلم، ونظر إلى الأمراء متعمداً. "لقد استوليت على مدن وبلدات؛ لأن الاستراتيجي العظيم قال: اذهب هنا، واذهب هناك. لم أجادل في أمر واحد".

توقف عن الكلام، وأطبق الصمت على الخيمة. لم يكن أحد آخر سيتركلم إذا لم يفعل تسوبودي ذلك، لكنه بقي صامتاً. هزّ باتو كتفيه وكان الأمر لا يعنيه وتابع.

"لا أنسى أن الخان نفسه هو من جعلني أرتقي الصفوف، وليس أورلوك. أنا رجل الخان أولاً، كما هي حالنا جميعاً. والأكثر من ذلك، أنا من نسبه؛ من سلالة جنكيز، مثل غويوك وبايدور ومونغكي. لذا، ليس الأمر كافياً أن نطبع على نحو أعمى ونأمل أن يكون ما نفعله صحيحاً. بل نحن من يجب أن نقود، ونستفسر عن الأوامر التي تصدر، أليس هذا صحيحاً يا أورلوك تسوبودي؟".

قال تسوبودي: "لا، هذا ليس صحيحاً. يجب أن تطيعوا الأوامر؛ لأنكم إن لم تفعلوا، فلا يمكن أن تتوقعوا الشيء نفسه من رجالكم. أنتم جزء من الذئب، لا الذئب كله. ظننت أنك قد تعلمت ذلك حين كنت صبياً، لكنك لم تفعل. لا

يمكن أن يكون للذئب أكثر من رأس واحد أيها القائد، وإلا فسيمزق نفسه إلى أشلاء".

سحب نفساً عميقاً، واستغرق في أفكاره. شعر تسوبودي أن باتو قد اختار اللحظة الخطأ لثبث نفسه. كان الرجال الأكبر سناً قد دُهبوا من كلماته، في حين لم يكن الأمراء مستعدين بعد للتخلي عن تسوبودي باهادور؛ ليس في هذا الموسم. لذا، تكلم مجدداً بارتياح أخفاه عنهم.

"لقد أغضبتني يا باتو. اتركنا الآن. سأصدر أوامر جديدة لك في الصباح."
استدار باتو إلى غويوك وهو يتوقع منه دعمه، لكنه شعر بمعدته تنقلص حين لم ينظر ابن الخان إلى عينيه. فرغ باتو أفذاك وأوماً.
قال بجفاء: "حسناً يا أورلوك". لم يتكلم أحد حين غادر المكان.

في الصمت الذي كان محيماً على المكان ملأ تسوبودي كوبه مجدداً وارتشف الشاي الساخن، ثم قال: "الجيال أمانا أكثر من مجرد سلسلة من المرتفعات أو بضع ذرى. أخبرنا المستطلعون أن علينا عبور ستين أو سبعين ميلاً من الأرض الصخرية الوعرة. لقد نجح المستطلعون في فعل ذلك. لكن، من دون وجود رجال محلبيين يساعدوننا لن نتمكن من معرفة الممرات الرئيسية. يمكنني إرسال بعض الوحدات لترسم خرائط للوديان، ومن دون عربات أو إمدادات لن يستغرق ذلك أكثر من بضعة أسابيع. بالنسبة إلى الباقين، هناك آلات الحصار والعربات والأسر والجرحي، سيكون الأمر بطيئاً وصعباً. يجب أن نعرف مواقع الممرات لننحو، وربما ينبغي أن نبني منصّات أو جسوراً. ومع ذلك، يجب أن نتحرك بسرعة وإلا فسنخسر الكثيرين حين يحل الشتاء. لا يمكننا البقاء على التلال آنذاك، فلا توجد مسراع في الأعلى".

نظر تسوبودي حوله إلى القادة المجتمعين. كان هناك رجل واحد يجب أن يجعله قوياً، وأن يفصله عن الباقين، لكنه ليس باتو.

"غويوك، سنذهب أولاً. غادر غداً مع وحدتين، وعخذ الأدوات التي تساعدك على سلك الدروب، وألواحاً خشبية، وأي شيء ربما تحتاج إليه. شق طريقاً مناسباً للعربات الثقيلة، وابق على اتصال بالمستطلعين وكن دليلنا".

لم يكن غويوك غافلاً عن تحاذب النفوذ مع باتو فلم يتردد.

قال وهو يحيي رأسه: "كما نشاء يا أورلوك". شعر بالسرور لتحمله هذه المسؤولية، وعرف أن نجاة الآخرين تعتمد على إيجاداً طريفاً جيداً. في الوقت نفسه، سيكون العمل مضنياً، وسيوجب عليه العثور على كل عقبة أو ثغرة زائفة ووضع علامة عليها.

قال تسوبودي: "قال المستطلعون إن هناك سهلاً يقع خلف تلك الجبال، ولم يستطيعوا رؤية نهايته. سترغم الشعوب هناك على لقائنا في الميدان. ومن أجل الخنان، سنستولي على مدعهم ونسائهم وأراضيهم. هذه هي الحملة العظيمة، والغارة الأبعد في تاريخ أمة جنكيز، ولن يوقفنا أحد".

همهم جييسي بسعادة، ورفع قربة من الشراب الأسود، وقذفها إلى تسوبودي الذي ملأ حلقه بالسائل. عبثت رائحة الصوف الرطب ولحم الضأن في الخيمة؛ رائحة كان قد عرفها طوال حياته. تبادل غويوك وبايدور النظرات حين شاهدا أورلوك مفعماً بالخبوبة ووثقاً جداً بنفسه، فيما راقبهم مونغكي جميعاً، ووجهه خالٍ من أي تعبير.

حري بافل بسرعة كما لم يفعل قط في حياته. ثلاثت أضواء نيران المغول الخافتة في الأفق خلفه. وقع أكثر من مرة، وأصيب في الثالثة بالنزوء سيئ جداً في قدمه جعله يعرج، وارتطم رأسه بشيء في الظلام، لكن الألم الذي يشعر به الآن لم يكن شيئاً مقارنة بما سيشعر به لو أمسكه المغول.

كان وحيداً في الليل، من دون صوت عيول تطارده أو أي رفيق. كان عدد من الرجال الآخرين قد فقدوا منازلهم في سنوات الحرب، وبعضهم لا يتذكر أي حياة أخرى، لكن بافل لم يفقد ذاكرته. في مكان ما إلى الشمال، تمتى أن يكون جدّه ووالدته لا يزالان يعتنيان بمزرعتيها الصغيرة. وعرف أنه سيكون بأمان حين يصل إليهما، وقال لنفسه إنه لن يغادر ذلك المكان مجدداً. تخيل وهو يجري أن الشباب الآخرين سينظرون إليه والحسد باء في عيولهم. وستراه فتيات القرية جندياً متمرساً، ومختلفاً عن فتیان الريف حوثن. لن يتجر أحداً مطلقاً عن الجثث المكذّسة مثل أكياس التبن، أو حرارة السائل حين ارتخت مثانته خوفاً. كان سيفه ثقيلاً وعرف أنه يطئه، لكنه لم يستطع إرغام نفسه على رميه بعيداً. سيدخل الساحة،

وستيكي والدته بالتأكيد حين تراه عائداً من الحرب؛ سيعود إلى البيت. جعل
السيفُ قدمه تزل. وعندما تعثر وقع سيفه، فتركه متردداً ومضى قدماً. شعر بأنه
أخف وزناً بكثير من دونه.

salmanlina
www.mlazna.com

هذا العدد من العربات والمعدات، فقد اعتاد الخروج مع فرقته وترك معظمها خلفه. أحياناً، ظن أن بمقدورهم بناء مدينة في البراري باستعمال المعدات والأدوات التي يحملونها معهم. وقد أحضر تسوبودي ألواحاً خشبية إلى الجبال، وحملها من الحطب تطلب نقله مئات الرجال. كان هذا يعني إشعال نيران في الليل، حين لا يكون هناك شيء آخر يمكن حرقه، لكن الريح بددت الحرارة الضعيفة، أو بردت جانباً من الجسد في حين احترق الآخر. استشاط باتو غضباً من الطريقة التي عمل بها، وتفانم غضبه لأن غويوك لم يتكلم دفاعاً عنه. كان كل ما فعله هو التشكيك في سلطة تسوبودي المطلقة عليهم، لكنه لم يرفض أمراً؛ رغم أنه قد تباهى بهذا، إلا أنه عوقب وكأنه فعل ذلك حقاً.

أحنى باتو ظهره مجدداً ليضع كتفه تحت عارضة خشبية مع الرجال الآخرين، مستعداً ليرفع العربة من أهدود حيث غاصت العجلات.
"واحد، اثنان، ثلاثة..."

همهوا بمجهدين حين بدأ العدّ. لم يستطع تسوبودي منع رجال باتو من الترحّل لمساعدته في العمل. ربما كان الأمر في البداية يتعلق بولاء المحارب لقائده، لكن بعد أيام من العمل المضني، ظنّ باتو أنهم يشعرون بالاشتمزاز من تسوبودي باهادور مثله تماماً.

عدّ مجدداً: "واحد، اثنان، ثلاثة..."

ارتفعت العربة ثم هبطت مصدرة صوتاً مكتوماً. فقد باتو توازنه، فأمسك بطرف العربة ليثبت نفسه. كانت يدها ملفوفتين بالصوف وجلد الغنم، لكنهما تولمناه كثيراً، وقد انسلخ عنهما الجلد. استفاد من لحظات إضافية ليحرك ذراعيه، ويرغم الدم على الوصول إلى أطرافهما حتى لا يفقدهما في الصقيع. كان الكثير من الرجال يضعون تلك الرقع البيضاء على أنوفهم، أو وجناهم؛ مما يشير إلى ندوب قديمة تعرّض لها الرجال الأكبر سناً الذين اختبروا كل هذا من قبل.

كان لتسوبودي الحق بتكليفه بأي مهمة، لكن باتو ظنّ أن سلطته أكثر هشاشة مما يدرك أورلوك، فقد وصل إلى القيادة بأمر من الخان، لكن حتى في الحملة لم تكن كل أفعالهم عسكرية فقط. ستكون هناك لحظات يجب اتخاذ قرارات سياسية فيها، وهي مسؤولية الأمراء وليس المحاربين. كان باتو واثقاً أنه يمكن تجاوز

أورلوك وحتى عزله بدعم من غويوك، لكن هذا يجب أن يحدث في اللحظة المناسبة، حين لا تكون سلطة أورلوك واضحة تماماً. أمسك باتو بالعربة مجدداً، فتمايلت وكادت العربة اللعينة أن تنقلب فوقهم. بدا مستعداً للانتظار، لكنه اكتشف أن عصبية تزداد كل يوم. لم يكن تسوبودي أحد أقرانهم، والأمراء هم الذين سيصنعون المستقبل، وليس القائد العجوز العليل الذي كان يجب أن يتقاعد ليعتني بأغنامه قبل وقت طويل. استفاد باتو من غضبه ليمنحه دفعة من القوة، وشعر بأنه رفع العربة بمفرده تقريباً، ودفعها إلى الأمام والأعلى.

امتطى أوجيدي حصانه ببطء، وشعر يوركيه تؤلمه. متى أصبح جسده متيبساً هكذا؟ كانت العضلات في ساقه وأسفل ظهره قد أضحت ضعيفة على نحو مدهش، ويمكن أن يجعلها تتر كما يهر الحصان جسده لإبعاد الذباب. كانت سورهتاني تعتمد عدم النظر إليه كما لاحظ، واهتمت بأبنائها بدلاً من ذلك. رأى كوبلاي يتوثق من الحزام الذي شد حول بطن حصانه، في حين التزم أريك - بوك وهولغو الصمت في وجود الخان. لم يكن أوجيدي يعرف الصغبرين جيداً. لكن، سبق لسورهتاني أن أحضرت كوبلاي ليتكلم معه في الأمسيات. جعلت ذلك يبدو كما لو أنه يؤدي معروفاً لها، لكن أوجيدي أصبح مهتماً جداً بتلك الأحاديث. كان الفتي حاد الذكاء، وبدا أنه مهتم جداً بقصص المعارك الماضية، خاصة تلك التي شارك فيها جنكيز. وجد أوجيدي نفسه يعيش أجماد الماضي مجدداً في عيني كوبلاي، ويمضي جزءاً من كل يوم وهو يخطط لما سيقوله للشباب في المساء.

اختير الخان ساقيه مجدداً جلسة، ثم نظر إلى الأسفل حين ضحكت توروجين خلفه، وأدار حصانه ليراها واقفة هناك. عرف أنه يبدو نحيلاً وشاحباً بعد بقائه وقتاً طويلاً داخل غرفته. ألمته مفاصله، واشتهى احتساء الشراب؛ حتى إنه شعر بفعمه يجف لدى التفكير فيه. كان قد وعد توروجين بأنه سيتناول عدداً أقل من أكواب الشراب كل يوم، وجعلته يقسم يميناً معظماً على ذلك. لم يكن قد أحرها عن مجموعة الأكواب الضخمة التي تشويها الأفران له. كانت كلمته حديثاً، لكن النبيذ إحدى المتع القليلة التي بقيت لديه.

قالت توروجين: "لا تبقَ في الخارج إذا شعرت بالتعب. يمكن أن ينتظرك ضباطك يوماً آخر إذا اضطروا إلى ذلك. يجب أن تستعيد قوتك ببطء".

ابتسم لدى سماعه خبرها، متسائلاً إن كانت كل الزوجات يصبحن مثل أمهات لأزواجهن في مرحلة ما. لم يسهه إلا أن ينظر إلى سورهناني حين فكّر في ذلك. كانت لا تزال رشيقة وقوية مثل راعٍ يافع. كانت امرأةً ينبغي ألاّ تذل هباءً في سرير بارد. لم يتذكر متى شعر للمرة الأخيرة برغبة جنسية قوية خارج أحلامه، وبدا جسده منهكاً وضعيفاً وعجوزاً. سطعت الشمس ضعيفة، وبدت السماء الخريف زرقاء. كان سيغود حصانه على طول القناة ليرى الأعمال الجديدة، وربما سيستحم في النهر الذي يغذيها إن تمكن من إقحام نفسه في المياه المتجمدة.

قال بصوت أحش: "لا تحرقى مدينتي وأنا خارجها". ابتسمت من نبرته. ردت توروجين: "لا أعدك بشيء، لكنني سأحاول". مدت يدها ومسّت قدمه في الركاب، ثم أمسكتها بقوة كافية ليحس بالضغط. لم يكن يحتاج إلى التعبير عن الحب الذي يكتنه لها. ومدّ يده إلى الأسفل، ومسّ وجنتها قبل أن يدفع بعقبه ردي في حصانه الذي انطلق عبر البوابة.

انطلق أبناء سورهناني معه، وكان كوبلاي يمسك أجمّة ثلاثة أحصنة تحميل، ترتفع الإمدادات عالياً عليها. راقب أوجيدي الشاب وهو يقطع بلسانه لها، مفعماً بنشاط بدت رؤيته مؤلمة. لم يكن قد أحرر كوبلاي بشأن ذكرياته عن موت تولي، فلم يكن مستعداً بعد لسرد تلك القصة؛ مع كل الألم الذي شعر به في ذلك اليوم البارد.

استغرق الأمر نصف الصباح ليصلوا إلى النهر. كانت قدرته على التحمّل قد تلاشت بعد شهور أمضاها متكاسلاً، وشعر بأن ذراعيه وساقيه ثقيلة حين ترجّل، وكافح كي لا يصرخ حين تشنّحت فخذاه. سمع بصعوبة أصوات فرقة في الوادي، وشاهد الدخان البعيد المعلق مثل ضباب الصباح، وبدأ أن الهوء يصطبغ بلون أصفر باهت تذكّره من حدود سونغ. ولدّهشته، وجد أن استنشاق الرائحة الغريبة يعث السرور في نفسه تقريباً.

أقامت سورهناني وأبناؤها مخيماً حوله، ونصبوا خيمة صغيرة على أرض جافة بجانب الضفة، وغلوا الشاي على الموقد. وفي أثناء تحمّره، امتطى أوجيدي

حصانه مجدداً، وطقطق بلسانه ليلفت انتباه كوبلاي فقفز الشاب على سرجه لينضم إليه، ووجهه مشرق بفضل استمتاعه.

معاً، قاد الخان والشاب حصانيهما عبر الحقل الذي تضيئه الشمس إلى حيث جهّز خاسار فرق المدفعية للتفتيش. استطاع أوجيدي رؤية فخر القائد العجوز بالأسلحة الجديدة من بعيد، فقد كان موجوداً أيضاً على حدود سونغ وشاهد قدراتها التدميرية. اقترب أوجيدي على سهوة حصانه ببطء، فلم يكن يشعر بحاجة إلى العجلة أو السرعة. كانت الليلة العظيمة التي عاشها قد جعلته يفكر بتأني شديد، وبدا أن الاهتمام بالأمر الصغرى أضحي أكثر صعوبة. كان وجود كوبلاي معه تذكيراً له بأن هناك أشخاصاً لا يشاطرونه وجهة نظره تلك. جعل منظر المدافع البرونزية اللامعة كوبلاي يتعرق فعلاً.

تحمل أوجيدي الإحراجات الرسمية مع عمه، ورفض الدعوة لتناول الشاي، وأشار أخيراً إلى المدفعين لكي يبدأوا.

قال خاسار: "ربما ترغب في أن ترحل وهنك بلحام حصانك يا مولاي الخان".

بدا نحياً ومتعباً، لكن عينيه تلمعان حماسة. لم يتأثر أوجيدي بمسزاج عمه، وشعر بأن ساقيه ضعيفتان ولم يرغب في أن يتعثر أمام هؤلاء الرجال. أمضى لحظة وهو يذكر نفسه بأنه بين أمته مرة أخرى، وأن هقوة واحدة ستجعل ضعفه يصل إلى كل أذن.

رد: "كان حصاني على حدود سونغ، ولن يهرب. كوبلاي، يجب أن تفعل ما يقوله".

قال خاسار بنبرة رسمية: "حسناً يا مولاي". وشبك يديه خلف ظهره، وأشار بحدّة إلى فرق المدفعيين الذين كانوا يقفون في مجموعات من أربعة أشخاص، وهم يحملون أكياساً من مسحوق أسود، بالإضافة إلى مجموعة من المعدات غريبة الشكل. نظر كوبلاي إلى كل ذلك مفتوناً.

قال أوجيدي لهم: "أروني".

صرخ خاسار بالأوامر، وراقب أوجيدي من حيث يجلس على السرج فيما كان أول فريق يتوقى من أن السلاح مثبت بكتل خشبية على العجلات الضخمة.

وضع محارب قصبة في فتحة في الأنبوب، ثم أشعل فتيلة، وعندما ممست الشعلة القصبة انطلقت شرارة، ثم دوى انفجار جعل المدفع يهتز ويرجع قليلاً إلى الخلف. ثبتت الكتل الخشبية المدفع بصعوبة، وارتفع السلاح من مكانه قليلاً ثم عاد إلى موضعه. لم ير أوجيدي الكرة التي خرجت تطير منه، لكنه أوماً بحفاظاً على هدوئه. رفع حصانه أذنيه، لكنه انحنى بعد ذلك ليرعى العشب. اضطر كوبلاي إلى أن يصفع حصانه على وجهه حتى يتوقف عن الحركة مذعوراً؛ إذ ما كان يريد أن يلحق به العار بأن يُفلت حصانه من عقاله ويهرب أمام الخان. على أي حال، أضحي أكثر من شاكر؛ لأنه لم يكن على السرج.

قال أوجيدي: "أطلقوا الأخرى معاً".

أوماً حاسار بفخر، وأدخلت ثماني قوبى أخرى قصباتها في الثقوب وأشعلت القتائل.

"عند إشارتي أيها المدفعيون. هل أنتم مستعدون؟ نارا".

كان الصوت مدوياً، فقد تدرّبت الفرق خارج المدينة طوال أسابيع، وأطلقت المدافع قذائفها معاً تقريباً، بتأخير طفيف فقط. هذه المرة، رأى أوجيدي كرات تختفي عبر الوادي، وواحدة أو اثنتين تقفزان على الأرض. ابتسم حين فكّر في صف من الخيول أو الرجال يقف في درب مثل هذه الأسلحة.

قال: "ممتاز".

سمع حاسار ذلك وضحك بصوت خافت. كان لا يزال مبتهجاً من تحكّمه في الدوي.

انتقل بصر أوجيدي إلى صفوف المنحنيقات الثقيلة خلف المدافع. كان بمقدورها إطلاق براميل من البارود إلى بعد مئات الأقدام، وقد تعلّم مهندسوه من مهندسي تشن، لكنهم طوّروا المسحوق فأصبح يحرق أسرع وأقوى. لم يفهم أوجيدي العملية، أو يهتم لذلك، فكل ما يهتمّ هو أن الأسلحة تعمل.

انتظر المزيد من الرجال عند المنحنيقات، وهم يقفون على أهبة الاستعداد. أدرك أوجيدي فجأة أنه لم يعد يشعر بالتعب، فقد أنعشته السفجيرات ورائحة الدخان الكريهة. وربما بسبب ذلك، لاحظ كيف أن كفتي حاسار قد ارتختا. كان إرهاق الرجل العجوز بادياً للعيان بالنسبة إلى الجميع.

قال: "هل أنت متوَعك يا عمّاه؟".

حفل حاسار وهزّ كتفيه: "هناك كتل في كتفي، ممّا يجعل تحريك ذراعيّ أمراً صعباً بالنسبة إليّ. هذا كل شيء".

كانت بشرته الصفراء تفضح كذبه، وعبس أوجيدي في وجه عمّه حين تابع. "قال الضالعون إنه يجب إزالتها، لكنني لن أسمح لهؤلاء الجزّارين بأن ينالوا مني، ليس بعد. نصف الرجال الذين يزيلون هذه الكتل لا يمضون بمسدد، وربما أكثر".

قال أوجيدي بلطف: "يجب أن تفعل ذلك. فأنا لا أريد أن أحسرك يا عمي".

تأفّف حاسار وقال: "أنا مثل الثلال أيها الخان. بضعة أورام لن توقفي".
ابتسم أوجيدي وقال: "أمل ألا تفعل. أرى المزيد يا عمّاه".

عندما عاد أوجيدي وكوبلاي إلى المخيم الصغير بجانب النهر، كان الصباح قد انقضى تقريباً، والشاي قد تخمّر منذ وقت طويل ولم يعد صالحاً للشرب. استمر إطلاق نيران المدفعية خلفهم، واستخدام كميات كبيرة من البارود لتدريب الرجال الذين سيلعبون دوراً حاسماً في المعارك المستقبلية. كان من الممكن رؤية حاسار وهو يمشي بخطوات واسعة أمام الصفوف، في المكان الذي يلائمه.

رأت سورهناتي أن وجه ابنها المتورّد ملطخ بالسخام. وكانت تتبعث من كل من الخان وكوبلاي رائحة الكبريت، ولم يكن في وسع أريك - بوك وهولغو إلا أن ينظروا إلى كوبلاي بحسد باهٍ للعيان. تركت سورهناتي أبنائها يحضّرون شيئاً طازجاً ومشّت إلى حيث ترجّل أوجيدي.

وقف على ضفة النهر محدّقاً إليه، وهو يحمي عينيه من الشمس. أخفى خريسر المياه وقع قدمي سورهناتي حين اقتربت منه.

قالت: "كوبلاي يثرثر مثل عصفور. أظن أن العرض كان جيداً".

هزّ أوجيدي كتفيه وقال: "أفضل ممّا كنت أأمل. مع مزيج المسحوق الجديد، حاسار مقتنع بأن مدى مدافعنا مماثل لمدى مدافع سونغ". شدّ قبضته لدى تفكيره في ذلك، وبدا تعبير وجهه صارماً وهو يتابع: "سيحدث هذا فرقاً يا سورهناتي".

سفاحتهم يوماً ما. أمئى فقط لو كان بالإمكان إصال بعضها إلى تسويدى، لكن
حراً هذه الأشياء الثقيلة تلك المسافة البعيدة سيستغرق أعواماً".

قالت وهي تبسم: "أنت تصبح أقوى".

رد: "إنه تأثير الشراب".

ضحكت سورهتاني وقالت: "ليس الشراب، وإنما الرحلات الصباحية مثل
هذه، والتدرّب على القوس بعد ظهر كل يوم. تبدو الآن رجلاً مختلفاً عن ذلك
الذي وجدته في تلك الغرفة الباردة". توقفت، وأمالت رأسها.

"هناك لحم أكثر يغطي جسديك أيضاً. عودة توروجين نفعتك كما أظن".

ابتسم أوجيدي. لكن، بدا أن الإثارة العظيمة التي شعر بها بفضل المدافع
تلاشى وقلبه لم يعد متعلقاً بها. كان يتكّر أحياناً أن يخافه مثل قماش داكن اللون
يلتفّ حوله، ويخفق أنفاسه. لقد مات في تلك الحملة، وعلى الرغم من أن الشمس
تشرق وقلبه لا يزال ينبض في صدره، إلا أن المضي قدماً كل يوم بدا صعباً. كان
قد ظن أن تضحية تولى ربما تمنحه هدفاً جديداً، لكنه بدلاً من ذلك شعر بأن
الحسارة عبء أكبر من أن يستطيع تحمّله. أحس أن القماش لا يزال ملتصقاً
به، ورغم كل ما فعلته سورهتاني. لم يكن بمقدوره شرح ذلك، ولمتّى جزء منه أن
تتركه المرأة وحده ليجد طريقاً هادئاً يمضي فيه قدماً.

تحت نظرات سورهتاني الحذرة، جلس أوجيدي مع الأُسرة، وشرب الشاي،
وتناول طعاماً بارداً أحضروه معهم. لم يجلب له أحد الشراب، ولهذا بحث عن
قربة منه في العلب، وشرب منها مباشرة، مثل الشراب الأسود. تجاهل التعبير الذي
بدا على وجه سورهتاني حين أعاد السائل الأحمر التورود إلى وجنتيه، وبدا أن عينيها
قد طرفتا، ولهذا تكلم ليشتت انتباهها.

قال: "ابنك مونغكي يبلى حسناً. وصلتي تقارير من تسويدى تقدّره كثيراً".
شدّ الأبناء الآخرون قاماتهم باهتمام مفاجئ، ومسح أوجيدي شفّته وهو
يتلذذ بطعم الشراب الذي بدا مرّاً اليوم، وبغيضاً على اللسان؛ وكأنه يفتقر إلى
الجودة. ولدهشته، كان كوبلاي من تكلم، ونبرة صوته تنسم بالاحترام.

"مولاي الخان، هل استولوا على كييف؟"

"فعلوا ذلك، وشارك شقيقك في المعارك".

بدا أن كوبلاي يكافح نفاذ صبره.

"هل وصلوا إلى جبال كاربايثان؟ هل تعرف إن كانوا سيَتجاوزونها هذا الشتاء؟".

قالت سورهتاني: "ستعب الخان بشرثتك". لكن أوجيدي لاحظ أنها لا تزال تنتظر جوابه.

قال: "آخر ما سمعته هو أنهم سيحاولون عبورها قبل السنة التالية".

تمتم كوبلاي لنفسه: "إنها جبال وعرة التضاريس".

تساءل أوجيدي كيف بمقدور الشاب أن يفترض أنه يعرف أي شيء عن جبال بعيدة أربعة آلاف ميل. كان العالم قد توسع منذ أن نشأ صغيراً، ومع سلاسل المستطعين ومحطات الطرق، تدفقت معلومات عن الدنيا إلى كاراكوروم. كانت مكتبة الخان تضم آنذاك مجلدات باليونانية واللاتينية، مملوءة بمحائب لا يمكنه تصديقها، وقد تولَّى عمه تيموج مهمة بناء سمعتها على عمل الجهد، ودفع ثروات مقابل أندر الكتب والمخطوطات. ستستغرق ترجمتها إلى لغات منحصرة عمل جيل بكامله، لكن تيموج لديه اثنا عشر رجلاً نصرانياً ينفذون تلك المهمة. شرد في حلم يقظته، لكنه سرعان ما جرَّ نفسه عائداً إلى الواقع، وفكَّر في الكلمات التي جعلته يستغرق في الأفكار. تساءل إن كان كوبلاي قلقاً بشأن سلامة شقيقه.

قال: "مع بايدور، لدى تسوبودي سبع فرق وأربعون ألف مجند. لن توقفهم الجبال".

"وبعد الجبال يا مولاي؟". ابتلع كوبلاي ريقه، وهو يحاول عدم إزعاج أقوى رجل في الأمة. "يقول مونغيكي إنهم سيمضون قدماً إلى البحر".

انتظر الشقيقان الأصغر سنّاً ردّه وتنهَّد أوجيدي. افترض أن المعارك البعيدة ممتعة مقارنة بحياة الدراسة والهدوء في كاراكوروم، وعرف أن أبناء سورهتاني لن يبقوا في المأوى الحجري وقتاً طويلاً.

"أوامري هي تأمين الغرب، ومنحنا حدوداً خالية من الأعداء الذين قد ينشطون وراءها ليغزوا أراضينا. تسوبودي هو من يقرر الطريقة التي ينجر بها ذلك. ربما بعد سنة أو اثنتين ستسافرون إليه. هل تودون ذلك؟".

رد كوبلاي بجذبة: "نعم، مونغكي شقيقى، وأود رؤية المزيد من العالم وليس مجرد حرائط في كتب".

ضحك أوجيدي بصوت خافت، وتذكر الأيام التي بدا العالم له فيها لا حدود له وكيف أراد أن يراه كله. بطريقة ما، كان قد فقد ذلك التوق الشديد، وتساءل للحظة إن كانت كاراكوروم قد سلبته ذلك. ربما كانت هذه لعنة المسدن التي تجذّر أماً في مكان واحد وتصهرها فيه، لكنها لم تكن فكرة ممتعة. قال مدركاً أنه لن يحظى بفرصة أفضل في هذا اليوم: "أود أن أكلّم والصدتكم على انفراد".

تحرك كوبلاي بسرعة وهو يقود شقيقه نحو الخيول ويصطحبهما في اتجاه فرق مدافع خاسار التي لا تزال تتدرب تحت شمس بعد الظهيرة. جلست سورهتاني على بساط اللباد، وتغيرها فضولي، وقالت: "إذا كنت ستعلن لي حيك فقد أهدرتني تورو وجين ماذا ينبغي أن أقول". ضحك بصوت عالٍ فشرعت بالسعادة. "أنا وانتِ إنما فعلت ذلك. لكن لا، أنت بأمان يا سورهتاني". تردّد، فأثنت مقتربة منه، وهي مذهولة لرؤية لون زهري على وجنتيه.

شرح يقول: "أنتِ لا تزالين شابة يافعة يا سورهتاني". أغلقت فمها بدلاً من أن ترد، رغم أن عينيها لمعتا. همّ بأن يتكلم مرتين، لكنه أحجم.

قالت: "لقد تكلمنا سابقاً عن شهابي، كما أظن".

تابع: "أنتِ تحظين بالقباب زوجك".

تلاشى مزاج سورهتاني الطيب. كان الرجل الذي يستطيع نزع السلطة الاستثنائية التي مُنحت إياها يحاول أن يقول ما يجول في ذهنه. تكلمت مجدداً بصوت أفسى: "اكتسبتها بفضل تضحيته وموته يا مولاي. نعم، إنها مكتسبة ولم تُمنح مئة".

طرفت عينا أوجيدي، ثم هزّ رأسه وقال: "إنها مضمونة أيضاً يا سورهتاني. كلمتي حديد، ولقد حصلت على هذه الأشياء منّي مباشرة، ولن أستردها منك". "إذاً، ما الذي يعلق في حلقك وتكاد تغص في قوله؟".

سحب أوجيدي نفساً عميقاً وقال: "يجب أن تتزوجي مجدداً".

"يا مولاي الخان، أخبرتني توروجين أن أذكرك...".

"ليس مني يا امرأة! لقد أخبرتك هذا من قبل، بل من ابني، غويوك".

نظرت سورهتاني إليه بصمت وذهول. كان غويوك وريث الإمارة، وهي تعرف أوجيدي جيداً ولا تظن أن العرض وليد اللحظة. تسارعت الأفكار في ذهنها حين حاولت أن تفهم ما يريد حقا، وأدركت أن توروجين كانت تعرف بالتأكيد أنه سيقدم لها هذا العرض. لم يكن أوجيدي ليفكر فيه وحده.

أشاح الخان بعصره بعيداً عنها ليمنحها وقتاً للتفكير. وعندما حُدق إلى مكان بعيد، تساءل الجانب المشكك من سورهتاني إن كانت هذه طريقة لإعادة ممتلكات زوجها الضخمة إلى الإمارة. وبضربة واحدة، كان الزواج سيعكس وعد أوجيدي المشرع لتولي، فتأثيرات ذلك القرار الفريد لا تزال تتسع ولا تعرف أين ستتهي. كانت أراضي جنكيز خان الأصلية خاضعة لامرأة؛ وهي تستوعب هذا بصعوبة بالغة. فكّرت في أبنائها. كان غويوك أكبر من مونغكي، ولكن ليس بسنوات عديدة. هل سيرث أبنائها، أم سُسرق حقوقهم المكتسبة بالولادة منهم في مثل لم شمل الأسرة ذاك؟ ارتعشت، وتمتدّ أآ يكون أوجيدي قد رأى ذلك. كان الخان، ويمكنه أن يأمرها بالزواج كما منحها ألقاب زوجها، وبدا أن سلطته مطلقة عليها؛ إذا قرّر استخدامها. نظرت إليه من دون أن تدبر رأسها، وهي تمعن التفكير في الرجل الذي اعتنت به في نوبات مرض وظلام حالك ظننت أنه لن يتعافى منها أبداً. كانت حياته هشة مثل الخنزف، إلا أنه لا يزال يحكم وكلمته حديد.

شعرت أن صبره بدأ ينفد، واهتزت عضلة صغيرة في عنقه فحدقت إليها، وهي تبحث عن الكلمات.

"لقد شرقتني كثيراً بهذا العرض يا أوجيدي. ابنك ووريثك...".

قال باقتضاب: "إذا، هل تقبلين؟". عرفت عيناه الجواب من نبرة صوتها، وهز رأسه استياءً.

ردت سورهتاني بلطف: "لا أستطيع. حزني على تولي لا يزال على حاله. لن أتزوج مجدداً يا مولاي الخان. حياتي الآن مكرّسة لأبنائي، ولا شيء أكثر من ذلك. لا أريد شيئاً أكثر من هذا".

كشّر أوجيدي وساد الصمت بينهما مجدداً. خشيت سورهتاني أن تكون كلماته التالية أمراً لها بالزواج من ابنه؛ متجاهلاً رغبتها. إذا نطق الكلمات، فلن يكون لديها خيار إلا القبول. إذ إن الرفض يعني أن تخاطر بمستقبل أبنائها، وتراهم يُجرّدون من السلطة والقوة قبل أن يتعلموا استخدامهما حتى. كانت قد مسحت جلد الخان حين لوّث نفسه من دون أن يدري، وأطعمته من يدها حين تأوه طلباً للسكينة والموت، لكنه ابن أبيه، ومصير زوجة واحدة، امرأة واحدة، لا يعني له الكثير، ولم تعرف ما سيقوله. التزمت الصمت، وانتظرت مطاطنة رأسها، والنسيم يهب بينهما.

استغرق الأمر دهوراً لكن، أخيراً أوما لنفسه.

"حسناً يا سورهتاني. أدين لك بحريتك، إن كانت هذه رغبتك. لن أطلب طاعتك في هذا. لم أخرج غويوك بالأمر، ووحدها توروجين تعرف بهذه الفكرة". شعرت سورهتاني بارتياح كبير بغمرها، وتلقائياً انكبت على وجهها على العشب، ووضعت رأسها بجانب قدميه.

قال: "أوه، المهضي. أنت المرأة الأكثر تواضعاً التي التقيتها حتى الآن".

الفصل الرابع والعشرون



توفي كشيون في الجبال فوق الثلج، حيث لم يكن هناك وقت أو قوة للعناية
بجثته. كان جسد القائد قد تورم بفعل السم الذي انتشر فيه من ساقه المصابة،
وقضى أيامه الأخيرة وهو يعاني ألماً مبرحاً، وهذياناً، ويداه ووجهه مرقطة. لقد مات
بطريقة صعبة.

كان الشتاء قد حلّ باكراً بعد أيام من ذلك، وعصفت رياح ثلجية بالجبال،
وسدّ ثلج كثيف الممرات الضيقة التي استطلعتها غويوك، والتي تؤدي إلى السهول في
الأسفل. كانت النعمة الوحيدة لانخفاض درجات الحرارة هي الحفاظ على جثث
الموتى من التعفن. وقد أمر تسوبودي بلف جثمان كشيون بالقماش وربطه إلى
عربة. كان شقيق جنكيز قد أبدى رغبته في أن تُحرق جثته على قمة عالية بدلاً
من تركها في العراء لتنهشها الطيور الجارحة والحوانات، وبدأ أن طقوس تشن في
حرق الموتى تصبح أكثر شيوعاً. كان أفراد الأمة الذين اعتنقوا النصرانية يُسدفون،
لكنهم يفضلون أن ينزلوا إلى باطن الأرض مع قلوب أعداء في أيديهم، ويخدم
يرافقوهم إلى الأخرة. لم يضع أيّ كان سواء أكان تسوبودي أم أوجيدي قانوناً
بشأن أيّ من هاتين الطريقتين، واستطاع أفراد الأمة اختيار ما يريدونه على ألاّ
يتأذى أحد آخر نتيجة ذلك.

لم تكن هناك قمة واحدة في كارباثيان، وإنما عشرات الوديان والمنحدرات
الصخرية التي ينبغي احتيازاها. في البداية، بدأ أنهم الأحياء الوحيدون باستثناء
الطيور البعيدة، لكنهم وجدوا في ما بعد أولى الجثث المتجمدة؛ عالياً حيث الهواء
يؤلم الرئتين. كانت ممددة وحدها، وقد لفحت الريح اليدين والوجه حتى أضحت
سوداء؛ وكأها تفحّمت بالنار. كان الثلج يغطي الرجل إلى منتصفه، وأرسل أحد

قادة الوحدات محاربيه ليحفروا في كتل مشاهدة من الثلج، فوجدوا مزيداً من الجثث، وجوهها داكنة أو شاحبة تعود إلى أتراك أو روس ملتحمين غالباً. استلقى رجال مع نساء، وأطفالهم بينهم، محفوظين في المرتفعات، وأجسادهم هزيلة، وقد تصلب لحمهم إلى الأبد.

كان المجموع بالئات، ولم يسمع القادة إلا أن يتساءلوا عن هوياتهم، أو لماذا اختاروا أن يخاطروا بالموت في الجبال. بدا أن أولئك الأشخاص قد لقوا حتفهم منذ فترة قصيرة. لكن، لم تكن هناك طريقة للتوثق من ذلك، فرمما بقيت جثثهم هناك طوال قرون، أو مات أصحابها جوعاً قبل شهور فقط حين جاء المغول متبختسين على طول الدروب خلفهم.

جاء ثلج الشتاء وربحه مثل عالم جديد. ومنذ الكسفات الأولى، اختفت آثار الحيوانات، وتراكم الثلج في كتل كثرت باستمرار حتى اضطروا إلى الحفر مع كل خطوة. لم تتقدم إلا الصلات بين المستظلمين عند كل ممر، وأعدادهم الكبيرة، وانضباط الفرق. استطاع تسوبودي أن يربح أولئك الموجودين في المقدمة الذين شقوا الطريق بأيديهم ومعاولهم. ومشى الذين في الخلف على طريق عريض من طين بني، مهتده عشرات آلاف الأقدام والخوافر المتناقلة. لم يستطع الثلج إيقافهم، وقد توغلوا آنذاك كثيراً في الطريق.

مع اشتداد البرد، كافح الضعفاء والجرحي للحاق بالآخرين، ومرت الفرق بمزيد من الجثث المتصلبة وهي جالسة، وقد أحنث رؤوسها. كان هناك أطفال ولدوا بعيداً عن كاراكوروم، وتحمّدت أجسادهم بسرعة، وموجت الريح شعرهم بعد أن تخلى عنهم الجميع وتركوهم على الثلج. وحدها الخيول التي سقطت دُحبت للحصول على لحمها وتغذية الأحياء. شقت الفرق طريقها إلى الأمام، ولم تتوقف حتى رأت السهول أمامها وتركت الجبال السرمدية خلفها. استغرق الأمر منهم شهرين؛ وهي مدة أكثر مما كان تسوبودي قد تخمّن.

على الجانب الآخر من جبال كارباتيان، تجمعت الفرق لتندب أحد قادة الأمة ومؤسسيها. جلس المختدون وهم لا يفهمون ما يجري. كانوا مقطّبي الوجوه وهم يراقبون الضالعين المغول يعنون ويسردون قصة حياته. وفي ما يخص رجلاً له

تاريخ كشيون، استمرت القصص والأغاني يومين كاملين. تناول أولئك الذين شاهدوا الحدث الطعام حيث يقفون، وسخّنوا الشراب الأسود المنجمد حتى استطاعوا الشرب من أجل شقيق جنكيز خان. عند غروب شمس اليوم الثاني، أشعل تسوبودي بنفسه محرقة الجنائز التي نفعوها بالزيت، ثم تراجع إلى الخلف حين تصاعد الدخان الأسود منها.

راقب تسوبودي العمود الداكن يرتفع، ولم يسعه إلا أن يفكر في الإشارة التي سيرسلها إلى أعدائهم. ولكل من له عينان يرى بهما، كان الدخان يعني أن المغول قد عبروا الجبال، ووصلوا إلى السهول. هزُّ أورلوك رأسه، وتذكر الخيام البيضاء والحمرء والسوداء التي نصبها جنكيز أمام المدن. كانت الخيمة البيضاء بسلطة تحذيراً للاستسلام بسرعة، في حين تُنصب الخيمة الحمراء إذا رفضوا؛ وهي وعدٌ بقتل كل ذكر يمكن أن يحمل سلاحاً والخيمة السوداء تعني أن لا أحد سينجو حين تسقط المدينة في النهاية، وتعد بالدمار والأرض المحروقة فقط. ربما كان ارتفاع ألسنة الشرر والدخان الزمبي نذيراً لأولئك الذين يرونه، وربما سيشاهدونه ويعرفون أن تسوبودي قد جاء. استطاع أن يتسم غروراً، رغم أنه يقود رجالاً لا يزالون هزلياً وضعفاء بسبب العمل الشاق الذي تحمّلوه. كان مستطلعوه يركضون آنذاك، ليجدوا مكاناً للراحة واستعادة العافية وبتراً أصابع أولئك الذين لم يعد بمقدورهم استخدامها.

هست ألسنة اللهب، وطقطقت حين هبت الريح على المحرقة، وأعادت الدخان إلى وجوه الرجال الواقفين حولها. كانوا قد استخدموا جزءاً من الألواح الخشبية الخفيفة التي أمر تسوبودي بنقلها عبر الجبال، وكدّسوها على ارتفاع رجلين فوق جثة كشيون، وحمل الدخان الرائحة الحلوة للحم المشوي، وتقياً بعض الصغار حين سحبوا أنفاساً. تمكّن تسوبودي من سماع أزيز درع القائد الممدّد فوق المحرقة. وبدا الصوت أحياناً غنياً، فهزُّ رأسه لتخليصه من الأفكار السخيفة، ثم شعر بأن باتو يراقبه.

وقف أمير الأمة مع غويوك وبايدور ومونغكي؛ مجموعة من أربعة أشخاص كلهم تحت إمرته، لكنها منفصلة عن الآخرين. حدّق تسوبودي إليه حتى أشاح باتو بصره بعيداً، وابتسامته تراقص على وجهه.

سرت قشعيرة في جسد تسوبودي، وأدرك أن وفاة كشيون خسارة شخصية له، فقد دعمه القائد العجوز في المجلس والميدان، ووثق أن بمقدوره العشور دائماً على سبيل ما بغض النظر عن الاحتمالات، وقد توفي ذلك التصديق الأعمى معه، وعرف تسوبودي أن خاصرته أصبحت مكشوفة. تساءل إن كان بإمكانه أن يرقى مونغكي إلى منصب أعلى. فمن بين كل الأمراء، بدا أنه الأقل تأثراً بهاتو. لكن، إذا أساء تسوبودي الحكم عليه، فسيبرز احتمال بأن تصبح قوة باتو المتصاعدة أكثر قوة. عندما هبت الريح بقوة أكبر، أطلق تسوبودي لعنة بصوتٍ خافت. كان يكره تعقيدات السياسة التي انبثقت منذ وفاة جنكيز. ورغم أنه معناد على التكتيكات والخدع والحيل الحربية، إلا أن مدينة كاراكوروم أضافت طبقات إلى ذلك التعقيد، حتى لم يعد بمقدوره أن يتوقع طعنة الخنجر؛ الخيانة. ولم يعد بمقدوره أن يعرف القلوب الصادقة والخبث للرجال حولها وبأمنهم على حياته.

فرك عينيه بقوة، ووجد لطحرة رطوبة على قفازيه جعلته يتنهّد. لقد كان كشيون صديقاً له، وقد ذكرته حقيقة موته بأنه يكره في العمر أيضاً.

تمتم للشخص في المحرقة: "هذه حملتي الأخيرة". استطاع رؤية كشيون في درعه المسودة؛ وحيداً في فرن ذهبى مصفر. "عندما أهي ما أفعله، سأعيد رمادك إلى الديار يا صديقي القديم".

قال باتو: "كان رجلاً عظيماً".

وحل تسوبودي، فلم يكن قد سمعه يقرب بسبب طقطقة ألسنة اللهب، واعتمل الغضب داخله؛ لأن باتو سيضفي مرارته الحقيرة حتى على جنازة كشيون. همّ بأن يرد، لكن باتو رفع راحة كفي مفتوحة.

"أنا لا أسخر يا أورلوك. لم أكن أعرف نصف قصته حتى سمعتها من الضالع".

كبت تسوبودي رذّة، ونظر إلى عيني باتو بضع لحظات إضافية قبل أن يعيد بصره إلى المحرقة. تكلم باتو مجدداً، بصوتٍ لطيف ملوّه الدهشة: "احتياً مع جنكيز والأطفال الآخرين من أعدائهم. لقد عودهم الجوع والخوف احتمال المشقة. من تلك الأسرة، من أولئك الأشقاء، انحدرنا جميعاً. أفهم هذا يا أورلوك. أنت أيضاً كنت هناك لبعض الوقت، وقد رأيت أمة تولد. لا يمكنني تخيل مثل ذلك الشيء

بسهولة". تنهّد باتو وأمسك أنفه بأصابعه. "أمل أن تكون هناك حكاية تُروى حين
يحين دوري".

نظر تسويودي إليه، لكن باتو مشى مبتعداً عنه. كان الهواء نظيفاً وبسارداً،
ويعد بمطول المزيد من الثلج.

salmanlina
www.mlazna.com

كان جوزيف يشعر باهتية قليلاً من القائد الأشيب. ولو أن الفرسان الجرمان لم يوافقوا على الاندماج لكان تنظيم إخوان ليهونيا قد تفكك بعد هزائمهم في الحرب. كان النسر الأسود ذو الرأسين الذي يتقلده آنذاك موجوداً على صدر كونراد. معاً، جعلتهما أملاكهما نديين تقريباً للملك الذي تركهما ينتظرانه كما لو كانا خادمين. كانوا يخدمون سلطة أعلى، وتوترت أعصاب جوزيف وتعكر مزاجه بسبب التأخير.

بدأ قهرمان الملك (*) بيلا بسرد ألقاب سيده، ورأى جوزيف عيني كونراد تطرفان وهو ينظر إلى الأعلى إحباطاً. كان الإمبراطور الروماني الميجل يحكم مئة إقليم، مترامية الأطراف ومتباعدة مثل إيطاليا والقدس، ولم يكن بيلا ملك هنغاريا يحظى بمثل تلك الممتلكات. كان جوزيف سعيداً لأن قائده لا يطبق هذه الترهات، فمثل هذه الأشياء خاصة بالعالم وتنظيم الجرمان، ولهذا فإن ذنوب الرجال الفاسدين بعيدة عنهم. لامس جوزيف رمز النصارى الديني الأسود والذهبي الذي يتقلده على صدره، فحوراً بأن إخوانه ليهونيا قد قبلوا في تنظيم للنبل، ولو أنهم لم يصبحوا جزءاً منه بعد. ربما كان بإمكانه أن يتخلى عن درعه وسيفه ليتحوّل في الأرجاء، وهو يحمل وعاء تسول ويرتدي أحلاماً بالية. أحياناً، عندما تعلق السياسة في الهواء مثل بخور كثيف، تصبح مثل تلك الحياة مغرية له.

أهى القهرمان سرده المطوّل للألقاب، وازداد توتر الحشد في قاعة القصر في انتظار وصول الملك. ابتسم جوزيف حين رأى كونراد يحك جانب فمه وهو يشعر بالملل، حيث توجد قشرة على تقرّح جلدي. صدحت أبوابٌ بنغمة ضعيفة عبر المدينة لتعلن وصول الملك. تساءل جوزيف إن كان يجب على الفلاحين في الأسواق الانكباب على وجوههم أيضاً، وجعلت الفكرة فمه يرتعش، لكنه سيطر على نفسه حين دخل الملك بيلا أخيراً، وصعد بخطوات واسعة إلى أعلى الدرجات الرحامية، حتى أصبح على ارتفاع رجل تقريباً فوقهم جميعاً.

كان الملك أشقر اللحية، وشعره ينسدل على كتفيه. وهناك تاج ذهبي يجثم بإحكام على رأسه، وعيناه الزرقاوان الفاتحتان تنظران إليهم. عندما وصلت نظرته إليهما، انحني كل من جوزيف لاندوا وكونراد فون ثورنجن بعناية. اكتفى الملك

(*) لين الملك ووكيله الخاص بتدبير نخله وخزجه.

بيلا بملاحظة وجودهما بإماعة مقتضبة، ثم جلس على عرش مسزّين بالذهب واللازورد نفسيهما اللذين زيّنا الجدران التي لمعت خلفه حين استلم أدواته الملكية الرسمية، ومن بينها عصا ذهبية ضخمة. راقب جوزيف ما يحدث. رفع الملك العصا وتركها تنزل ثلاث مرات، وتضرب الأرض، فراجع القهرمان وتقدم بخادم آخر يرتدي ملابس فاخرة مثله تقريباً إلى الأمام ليخاطب الحشد.

"لن تكون هناك أحكام اليوم، أو محكمة. لقد تكلم الملك. ليخرج أولئك الذين لديهم مثل تلك الأعمال من مجلسه. يمكنكم أن تقصدوا قاضي المحكمة عند الظهر".

استطاع جوزيف رؤية الغضب والإحباط على وجوه عدد من الرجال والنساء الذين همضوا واستداروا مبتعدين. كانوا أكثر حكمة من أن يدعوا الملك يرى ردود أفعالهم بسبب رغبته الملكية. أدرك جوزيف أنهم قد دفعوا الرشى وانظروا لدخول هذه القاعة، فقط لثطلب منهم المغادرة قبل أن ينطقوا كلمة عن قضاياهم. رأى شابة تبكي حين غادرت، وعينين فرغت الغرفة بسرعة، حتى لم يبق فيها إلا اثنا عشر رجلاً أو نحو ذلك، وكلهم أمراء أو فرسان.

صاح القهرمان: "استدعاء كوتن أمير كومان".

نظر بعض الأمراء إلى بعضهم شزراً، لكن جوزيف لاحظ أن كونراد يبدو مرتاحاً. عندما التقت عيونهما، هزّ الرجل الأكبر سناً كتفيه قليلاً، وبدا أن هذه هي الإجابة التي يستطيع أن يرد بها فيما نظر الملك مسلطاً عليهما.

فُتحت أبواب في الخلف، ودخل رجل ضئيل الجسد، وبدا نقيضاً للملك بطرائق عديدة. كان جلد كوتن داكناً مثل العرب بالنسبة إلى عيني جوزيف، ووجهه هزيلاً، وبنيتة نحيلة مثل رجل لم يعرف قط طعاماً أكثر مما يحتاج إليه للبقاء حياً، وهذا شيء نادر في البلاط. كانت عيناه تنقدان إثارة، وانحنى أكثر بقليل فقط مما فعل كونراد وجوزيف قبله.

لهض الملك بيلا عن عرشه وتكلم لأول مرة هذا الصباح.

"أيها السادة الأمراء، والفرسان الشرفاء، والرجال الأحرار. لقد عبر التنار الجيال".

كوزر الكلمات بالروسية واللاتينية، إثباتاً لثقافته.

رسم كل من كونراد وجوزيف رمز النصراري الديني أمام صدره لدى سماعهما الكلمات، ثم قبل كونراد عائماً ذهبياً ثقيلاً يضعه في يده اليسرى. كان رد فعل كوتن أن أمال رأسه إلى الجانب وبصق على الأرض بجانب قدمه. تجمّد الملك وأفراد حاشيته من هذا العمل، واصطيفت وجنتا بيلا بلون داكن. ولكن، قبل أن يتصرف، ربما ليأمر الرجل بأن يلعق بصاقه، تكلم كوتن. "إنهم ليسوا تاراً يا صاحب الجلالة، وإنما هم محاربون مغول يتحركون بسرعة، ويذبحون كل كائن حي في درهم. إذا كان لديك أصدقاء يا ملكي، فاستدعهم الآن لأنك ستحتاج إليهم جميعاً".

كانت عينا الملك باردتين حين نظرت في أرجاء الغرفة. "منحت قومك ملاذاً آمناً هنا يا كوتن. متنا ألف من قبيلتك، وأسرههم. عبرت الجبال لتهرب من أولئك... الحارين المغول، أليس كذلك؟ لم تكن ترتدي ملابس لائقة آنذاك يا كوتن، وإنما أسماً بالية، وكنت على حافة الموت. لكنني استقبلتك ومنحتك أراضياً وطعاماً".

شدّ الرجل ضئيل الحجم يديه خلف ظهره منتظراً. دُهل جوزيف، فقد سمع عن الهجرة الجماعية للاجئين من روسيا الذين تركوا موتاهم في الجبال المتجمدة حتى لا يُقبض عليهم. كانت القصص قد انتشرت عن تلك القبيلة الذهبية من المغول التي أنجزت عمل جيش وحدها. اهتزت نصف هتغاريا خوفاً من ذلك التهديد، وسرت شائعات عن ارتفاع الدخان الأسود في الجبال. ورأى جوزيف بياض مفاصل كوتن تحت جلده الداكن حين تابع الملك بيلا كلامه.

"إذا كنت سأعتبرك صديقاً، فسأحتاج إلى كل محارب تحت إمرتك، وسأقدم لهم كل الأسلحة التي يحتاجون إليها، وسأمنحهم حساءً جيداً يقيهم دافئين، وحطباً لنيرانهم، وعلفاً لخيولهم، وملحاً لطعامهم. لقد أقسمت بمنك بالولاء لي. وبوصفي ملكك، فأوامري أن تصمد وتواجه العدو معي. لا تخش علي قومك، فهذه أراضياً، وسأوقفهم هنا".

سكت الملك بيلا عن الكلام، والتزم كوتن الصمت لبعض الوقت. وأحسراً، وكأنه شعر بالإرهاق، استرخت كتفاه.

"هل سيرسل حلفاؤك جيوشاً؟ الإمبراطور الروماني المبجل ريماس؟ أو رجل الدين الأهم مكانة؟".

حان الدور على الملك بيلا لكي يتجهم ويلتزم الصمت. كان كل من رجل الدين غريغوري، والإمبراطور فريدريك يخوض صراعه الخاص، وقد توسل إلى كليهما لكي يرسلوا إليه رجالاً وجيوشاً طوال أكثر من سنة؛ منذ أن وصل اللاجئين من روسيا. كان الإمبراطور فريدريك قد أرسل الفرسان الجرمان؛ 1190 رجلاً، في توافق مع سنة تأسيس تنظيمهم، ولم يتجاوزوا قط ذلك العدد. كانوا مقاتلين أسطوريين، لكن ضد قبيلة ذهبية من المحاربين المتوحشين تخيل بيلا أنهم سيتناثرون مثلما تتناثر الأوراق في العاصفة. لكنه رغم ذلك لم يظهر إلا الثقة بالنفس للرجال الذين يحتاج إلى دعمهم إياه.

"لقد تلقيت وعداً من بولسلاف ملك كراكو بإرسال جيش لي، وآخر من هنري دوق سيلسيا، وثالث من وينسيسلاس ملك بوهيميا. ستصل تعزيزات جديدة في الربيع. في هذه الأثناء، لدينا رجال من هنغاريا أيها الأمير كوتن؛ ستون ألف جندي، كلهم مدربون جيداً، ومتشوقون للدفاع عن أرضهم. ولدينا الفرسان يا كوتن، وسبصمدون في الميدان. ومع حيالتك، يمكنني حشد مئة ألف جندي". ابتسم لدى تخيله هذا العدد الضخم. "ستحمل أسوأ ما يمكن أن يفعلوه، ثم سنرد الضربة حين يذوب الثلج ونهني هذا التهديد ونحقق السلام إلى الأبد".

تهدد كوتن على نحو ظاهر للعيان وقال: "حسناً، يمكنني إحضار الرجال الخاضعين لإمرتي، والبالغ عددهم أربعين ألفاً إلى هذه الحفلة الراقصة، وسنصمد أمامهم". هز كتفيه ثم تابع: "في الشتاء، ليس هناك مكان نلجأ إليه، لا مكان لا يمكنهم الوصول إليه".

سعل كوتراد وقد غطي فمه بيده المدرعة، ونظر الملك عبر قاعة الاجتماع إليه وأوماً بكياسة. حث قائد فرسان تنظيم الجرمان لحينه لحظة، ومدّ يده عبر الشعر الكثيف إلى برغوث أو قملة على جلده.

"صاحب الجلالة، الأمير كوتن. الإمبراطور فريدريك لم يرسلنا إليك. إن سلطته قائمة على الأرض، لا على أرواح الرجال. جئنا بسبب إخواننا التصاري من روسيا الذين اعتنقوا أخيراً الإيمان الحقيقي. سنقف بين أولئك المؤمنين والعاصفة. هذا ليس سوى واجبنا".

تقدم نبلاء آخرون إلى الأمام ليقدموا جنودهم ويوهم لفضية الملك. انتظر جوزيف إلى أن أهوا ذلك قبل أن يقسم أيضاً على ضم الفرسان الثمانية من ليفونيا إلى الجيش. رأى أن كوتن لا يبدو متأثراً جداً، وانتمس قليلاً للرجل الذي كان أحد أولئك المعتنقين الجمد الذين ذكرهم كونراد. كان الفرسان قليلي العدد، لكن كل واحد منهم كان عبيراً في الأسلحة، وقوته في الميدان مماثل قوة إيمانه. وعلى الرغم من سمعة المغول المخيفة، إلا أنه كان واثقاً أن جيش المغول سينهزم عندما يواجههم.

قال بيلا سعيداً على نحو واضح من دعمهم العلي له: "يجب أن يكون لدى كل ملك أمثال هؤلاء الرجال يتبعونه". لم يكن سيضطر مرة واحدة إلى عقد صفقات وإقناع أمرائه أو رشوهم لينقدوا أنفسهم. "لقد تجمع العدو على سفوح كارباتيان. إنهم لا يعدون أكثر من ثلاثمائة ميل. ولها الدانوب وساجو بيننا. أمامنا شهر، وربما اثنا عشر، لنستعد لهم. لن يصلوا إلى هنا قبل الربيع".

قال كوتن بعد أن توقف الملك عن الكلام: "صاحب الجلالة، لقد رأيتهم يتحركون. صحيح أن المعسكر كله سيستغرق وقتاً ليصل إلينا، لكن الفرق - الجيوش الغازية - يمكن أن تحتاز تلك الأرض كلها في ثمانية أيام. ولو أنهم لم يحضوا فصل الصيف في الاستراحة يا صاحب الجلالة، لكانوا قد وصلوا إلى هنا قبل وقت طويل. لقد دخلوا موسكو على مهر متجمد، وهم يركضون في الشتاء مثل الذئاب، في حين ينام الرجال الآخرون. يجب أن نستعد؛ على الأقل بأفضل ما نستطيع".

عيس الملك بيلا. واقفاً فوقهم، حرك حائماً ذهبياً مزخرفاً كان يضعه في إحدى أصابعه الأخرى، في إشارة إلى عصيته التي لم تغب عن كوتن أو الأمراء الحاضرين. كان قد ارتقى العرش قبل ستة أعوام فقط، بعد وفاة والده، ولا شيء في خبرته يجعله مستعداً لهذا النوع من الحرب التي سيواجهها الآن. أو ما أخيراً.

"حسناً، أيها القائد كونراد، سترحل اليوم إلى بودا وست للإشراف على الاستعدادات. سنكون جاهزين لهم حين يأتون".

مدَّ الملك يده، وشهر القهرمان سيفاً طويلاً وسلمه إياه. وأمامهم جميعاً رفع بيلا السيف وجرح ذراعه، وبقي ساكناً حين نسرف الدم، واستخدم يده الأخرى ليمسح بدمه طول النصل، حتى أصبح معظم الفضة أحمر.

"أيها الأمراء، رأيتم الدم الملكي المنغاري. حضروا دزينة من السيوف شبيهة بهذا السيف، وخذوها إلى القرى والبلدات، وارفعوها عالياً. سيستجيب الشعب لدعوة نبلائهم؛ دعوة لحمل السلاح من أجل ملكهم. سننازع عن المملكة، ولتكن هذه هي العلامة".

وقف تسوبودي متدثراً بالفراء، وهو يمد يديه إلى نار تطفطق. ارتفع الدخان وتبعه بصره، وارتقى إلى عوارض قديمة في الحظيرة التي هجرها المزارع منذ وقت طويل، وقد ارتقى جزء من السقف وتشقق. شم رائحة حيول وقش، لكنها كانت حافة كفاية؛ على الأقل في أحد طرفيها. لم تكن الحظيرة مكاناً مثالياً لبدء غزو بلد منها. لكن، لم يكن هناك مكان آخر في الحقول المتجمدة التي تمتد على مَدَّ البصر. راقب كتلة جليدية متدلّية من إطار الباب المفتوح تقطر ماءً، وعبس من ذلك المنظر، وعرف أن هذا بسبب الدفء الذي يصلها من النار. كانت هذه أرضاً جديدة، ولم يكن يعرف شيئاً عن الفصول فيها؛ أو المدة التي سيستغرقها الشتاء. انتظر قاداته السبعة بصبر، وهم يمضغون على نحو مسموع قطعاً من الخبز واللحم ويمررون قربة كبيرة بينهم ليتناولوا جرعات من شراب أسود يقيهم دافئين.

كان إلوجي أقدم ضباط كشيون قد تولى قيادة الفرقة. وفي الوقت المناسب، سيحري تعيين قائد جديد بناءً على أمر الخان. لكن، في الميدان رقى تسوبودي إلوجي. لم تكن مصادفة أن الرجل أشيب ونحيل. فهو يبلغ من العمر أربعين سنة تقريباً، وأحد أولئك الذين تدربوا ليكونوا من بين الحراس الشخصيين لجنكيز. بدا واضحاً أن تسوبودي قد اكتفى من الأشبال اليافعة التي جمعها باتو حوله. كان سيفضلّ خاسار، لو لم يكن بعيداً خمسة آلاف ميل في كاراكوروم. فهو يحتاج إلى رجال يعتمد عليهم إذا أراد قيادة الجيش إلى البحر.

قال تسوبودي من دون استهلال: "أصغوا إلي". توقف قليلاً إلى أن امتنع القادة عن تناول الطعام واقتربوا منه ليسمعوا. "كلما توغلنا غرباً، واجهنا المزيد من الأخطار من الخاصرتين. إذا تابعتا السير قدماً، فستكون مثل حربة تخترق قلب جيش: كل خطوة خطر عظيم".

لم ينظر إلى باتو حين تكلم، لكن الأمير ابتسم. توقف تسوبودي ليتناول جرعة من الشراب الأسود، وشعر بالدفء ينتشر في معدته.

"سأقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام. سيضرب بايدور والوجي شمالاً. أحبرني المستطلعون أن هناك جيشاً قرب مدينة تدعى كراكو. مهمتكما أن تسحقاه في الميدان وتحرقا المدينة. لا يمكن السماح للملوك الصغار هناك بالتجمع عند خاصرتنا".

نظر إلى عيني الوجي ووجه حديثه إليه:

"تتمتع بسنوات حجرة أكثر من بايدور الجديد على هذا الدور". شعر تسوبودي بأن بايدور يتصلب حين رأى أن سلطته أضحت مهددة أمام عينيه. تابع تسوبودي: "هل تقبله قائداً لك يا الوجي؟"

رد الوجي وهو يحني رأسه: "سأفعل يا مولاي".

أطلق بايدور زفيراً. كان هذا شيئاً صغيراً، لكن تسوبودي أبعد أحد مؤيدي باتو وفضّله عليهم.

"غويوك ومونغكي، يجب أن تغزبا الأراضي إلى الجنوب. ستأخذان فرقتيكما إلى الجنوب. نظفاً الأرض من أي شخص يستطيع جمع قوة من الرجال أو الخيول. وبعد أن تفرغا من حرق الأرض، عودا لمساندتنا".

قال باتو بلطف: "وماذا عني يا أورلوك؟". كان مقطّب الجبين كثيراً بعد سماعه نبأ إرسال غويوك إلى الجنوب، بعيداً جداً عنه. "أين تريد مني أن أقف؟".

رد تسوبودي بانسامة: "بجانبي طبعاً. ستغزو أنا وأنت الغرب مع جيبي وتشولجيني والجيش المرهق الذي تقوده سيراً على الأقدام. مع ثلاث فرق، سنكتسح هنغاريا معاً، في حين يؤمن إخواننا الجناحين".

لم تكن هناك طقوس حين مشى الرجال مبتعدين عن الحضرة القديمة. لاحظ تسوبودي كيف ربت باتو على ظهر غويوك، لكن التوتر بدا واضحاً على وجهي كلا الرجلين. كانوا قد قاتلوا وانطلقوا على الدرب تحت عيني تسوبودي، وكانت هناك فرق أخرى على أهبة الاستعداد لدعمهم. ولم يكونوا يخافون من تحمّل المسؤولية. رحّب كل رجل هناك بفرصة العمل من تلقاء نفسه، ولهذا السبب سعوا للإمساك بزمام السلطة، وقد تحقق لهم هذا على سفوح كارباثيان. لم يبقَ إلا باتو

وجيسي وتشولجيتي فقط. وبدا الرجال الثلاثة مكتئبين قليلاً وهم يراقبون الآخرين الذين انطلقوا على صهوات جيادهم خيلاً ليصلوا إلى محاربيهم.

قال جيسي: "يبدو الأمر مثل سباق، أليس كذلك؟".

أدار باتو عينيه شبه المغمضتين إليه قائلاً: "ليس بالنسبة إلي. يبدو أنني سأبقى مع مرضعتي ومعك".

ضحك جيسي وطمّأ ليزيل تصلّب ظهره، وقال: "أنت تفكر كثيراً يا باتو، هل تعرف هذا؟" ثم مشى مبتعداً وهو لا يزال يتسم.

كان أوجيدي في حدائق كاراكوروم، يراقب الشمس وهي تغرب من حيث يجلس على مقعد حجري. فهو يشعر بالسكينة هنا بطريقة لم يكن يستطيع تفسيرها لوالده قط. ضحك بصوت خافت، فقد كان مجرد التفكير في جنكيز يشبه وضع ظلال داكنة على بيانتين أشجار. أحب أوجيدي الحدائق في الصيف، لكنها في الشتاء تتمتع بجمال مختلف. وقفت الأشجار عارية، وأغصانها ممتدة وتنتظر بصمت الحياة الخضراء. بدا أن هذا وقت الظلمة والحنين، والخيام الدافئة والشراب الساخن، والتدثر بإحكام أثناء من الرياح. كانت الحياة في الخيام أحد الأشياء التي يفتقدها في قصر كاراكوروم. وقد فكّر حتى في نصب خيمة في إحدى الساحات قبل أن يبعدها عن ذهنه بسبب سخافتها. لم يكن بمقدوره العودة إلى حياة أبسط، ليس الآن بعد أن تركها خلفه. بدا ذلك حين طفل إلى الأيام التي كانت والدته ووالده لا يزالان حين فيها. كانت جدّته هولن قد عاشت وقتاً طويلاً كفاية لتفقد عقلها وذكراهما، وارتعش حين فكّر في أيامها الأخيرة، فقد أخذت أول أم للأمة تُهدر مثل طفل في النهاية، ولم يعد بمقدورها حتى أن تنظّف نفسها. لم يكن أحد يتمنى مثل هذا المصير لعدو، فماذا لو كان من يحصل له ذلك شخصاً يحبّه؟

شدّ ظهره، محاولاً التخلص من تشنجات يوم من الجلوس والتكلم. لم يكن هناك كلام كثير في المدينة، وبدا أن الشوارع قد بُنيت على كلمات تقريباً. ابتسم حين فكّر في رد فعل والده على كل الاجتماعات التي عقدها اليوم. كانت مشكلات المياه النظيفة وأنايب المجاري ستجعل جنكيز يصاب بسكينة دماغية.

حجب أوجيدي عينيه حين أصابت حمرة الغروب كساراكوروم، وغمرت المدينة بلونٍ ذهبي داكن، وجعلت كل خطوطها تبرز بوضوح استثنائي. لم يكن بصره حاداً كما في السابق، واستمتع بالضوء وما يكشفه. لقد بنى كساراكوروم، هو ولا أحد سواه، وبالتأكيد ليس والده. ألقى برج القصر ظلاً طويلاً عبر المدينة. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال حديثة العهد، لكنها في الوقت المناسب ستصبح القلب الحقيقي للأمة، ومركز الخان. تساءل عن كيفية تذكروهم إياه في القرون المقبلة.

ارتعش قليلاً حين ازدادت سرعة نسيم المساء، وبحركة سريعة شدد رداءه بإحكام فوق صدره، لكنه أفلته وتركه مفتوحاً مجدداً. كيف كانت حياته ستبدو من دون ضعف جسده؟ تنهّد ببطء، وشعر بحفقتان قلبه غير المنتظم. كان قد سئم الانتظار، وقد رمى بنفسه في المعركة ليقتل الرعب، واشتبك مع جيش العدو وكان الخوف أفعى يجب أن يسحقها تحت نعليه. رداً على ذلك، كان الخوف قد أنشب مخالبه في صدره وألقى به في الظلام. انقضت أوقات فكرٍ فيها أنه لم يخرج بعد من تلك الحفرة.

هز رأسه من تلك الذكرى، وحاول ألا يفكر في توبلي وما فعله من أجله. لقد تعلم أنه يمكن لرجل شجاع أن يقهر الخوف، لكن ربما يحتاج الأمر إلى بعض الوقت فقط. كان هذا شيئاً لا يفهمه الشباب؛ الطريقة التي يمكن أن يعود فيها الإنسان أقوى كل مرة، حتى تصبح وحيداً وتلهث طالباً الهواء.

كان قد خنق نفسه باليأس، وتخلّى عن المقاومة واستسلم. لكن سورهتاني أخرجته من تلك الحالة ومنحته الأمل مجدداً؛ رغم أنها لم تعرف كم كان الأمل مؤلماً. كيف يمكن أن يعيش والموت يحشم على كتفيه، ويمسك به من الخلف بإحكام، ويثبتته في مكانه؟ لقد واجهه؛ استجمع شجاعته ورفع رأسه، لكن الموت لم يشح بصره عنه. لا يستطيع أي رجل أن يكون قوياً كل النهار، وكل الليل، وقد أرقه ذلك كثيراً.

وضع أوجيدي كفيه على ركبتيه، وقلبهما إلى الأعلى حتى يستطيع رؤية واحتيهما. كانت التقرّحات قد بدأت تظهر مجدداً، وقد أصيب بالهشور لأول مرة منذ سنوات. كانت واحدة أو اثنتان لا تزالان تنسزان منذ أن أمضى ساعة فقط

في التدرّب على استخدام السيف والقوس بعد ظهر ذلك اليوم. شعر بأن قوته تعود إليه، لكن ببطء شديد. في شبابه، استطاع الضغط على جسده من دون تفكير، لكن قلبه كان ضعيفاً؛ حتى آنذاك. رفع يده إلى عنقه، ودفع أصابعه تحت ثوبه الحريري فوق صدره محاولاً الشعور بالخفقان الضعيف هناك. بدا شيئاً هشاً، مثل عصفور.

جعله ألم مفاجئ يفزع، وبدا وكأنه قد تعرض لضربة. وعندما تشوشت رؤيته، استدار ليرى ما قد ضربه. تحسس رأسه بحثاً عن دم، وقرّب يديه من عينيه، لكنهما كانتا نظيفتين. جعلته نوبة أخرى يتكوّر على نفسه، وينحني على ركبتيه؛ وكان بمقدوره أن يتخلص منها. شهق بصوت عالٍ، وسمع خفقان قلبه في أذنيه؛ وكأنه مطرقة تدق داخله.

قال بحمّة وغضب: "توقف"، كان جسده هو العدو، وقلبه هو الخائن، وسوف يأمره. شدّ قبضته وضغط بها على صدره، وهو لا يزال منحنيّاً فوق ركبتيه. شعر بنوبة ألم أخرى آنذاك، أسوأ من الأخيرة، فتأوه وأعاد رأسه إلى الوراء محدّقاً إلى السماء التي تزداد حلكة. كان قد نجا من قبل، وسينتظر انتهاء النوبة.

لم يشعر بنفسه يسقط، ويتزلق عن المقعد حتى ارتطمت وجنته بحجارة الممر. استطاع سماع قلبه يخفق بضربات قوية، ثم تباطأت إلى أن ساد صمت رهيب متواصل. ظنّ أن بمقدوره سماع صوت والده وأراد أن يبكي، لكنّ لم تكن هناك دموع باقية في مقلتيه؛ وإنما الظلام فقط.

الفصل السادس والعشرون



استيقظت سورهتاني من نومها لدى سماعها صرير الأرضية. وشعرت بالفزع لدى رؤيتها كوبلاي يقف بجانب سريرها، ووجهه متجهم، وعيناه حمراوان، واتناها الخوف فجأة مما سيقوله. فعلى الرغم من انقضاء سنوات، إلا أن ذكرى موت تولى كانت لا تزال ماثلة في الأذهان. جلست بسرعة، وتدفرت بالبطانيات. سألت: "ما الأمر؟".

رد كوبلاي: "يبدو أنه مقدر لأبنائك أن يحملوا أبناء سيدة يا أمي". أشاح بصره بعيداً حين وقفت ونزعت ثوب نومها، ثم ارتدت الملابس التي ارتدتها في اليوم السابق.

قالت وهي تزرر الرداء: "أحبرني".

رد كوبلاي وهو يحدق عبر النافذة إلى الليل خارج المدينة: "الخان قد مات. أوجيدي توفي. عشر حراسه عليه. سمعتهم وذهبت لرؤيته".
قالت سورهتاني، وقد طار النوم من مقلتيها حين استوعبت الخبر: "من يعرف أيضاً؟".

هز كوبلاي كتفيه وأجاب: "أرسلوا شخصاً ليخبر توروجين. لا يزال القصر هادئاً؛ على الأقل في هذه اللحظة. عشروا عليه في الحدائق يا أمي، من دون ما يشير إليه".

"شكراً لله على هذا على الأقل. كان قلبه ضعيفاً يا كوبلاي. لقد خشى
الناس يؤذون به منذ... يوم... من... وعساوين... للعد. ليس رأيتهم؟".

فزع من مثل هذا السؤال والذكرى التي يثيرها. "رأيتها، ثم غادرت وحشت لأحبرك".

"كنت محقاً. أصغ إلى الآن. هناك أشياء يجب أن نفعليها فوراً يا كوبلاي؛ لأن الخبز سيبدأ بالانتشار، وعندما سترى عمك تشاغاني يدخل عبر بوابات كاراكوروم قبل حلول الصيف ليطالب بحقه المكتسب بالولادة".
حدّث ابنها إليها غير قادر على فهم برودتها المفاجئة.
سأل: "كيف يمكننا إبقافه الآن؟ كيف يمكن لأي شخص إبقافه؟"
كانت سورهتاني تتحرك آنذاك نحو الباب.

"إنه ليس الوريث يا كوبلاي. غويوك يقف عائقاً في سلسلة النسب وفي طريقه. يجب أن نرسل خيلاً سريعاً إلى جيش تسوبودي. غويوك في خطر منذ هذه اللحظة حتى إعلانه خائناً من قبل الأمة جمعاء، كما كان والده تماماً".
فغر كوبلاي فمه مندهشاً ثم قال: "هل لديك أي فكرة كم يبعدون؟"
توقفت، ويدها على الباب وأجابته: "لا بهم، حتى لو كان غويوك موجوداً في نهاية العالم يا بني. يجب إبلاغه. طرق الإمداد يا كوبلاي، المحطات الطرّيقة. هناك حيول كفاية بيننا وبين تسوبودي، أليس كذلك؟"
"أمي، أنت لا تفهمين. المسافة أكثر من أربعة آلاف ميل، وربما خمسة آلاف. سيستغرق نقل النبا شهوراً".

قالت بحدّة: "حسناً، اكتب الخبز على رقي. أئن يجدي هذا نفعاً؟ أرسل خيلاً برسالة مخنومة إلى غويوك وحده. هل يستطيع هؤلاء السعاة نقل رسالة خاصة كل تلك المسافة؟"

رد كوبلاي وهو مذهول من حدّتها: "نعم، نعم، طبعاً".
"إذاً اركض أيها الفتي! اركض إلى مكتب ياو شو واكتب النبا، واجعل الرسالة تنتقل إلى الشخص الذي يجب أن تصل إليه". نزعّت عاتماً من يدها ووضعت في راحة كفه.

"استخدم عاتم والدك لتختتمها بالشمع، واجعل أول خيال ينطلق في طريقه. اجعله يفهم أنه لا توجد رسالة مهمة مثل هذه، وإذا كان هناك سبب لإنشاء خط الاستطلاع فهذا هو تحديداً".

انطلق كوبلاي يجري في الأروقة. عضّت سورهتاني على شفّتها وهي تراقبه يذهب قبل أن تستدير في الاتجاه الآخر، نحو غرف توروجين. آنذاك، استطاعت

سماع أصوات مرتفعة في مكان ما قريب. لم يكن النبا ليقى في المدينة. ومع شروق الشمس، سينتشر من كاراكوروم في كل الاتجاهات. شعرت بحزنها يتضخم حين فكّرت في أوجيدي، لكنها كبتته، وشدّت قبضتها. لم يكن هناك وقت للأسى، فالعالم لن يكون نفسه أبداً بعد اليوم.

كان لدى كوبلاي سبب ليشكر والدته حين جلس إلى طاولة كتابة يواو شو. فقد استبدل التجارون الباب المؤدي إلى حجرة عمل المستشار، لكن ثقب الأقفال الجديدة لا تزال على حالها، نظيفة وفارغة. فُتح الباب من مجرد دفعة بسيطة، وارتعش كوبلاي في البرد حين أمسك علية قده من صنع تشن، وضرب صواناً وحديداً إلى أن تولدت نيران حوّلت حفنة من الصوفان^(*) إلى شعلة. كان المصباح صغيراً، وأبقى مصراعيه مغلقين جيداً، لكنه سمع آنذاك أصواتاً وحرركات في القصر. بحث عن ماء، لكنه لم يعثر عليه، لهذا بصق على السدوة وسوّد أصابعه وهو يفرك الحبر ويحوّله إلى عجينة. كان يواو شو يحسب بفرشاة مرتبة بأناقة، وعمل كوبلاي بسرعة باستخدام أرفعها، ورسوم حروف تشن على الرق بدقة متناهية.

كان قد أنهى للتو كتابة بضعة سطور واضحة وتحفيقها حين صرّ الباب وهو يُفتح، فرفع بصره إلى الأعلى بعصبية، ورأى يواو شو واقفاً هناك مرتدياً ثوب نوم. قال كوبلاي باقتضاب حين وقف: "ليس لدي وقت لأشرح لك". لفّ رق الكتابة المصنوع من جلد ماعز مدهوغ وممدّد حتى أضحي رقيقاً مثل حرير أصفر. كانت السطور التي ستغير مصير الأمة محجوبة عن الأنظار. وقبل أن يتمكن يواو شو من الكلام، سكب كوبلاي الشمع على الكفافة، وضغط خاتم والده عليه بقوة، مما ترك أثراً عميقاً فيه. واجه مستشار أوجيدي بتعبير متكلف، وحذق يواو شو إلى اللفافة الأنيقة والشمع حين حركها كوبلاي في الهواء ليحف الشمع، لكنه لم يفهم سبب توتر الشاب.

قال يواو شو وهو يسد الباب متعمداً حين تحرك كسوبلاي نحو: "رأيت الضوء. نصف القصر مستيقظ، كما يبدو. هل تعرف ما يحدث؟".

(*) نبات عشبي من الفصيلة المركبة، يظهر له زغب يشبه الصوف.

رد كوبلاي: "لست عنولاً إبلاغك أيتها المستشار. أنا أؤدّي عملاً للخنان".
نظر إلى عيني ياو شو بثبات، وهو يرفض أن يفرغ.
رد ياو شو: "أحشى أنني يجب أن أصر على الحصول على تفسير لهذا...
وعلى التطفل قبل أن أسمح لك بالذهاب".
"لا، لن تصر. هذا ليس من شأنك أيتها المستشار. إنها قضية أسرية".

لم يدع كوبلاي يده تنساق إلى السيف الذي يضعه على وركه، فهو يعرف
أن المستشار لا يخاف من ذلك. نظر كلّ منهما إلى عيني الآخر وبقي كوبلاي
صامتاً ومنتظراً.

بتكشيرة، تنحى ياو شو جانباً ليتركه يمر، ووقع بصره على الطاولة والدواة التي
لا تزال رطبة وأدوات الكتابة المبعثرة عليها. فتح فمه لي طرح سؤالاً آخر، لكن
كوبلاي كان قد احتفى آنذاك، ووقع خطواته يتزدد في الأرجاء ويصل إلى مسمعه.
لم تكن المسافة بعيدة إلى المحطة الطرفية؛ المركز الجوي لشبكة تمتد إلى آخر
أراضي تشن شرقاً وما وراءها. جرى كوبلاي في أبنية القصر الخارجية، وعبر
الساحة وممرًا مسقوفًا حول حديقة، حيث أدركته ريح وتجاوزته بنفّس بارد.
استطاع رؤية مشاعل في الحديقة، تضيء بقعة بعيدة حيث يتجمّع رجال بجانب
جثة الخان، وعرف أن ياو شو سيسمع النبا الفظيع قريباً جداً.

خارج القصر، ركض على طول شارع بدا رمادياً في الفجر، وتعثّر على
الحصى حين انعطف حول الزاوية ورأى أضواء المحطة. كان هناك دائماً شخص
مستيقظ فيها، في كل ساعة من اليوم. نادى الموجودين حين مرّ تحت القوس
البحرية إلى ساحة كبيرة، وشاهد عيولاً في حظائرهما إلى كلا الجانبين. توقف
كوبلاي لاهتاً، وهو يصغي إلى فرس تصهل وتضرب باب مريضها بخافرها. لم
يعرف إن كانت الفرس قد أحسّت بالإثارة التي يشعر بها.

انقضت لحظات فقط قبل أن يأتي شخص ضخم إلى الساحة. رأى كوبلاي
أن مدير المحطة له يد واحدة فقط، وعرف أن وظيفته هذه تعويض له عن فقدانه
القدرة على القتال. حاول ألا ينظر إلى الجذعة حين اقترب الرجل منه.

"أتكلم بسلطة سورهتاني وتوروجين زوجة الخان أوجيدي. يجب أن تصل
هذه الرسالة إلى جيش تسوبودي بأقصى سرعة انطلقتم بها من قبل. اقتل عيولاً

ورجالاً إذا اضطرتت إلى ذلك، لكن ضعها بين يدي الوريث غويوك، ولا أحد آخر غير غويوك. بين يديه وحده، هل تفهم؟".

فغر الخارب العجوز فمه مندهشاً.

شرع يقول: "ما الأمر الملح؟". بدا أن النيا لم يصل بعد إلى أولئك الذين سينقلونه. اتخذ كوبلاي قراراً. كان يريد من الرجل أن يقفز بسرعة وألاً يضيع لحظة أخرى.

قال بوضوح: "الخان مات، ويجب إبلاغ وريثه. الآن تحرك، أو تخلسي عن موقعك".

كان الرجل يستدير مبتعداً آنذاك، وينادي كل شخص في الخدمة تلك الليلة. بقي كوبلاي ليراقب إخراج الحصان من الحظيرة. تسمر الساعي مكانه حين سمع الأمر بقتل حيول ورجال إذا لزم الأمر، لكنه فهم وأوماً. دخلت الورقة عميقاً في حقيبة جلدية ربطها الساعي بإحكام وثبتها إلى ظهره، وعلى عجل، أحضر خدام المحطة سرجاً يجلجل مع كل حركة.

رفع الحصان الذي تم اختياره للمهمة رأسه حين سمع الصوت، وصهل وهزّ أذنيه. كان يعرف أن أصوات أجراس السرج تعني أنه سيعود سريعاً وبعيداً. شاهد كوبلاي الخيال يدفع بعقيقه ردف الحصان الذي انطلق مسرعاً تحت القوس، وخرج إلى المدينة المستيقظة، وفرك عنقه بعد أن شعر بتشنج هناك. كان قد أدى دوره.

كانت توروچين مستيقظة وتبكي حين وصلت سورھتاني إلى جناحها. سمع لها الحراس عند الباب بالمرور بعد أن ألقوا نظرة واحدة فقط إلى تعبير وجهها. سألت توروچين: "هل سمعت؟".

فتحت سورھتاني ذراعها، واندفعت المرأة الأكبر سنّاً لتعانقها. كانت أضخم من سورھتاني، والثفت ذراعها حولها تماماً حتى التقنا معاً.

قالت توروچين: "سأذهب الآن إلى الحدائق". كانت ترتعش أسى، وعلى وشك الانهيار. "حراسه يقفون... هناك، وينظرونني".

قالت سورھتاني: "يجب أن أتكلم معك أولاً".

هزّت توروچين رأسها قائلة: "في ما بعد. لا يمكنني تركه هناك وحيداً".

قيمت سورهتاني فرصها في إيقاف توروجين، لكنها تخلت عن ذلك.
قالت: "دعيني أسير معك".

تحركت المرأتان بسرعة على طول الأروقة التي تقود إلى الحدائق المكشوفة،
وحرّاس توروجين وخدمها يمشون خلفهما. في أثناء سيرهما، سمعت سورهتاني
تُحِب توروجين التي حاولت أن تكتمه بيديها لكن الصوت أفلت من سيطرتها.
كانت هي أيضاً قد فقدت زوجها، والجرح لا يزال حديثاً، وقد أثاره مجدداً نياً وفاة
الخان. انتابها شعور سيئ لأن الأحداث تنسل خارج نطاق سيطرتها. كم سيمضي
من وقت قبل أن يسمع تشاغاني أن شقيقه قد توفي أخيراً؟ كم سيطول الأمر قبل
أن يأتي إلى كاراكوروم ليطالب بالإمارة؟ إذا تحرك بسرعة فمن الممكن أن يجلب
جيشاً قبل أن يستطيع غويوك العودة إلى الديار.

فقدت سورهتاني الإحساس بالزوايا والمنعطفات في القصر حتى شعرت
وتوروجين بالنسيم على وجهيهما، وظهرت الحدائق أمامهما عبر رواق مسقوف.
كانت مشاعل الحدائق لا تزال تنير البقعة حيث توفي أوجيدي رغم بزوغ الفجر.
صرخت توروجين وانطلقت بحري، وبقيت سورهتاني معها، وهي تعرف أنها لا
تستطيع إيقافها.

عندما وصلتا إلى المقعد الحجري، وقفت سورهتاني متسمة في مكانها،
وتركت توروجين تحتاز الخطوات القليلة الباقية لتصل إلى زوجها. وقف الحرّاس
بغضب صامت وهم يتميزون غيظاً لإخفاقهم في عملهم.

كان الشخص الذي وجد أوجيدي قد قلبه ليواجه السماء. كانت عيناه
مغمضتين، وكان مستلقياً في سكين الموت التامة، وجسده أبيض وكان لا دم
فيه. مسحت سورهتاني دموعاً سالت من عينيها حين جثت توروجين إلى جانبه
وأعدادت شعره إلى الخلف بيدها. لم تتكلم، أو تبكي، وبدلاً من ذلك، جلست
ونظرت إليه وقتاً طويلاً. مرّ النسيم بينهم، وسُمع حفيف أوراق الأشجار في
الحدائق. وفي مكان ما قريب غرّد عصفور، لكن توروجين لم تنظر إلى الأعلى
أو تتحرك من تلك البقعة.

وصل يابو شو بصمت، وهو لا يزال مرتدياً ثوب نومه، ووجهه شاحب مثل
سيده تقريباً. بدا أكبر سناً وانكمش حين نظر إلى الخان الميت. لم يتكلم، فقد كان

الصمت أفضل بكثير من ذلك. وفي ذلك البوس، وقف مثل أحد الحراس في الخديفة. ارتفعت الشمس ببطء، ونظر أكثر من رجل إليها بكراهية تقريباً وكان ضوءها والحياة غير مرحب بهما.

عندما حوّل ضوء الصباح لون المدينة إلى الذهبي، عخطت سورهناني إلى الأمام أخيراً، وأمسكت ذراع توروجين بلطف، وتمتمت: "تعالى معى الآن. لنتركهم يأخذونه لئيسجى جثمانه".

هزّت توروجين رأسها رافضةً، فالتحت سورهناني مقتربة منها، وهمست في أذنها.

"نحى أملك جانباً اليوم. يجب أن تفكري في ابنك غويوك. هل تسمعينى يا توروجين؟ ينبغي أن تكونى قوية، وأن تذرني دموعك على أوجيدي في يوم آخر إذا أردت أن ينحو ابنك".

طرفت توروجين عينيها ببطء وبدأت تهر رأسها، مرة ثم اثنتين، وهي تصغي إليها. سألت الدموع من بين أجاجها، وانحوت إلى الأسفل، وقبّلت أوجيدي على شفتيه، وارتعشت تحت يد سورهناني من برودته الشديدة. لن تشعر بدفته مجدداً، ولن تغيظ بها ذراعاه مجدداً. مدّت يدها لتمس يديه، وفركت أصابعها التقرحات الجديدة هناك، وعرفت أنها لن تشفى الآن، ثم وقفت.

قالت سورهناني بلطف وكأنها تخاطب حيواناً مذعوراً: "تعالى معى. سأحضّر لك الشاي وأجد شيئاً تأكلينه. يجب أن تحافظى على قوتك يا توروجين".

أومأت توروجين، وقادتها سورهناني عبر الممر المسقوف إلى جناحها. نظرت إلى الخلف مع كل خطوة تقريباً، إلى أن حالت أشجار الخديفة دون رؤيتها أوجيدي. جرى الخدم أمامهما لتحضير الشاي.

دخلت المرأتان جناح سورهناني التي رأت الحراس يتخذون مواقع عند باهما. وأدركت أنهم هم أيضاً يفتقدون إلى الاتجاه. كان موت الخان قد أحلّ بالنظام القائم، وبدوا ضائعين تقريباً.

قالت فجأة: "لدي أوامر لكم". شدّ الرجال قاماتهم. "أرسلوا عداءً إلى قائدكم الخون، واطلبوا منه أن يأتي إلى هذه الغرف فوراً".

قال حارس وهو يحيى رأسه: "كما تشائين يا سيدتي". انطلق في مسيله، وطلبت سورهناتي من خدمها مغادرة المكان. كان البخار قد بدأ يخرج من وعاء الشاي المعدني، وكانت تحتاج إلى البقاء وحدها مع زوجة أوجيدي.

عندما أغلقت الأبواب، رأت سورهناتي توروجين تبدو مذهولة من الأسى، وتجلس محدقة أمامها. عملت بنشاط، وأصدرت متعمدة أصواتاً من الكوبين. لم يكن الشاي مغلياً تماماً، لكنه سيغي بالغرض. كرهت نفسها لتطفلها على حزن توروجين، لكن لم يكن هناك مناص، فذهنها يقذف شرارات منذ اللحظة التي استفاقت فيها لتحدد كوبلاي يقف بجانبها، وقد عرف جزء منها ما حدث حتى قبل أن يتكلم.

"توروجين، لقد أرسلت هدوءاً إلى غوبوك. هل تصغين؟ أنا آسفة حقاً لما حدث. أوجيدي..." كتمت غضبتها وكان حزنها يهدد بأن يتغلب عليها. كانت هي أيضاً قد أحببت الخان، لكنها أهدت الحزن مرة أخرى، واحتجزته في داخلها حتى تستطيع المضي قدماً.

"كان رجلاً جيداً يا توروجين. لقد أرسل ابني كوبلاي رسالة إلى غوبوك، مع حيالة المخططات الطرقية. يقول إنما لن تصل إليه قبل شهر. لا أظن أن غوبوك سيعود بسرعة".

رفعت توروجين بصرها فجأة، وبدت عيناها فظيعتين. وقالت بصوت قاس: "لماذا لن يأتي إلى الدبار؟ إلى؟".

"لأنه بحلول ذلك الوقت سيرف أن عمه تشاغاتي ربما سيكون في المدينة مع فرقه يا توروجين. سيسمع تشاغاتي النبأ أسرع منه، فهو أقرب إلينا بكثير من جيوش تسوبودي. بحلول وقت عودة غوبوك، قد يصبح تشاغاتي خاناً. الآن، أصغي إلي. في تلك المرحلة، لن أراهن بقطعة نقود نحاسية على حياة ابنك. تلك هي الاحتمالات يا توروجين. ضعي حزنك جانباً الآن واستمعي إلى النصيحة".

جعلتهما صوت وقع الأحذية على الحجارة في الخارج ترفعان بصريهما إلى الأعلى. دخل الضابط قائد حراس الخان الغرفة بدرعه الكاملة. انحنى قليلاً للمرأتين، وهو غير قادر على إخفاء استيائه من مثل هذا الاستدعاء. نظرت

سورھتاني إليه بجفاء. ربما لم يكن أختون قد أدرك كيف تغيرت السلطة في القصر منذ الفجر، لكنها تعرف ذلك.

قال أختون: "لا أود أن أتطفل على حزنكما. ستفهم كلتاكما أن مكاني مع الحراس للحفاظ على النظام. من يعرف كيف سينصرف سكان المدينة حين ينتشر النبأ. قد تحدث أعمال شغب. إذا سمحتما لي..."

قالت سورھتاني: "اصمت!". تجمّد أختون ذهولاً، لكنها لم تمنحه وقتاً كافياً ليفكّر ويدرك خطاه. "هل كنت ستدخل جناح الخان من دون أن تفرع الباب؟ إذاً، لماذا تظهر احتراماً أقل لنا؟ كيف تجرّو على المقاطعة؟"

تلعثم أختون، وتورد وجهه حملاً: "لقد... استعدت". كانت قد انقضت سنوات عديدة منذ أن رفع أحدهم صوتاً عليه بغضب، وجعلته المفاجأة الكبيرة يتردد.

تكلمت سورھتاني ببطء، وبثقة كاملة بالنفس: "أنا أحظى بلقب أراضي الأجداد أيها الضابط، وليس هناك إلا شخص واحد أعلى مني شأنًا في الأمة، وهي تجلس هنا". رأت سورھتاني أن توروجين تحدّق إليها بذهول، لكنها تابعت. "إلى أن يصل غويوك إلى كاراكوروم فوالدته هي الحاكمة. إذا لم يكن هذا واضحاً حتى لأدن الرجال شأنًا، فأنا أعلنه منذ هذه اللحظة".

شرح أختون يقول: "أنا..."، ثم صمت وهو يفكر. كانت سورھتاني مستعدة للانتظار، وسكبت المزيد من الشاي، وهي تأمل ألا يلاحظ أي منهما الطريقة التي تجعلها يداها المرتعشتان الكويين يرتطمان ببعضهما.

قال أختون مرتاحاً تقريباً: "أنت محقة طبعاً. أسف لأنني أزعجتكما يا سيدي. مولاني". انحنى مجدداً لتوروجين، كثيراً هذه المرة.

تابعت سورھتاني: "سأقطع رأسك إذا أغضبتني مجدداً يا أختون. في الوقت الحالي، أمرت المدينة كما تقول. سأعلمك بتفاصيل الجنازة حين تصلني".

رد أختون: "حاضر يا سيدي". كان العالم قد توقف عن الدوران بقوة، على الأقل في هذه الغرف. لم يعرف إن كان الإحساس بالفوضى سيعود إليه خارجها. "أحلب ضباط وحدتك التسعة إلى حجرة الاجتماعات الرئيسة عند غروب الشمس، وسأصدر أوامر أخرى لكم عندئذ. لا أشك في أن نشاغان

حان سيفكر في شن هجوم على كاراكوروم يا أخون. يجب ألا يطلا هذه المدينة، هل تفهم؟".

رد أخون: "أفهم".

قالت سورهناتي، وهي تلوح بيدها لنصرفه: "إذا، اتركنا". أغلق الباب خلفه بحرص، وأطلقت سورهناتي زفيراً ضخماً. كانت توروجين تراقبها بعينين منسعتين. قالت سورهناتي بتعجبهم: "أرجو أن تنتهي كل معاركنا بهذه البساطة".

انطلق بايدور شمالاً وهو يشعر بفخر كبير بعد أن ترك تسوبودي وباتو خلفه. انتابه شك في أن إلوجي سيرسل تقريراً عن كل عمل يوديه، لكنه لم يدع فكرة خضوعه لمراقبة مشددة تشيط همته. كان والده تشاغاتي قد دربه على الانضباط وعلمه كل تكتيك، ووالده ابن جنكيز خان. لم يكن بايدور قد خرج إلى البراري من دون استعداد كافٍ، وتمنى فقط أن يحظى بالفرصة ليستخدم بعض الأشياء التي حزمها على ظهور الخيول الإضافية. كان تسوبودي قد منحه موافقته على ترك العربات خلفهم، ويستطيع القطيع الضخم من الحيات الذي يرتحل مع الفرقة أن ينقل أي شيء تقريباً؛ باستثناء المنحنيات الثقيلة.

كان إخفاء فرحته الظاهرة للعيان أمراً صعباً حين العطف مع فرقتين عبر أراضي لم يتحليها قط. اجتازوا نحو ستين ميلاً في اليوم، وفقاً لأفضل تقدير. كانت السرعة مهمة، وقد أوضح تسوبودي ذلك بجلاء. لكن، لم يكن بمقدور بايدور ترك جيوش في أعقابه، ولهذا السبب سلك طريقاً مستقيماً تقريباً إلى الشمال من جبال كارباثيان. عندما يصل إلى الموقع المحدد، سينطلق غرباً بموازاة تسوبودي، وسيدمر كل من يقف في دربه. كان رجاله قد بدأوا يجوسون الأرض ويؤمنوها لدى وصولهم إلى موقع غرب كراكو ومدينة لوبلين أمامهم.

عندما شدَّ بايدور لجام حصانه، حدَّق إلى أسوار لوبلين بتعجب متعجبهم. كانت الأرض حوله قاحلة في الشتاء، والحقول سوداء وقفرة. ترحل ليتحسس التربة، وقتت الوحل الأسود بأصابعه قبل أن يتابع طريقه. كانت أرضاً جيدة، ووحدها الأرض الخصبية والخيول الرائعة يمكن أن تثير جشعاً حقيقياً في نفسه. لم يكن الذهب أو القصور تعني له شيئاً على الإطلاق، وقد علمه والده ذلك. لم يكن بايدور قد سمع بكراكو قبل أن يخبره تسوبودي باسمها، لكنه أراد ضم الأقاليم

البولندية إلى أملاك الخان، وبدا من الممكن أن يكافئ أوجيدي قائداً ناجحاً بإمارة خاصة به، فقد حدثت أمور أغرب من ذلك.

كان تسوبودي قد منحه رقاً كُتب عليه كل ما يعرفه عن الأرض، لكنه لم يكن قد حظي بعد بفرصة لقراءته. لم يكن هذا مهماً، وبغض النظر عمّن يواجههم، سيكونون مثل القمح.

امتطى حصانه مجدداً وقاده مقترباً من المدينة. لم يكن سيمضي وقت طويل حتى تقرب الشمس وتُغلق البوابات دونه. عندما اقترب، رأى أن الأسوار مدعّمة، ويظهر عليها ما يشبه إلى أنها مرمّمة خلال الأحيال بطريقة سيئة. وفي بعض الأماكن، لم يكن هناك أكثر من حاجز من الأحشاب والحجارة المكسّسة. ابتسم، فقد كان تسوبودي يتوقع سرعة وتدميراً.

استدار إلى إلوجي الذي أوقف حصانه مراقباً من دون أن يظهر عليه أي انفعال.

"سنتنظر حلول الظلام. سنتسلق وحلقة من منقرجل الأسوار على الطرف الآخر، ليحذبوا الحراس إليهم. وفي هذه الأثناء، سندخل مئة أخرى المكان ونفتح البوابات من الداخل. أريد أن يحترق هذا المكان حين تشرق الشمس".

قال إلوجي: "سيحدث ذلك". وانطلق مبتعداً لينقل أوامر الشاب الأصغر سناً.

الفصل السابع والعشرون



تحرك بايدور وبالوحي بسرعة كبيرة في تلك الليلة. وعندما سقطت لسولين حث بايدور الفرق على التوجه إلى مدينتي ساندومير وكراكو. وبمثل تلك السرعة، واجهت الفرق أرتالاً من رجال هبوا لتجدة المدن المحتلة. ومراراً وتكراراً، استطاع بايدور مفاجأة النبلاء في المنطقة، وألحق الرجال الذين كانوا تحت قيادته، والبالغ عددهم عشرين ألفاً هزائم نكراء بقوات أصغر عدداً ثم طاردوها وشتتوا شملها. كانت هذه الحملة ماثلة للحملات التي أحبتها جد بايدور، وسرد والده تشاغاتي وقائعها بالتفصيل، والتي يبدو العدو فيها ثقيلاً ورد فعله بطيئاً. وكان بايدور يعرف أنه لن تكون هناك رحمة إذا فشل - من قومه أو أولئك الذين يواجههم - وأنه إذا حظي البولنديون بالفرصة فسيدمرون فرقه وسيزيلوها عن بكرة أبيها. بدأ منطقياً أولاً يواجههم وفقاً لمعاييرهم، أو يقائلهم في نقاط قوتهم. لم تكن هناك تعزيزات بإمكانه أن يستدعيها، لذا قاد فرقه بحرص. كان يعلم أن عليه الحفاظ عليها سليمة؛ حتى إذا عني ذلك الامتناع عن الاشتباك مع العدو.

لم يعرف اسم الرجل الذي يقود أفواج الفرسان اللامعين والجنود المشاة ضده قرب كراكو. نقل مستطلعو بايدور خبر وجود جيش من نحو خمسين ألفاً، فأطلق لعنة في قرارة نفسه حين سمع ذلك. كان يعرف ما سيرغب تسويدي منه أن يقوم به، لكنه لم يعتقد قطً بوجوب أن يكون الانطلاق شمالاً انتحاراً، وعلى الأقل لم يكن النبيل البولندي قد تراجع خلف أسوار سمكة وتحذاهم أن يستولوا على المدينة. كانت كراكو مفتوحة مثل موسكو، والدفاع عنها صعباً أيضاً، وتكمن قوتها في الجيش الضخم الذي احتشد أمامها، منتظراً في المعسكر هجوم فرق المغول.

حاضر بايدور بالاقتراب من المدينة كثيراً مع كبار ضباطه، مراقباً تشكيلات الجنود وتضاريس الأرض. لم تكن لديه فكرة إن كان البولنديون يمثلون تهديداً لتسوبودي، لكنه أرسل شمالاً من أجل هذه المهمة تحديداً. لم يكن مسموحاً لمثل هذا الجيش أن يوحد صفوفه مع القوات في هنغاريا، لكن لم تكن محاصرته حول كاركو كافية. كان واجب بايدور أن يتوَقَّع أنه ليست هناك قوة مسلحة يمكنها التحرك جنوباً لتقدم الدعم للآخرين؛ ليس إن كان الذئب طليقاً بين قُومهم. وبغض النظر عن أي شيء آخر، سيصل النبأ إلى تسوبودي إن تجاهل بايدور تلك الأوامر.

انطلق بايدور على صهوة حصانه إلى تلة صغيرة، وحلَّق إلى بحر الرجال والخيول الذي انكشف أمامه. من بعيد، عرف أنهم قد لاحظوا وجوده، وأن المستطلعين البولنديين يقتربون على حياض تعدو بسرعة، وقد شهبوا أسلحتهم بتهديد واضح. كان رجال آخرون يمتطون صهوات خيولهم على الأطراف، ويستعدون للدفاع أو الهجوم. ماذا كان والده سيفعل لو كان هنا؟ ماذا كان جده سيفعل في مواجهة هذا العدد الكبير؟

تمتم إلوجي عند كتفه: "لا بد أن المدينة ثرية حتى تحظى بهذا العدد الهائل من الرجال لحمايتها".

ابتسم بايدور، واتخذ قراراً بسرعة. كان لدى رجاله ستون ألف حصان تقريباً، وهو قطع ضخم جداً ولا يمكن إبقاؤه في مكان واحد أكثر من يوم، فالخيول تلتهم الأعشاب مثل الجراد، كما تأكل الفرق أي شيء يتحرك. حملت كل مطية إضافية أقواساً وسهاماً، وقدرراً وطعاماً، ومئة شيء آخر يحتاج الرجال إليه في الحملة، حتى الأغصان المجدولة واللباد للخيام. كان تسوبودي قد أرسل إليه تجهيزات جيدة أخيراً.

قال بايدور وهو يقدر فرصه: "أظن أنك محق يا إلوجي. يريدون حماية مدينتهم الثمينة، لذا احتشدوا حولها بانتظارنا". كثر. "إذا كانوا لطفاء بما فيه الكفاية للبقاء في مكان واحد، فستكلم سهامنا نياة عنا".

أدار حصانه وانطلق عائداً، متجاهلاً مستطليعي العدو الذين اقتربوا حين كان جالساً على صهوة حصانه مراقباً ما يجري. وعندما اندفع أحدهم نحوه، سحب

بايدور سهماً بسلاسة، ووضعه على وتر قوسه ثم أطلقه في حركة واحدة. حقق إصابة رائعة، وسقط المستطلع على الأرض، وتمنى أن تكون هذه بشرى.
ترك بايدور صرخاتهم وأصوات استهزائهم خلفه. كان يعرف أن المستطلعين لن يجرؤوا على اللحاق به. وذهنه مشغول الآن. مع المون التي تحملها الخيول الإضافية، كان لا يزال لديه نحو مليوني سهم تقريباً - كل منها قطعة من غصن بتولا مستقيم، ومزود بريش - مرتبة في كنانات في حزم من ثلاثين أو ستين قطعة. حتى مع مثل هذه الوفرة، حرص على استعادة أكبر عدد ممكن منها من المعارك وإصلاحها، فقد كانت على الأرجح أغلى موارده، بعد الخيول نفسها. نظر إلى الشمس وأوماً، وعرف أن الوقت لا يزال باكراً، ولم يكن ليضيع اليوم.

نقر الملك بولسلاف، دوق كراكو الأعظم، على القربوس الجلدي لسرجه وهو يراقب السحابة الضخمة من الغبار التي تثيرها حركات المغول التي تقترب منهم. جلس على صهوة حصان رمادي ضخم؛ حيوان من سلالة يمكن أن يجر محراثاً عبر أرض سوداء طوال اليوم من دون أن تتعب، ووقف أحد عشر ألف فارس مستعدين لتمزيق الغازي شرمزيق. إلى يساره، وقف فرسان الهيكسل الفرنسيون، جاهزين ومرتبدين بزآهم الحمراء والبيضاء فوق دروعهم الفولاذية، واستطاع بولسلاف سماع أصواتهم ترتفع بالدعاء. كان لديه رماة بالآلاف، والأهم من كل شيء أن لديه رماحين يمكن أن يصمدوا ضد هجوم بالحراب. هذا جيشه موحياً بالثقة، وأمر ساعاته بالبقاء قريبه، مستعدين للانطلاق إلى ابن عمه في ليغنيشز حاملين نياً النصر. وربما بعد أن ينقذهم جميعاً، ستعترف أسرته به حاكماً شرعياً على بولندا.

فكّر بمرارة أن دار العبادة ستقف رغم ذلك في طريقه. فرجال الدين يفضلون أن يبدد أمراء بولندا قواهم في نزاعات واغتيالات، وأن يتركوا دار العبادة تزداد بدانة وثراء. وفي الشهر الماضي فقط، كان ابن عمه هنري قد رعى تنظيم الدومينيكان الجديد. وجُل بولسلاف حين فكّر في المناصب الدينية والغفران الذي كسبه هنري وبقي حديث الأسرة منذ ذلك الوقت.

وفي ما كان بولسلاف يفكر بصمت تضرع في سره: "إذا حققت نصرأ اليوم فسأقيم احتفالاً دينياً لكل أولئك الذين فقدوا حياتهم".

ابتلع ريقه الجفاف ومدأ يده إلى قارورة صغيرة مليئة بالماء وتندل من سرجه. كره الانتظار، وكان لا يزال يخشى أن تكون تقارير مستطلعيه صحيحة. فعلى الرغم من معرفته أنهم يميلون إلى المبالغة، إلا أن أكثر من واحد عاد حاملاً حكايات عن جيش يبلغ تعداده ضعفي عدد جنوده، وعن محيط شاسع من الخيول التي لا يمكن عدّها، وغزاة رهيبين يحملون أقواساً ورماحاً. فزع بولسلاف استياءً، وقال لنفسه: لتأت الكلاب اللعينة.

استطاع بولسلاف رؤية العدو وهو يقترب منهم. كان الغزاة يتدفقون على الأرض، وأعدادهم أكبر من أن تُحصى، رغم أنه لم يظن أن هذا هو الجيش الهائل الذي وصفه مستطلعوه. أثارت هذه الفكرة قلقه من أن هناك مزيداً منهم يتوارون عن الأنظار. لم يكن قد تلقى إلا تقريراً واحداً من روسيا، لكنه حذر من أنهم بارعون جداً في الخداع، ومولعون بتصب الكمائن وتسديد الضربات الجانبية، لكن لم يكن أيٌّ من ذلك سينفع إن حافظ رماحوه على مواقعهم. كان المحاربون المغول يتلقون مباشرة إلى صفوفه؛ وكانهم يتوون احتراقها. بدأ بولسلاف يتعرق، خائفاً من أن يكون قد أغفل شيئاً في خطط المعركة. رأى فرسان الهيكل يجّهزون أنفسهم لشن هجوم مضاد، أمين أنذاك خلف صفوف الرماحين متلبدي الأحاسيس. راقب بولسلاف بتركيز حين انخفضت الرماح، وتثبتت المقابض على الأرض بإحكام. كانوا سيوقفون أي شيء، ويمزقون أي شخص، بغض النظر عن سرعته أو قوته.

اقرب المغول صفأً عريضاً، وأصبحوا على بعد لا يتجاوز خمسين خطوة. وفيما كان بولسلاف يحدق إليهم شدوا أوتار أقواسهم وأطلقوا سهامهم، فارتفعت آلاف السهام في الهواء فوق رماحيه وشعر بالرعب. كانت لديهم تروس، لكنهم ألقوها أرضاً لصدة الهجوم بالرمح.

أصاب السهام رجالاً عبر الميدان، فسمع صوت احتراقها دروعهم، تبعه صوت صرخاتهم. سقط المئات وتواصل انهمار السهام. عدّ بولسلاف اثني عشرة حقة قلب بين كل ضربة رئيسة والتالية، ونبض قلبه بسرعة ولم يستطع تهدئة

نفسه. ردّ رماته بوابل من السهام فتوتر مترقباً النتيجة. لكنه رأى أن السهام لم تبلغ الفرسان المغول. كيف كان بمقدورهم الرمي من مثل ذلك المدى؟ كان واثقاً أن رماته ماهرون. لكن، إذا لم يكن بمقدورهم الوصول إلى العدو، فسيكونون عدمي الفائدة له.

صدحت الأوامر على طول الخطوط حين حاول ضباطه الرد، وألقى الكثير من الرماحين الأسلحة الثقيلة، وأمسك بعضهم تروسهم، في حين حاول آخرون موازنة الثرس والرمح معاً، لكن أياً من هاتين الطريقتين لم تؤدّ الغرض المطلوب. أطلق بولسلاف لعنة، وهو ينظر من فوق رؤوسهم إلى قائد فرسان الهيكل. كان الرجل مثل كلب يشد مقوداً، وبدا أن الفرسان مستعدون للانطلاق، لكن الرماحين يسدون درهم. لم يكن القيام بمناورة سهلة ممكناً؛ كان يتمحى الجنود المشاة جانباً ويسمحوا لفرسان الهيكل بالمرور بينهم. بدلاً من ذلك، تمددوا في أكوام فوضوية من الرجال والرماح مثل أشواك، وانكمشوا تحت دروعهم في حين طارت السهام وارتطمت بها. أطلق بولسلاف شتيمة بصوت أحش، ورفع سعاته أبصارهم، لكنه لم يتكلم معهم. لقد رأى جيوشاً طوال حياته، وهو يدين بقوته للمعارك التي خاضها وانتصر فيها. لكن، تبين أن ما يشاهده الآن يهزأ من كل ما قد تعلّمه. بدا أن المغول لا يملكون بنية قيادية، أو أن هناك قلباً هادئاً يوجّه حركاتهم. كان هذا شيئاً يمكن لبولسلاف مواجهته، لكنهم لم يكونوا رعاغاً يتصرف كل رجل منهم من تلقاء نفسه. فبدلاً من ذلك، تحركوا وهاجموا وكان ألف يد توجيه فوقهم؛ وكان كل مجموعة مستقلة تماماً عن الأخرى. بدا هذا جنونياً، ولكنهم بدّلوا اتجاههم وضربوا مثل الدبابير، واستجابوا معاً فوراً لأي تهديد.

على أحد الجانبين، علّق ألف محارب مغولي أقواسهم على سروجهم، ورفعوا حراهم، وحوّلوا هجومهم كاسحاً على طول الصف إلى تصادم مفاجئ مع تروس الرماحين. وقبل أن يتمكن ضباط بولسلاف من الرد، تراجعوا على جيادهم واستخدموا أقواسهم مجدداً. حارّ الرماحون غضباً، ورفعوا أسلحتهم، فنلقوا فقط السهام المؤلمة.

فقر بولسلاف فمه رعباً حين رأى المشهد يتكرر على طول الصفوف، وشعر بقلبه يشب حين كافح فرسان الهيكل بين الحشود، وهم يصرخون ويركلون

لإفساح المجال للرجال الجرحى. كانوا سيفرضون النظام وسط الفوضى، فهذه مهمتهم.

لم يعرف بولسلاف كم مئة من مشاته لقوا حتفهم، ولم تكن هناك فترة راحة في الهجوم، أو فرصة لإعادة تنظيم التشكيل وتقوم تكتيكات العدو. وحتى عندما أدرك أنهم لن يتوقفوا، جاءت موجتان إضافيتان من السهام من مدى قريب، وقضتا على كل من فضّل أن يحمل حربة لا ترساً. تعالت أصوات صراخ الجرحى وعويلهم، لكن فرسان الهيكل تحركوا، وبدأت أحصتتهم هزول حبيأً ببطء وانتظام سيث الرعب في نفوس أعدائهم. شدّ بولسلاف قبضته حين قادوا حيوهم عبر الرماحين المذهولين، وزادت الأحصنة الثقيلة سرعتها في تشكيل رائع. لم يكن هناك شيء في العالم يستطيع مقارنتهم.

رأى بولسلاف المغول يفقدون أعصابهم حين اشتبك الفرسان معهم وجهاً لوجه. دُمرت بعض الهياض الأصغر حجماً، واندفعت جانباً نتيجة الثقل الأكبر، وقفز الحيّالة المغول مبتعدين عن جيادهم التي سقطت، لكن الحيوف عريضة النصال قضت عليهم أو سحقتهم الحوافر. ابتهج بولسلاف حين بدأوا يتراجعون، وبدأ أن الحركة المستمرة لوحدهم قد توقفت، وأهم ارتبكوا وفقدوا توازنهم. أطلق المغول سهاماً على الفرسان، لكنها انزلقت بعيداً عن الدروع الثقيلة أو تكسّرت. شعر بولسلاف أن المعركة تتحول لمصلحته، وصرخ عالياً ليحثهم على المضي قدماً.

حار فرسان الهيكل حين ضربوا المغول. كانوا رجالاً قاتلوا في حقول طينية بعيدة مثل القدس وقبرص، وتوقعوا أن يفر العدو من أمامهم، ولهذا دفعوا بأعقاب أقدامهم في أرداف جيادهم وجعلوها تعدو. كانت قوتهم ضربة المطرقة التي لا يمكن إيقافها؛ هجومًا سيمزق العدو إلى شطرين، للوصول إلى القلب وقتل قائدهم. اتغار المغول، واستدار المئات وهربوا مسرعين أمام الفرسان، بعد أن كادت أرداف حيوهم تصيح في متناول سيوف الفرسان الضخمة وحراهم الثقيلة. امتد هجوم فرسان الهيكل نحو نصف ميل أو أكثر قليلاً، ودفعوا الجميع أمامهم.

رفع هايدور ذراعه، وكان القادة يتربون إشارته؛ اللحظة التي سيختارها بنفسه، وأصدروا أوامره على طول الصف. رفع عشرون رجلاً أعلاماً صفراء

عالياً، وجأروا لوحداث الجافون من منة محارب، وانتقلت الأوامر، وانتشرت بصرياً أو سماعياً مثل النار في الهشيم، ولم يستغرق الأمر أكثر من لحظات. وفي الفوضى انتقل أمر فوري، فالتحقت وحدات المئات بالجناحين، وتركت الفرسان يتقدمون من دون مقاومة. كان بعضهم لا يزال يجري أمامهم ليجذبهم إلى هناك، لكن الجناحين يتضحمان والمزيد من الرجال يجهزون أقواسهم.

كان فرسان الهيكل قد ابتعدوا عن الجنود المشاة وحراهم الفتاكة، وبدأ أن عشرة آلاف منهم قد انطلقوا من داخل الصفوف، وهي قوة ضخمة معتادة على تحقيق الانتصارات. كانوا قد توغلوا عميقاً في فرق المغول وهم يشعرون بالنقمة. حدّق الفرسان الفرنسيون إلى فوضى الانسحاب المغولي، وضربوا بسيوفهم بقوة أي شيء في متناول أيديهم. رأوا الصفوف تنقسم وتبتعد إلى جانبيهم، لكنهم اندفعوا رغم ذلك إلى الأمام، مركزين على اختراق صفوف العدو والوصول إلى قائلهم، أباً يكن.

من كلا الجانبين، أوقف آلاف الرماة المغول صراخهم المخيف، وشدّوا سهاماً على أوتار الأقواس. وبتأنٍ وهدوء، انتقوا أهدافهم وشدّوا السهام إلى أعناق الخيول الضخمة. من الأمام، كانت الخيول مدرّعة بالفولاذ، أما جانبا عنقها فكانا إما مكشوفين أو يغطيهما قماش يخفق في الهواء.

أنزل بابدور ذراعهم، ونزلت كل الأعلام الصفراء استجابة له؛ وكأها واحدة تقريباً. طلّت الأقواس، وزال عنهم التوتر الشديد نتيجة شدّ الأوتار بكل قواهم، ثم انطلقت السهام وهي تنز إلى الخيول التي تتجاوزهم بسرعة. لم تكن إصابة الأهداف صعبة من هذا المدى القريب. وفي الضربات الأولى، امارت الخيول ذعراً وألماً بعد أن اخترقت سهام أعناقها، وخرج الدم من أنوفها بكميات كبيرة وهي تصهل. وجل الكثير من الرماة، لكنهم أخرجوا سهاماً أخرى من الكنانات وأطلقوها.

جأر الفرسان بتحدٍ حرسى، ودفع أولئك الذين لم يُصابوا إلا مرة واحدة بأقدامهم أرداف خيولهم وحاولوا الابتعاد عن العاصفة القادمة من كلا الجانبين. بدأت خيولهم ترتعش، وقوائمها تترّز ألماً. امارت مئات الخيول مسن دون سابق إنذار، وسحقت الفرسان الذين كانوا يجلسون على صهواتها أو احتجزهم تحتها، ووجد هؤلاء أنفسهم على الأرض، مذهولين وبكافحون للنهوض.

استمر هجوم فرسان الهيكل لبعض الوقت، بغض النظر عن الخسائر. لم تكن مهمة سهلة أن يعدوا ثقل الخيول والدروع جانباً، لكن عندما استمرت الإبادة، سمع بايدور أوامر جديدة يمارون بها، وأصبح الرجل الذي أصدرها الهدف المباشر لكل رامٍ يستطيع إصابته. سقط حصانه بعد أن أصابته سهام، وتسدحرج الرجل نفسه وارتد رأسه إلى الخلف في خوذته الحديدية بتأثير سهم، واندفع الجزء الأمامي من الخوذة إلى الداخل حتى لم يعد بمقدوره رؤية شيء. شاهد بايدور الرجل يكافح ليتخلص منها وهو مستلق على الأرض.

استدار فرسان الهيكل، واندفعوا يميناً ويساراً نحو تنظيم الرماة الذين يطوقونهم وصار كل رجل يواجه شخصاً أمامه. كانت مناورة استعراض لم يرها المغول من قبل، لكنها أعجبت بايدور، وجعلت الفرسان يخوضون اشتباكاً مباشراً مع الرجال الذين يضربونهم، وهي فرصتهم الوحيدة للنجاة من المذبحة التي أضحي عليها المحوم. كانوا قد فقدوا سرعتهم، لكن دروعهم قوية ولا يزالون نشيطاً، واستخدموا رؤوس الخراب التي تتصل بأذرع طويلة لقطع أضلاع محاربيه، ثم ارتفعت السيوف الضخمة وهبطت مثل سواطير الجزارين.

حرك المحاربون المغول خيولهم حول الفرسان، ورغم أنهم كانوا أصغر حجماً وأقل قوة، لكنهم أسرع بكثير من الرجال المدرعين، واستطاعوا انتقاء كل هدف بعناية. اقتربوا مسافة كافية ليسمعوا الفرسان يلهثون تحت دروعهم الحديدية، وتمكنوا من جعل جيادهم تنأى بنفسها جانبياً، ثم رفعوا أقواسهم وأطلقوا سهاماً عندما رأوا ثغرة أو جسداً. تحركت السيوف الطويلة فوقهم، أو حيث كانوا قبل لحظات.

استطاع بايدور سماع رجاله يضحكون بصوت أحش، وعرف أن هذا يعزى جزئياً إلى ارتياحهم. كان العدد الضخم للفرسان وحيولهم مخيفاً، وبدت رؤيتهم وهم يهتزون مثل نسيم بارد على الجلد. عندما ضرب الفرسان بقسوة، أضحت كل حركة فظيعة، والجروح قاتلة. رأى بايدور فارساً يرتدي بُردة قصيرة حمراء وبيضاء يضرب بسيفه بقوة كبيرة احترقت فخذ محارب وشقت السرج. لكن، عندما كان المحارب يختصر، أمسك بالفارس وسحبه معه إلى الأسفل وسمع صوت تحطم معدن.

كان الوابل المتواصل من الجناحين قد أصبح فوضى من رجال يصرخون وحيول تصهل، وكافح هناك ألف شخص. قاد بايدور حصانه خيلاً على طول الصفوف، محاولاً رؤية ما يفعله رجاله، وشاهد فارساً يترنح على قدميه ويتزعزع خوذة معطوبة، ويكشف عن شعر داكن طويل جعله العرق ملتصقاً برأسه. ركض بايدور حصانه فاندفع إلى الأمام، وضرب بسيفه الرجل وهو يتجاوز، وشعر بتأثير الصدمة يصل إلى أعلى ذراعه.

شدّ اللحام وكبح جماح حصانه بقوة وهو يحاول عدم فقدان الإحساس بالمعركة. كان يعرف أنه لا يستطيع الانضمام إلى المحوم، وأنه إذا سقط فسيقع عبء القيادة على كتفي ألوجي. انتصب بايدور فوق السرج وشاهد منظرًا عرف أنه لن ينساه أبداً. في أرجاء ميدان شاسع، قاتل فرسان يرتدون دروعاً فضية وناضلوا ضد الفرق، وظهرت تروسهم محطمة، وسيوفهم ملقاة حيث سقطوا. لقي الآلاف حتفهم على الأرض بعد أن أجهز عليهم المحاربون، في حين انتزع آخرون خوذة، ثم طعنوا بسيوفهم داخل الثغرة، وبقي الآلاف آخرون لا يمتطون خيولاً واقفين وهم يصرخون على رفاقهم. لاحظ بايدور أنهم ليسوا خائفين كثيراً، لكنهم كانوا مخطئين، فهذا وقت الخوف. لم يتفاجأ حين رأى مؤخر تشكيل المحوم يبدأ بالانفاس، ويستدير في كتلة فوضوية حتى يستطيع الهرب عائداً إلى الجنود المشاة حول كراكو. أصدر أوامر جديدة، وتحرك ثمانية آلاف لملاحقتهم، فأطلقوا سهاماً حين دفع الفرسان خيولهم المتعبة خيلاً. لم يكن الكثيرون منهم سيقون أحياء بحلول وقت وصولهم إلى الملاذ الآمن خلف الرماح.

راقب بولسلاف بالأسا حين تمزقت صفوف النبلاء أمامه تقريباً. لم يكن ليصدق قط أن الفرسان قد يفشلون في مواجهة الخيالة لو لم ير ذلك بأمر عينيه. تلك السهام! كانت القوة والدقة مدهشتين، ولم يشاهد شيئاً مماثلاً قط في ساحة معركة، ولم يكن أحد في بولندا قد رأى مثل هذا من قبل. ارتفعت آماله حين رأى مؤخر التشكيل يستدير عائداً إلى المدينة. لم يكن بمقدوره رؤية مدى الدمار، وفغر فمه ببطء حين أدرك قلة عددهم، وشاهد نياهم الرثة وحاهم المقدمة مقارنة مع بهائم اللامع حين خرجوا في بداية المحوم.

لاحقهم المغول حتى آنذاك، وأطلقوا سهامهم اللعينة بموجاتٍ متتالية؛ وكان الفرسان مجرد أهداف ينتقونها كيفما يشاءون.

أرسل بولسلاف فوجاً من أربعة آلاف رماح لحماية انسحابهم، مرغماً المغول على التوقف في مكائهم. اقترب فرسان الهيكل الباقون على قيد الحياة بمعشرين وهم يقودون جيادهم خبيأً، وكل رجل منهم مغبرٌ وينزف، ويتز من ضغط صفائح درع الصدر الكبيرة على أضلاعهم. استدار بولسلاف مرتباً حين اقتربت فرق المغول منهم، وأدرك أنهم سيستخدمون الرماح أخيراً. كان قد فقد درع الفرسان، وسيخترقون صفوفهم ليصلوا إلى كراكو، وصرخ لثرفع الرماح، لكنهم لم يشنوا هجوماً. وبدلاً من ذلك، ألهمرت السهام مجدداً؛ وكان الفرسان لم يفرجوا لقتالهم مطلقاً؛ وكان لدى المغول اليوم بكامله للإجهاز عليهم.

نظر بولسلاف إلى الشمس التي تهب نحو التلال البعيدة. ضرب سهمٌ حصانه من دون سابق إنذار، فانتصب على قائمته الخلفيتين هانحاً. ارتطم آخر بدرعهم، فترجع إلى الخلف من تأثير الصدمة. شعر بخوف شديد يعمره، وعرف أنه لن يستطيع إنقاذ كراكو. كان الفرسان قد تحولوا إلى خيال، ولم يبق إلا الجنود المشاة الفلاحون. أحس برغبة شديدة في إنقاذ حياته، وأشار إلى حاملي الأسواق بأن يصدحوا بنعمة الانسحاب في أرجاء ساحة المعركة.

كان الضوء يتلاشى آنذاك، لكن المغول استمروا في إطلاق سهامهم حين بدأ الرماحون بالتقهقر. شكّل فرسان الهيكل المنهكون صفّاً في نهاية المنسحبين، وتصدّوا للسهام بدروعهم بأفضل ما يستطيعون لمنع تحول الانسحاب إلى هزيمة نكراء.

تحرك بولسلاف على حصانه خبيأً، ورافقه سعاته، وهم يطأطون رؤوسهم. حيمت الهزيمة عليهم جميعاً، والخوف أيضاً. وبدلاً من بعث رسائل النصر، سيهرب إلى شقيقه هنري، ويطلب إحسانه وشفقته. انطلق وهو يشعر بالخدر مراقباً الظلال خلفه. كان المغول قد أبادوا فرسان الهيكل الفرنسيين الذين بقوا حتى ذلك الوقت أعظم قوة قتالية عرفها في حياته. من يستطيع إيقافهم إن لم تكن التنظيمات العسكرية؟ كان هؤلاء الفرسان قد ذبحوا قبائل من المهترطين في القدس، وهزّت رؤيتهم وهم يتزقون إلى أشلاء في يوم واحد كل ما يؤمن به.

خلفه، عوى المغول مثل الذئاب، واندفع مئات منهم في كل مرة، وقتلوا أولئك الذين لم يرغبوا في شيء أكثر من الانسحاب. استمرت السهام بالانهمار حتى بعد أن أصبح الضوء ضعيفاً. شدُّ رجال عن سروجهم من الخلف، وسقطوا في أيدي رجال ضحكوا وهم يقتلونهم، وتدافعوا ليسددوا لهم ركلة أو ضربة. عندما حلَّ الظلام، استدعى بايدور والوجي رجالهما أخيراً. ظهرت مدينة كراكو مكشوفة أمامهم ودخلوها على صهوات حيولم حين ارتفع القمر.

كان ضوء القمر قوياً، والهواء نظيفاً وبارداً حين جعل الخيال حصانه يعدو بأقصى سرعته على طول الطريق الترابي. كان مرهقاً، ووجد صعوبة في إبقاء عينيه مفتوحتين، وقد أصبح الألم الذي يشعر به في أسفل ظهره مزعجاً. استحوذ عليه شعور مفاجئ بالدعر حين نسي عدد المخطات الطرقية التي مرَّ بها اليوم. هل هما اثنتان أم ثلاث؟ كانت كراكوروم بعيدة خلفه، لكنه يعرف أن عليه تسليم الحقيبة بمحتوياتها الثمينة. لم يكن يعلم ماذا قد سلَّم له، باستثناء أنه يساوي حياته. كان الرجل من كراكوروم قد اتفق من الظلام ودفعها بين يديه، وأصدر له أوامر بصوتٍ أحش، فانطلق على صهوة حصانه حتى قبل أن يترجل الرجل.

اهتز فجأة، وأدرك المستطلع أنه كاد أن ينزلق عن السرج. كان دفء الحصان، ووقع الحوافر المنتظم، والأجراس التي ترن تحته قد عذّرت أحاسيسه. ستكون هذه ليلته الثانية من دون نوم ولا شيء يرافقه إلا الدرب والحصان. عدَّ مجدداً في رأسه، وعرف أنه قد تجاوز ستاً من المخطات الطرقية، وبدل حصانه في كل منها. كان سيسلّم الحقيبة في المخططة التالية، أو يخاطر بالسقوط على الطريق. رأى أضواءً بعيدة. كانوا قد سمعوا أجراسه طبعاً، ويتنظرونه مع حصان وخيالٍ آخر بالإضافة إلى قربة من شراب أسود وعسل حلوا يساعده على المضي قدماً. سيحتاجون إلى الخيال الآخر، وشعر بالإرهاق يتملكه، وعرف أنه قد أنجز مهمته.

جعل حصانه يبطئ حين وصل إلى الساحة الحجرية في وسط اللامكان؛ العلامة المرئية لنفوذ الخان وسلطته. عندما تجمّع موظفو المخططة حوله، رفع ساقه من

فوق حصانه، وأوماً إلى الخيال الاحتياطي الذي كان أكبر من فتح بقليل. كانت هناك رسالة شفوية بالإضافة إلى الحقيبة. ما هي؟ نعم، تذكر.

قال: "أقتل حيولاً ورجالاً إذا اضطررت إلى ذلك. انطلق بأسرع ما يمكن، وإلى أبعد ما تستطيع. يجب أن تصل هذه إلى يدي غويوك وحده. كرّر كلماتي".

أرهدف السمع حين أعاد الخيال النشيط تكرار الرسالة مجدداً بعجلة، تغمره إثارة كبيرة. نُقلت الحقيبة من يد إلى أخرى؛ وديعة مهمة، لا تُفتح أبداً إلى أن تصل إلى مقصدها. رأى مقعداً حجرياً في الساحة، فارتاح عليه شاكراً، مراقباً الفن وهو يبدأ مشواره قبل أن يسمح لنفسه بإغماض عينيه. لم يكن قد انطلق بمثل هذه السرعة واجتاز مثل تلك المسافة في حياته من قبل، وتساءل عما قد يكون عليه ذلك الشيء، بالغ الأهمية.

الفصل الثامن والعشرون



كانت المحرقة الجنائزية للخان بناءً ضخماً، بنصف ارتفاع برج القصر في المدينة خلفه، وقد شُيّدت على عجل باستخدام كميات هائلة من خشب الأرز من أقبية القصر، والتي عُثِرَ عليها هناك بعد قراءة تعليمات أوجيدي. كان الخان قد حضر لوفاته ووُضعت كل تفاصيل الاحتفال الديني قبل وقت طويل من وفاته. كانت هناك رسائل أخرى في رزمة محتومة قَدَّمها باو شو إلى توروجين. جعلتها الرسالة الشخصية لها تكي، وكان أوجيدي قد كتبها قبل أن يذهب في حملة تشن، وفطرت فوادها قراءة الحماسة الشديدة في كلمات زوجها. كان قد جهّز لموته، لكن لم يكن بمقدور أي إنسان أن يفهم حقاً ما يعنيه أن يمضي العالم قدماً من دونه، وكيف سيكون العالم لأولئك الذين سيعيشون من دون صوته، أو رائحته، أو لمسته. وبدا أن كل ما بقي لديها هو الرسائل وذكرائها. ستصبح كاراكوروم نفسها قبره، وسيوضع رماده في قبو تحت القصر حتى يرتاح هناك إلى الأبد.

وقف تيموج على العشب الأخضر مرتدياً ثوباً حريريّاً ذهبياً مطرزاً بالأزرق. ألمه ظهره طوال الوقت، واضطر إلى أن يبذل جهداً ليرفع بصره إلى أعلى المحرقة. لم يبكِ على ابن شقيقه، وبدلاً من ذلك، شبك يديه خلف ظهره وفكّر ملياً في المستقبل حين انتشرت أسنة اللهب، وهي تحرق الخشب وتطلق رائحة الأرز العطرة في الهواء؛ هذه الرائحة التي ستنقل أميلاً عديدة مع الدخان.

عاد ذهنه إلى الماضي وهو يقف هناك مؤدياً واجبه، وآلاف الأشخاص الذين يراقبون ما يحدث برونه. لم يكن قومه معادين على إظهار حزنهم، لكنه شاهد

عيوناً حمراء كثيرة في حشد العمال الذين خرجوا من كاراكوروم. كانت المدينة نفسها خاوية؛ وكانهم لم يمنحوا الحياة قط.

سُحِّي أحد أبناء جنكيز في ذلك اللهب، ابن الشقيق الذي أحبه وخاف منه، وكرهه ووقره. استطاع تيموج أن يتذكر بصعوبة الأيام الأولى التي كانوا مُطاردين فيها، وهم لا يزالون أطفالاً. حدث ذلك منذ وقت طويل جداً، لكن مرّت أوقات كان لا يزال يحلم فيها بالبرد والجوع المؤلم. بدا أن أفكار الرجل العجوز تميم وتعود غالباً إلى شبابه، لكنه لم يستمد الراحة من ذلك. كان أشقاؤه الأربعة موجودين هناك آنذاك: تيموجين الذي اختار اسماً آخر له جنكيز، وكشيون، وخاسار، وبكتر. كافح تيموج ليتذكر وجه بكتر لكنه لم يستطع إعادته إلى ذهنه. كانت شقيقته تيمولن هناك أيضاً، من بين أفراد الأسرة الذين غادروا الحياة.

فكّر تيموج في الرسالة العاجلة التي أراه ياوشو إياها في الصباح. كان شقيقه كشيون قد توفي. بحث في داخله عن إحساس بالخزل وبالحسارة، مثل ذلك الذي أظهرته توروجين في بكاتها. لا، لم يكن هناك شيء، كانوا قد انفصلوا قبل سنوات عديدة، وضاعوا في صعوبات الحياة ومنعصاتها التي تعكر صفو العلاقات النقية. ومن بين السبعة الذين احتبأوا في صدع صخري في الأرض، لم يبق إلا هو وخاسار كشاهدين، ولا أحد سواهما يستطيع القول إنهما كانا هناك منذ البداية. أصبح كلاهما رجلين عجوزين يشهران بالآلام كل يوم.

تجاوز بصره الوهج المتزايد للبرج الخشبي، ورأى خاسار واقفاً مقابله وقد أحنى رأسه. لقد هزما أمة تشن معاً حين كانا لا يزالان يافعين، ووجدوا ياوشو الذي كان يتحوّل منتظراً مستقبله. بدا صعباً أن يتذكر متى كان يتمتع بثلث القوة والحيوية. لاحظ تيموج أن خاسار يبدو نحيلاً على نحو غريب، ورأسه ضخم جداً بعد أن اختفى اللحم من وجهه وعنقه. لم يكن يبدو بخير على الإطلاق. وفجأة، مشى تيموج إليه وأوماً إلى بعضهما تحت ضوء الشمس.

ثمّ خاسار: "لم أظن قط أنه سيرحل قبلي".

نظر تيموج إليه بحمّة، ولاحظ خاسار النظرة فهزّ كتفيه. "أنا رجل عجوز، والكتل في كتفي تصبح أكبر. لم أتوقع أن أرى الفتي يموت قبل أن يموت أحلي، هذا كل شيء".

قال تيموج: "يجب أن تستأصلها يا شقيقي".

فزع خاسار. لم يعد بمقدوره ارتداء درع تضغط على المناطق المؤلمة. وبدأ أن الأورام تتضخم كل ليلة، مثل حبات عنب تحت الجلد. لم يذكر أمام أحد الأورام التي وجدها تحت إبطيه، والتي كان مجرد لمسها مؤلماً إلى حد يجعله يصاب بالدوار. كانت فكرة تحمل سكين تستأصلها أكثر مما يستطيع تقبله. لم يكن الأمر يتعلق بالجبن، كما أخبر نفسه بحزم، فتلك الأشياء ستحتفي في وقت ما، أو تقتله؛ بطريقة أو بأخرى.

قال تيموج: "أصغ لسماع ما حدث لكشيون".

أغمض خاسار عينيه متمسراً من الألم.

رد: "كان عجزاً جداً على الانضمام إلى حملة، وقد أحرته ذلك. لا سعادة في كون الإنسان محقاً. يا الله، كم أفقده!".
نظر تيموج إلى شقيقه بفضول وقال: "أنت تصيح أحد أولئك النصارى الآن، أليس كذلك؟".

ابتسم خاسار، حزناً قليلاً وأجاب: "فات الأوان بالنسبة إلي. أنا أصغي إليهم فقط حين يتكلمون أحياناً. لقد لاحظت أنهم يلعنون كثيراً".

رأى تيموج أن شقيقه يتكلم ليخفي الحزن الذي يشعر به على حسارة كشيون، وبحث مرة أخرى عن ذلك الشعور في قلبه، لكنه لم يجد إلا الفراغ. كان هذا مثيراً للقلق.

قال تيموج: "كنت أفكر فقط في الصدع الصخري في التلال، حيث احتباناً".

ابتسم خاسار وهز رأسه.

رد: "كانت تلك أوقاتاً صعبة. نجونا آنذاك، مثل كل شيء آخر". نظرت إلى المدينة خلف الأتون الذي يخفي جثمان الخان. "لم يكن هذا المكان ليبنى إن لم يكن لأسرتنا". تنهد لنفسه. "شيء غريب أن تتذكر الوقت حين لم تكن هناك أمة. ربما هذا كافٍ في حياة رجل واحد. لقد شهدنا بعض السنوات الجيدة يا شقيقي، رغم خلافاتنا".

أشاح تيموج بصره بعيداً بدلاً من أن يتذكر اشتغاله بالجرافة، وطوال سنين في شيا به بقي متمسراً لدى الشخص الذي ألحق ألماً عظيماً بأسرته؛ الرجل الذي لم يعد

اسمه يُذكر في الأمة. كان خاسار عدواً له تقريباً في تلك السنين، لكنها بدت بعيدة جداً الآن؛ وتكاد تُنسى.

قال خاسار فحاة: "يجب أن تدوّن عن هذه المحرقة". أمال رأسه نحو المحرقة الجنائزية. "كما فعلت من أجل جنكيز. ينبغي أن تحفظها في سجل".
قال تيموج: "سأفعل يا شقيقي". نظر مجدداً إلى خاسار، ورأى الطريقة التي ذبل بها. "تبدو متوعكاً يا خاسار. سأجعلهم يستأصلون تلك الكتل من جسدك".

قال خاسار، ساعراً: "نعم، لكن ماذا تعرف أنت؟".
"أعرف أنهم يستطيعون جعلك تتناول العجينة السوداء حتى لا تشعر بالأم".
قال خاسار مستاءً: "لا أخاف الأم". على الرغم من ذلك، بدا مهتماً وحرك كتفيه وجلاً. "ربما سأفعل، فلم يعد بمقدوري استخدام ذراعي اليمين في بعض الأيام".

قال تيموج: "ستحتاج إليها إذا جاء تشاغاتي إلى كاراكوروم".
أوماً خاسار وفرك كتفه اليمين بيده اليسرى، وقال: "أود رؤية ذلك الرجل وقد دُق عنقه. كنت موجوداً حين ضحى تولى بحياته يا شقيقي. ماذا جئنا من ذلك؟ بضع سنوات بالنسة. إذا كنت سأرى تشاغاتي يعبر تلك البوابات منتصراً، فأظن أنني أفضل الموت في نومي أولاً".

قال تيموج بمرارة: "سيصل إلى هنا قبل غويوك وتسوبودي، وهذا هو الشيء الوحيد الذي تعرفه حقاً". لم يكن أيضاً يحب الشخص الفظ الذي أضحى عليه ابن شقيقه. لن تكون هناك مكاتب كبيرة في ظل حكم تشاغاتي، أو تلاميذ، أو تعليم رائع. فهو على الأرجح سيحرق المدينة مثل أي شيء آخر، فقط لإيضاح وجهة نظره. في ذلك الشأن، كان تشاغاتي ابن أبيه. ارتعش تيموج قليلاً، وقال لنفسه إن هذا بفعل الريح فقط، وعرف أن عليه وضع خطط لنقل الثمن اللقائف والكتب قبل وصول تشاغاتي؛ حتى يتوثق فقط من أنها ستحترق وتُحفظ بأمان. جعلته فكرة أن يصيح تشاغاتي خائناً يتعرق، وفكر في أن العالم لا يحتاج إلى جنكيز آخر، فلم يكن قد تعافى بعد من الخراب الذي خلفه الأخير.

عبر كوتن أمير كومان لهر الدانوب على متن مركب صغير؛ زورق خفيف مع جندي متحهم الوجه يحرك المجدافين، واحتازا هدى المياه الداكنة. تدثر بعباءته بإحكام اتقاء برد الشفق، مستغرقاً في أفكاره. لم يكن بمقدوره مقاومة مصيره، وللملك كل الحق في أن يطلب مساعدة رجاله، فقد منحهم هنغاريا ملاذاً آمناً، وفكر كوتن لبعض الوقت في أنه قد أنقذهم جميعاً. عندما تصبح الجبال خلفهما، سيتحرراً على الأمل بالآلاً تنوغل فرق المغول تلك المسافة غرباً، فهم لم يفعلوا ذلك من قبل. بدلاً من ذلك، كانت القنبلة الذهبية قد خرجت من كارباتيان وهي تجار، ولم يعد المكان الهادئ والمسالماً ملاذاً آمناً على الإطلاق.

تميز كوتن غضباً حين رأى القارب يقترب من الشاطئ؛ حيث سيعلق الوحل بحذائه. أنزل قدميه في ماء ضحل، ووجل حين غاصت قدماه في الطين السنتن. تمت الخدف شيئاً غامضاً، وتفحص بقوده عن كذب، في إهانة متعمدة. امتدت يد كوتن إلى سكينه، راغباً في ترك ندبة على وجه الرجل تذكره بأداب السلوك، لكنه تردد وتركها تتعد عنها. جذف الرجل مبتعداً، وهو يحدق إليه، والامتعاض يساد عليه. وعندما وصل إلى مسافة آمنة، صرخ قائلاً شيئاً ما لكن كوتن تجاهله.

كانت القصة نفسها في مدينتي بودا وبست، فقد كان قوم هاتين المدينتين يفهمون أن البقاء على قيد الحياة يستحق التضحية وقد وثقوا به.

لم يكن هذا كافياً لسكان بيلا. فمنذ الأيام الأولى، سرت حكايات عن سرقات وجرائم اقترفها رجاله، وشائعات وأقاويل تردد أنهم وراء كل محنة. بصق كوتن على الشاطئ حين مشى بجهداً عليه. في الشهر الماضي، كانت فئاة هنغارية محلية قد ألهمت صبيين من كومان باغتصابها، وأحمد جنود الملك بيلا الشعب الذي تبع ذلك بوحشية وقسوة، لكن الكراهية بقيت موجودة، تجيش تحت السطح، ولم يصدق الكثير من الناس أنها تكذب. بالحصلة، كان هذا هو نوع الأشياء التي يتوقعونها من البدو القذرين. كانوا مقتنعين من جذورهم ولا يمكن الوثوق بهم، ولا يفعلون شيئاً غير السرقة والقتل وتلويث النهر التنظيف.

كره كوتن مضيغه كما كرهوه وكرهوا قومه. لم يكن بمقدورهم شغل حيز أقل مما يفعلون، كما فكر باستياء حين رأى الخيام التي تم نصبها والأكسواح التي تجثم على ضفة النهر. كان الملك قد وعدهم ببناء مدينة جديدة، أو ربما بتوسيع

اثنين أو ثلاث من المدن القائمة، وتكلم عن حيّ لقوم كومان، حيث يعيشون مع بعضهم بأمان. ربما كان بيلا سيفي بوعدة لو لم يأت المغول، رغم أن كوتن قد بدأ يشك في ذلك.

بطريقة ما، كان تهديد المغول قد زاد فقط التوتر بين المجرين المحليين وقبيلته، ولم يعد بمقدور قومه السير في شارع من دون أن يصبق عليهم شخص ما أو يحنك بنسائهم. كل ليلة، كانوا يعثرون على رجال قتلى في القنصوات، وقد حُزّت أعناقهم. لم يُعاقب أحد قط إن كانت الجثث تعود للكومان، لكن القضاة والجنود المحليين شفقوا رجاله عندما كانت الجثث من أبناء قومهم. بدت تلك مكافأة هزيلة لمثني ألف نصراني جديد.

عندما شق طريقه على طول الشاطئ المصح بالغايط، جعلته الرائحة يسد أنفه وفعه كي لا يتقيأ. كان لدى أثرهاء بودا قنوات صرف صحي ممتازة لفضلاتهم. حتى إن الأحياء الفقيرة في بست لديها أنصاف براميل عند الزوايا يجمعها الدبّاغون في الليل. لم يكن لدى قوم كومان إلا النهر، وقد حاولوا إبقائه نظيفاً، لكن العدد الكبير منهم الذي تجمّع على طول شريط قصير جداً حال دون ذلك. آنذاك، كانت الأوبئة تفتك بقومه، واحتضر أفراد الأسر، وظهرت علامات حمراء على جلدهم لم يرها قط في الديار. بدأ المكان كله معسكراً للأعداء، لكن الملك طلب جيشه، وكوتن يرتبط بكلمة شرف وعهد معه. وفي ما يتعلق بهذا تحديداً، بدأ أن الملك بيلا قد قدّر رجله على نحو صحيح. لكن، عندما ركل كوتن حجراً، فكّس في أن هناك حدوداً حتى لشرفه. هل سيرى قومه يُذبحون مقابل مثل تلك المكافأة الهزيلة؟ في كل حياته، لم يحنث بوعد قطعه قط، ولا مرة واحدة. أحياناً، عندما كان يجوع أو يمرض، بدأ أن هذا كل ما بقي لديه ليغذي كبريائه.

سلك طريقه إلى بلدة بست، والبراز والطين يجعلان نعليه ثقيلين. كان قد وعد زوجته أن يشتري بعض اللحم قبل أن يعود إليها، رغم أنه يعرف أن الأسعار سترتفع حين يتعرفون إليه أو يسمعونه يتكلم. ربت على مقبض سيفه حين حثّ الخطى وشدّ قامته. شعر بأنه رجل خطر لا يمكن إهاتته اليوم، وأيقن أن اليوم التالي سيكون مختلفاً من دون شك، لكنه سينفّس عن القليل من غضبه لبعض الوقت، مما سيقيه دافئاً.

عندما صعد كوتن رابية طينية تؤدي إلى صف من عازن التجار التي تكسوت شارعاً، سمع شيئاً يتحطم على الأرض قربه. كانت الريح تعصف في أذنيه، فأدار رأسه ليسمع جيداً. رأى مصباحاً أمام محل الجزار، لكن مصراعي الباب الخشبيين كانا شبه مغلقين. أطلق كوتن لعنة في قرارة نفسه وانطلق يجري.
صرخ: "انتظرا!"

لم يلحظ الرجلين اللذين كانا يتشاجران معاً حتى الهارا قرب قدميه تقريباً. شهر كوتن سيفه رداً على ذلك، لكنهما ظهرا مصممين على لكم وركل بعضهما. كان أحدهما يحمل سكيناً، فيما الآخر يضم قبضة يده بشدة، ولم يعرف كوتن أيأ منهما. ارتفع رأسه مثل كلب صيد حين سمع مزبداً من الصراخات في مكان قريب، وبدت الأصوات غاضبة، وشعر بغضب عارم. من يعرف ما قد حدث في غيابه؟ أهو اغتصاب آخر، أم بساطة شخص يتهم أشقاءه؟ في تردده، نبح الجزار أحياناً في إغلاق مصراعي بابه، ودفع عارضة خشبية من الداخل. ضرب كوتن على المصراعين بقبضتيه، لكنه لم يلق رداً، فاستدار حول الزاوية غاضباً.
رأى كوتن صفاً من الرجال. لا، كانوا حشدًا من الرجال الذين يمشون ببطء وحيلاء في الشارع الطيني في الظلام نحوه. تراجع إلى الخلف حول الزاوية بخطوتين سريعتين، لكنهم كانوا قد شاهدوا ظلّه تحت ضوء الشمس الغاربة. ارتفع الصراخ تلقائياً حين رأوا الشخص الخائف يهرب منهم.

تحرك كوتن بسرعة قدر المستطاع، فقد عاش وقتاً طويلاً كفاية ليعرف أنه يواجه خطراً حقيقياً. وأياً يكن السبب الذي أخرج الرجال جماعة، فإن الأمر يمكن أن ينتهي بت هشيم رأسه أو تكسير أضلعه بأحذيتهم. سمع صراخهم فركض عائداً نحو النهر الداكن، ووقع أحذيتهم يتردد على المر الخشبي مقرباً منه.

زلت قدماه، وانزلق نعلاه الموحلان على الأرض الرطبة. اختفى سيفه من يده، وسقط على الطين، ولم يصدر عنه أي صوت على الإطلاق. رمى شخص بنفسه فوقه حين حاول النهوض، ثم انقضوا عليه وهم ينفسون عن غضبهم من الغريب الذي أثبت ذنبه بالهرب منهم. كافح، لكنهم ركلوه وطعنوه بسكاكينهم الصغيرة، وطرحوه أرضاً فوق الطين القذر حتى أضحي جزءاً منه، وامتزج دمه مع سواده.

ابتعد الرجال عن حثة الميت على ضفة النهر، وربت بعضهم على ظهور آخرين، وهم يضحكون بصوت منخفض لأهم حققوا العدالة. لكنهم لم يكونوا يعرفون اسم الرجل الميت الذي يستلقي هناك. من بعيد، سمعوا صرخات ضباط الملك، واستداروا معاً تقريباً مبتعدين عن المكان، وبدأوا يختفون في ظلال حي التحار. سيسمع البدو بما حدث وسينتابهم الذعر، وسينقضي وقت طويل قبل أن يمشوا من دون خوف عبر مدن من أحسن إليهم. كان الكثير من الرجال آباء، وعادوا إلى منازلهم وأسرهم، وسلكوا الأزقة الخلفية حتى لا يواجهوا جنود الملك.

كان الجيش الذي احتشد أمام مدينة بيست ضخماً، وقد أمضى الملك بيلا أياماً في نوع من الهياج حين أدرك ما يعنيه إخراج هذا العدد الكبير من الرجال إلى الميدان. لم يكن بمقدور الجندي حمل طعام يكفيه أكثر من بضعة أيام على الأكثر من دون أن يبطئه ذلك ويجعل القتال صعباً بالنسبة إليه. كانت قافلة أمتعة الجيش قد ضمت كل عربة وحصان في البلاد، وانتشرت على مساحة مماثل تقريباً تلك التي شغلها الصفوف المحتشدة أمام الدانوب. انتشى قلب الملك بيلا في صدره حين نظر إلى الجيش، وكان أكثر من مئة ألف رجل مسلح، من فرسان وجنود مشاة، قد استجابوا للسيوف الملمحة بالدم التي أرسلها في طول هنغاريا وعرضها. كانت أفضل تقديراته لجيش المغول تصل إلى نصف الحجم أو أقل من القوة التي قيل له أن يتوقعها. ابتلع الملك الصفراء حين اندفعت إلى حلقه، وأدرك أنه ربما كان يواجه نصف القبيلة الذهبية فقط، لكن التقارير الواردة إليه من الشمال وثقت دماراً لا يُصدق. لم تكن هناك جيوش من بولسلاف أو هنسري قادمة لنجدته. ومن كل ما عرفه، لم تكن الجيوش هناك في وضع يسمح لهم بالنجاة من انقراض الفرق التي هاجمهم. كانت لوبلين قد سقطت بالتأكيد، ووصله تقرير واحد يُفيد أن كراكو قد تبعتها واشتعلت فيها الحرائق، رغم أن بيلا لم يدرك كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء. لم يكن بمقدوره إلا أن يأمل أن التقارير تنطوي على مبالغة كتبها رجال خائفون، وهي بالتأكيد ليست معلومات يمكن أن يتشاطرها مع ضباطه وحلفائه.

عندما خطرت له تلك الفكرة، نظر إلى الفرسان الجرمان إلى يمينه، ورأى ألفين منهم ينتظمون في تشكيل المعركة. لمعت عيولهم تحت ضوء الشمس الخافت، وزفرت ضباباً رقيقاً من أنوفها وهي تضرب الأرض بحوافرها. أحب بيلا الخيول الحربية، وعرف أن الفرسان ينتقون أفضل سلالات النسب في العالم.

وحده الجناح الأيسر جعله يترث في تقويمه المغرور. كان الكومان فرساناً جيدين، لكنهم لا يزالون يتميزون غضباً بسبب موت كوتن في مشاجرة بجانب النهر المتسخ؛ وكأنه يمكن إلقاء اللوم في مثل ذلك على الملك نفسه. كانوا شعباً بغيضاً كما أقر بيلا في قرارة نفسه. لذا، بعد أن يردوا المغول عبر الجبال، يجب أن يفكر ملياً في منافع تولين هذا العنيد الكبير من الكومان، وربما يستطيع رشوتهم للعشور على وطن جديد حيث يلقون ترحيباً أكبر ويصبحون أقل استنزافاً للخزينة الملكية.

أطلق الملك بيلا لعنة بصوت خافت حين رأى الفرسان الكومان يخرجون من مكائهم في الصف، وأرسل لهم عذاءً عبر الميدان يحمل أمراً صارماً بالحفاظ على التنظيم. حثُّ ذقته وهو يراقب تقدم العذاء، ومن بعيد رأى الخيالة الكومان يتحمهرون حول ذلك الرجل، لكنهم لم يتوقفوا. ترك بيلا يده ترنخي بذهول متزايد، واستدار فوق سرجه وأوماً إلى أقرب فرسانه.

"انطلقوا إلى الكومان وذكّرهم بقسمهم على طاعني. أوامري هي البقاء في التشكيل حتى أقول شيئاً آخر".

أخفض الفارس رجمه رداً على ذلك، وانطلق على صهوة حصانه مسرعاً بوقار خلف الساعي الأول. بحلول ذلك الوقت، كان الكومان قد أفسدوا التناسق الأنيق للصفوف، وانتشرت عيولهم في الميدان في تشكيل غير واضح المعالم. تنهّد بيلا، فلم يكن يبدو يفهمون الانضباط تماماً. حاول أن يتذكر اسم ابن كوتن الذي يتولى قيادتهم، لكنه لم يخطر على باله.

لم يتوقفوا حين وصل الفارس إليهم، رغم أنهم كانوا بحلول ذلك الوقت قريبين كفاية من بيلا ليرووه وهو يمد ذراعيه إلى الأمام. ربما حاول أيضاً إيقاف المدد لأنهم ببساطة مروا من حوله، على حيادٍ تسير خبيثاً من دون استعجال. أطلق بيلا لعنة بصوت عالٍ حين رأى أنهم يتجهون إلى موقعه، ولم يتنبه أيّ شك في أنهم

يريدون التفاوض مجدداً على جزء من عهدهم، أو طلب طعام وأسلحة أفضل. كان من عادة تلك السلالة القذرة أن تحاول الحصول على فائدة منه؛ وكأنه تساجر وضيع. فكّر بفضافة في أن التجارة هي كل ما يفهمونه، وأنهم سيبيعون بناهم إذا كان الثمن ذهباً.

حملق الملك بيلا إلى الفرسان الكومان وهم ينتشرون في المكان، ويتحركون ببطء بين صفوف جيشه. كان ساعاته لا يزالون يصلون مع آخر التقارير عن المغول، وشغل نفسه معهم متعمداً، مظهراً ازدراؤه للكومان. بحلول الوقت الذي تنتح فيه أحد فرسانه، رفع سلا بصره إلى الأعلى ليشاهد ابن كوتن يمدق إليه. كافح الملك مجدداً ليتذكر اسم الشاب، لكنه لم يستطع. كانت هناك تفاصيل كثيرة في الأيام السابقة ولا يمكنه أن يتذكر كل شيء.

قال بيلا بحدة، ووجهه أحمر من سخط يكتبه: "ما الأمر المهم جداً الذي جعلك تخاطر بالتشكيل كله؟".

أحنى ابن كوتن رأسه قليلاً، وبدا أنه يهزه تقريباً. قال: "قسّم والدي قيّدنا أيها الملك بيلا، وأنا لا ألتزم به". سأل بيلا: "ما الذي تتكلم عنه؟ أياً تكن مخاوفك، فهذا ليس المكان أو الوقت المناسب لذلك. عد إلى موقعك، وتعال إلي هذا المساء بعد أن نكون قد عبرنا الدانوب. سأراك آنذاك".

استدار الملك بيلا متعمداً إلى ساعاته، وتناول حزمة أخرى من الرق لقراءتها. ورفع رأسه قليلاً وهو يشعر بالذهول حين تكلم الشاب مجدداً؛ وكأنه لم يتلق أوامره للتو.

"هذه ليست حربنا أيها الملك بيلا، وقد أضحي هذا واضحاً لنا. أتمنى لسك حظاً طيباً، لكن مهمتي الآن هي إبعاد قومي عن طريق القبيلة الذهبية".

أضحي لون بيلا داكناً وبرزت العروق في جلده الشاحب. جاز: "ستعودون إلى الصفوف".

هزّ ابن كوتن رأسه وقال: "وداعاً يا صاحب الجلالة". سحب بيلا نفساً عميقاً، وأدرك فجأة أن كل الفرسان الكومان يمدقون إليه. رأى أنهم جميعاً من دون استثناء يضعون أيديهم على سيوفهم أو أقواسهم،

ووجوههم نخالية من أي تعبير. تسارعت أفكاره، لكنهم كانوا أربعين ألفاً. وإذا أمر بقتل الابن فمن الممكن أن يهاجموا حرسه الملكي، وستقع كارثة لن يستفيد منها إلا المغول. هدأت عيناه الزرقاوان.

حار بيلا: "أستغادرون والعدو في مرمى البصر؟ أذعوكم الحائنين بالوعد! أذعوكم جنباء ومهرطقين!". صرخ بيلا في وجه ابن كوتن الذي كان يتعد على صهوة حصانه الذي انطلق مهرولاً. يا الله! لماذا لا يتذكر اسم الرجل؟ ربما كانت كلماته أيضاً كالهواء الفارغ. لم يكن بمقدور الملك إلا أن يرغي ويزهد حين انشق الكومان عن كتلة الخيالة خلف قائدهم. سلكوا طريقاً يلتف حول جيش هنغاريا العظيم ويقودهم إلى مخيم قومهم.

قال جوزيف لاندوا بانتمناز: "لم تكن بحاجة إلى رعاة ماعز في صفوفنا يا صاحب الجلالة". همهم فرسان شقيقه مؤيدين من كل الجوانب. كان الكومان لا يزالون يتدفقون عبر الصفوف الرئيسة، وكافح الملك بيلا للسيطرة على مزاجه الثائر، ثم ابتسم رغماً عنه.

رد: "أنت محق يا سير جوزيف. نحن مئة ألف شخص قوي، حتى من دون... رعاة الماعز أولئك. لكن، عندما نتنصر فسيكون هناك حساب على هذه الحياة".
رد جوزيف لاندوا، وتعبير وجهه متحهم وبمائل تعبير وجه بيلا أو أشد صرامة منه: "سأكون سعيداً بتلقيتكم الدرس يا صاحب الجلالة".

"حسناً. انشر النبا بأنني أخرجت الكومان من الميدان يا سير جوزيف. لا أريد أن يظيل رجالي الكلام عن حياتهم. ليعرفوا أنني اخترت القتال إلى جانب أصحاب الدم الهنغاري الأصيل فقط، وسيرفع ذلك معنوياتهم. في ما يتعلق بالبدو، ستجعلهم يدفعون لمن حياتهم، وأنا واثق أنهم سيفهمون ذلك بتلك المعايير".
سحب نفساً عميقاً ليهدي غضبه.

"الآن، لقد تعبت من الوقوف هنا مصغياً إلى أصوات الجبناء الكتيبة. أصدر الأمر ببدء الزحف".

الفصل التاسع والعشرون



راقب تسوبودي جيش الملك بيلا وهو يبدأ بالاندفاع عبر النهر، وصارت الجسور سوداء من الرجال والخيول. أوقف باتو وجيبي حصانيهما وحدقا معه، وهم يقدرّون كفاءة الرجال الذين سيواجهوهم، في حين سهلت خيولهم وهي تمضغ العشب. في السهول، كان الربيع قد حل باكراً، وظهرت نباتات خضراء عبر البقع الأخيرة من الثلج. كان الهواء لا يزال بارداً، لكن السماء زرقاء فاتحة.

قال جيبي: "إنهم فرسان جيدون كفاية".

هزّ باتو كتفيه، لكن تسوبودي اختار أن يجيب.

قال مهدوء: "عددتهم كبير، وعلى ذلك النهر جسور كثيرة. هذا سنجعلهم يكدحون للسيطرة عليه".

رفع باتو بصره قلقاً كالمعتاد؛ لأن الرجلين يتشاطران تفاهماً يعدانه عنه؛ وهو شيء يثير الحنق ومتعمد على نحو واضح. أشاح بصره بعيداً، وهو يعرف أن بمقدورهما ملاحظة غضبه بسهولة متناهية.

طوال حياته كان قد أرغم على الكد لتحقيق كل ما أنجزه، ثم جاء الخان وأخرجه من تلك الحال ورقاه ليقود فرقة باسم والده. كان باتو قد كُرم علانية، وبدلاً من بغضه المعتاد للعالم، أرغم على محو صراع جديد مؤلم مثل الأول تقريباً. بدا أن عليه أن يثبت أن بمقدوره تولّي زمام القيادة، وأنه يتمتع بمهارات وانضباط يعتبرها رجال مثل تسوبودي أمراً مسلماً به. وفي رغبته لإثبات نفسه، لم يكن أحد على الأرجح ليعمل بجد أو ينجز شيئاً أكثر منه. كان شاباً، وطاقته غير محدودة تقريباً مقارنة مع رجال أكبر سناً.

شعر باتو بأنه يتمزق من الداخل حين نظر إلى أورلوك. كان جزء صغير وواهن منه سيفعل أي شيء لجعل تسوبودي يربت على كتفه استحساناً، ولكي يعترف به رجلاً وقائداً، في حين أن الجزء الآخر يبغض ذلك الضعف بغضاً شديداً، ويجعله رقيقاً غاضباً لأشخاص أكثر هدوءاً. لم يكن لديه شك في أن والده قد قرّر تسوبودي مرة، وأنه قد وثق به.

كان باتو يعرف جيداً أن جزءاً من التضوج يكمن في تحطيم تلك الحاجة في النفس. لم يكن ليكسب ثقة تسوبودي، أو يحظى باستحسانه مطلقاً. بدلاً من ذلك، سيرتقي باتو في الأمة، وعندما ينوي تسوبودي ويصبح أذرة، سينظر إلى الخلف ويرى أنه قد أساء الحكم على القائد الشاب الذي عمل بامرته. سيرف آنداك أنه قد أخطأ بحق الشخص الوحيد الذي يستطيع حمل إرث جنكيز وجعله ذهبياً.

تنهّد باتو. لم يكن أحمق، وبدت صورة تسوبودي العجوز الذي يدرك خطاه الجسيم حتماً حتى بالنسبة إليه. إذا كان قد تعلّم شيئاً في رجولته فهو أن ما يظنّه الأشخاص الآخرون بشأنه غير مهم؛ حتى أولئك الذين يحترمهم. في النهاية، سيلصق أجزاء الحياة معاً، بأخطائها المؤسفة وانتصارها المفرحة، كما حدثت تماماً. حاول ألا يصغي إلى رغبته الداخلية التي أرادت أن ينتبه هذان الرجلان لكل كلمة يقولها، فقد كان يافعاً على ذلك، وهما رجلان مختلفان عنه.

كان تسوبودي يقول لجيبي: "لنسمح لنصف عددهم تقريباً بعبور الدانوب. إهم... ماذا؟ ثمانون ألفاً".

"أكثر، كما أظن. إذا توقفوا، يمكن أن أتوثق".

قال تسوبودي بمرارة: "يبلغ عددهم ضعف عدد الفرسان لدينا".

سأل باتو: "ماذا عن أولئك الذين انطلقوا مبتعدين؟".

هزّ تسوبودي رأسه، وهو يبدو مستاءً. كان قد تساءل أيضاً عن مسبب انفصال عشرات الآلاف من الخيالة فجأة عن جيش الملك بيلا قبل الزحف. بدت تلك خدعة، ولم يكن تسوبودي شخصاً يُخدع بسهولة.

"لا أعرف. ربما يكونون احتياطاً، أو جزءاً من خطة أخرى. لا أحب فكرة غياب ذلك العدد من الجنود عن البصر في أثناء انسحابنا. سأرسل بعض الرجال

للبحث عنهم، وسأطلب منهم احتياز مسافة أطول باتجاه منبع النهر واستطلاع المكان هناك".

سأل باتو سعيداً بكونه جزءاً من الحديث: "هل تظن أنهم نوع من الاحتياط".
هزّ تسوبودي كتفيه نافياً ذلك: "إذا لم يعبروا النهر، فإني لا أكثرث لما يفعلونه".

أمامهم، عبر أفراد من جيش الملك بيلا هرولة على الجسور الحجرية العريضة فوق الدانوب. جاءوا في وحدات واضحة المعالم، وحركتهم تكشف الكثير عن تنظيمهم وقدراتهم الهجومية، ولهذا راقبهم تسوبودي باهتمام كبير. اتحدت المجموعات المختلفة فوراً على الطرف الآخر، وأنشأت رأس جسر أمنياً تحسباً لأي هجوم. هزّ تسوبودي رأسه قليلاً حين رأى تشكيلاتهم. كان لدى الملك بيلا من الجنود المدربين ثلاثة أضعاف ما لديه، إذا لم يؤخّذ بالحسبان المهندسون الذين أحضرهم تسوبودي معه. كان الأمر يتطلب حفاً ومهارة وسنوات من الخبرة لتحقيق ثلاث فرق النصر على مثل ذلك الجيش. ابتسم أورلوك لنفسه، فقد كانت لديه وفرة من تلك الأشياء، والأهم أنه قد أمضى نحو شهر وهو يستطلع الأرض حول بودا وبست بحثاً عن أفضل موقع للاشتباك معهم في معركة. لم يكن ذلك الموقع بالتأكيد على ضفتي الدانوب، فهذه ساحة حرب شاسعة جداً لا يمكنه السيطرة عليها. لم يكن هناك إلا حل واحد للقضاء على قدرة هذه الأعداد الكبيرة على المناورة. أكبر جيش في العالم سيتحوّل إلى جيش عديم الأهمية في وقت ما إذا أمكن حصره في ممر ضيق أو جعله يجتاز جسراً.

راقب القادة الثلاثة بتركيز وهم متجهمون حين انتظم جيش هنغاريا في تشكيلاته على الطرف الذي يصطف عليه قرب النهر. استغرق ذلك وقتاً طويلاً، ولاحظ تسوبودي كل تفصيل؛ سعيداً لأنهم لم يظهروا انضباطاً أكثر من أيّ من الجيوش الأخرى التي واجهها. كانت التقارير من بايدور والوجي جيدة، ولن يكون هناك جيش ثانٍ يأتي من الشمال. في الجنوب، قام غويوك ومونغكي باقتطاع شريط من الأرض بعرض هنغاريا نفسها، وقضيا على كل من يبدو أنه يمثل تهديداً لهم. كان جناحاه بأمان، كما خطط وتمتّى، وأصبح جاهزاً للدفاع في السهول الوسطى ضد ملكها. فرك تسوبودي عينيه للحظة. في المستقبل، سيتحوّل قومه في

مروج هنغاريا من دون أن يعرفوا مطلقاً أنه قد وقف مرة هناك. ثمّسى أن يريقوا قطرة من الشراب الأسود في الهواء من أجله حين يشربون. كان كل ما يستطيع رجل أن يطلبه هو أن يتذكره الآخرون بين الفينة والأخرى، مع كل الأرواح الأخرى.

استطاعوا رؤية الملك بيلا يقود حصانه على طول الصفوف حاضراً رجاله. سمع تسوبودي مئات الأبقاق تصدح من الصفوف المختشدة، تبعها رفع رايات خفاقة فوق رؤوسهم على أعمدة الرماح. بدا ذلك منظراً رائعاً، حتى لرجال كانوا قد شاهدوا جيوش إمبراطور تشن.

راقبهم باتو محبط. كان تسوبودي سيُطّلع على ما يبدو على خططه في مرحلة ما، ربما حين يُتوقع منه أن يخاطر بحياته لتدمير الجيش الهائل من الرجال والخيول. منعتة كبرياؤه من السؤال، لكن تسوبودي لم يكن قد كشف شيئاً بانقضاء يوم إثر آخر من المناورات الخلدرة وتقارير الاستطلاع. انتظرت الفرق والمجنّدون بصر مع تشو ليجي، على بعد ميلين فقط من النهر.

آنذاك، كان المستطلعون المجرّبون قد شاهدوا القادة وهم يميلون على قرابيس سرورهم ويراقبون ما يحدث. استطاع باتو رؤية أسلحة تُوجّه إلى موقعهم، ورجال يبدأون بالانطلاق نحوهم.

قال تسوبودي: "حسناً، لقد رأيت كفاية". استدار إلى باتو. "ستراجع الفرق. انسحاب بطيء. حافظ على... مسافة ميلين بيننا. سيكون على مشاتنا أن يركضوا إلى جانب الخيول. انقل لهم الأمر، وأخبرهم أنه بمقدورهم التعلق بالركاب، أو امتطاء الخيول الإضافية إذا بدأوا يتخلّفون عن الفرسان وظنّوا أن بمقدورهم البقاء على صهوات الأحصنة. لدى الملك جنود مشاة. لن يستطيعوا خوض المعركة".

قال باتو: "أتريد منهم أن ينسحبوا؟". أبقى وجهه هادئاً. "هل ستخبرني بما قد خططت له يا أورلوك باهادور؟".

قال تسوبودي بتكشيرة: "طبعاً لكن، ليس اليوم. اليوم ستتهقر أمام قوة متفوقة. سيكون جيداً للرجال أن يتعلّموا بعض التواضع".

وقفت سورھتاني على السور المحيط بكاراكوروم، وهي تنظر إليها مع شروق الشمس. نظرت إلى أقصى مسافة يمكن أن يصل إليها بصرها. شاهدت فرقاً من عمال تشن ومحاربيها يرفعون الأسوار، ويضيفون صفوفاً من ألواح حجر الجير والإسمنت الكلسي، قبل أن يكسوها بمزيد من الكلس؛ طبقة صلبة بعد أخرى. لم يكن هناك نقص في العمال الماهرين الذين يبدأون العمل باكراً ويتوقفون حين يصبح الظلام حالكاً ولا يمكنهم الرؤية. عرف كل من لديه لب في المدينة أنهم يجب أن يتوقعوا مجيء تشاغاني خان، وأنه لن يُسمح له بدخولها، ولم يكن هناك شك آنذاك في ما سيحدث بعد ذلك. ستبدأ فرقه هجوماً على أسوار عاصمة أمتهم.

تتهددت سورھتاني لنفسها في نسيم الصباح، فهي تعرف أن الأسوار لن توفقه. فمنذ أن واجه جنكيز أول مدينة، أتقنت الفرق العمل على المنحنيات، وصار لديها المسحوق الأسود القادر على إحداث دمار استثنائي. لم تعرف إن كان حرفيو تشاغاني قد سلكوا الدروب نفسها، لكن، بهذا محتملاً أنه يعرف كل التفاصيل عن المدافع الأخيرة وقاذفات البراميل. إلى يمارها، كان يجري بناء قاعدة مدفع ميدان، وهي مريض يمكنه تحمّل وزن مثل ذلك السلاح الفتاك وقوته حين يرتد إلى الخلف.

عندما يأتي، لن تكون لتشاغاني اليد العليا، وقد توثقت من ذلك. ستنتفخ المدينة ناراً عليه، وربما سيُنهي لسان من اللهب التهديد قبل أن يحطم الأسوار ويدخل المدينة.

بحكم العادة تقريباً، عدت سورھتاني الأيام منذ وفاة الخان. مرّ اثنا عشر يوماً. كانت قد أغلقت المخطط الطرقية في المدينة بعد أن خرجت رسالتها إلى غويوك. لكنها تعرف أن النظام يعاني خللاً. امتدت سلسلة أخرى من المخططات الطرقية غرباً من كاراكوروم إلى إمارة تشاغاني، مسافة ألف وخمسة مئة أو أكثر. لم يكن على خيال منطلق من المدينة إلا أن يصل إلى إحدى المخططات في السلسلة، ويمكنه عندها استخدام الموارد الثمينة فيها لإرسال نبأ وفاة الخان إلى تشاغاني. فكّرت في المسافات مجدداً في ذهنها، بأقصى سرعة لم يكن يسمح إلا بالخير بعد ستة أيام أخرى. كانت قد تدارست الأرقام مع ياو شو حين بدأ بتحسين المدينة. حتى إذا

انطلق تشاغاتي فوراً، وإذا جرى إلى حصانه وكانت فرقه على أهبة الاستعداد، فلن يستطيع جلب الفرق قبل شهر آخر، وعلى الأرجح اثنين. سيكون عليه سلوك طريق المخططات الطرقية حول حافة صحراء تكلامكان.

على أفضل تقدير، سيصل تشاغاتي خان في منتصف الصيف. حجبت سورهناتي عينيها لتتظر إلى تقدّم العمل على الأسوار، ورأت أن وجوه العمال وأيديهم رمادية من الكلس الرطب. بحلول الصيف، ستصبح كاراكوروم مدحجة بالمدافع المنتصبة على أسوار عريضة كفاية لتحمّلها.

مدّت سورهناتي يديها إلى الأسفل، وقتت قطعة من حجر طباشيري، وفركته حتى تحول إلى غبار، ثم ضربت راحتي كفيها معاً. كان لا يزال هناك عمل كثير ينبغي إنجازه قبل ذلك الوقت. كانت توروجين توحدان الإمبراطورية ببعض الكلام والثقة بالنفس، وإلى أن يعيد غويوك الفرق إلى الديار ويحصل على ألقاب والده، وإلى أن تجتمع الأمة لتقسم بمين اللولاء له كخان، ستبقى كاراكوروم في خطر. سيكون عليهم أن يدافعوا عن الأسوار للشهرين وكل ثلاثة. فزعت سورهناتي من فكرة رؤية خيمة حمراء أو سوداء تُنصب أمام كاراكوروم.

بطريقة غريبة، كان انتصاراً لأوجيدي أن تحظى المدينة بمثل هذه الأهمية. ربما كان جنكيز سيدعو الأمة إليه، في مكان ما بعيد عن الأسوار البيضاء. تجمّدت سورهناتي للحظة حين فكّرت في ذلك. لا، لم يكن تشاغاتي يمتلك مخيلة والده، وقد أصبحت كاراكوروم حقاً رمزاً لحكم الشعب، وأياً يكن الذي يريد أن يصبح خاناً، يجب عليه أن يسيطر على المدينة. أومات لنفسها وهي تحاول أن ترتب أفكارها. سيأتي تشاغاتي، وينبغي أن يفعل ذلك.

نزلت برشاقة على الدرجات المثبتة إلى السور، ولاحظت السطح العريض الذي يسمح للرماة بالتجمّع وإطلاق سهامهم إلى الأسفل على أي قوة مهاجمة. على بعد مسافات، ظلّت سقوف خشبية جديدة أماكن على السور ستوضع فيها كنانات وماء للرجال، وقدور من حديد وصلصال مملوءة بمسحوق أسود. كان حراس المدينة يخزنون الطعام بأسرع ما يستطيعون، ويخرجون مئات الأميال في كل الاتجاهات لمصادرة نتاج المزارع، وقد جُرّدت الأسواق وحظائر الأنعام من حيواناتها، ولم يحصل المالكون إلا على عملة تيموج الورقية ليستردوها في وقت

لاحق. سيطر مزاجٌ من الخوف على المدينة ولم يجرؤ أحد منهم على الاحتجاج. عرفت سورهتاني أن هناك لاجئين على الطرق شرقاً؛ قوافل بطيئة من أسر تأمل الهروب من الدمار الذي رآته قادمًا، وفي لحظاتها الأشد حلكة، وافقت على استنتاجاتهم. لقد صمدت ينكينغ ضد الخان العظيم سنة، لكن أسوارها كانت ضخمة، نتاج أجيال، بينما كاراكوروم لم تصمم قط لصد هجوم. لم تكن هذه رؤية أوجيدي لمدينة بيضاء في البراري، ونهر يتدفق بجانبها.

رأت توروجين واقفة مع ياو شو وأخون، وكلهم ينظرون إليها. لم يكن شيء يحدث في المدينة من دون أن يمر من بين يديها، وانقبض قلبها حين فكرت في مئة مشكلة وصعوبة أخرى. لكن، هذا أن جزءاً منها يستمتع بسلطانها الجديدة رغم ذلك. كان هذا ما تشعر به! ذلك ما عرفه زوجها، أن يتطلع آخرون إليك، ويفتقد إليك. ضحكت بصوت خافت من صورة مفاجئة لجنكيز وهو يسمع أن امرأتين تحكمان أمته حديثة العهد. تذكرت كلماته حين قال إنه في المستقبل سيرتدي أبناء قومه ملابس فاخرة ويتناولون لحماً متبلاً وينشون ما يلبثون به له. حافظت على رزاة تعبير وجهها حين وصلت إلى ياو شو وتوروجين، فلم تكن قد نسيت بعد ذلك الشرير العجوز الشرس صاحب العينين الصفراوين. لكن، كانت هناك مخاوف أخرى وكاراكوروم معرضة للخطر. لم تظن أن حقها في أراضي الأسلاف سيدوم وقتاً طويلاً بعد أن يصبح تشاغان الخان الأعظم. كان أبناؤها سيقتلون حين يقوم الحاكم الجديد بعملية تطهير واسعة ويضع مواليين له قادة لجيوش الأمة. اعتمد المستقبل على تأخير تشاغان وقتاً طويلاً كفاية حتى يعود غوبوك إلى الديار، ولم يكن هناك أمل آخر، أو خطة أخرى. ابتسمت سورهتاني لأولئك الذين ينتظرونها، ورأت مخاوفها ترتسم على وجوههم. رفع نسيم الصباح شعرها، لكنها ردت إلى الخلف بيد واحدة.

قالت بمرح: "إذا، إلى العمل. ماذا لدينا هذا الصباح؟"

لحن كيمسروث وهو ينطلق على حصانه غدواً، واستخدم إحدى يديه ليتحسس عنقه. لم يعرف إطلاقاً أن قطاع الطرق جريثون جداً. وكان لا يزال يتعرق من صدمته لدى رؤيته رجلاً يخرج إلى الطريق من خلف شجرة ويمسك

الحقيقية محاولاً انتزاعها. لوى كيسروت عنقه إلى الأمام والخلف، محاولاً السخّط من التشنج هناك. لقد كادوا يتألون منه. حسناً، سيخير غوربان العجوز وسيرون ما سيحدث عندئذ! لم يكن أحد يهدّد خيالة المحطات.

استطاع رؤية الخيمة التي تحدّد مسافة خمسة وعشرين ميلاً، وكما يفعل عادة حاول أن يتخيل إحدى المحطات الطرفية الرئيسية في كاراكوروم. كان قد سمع حكايات من خيالة يمرّون بها، رغم أنه فكّر أحياناً في أنهم يبالغون، لكنه تعلّق بكل كلمة؛ عن مطبخهم المخصص للخيالة فقط، وعن وجود مصابيح في كل الساعات، وإصطبلات من خشب الستديان اللامع، مع صف بعد آخر من الخيول الجاهزة للانطلاق عبر السهول. يوماً ما، سيرى ذلك وسيكرّم بينهم، كما أكرّم نفسه. كان هذا حلماً مألوفاً في أثناء انطلاقه ذهاباً وإياباً بين محطتين صغيرتين وفقيرتين جداً تتكوّن إحداها بالكاد من بضعة خيام وحظيرة. بدا أن خيالة المدينة يجلبون سحر كاراكوروم معهم.

لم يكن هناك شيء مماثل في موقعه الأصلي الذي يكرّمه غوربان وبضعة محارين مقعدين مع زوجاتهم، ويبدوون سعدين كفاية بالقليل الذي يحظون به. كان كيسروت قد حلم بنقل رسائل مهمة وقلبه لا يزال يخفق من الكلمات التي سمعها من خيال مرهق: "أقتل خيولاً ورجالاً إذا اضطررت إلى ذلك، لكن أوصولها إلى غويوك الوريث. ضعها بين يديه وحده". لم يعرف كيسروت ما يحملها، لكنه لا يمكن أن يكون إلا شيئاً مهماً، وتطلع قدماً إلى تسليمه رسمياً إلى شقيقه، وتكرار الكلمات له.

غضب حين لم ير أحداً ينتظره بعد أن اندفع مسرعاً ليحتاز المسافة القليلة الأخيرة، ولم يشك في أن غوربان نائم من تأثير كمية الشراب الأسود التي قد أعدّها زوجته قبل أسبوع. كان أمراً اعتيادياً أن تجد أهم رسالة في حياهم السكر العجوز نائماً. رنّ كيسروت الأجراس مرة أخيرة بيديه حين ترحل، لكن الخيام بدت هادئة باستثناء عمود من دخان يخرج من إحداها. مشى بخطوات واسعة في الساحة المكشوفة وهو يشعر بأن جسده متيبس، منادياً شقيقه أو أباً منهم. بالتأكيد لم يكونوا قد ذهبوا جميعاً ليصطادوا السمك اليوم. كان قد تركهم قبل ثلاثة أيام فقط، ونقل حزمة من رسائل غير مهمة في الاتجاه المعاكس.

ركل باب الخيمة، ووقف في الساحة بدلاً من أن يدخل، ورسالته تمنحه ثقة كبيرة بالنفس.

قال شقيقه نكداً من الداخل: "ما الأمر؟ كيسروث؟ هل هذا أنت؟".

قال كيسروث بحدة: "هل أنا الذي أصرخ باسمك؟ نعم! لدي رسالة من كاراكوروم، يجب أن تصل سريعاً. وأين أجدك؟!".

فُتح الباب وخرج شقيقه، وهو يفرح عينيه. كانت هناك تغضنات على وجهه حيث نام، وكافح كيسروث مع مزاجه.

قال شقيقه: "حسناً، أنا هنا، أليس كذلك؟".

هز كيسروث رأسه قائلاً: "أتعرف؟ سأخذها بنفسي. أخيراً غوربان أن هناك مجموعة من قطاع الطرق اللصوص على الطريق شرقاً. كادوا أن يسقطوني عن حصاني".

اتسعت عينا شقيقه حين سمع النبا، فلم يكن أحد بهاجم خيالة المحطات الطرقية.

قال: "سأحبره، لا تقلق. هل تريد مني أن أنطلق وأنقل هذه الحقيبة؟ سأذهب الآن إن كان الأمر مهماً".

كان كيسروث قد اتخذ قراره آنذاك. وفي الحقيقة، لم يرغب في رؤية دوره في الإثارة ينتهي. لم يكن صعباً أن يقرر المضي قدماً.

"عد إلى نومك. سأنقلها إلى المحطة اللاحقة". تراجع إلى الخلف حين مدَّ شقيقه يده إلى اللحام، وأدار الحصان في الساحة قبل أن توقظهم عصبية شقيقه كلهم. فحاة، أراد كيسروث أن يغادر المكان.

صرخ من فوق كتفه وركل حصانه ليهزول: "أحمر غوربان عن اللصوص". سيكون الظلام قد حل تقريباً حين يصل إلى المحطة اللاحقة. لكن، لديهم رجال جيدون هناك، وسيكونون مستعدين حين يسمعون أجراسه ترن. صرخ شقيقه بكلام غامض خلفه، لكن كيسروث كان قد انطلق مرة أخرى.

الفصل الثلاثون



يوماً بعد آخر، بقيت فرق تسوبودي بعيدة عن متناول الحَيَّالة الهنغارين، حتى إن باتو تخلى عن إحصاء محاولات الملك الهنغاري لجعلهم يخوضون معركة. أبطالهم الجنود المشاة على كلا الجانبين. لكن، في أول يوم بعيداً عن نهر الدانوب، كان الملك بيلا قد أرسل عشرين ألف فارس لشن هجوم عليهم. راقبهم تسوبودي من غير انفعال عندما اقتربوا من صفوفه مخبر جيشه، فيما اعتبر باتو هذا الهدوء مثيراً للحنق، ثم أمر بإطلاق وإبل من السهام، في حين أمسك المخضدون بقرايس السروج وتركوا أنفسهم يُنقلون بسرعة ثلاثة أميال، لما وسع الفجوة مرة أخرى. عندما ضغط الفرسان المجريون كثيراً، قوبلوا بموجات من سهام داكنة أطلقت بدقة مرعية. كانت وحدات المغول تتمتع بانضباط لم يره أعداؤها من قبل، وبمكسها الالتفاف إلى الخلف في أثناء تعرضها لهجوم، وإطلاق وإبلين من السهام، ثم الاستدارة لتنضم مجدداً إلى الفرق الرئيسة.

كان اليوم الأول هو الأصعب، مع غارات وهجمات متكررة جرى التصدي لها. كان تسوبودي قد عمل بنشاط محموم لإبقاء الجيشين منفصلين في أثناء سيرهما، حتى لم تعد بودا وبست في مرمى البصر. وعندما غربت الشمس وحلَّ ظلام الليلة الأولى، ابتسم تسوبودي لدى رؤيته المخيم المحصَّن الضخم الذي بناه جيش بيلا، وكأنه بلدة تقريباً بحذائه. كدَّس الجيش المجري أكياس رمل على ارتفاع رجل في مساحة شاسعة في المرعى، بعد أن نقلوها معهم طوال الطريق من الدانوب، ففسّرت السبب الذي منعهم من اللحاق بالمغول. أكد هذا الأمر انطباع تسوبودي بأن الملك وكبار ضباطه فقط يرتاحون خلف أمان أسوار أكياس الرمل، في حين عسكر باقي جيشه في مكان مكشوف، مثل أي من خدمه.

ربما كان الملك الهنغاري قد توقع أن يأكل وينام جيداً في خيمة قيادته، لكنّ في كل ليلة، أرسل تسوبودي رجالاً يحملون أبواقاً ومفرقات نارياً من صنع تشن لإبقاء الجيش الهنغاري مستيقظاً؛ أراد أن يكون الملك مرهقاً وعصبياً، في حين نام تسوبودي وشخر، ثمّ جعل حراسه الشخصيين يتسمون وهم يحرسون خيمته.

كانت الأيام القليلة التالية أقل نشاطاً، وبدأ أن الملك يبلا قد قبل أنه لن يتمكن من جعلهم يستديرون ويقاتلون جيشه. استمرت المحامات، لكنّ بدأ أنها كرتُ وفراً؛ يظهر فيها فورسان يلوحون بسيوفهم مهددين، ويطلقون إهانات قبل أن يقودوا جيادهم عائدين إلى صفوفهم بتفاخر.

تابعت الفرق سيرها، وهي تسحب ميلاً بعد آخر ببطء. على أرض وعرة، كسرت قوائم بعض الخيول وقُلت بسرعة. لكنّ، لم يكن هناك وقت لذبجها والحصول على لحمها. كان الجنود المشاة الذين يركضون بجانب سروجهم شديدي البأس. لكنّ، لحقت إصابات ببعضهم. أصدر تسوبودي أوامره بأن يُترك كل من يسقط مع سيف فقط، لكن فرقه كانت قد عملت وقاتلت مع المجتدين وقتاً طويلاً، وغض الطرف عن دفعهم خلف محارين، أو ربطهم إلى مسرح أحد الأحصنة الإضافية.

بحلول أصيل اليوم الثالث، كانوا قد اجتازوا نحو مئتي ميل، وعرف تسوبودي كل ما يحتاج إلى معرفته عن العدو الذي يواجهه. كان هر ساجو أمامه، وقضى معظم الصباح وهو يصدر أوامر بشأن عبور الجسر الوحيد. لم يكن بمقدور فرقه أن تخاطر بأن تُحاصر على ضفة النهر، ولم يكن مفاجئاً أن الخيالة المجرين بدأوا يقترحون كثيراً في الصباح، فهم يعرفون الأرض المحلية مثل أي شخص آخر.

استدعى تسوبودي باتو وجيبي وتشولجيتي إليه حين تجاوزت الشمس كبد السماء.

قال: "جيبي، أرهد أن تعبر فرقك هر ساجو من دون تأخير".

عبس القائد وقال: "لو أنني الملك الهنغاري، لكنت ضربت قواتنا الآن، والنهر يمنعا من المناورات. إنه يعرف بالتأكيد أن هناك جسراً واحداً فقط".

استدار تسوبودي على سرجه، وحدق فوق مجرى النهر، إلى مسافة عدّة أميال فقط. آنذاك، كانت فرقة تشولجين تتجمّع على الضفة، لكن لم يكن بمقدورها البقاء هناك، مقابل النهر العميق.

"لقد طاردنا الملك متباهياً منذ خمسة أيام، وسيهتئ ضباطه قائدهم وأنفسهم. وفقاً لما يعرفه، سنهرب إلى الجبال مباشرة وندفع عائلتين فوقها مجدداً. أظن أنه سبتركنا نذهب، لكن إذا لم يفعل، فلا يزال لدي عشرون ألفاً جاهزين ليشتوا له عطاء. اذهب بسرعة".

قال جيبي: "كما تشاء يا أورلوك". أحنى رأسه وانطلق مسرعاً لينقل الأمر إلى فرقته.

تنحى باتو منزعاً فحاة في حضرة تسوبودي، وقال: "هل حان الوقت لتكشف عن خططك لقادة وضيعين يا أورلوك؟". ابتسم حين تكلم ليخفف من وقع كلماته.

حدق تسوبودي إليه وقال: "النهر هو المفتاح. لقد هربنا من أمامهم، ولن يتوقعوا هجوماً، ليس الآن. سيضغطون علينا حين يرون أننا بدأنا العبور، لكننا سنصددهم بالسهام. بحلول الليل، أريدهم على هذه الضفة وقرتسا على الضفة الأخرى. هذا ليس أكثر مما يتوقعه هذا الملك من مثل هؤلاء الأعداء الذين يمكن أن يدفعهم أمامه بسهولة".

ابتسم تسوبودي لنفسه وتابع: "عندما نعبر ساجو، أريد أن يدافع آخر ألف رجل عن ذلك الجسر. فهو نقطة الضعف الوحيدة في تحضيراتي. باتو، إذا هُزم ذلك الألف بسرعة، فسيتركونا وستضيع نقطة الاختناق على الجسر النهري هباءً".

فكّر باتو في الجسر الذي سبق له أن رآه حين عبروا النهر أول مرة، في أثناء زحف الفرق نحو بودا وبست. كان طريقاً رئيساً من الحجارة، وعريضاً كفاية لمروء اثني عشر حصاناً جنباً إلى جنب. كان بمقدوره الدفاع عنه أياماً ضد الفرسان، لكن الرماة المجرين سيستخدمون ببساطة ضفة النهر لإطلاق سهام بعشرات الآلاف. حتى مع التروس، سيسقط كل من يقف على ذلك الجسر في نهاية المطاف. تنهّد لنفسه.

"هل هذه مهمتي يا أورلوك؟ بمواجهة انتحارية أخرى لن أنجو منها؟ أريد فقط التوثق من أنني أفهم أوامرك".

لدهشته، ضحك تسوبودي بصوت خافت وقال: "لا، ليست مهمتك. أريدك غداً قبل الفجر. سأترك الأمر لك لتقرر من تريد إرساله في تلك المهمة. لا يمكنهم الانسحاب نتيجة المحوم يا باتو. توثق من أنهم يفهمون ذلك. يجب أن يظن الملك الهنغاري أننا ننوي الهرب بعيداً، وأنا لا نستطيع مواجهة جيشه في الميدان، والدفاع عن الجسر سيقتعه بذلك".

حاول باتو إخفاء ارتياحه حين أوماً. من بعيد، ظهرت فرقة جيبي متحركة ومنطلقة بأقصى سرعة ممكنة عبر التضاريس الوعرة التي تمتد على طول النهر. وبوصفه ضابطاً متمرساً، لم يكن جيبي يسمح بأي تأخير، واستطاع باتو رؤية الرجال وهم يزدادون عدداً على الطرف الآخر شيئاً فشيئاً. سمع أبواقاً خلفه، وعض شفته حين أدرك أن المجرين الهنغاريين يستمرون في تقليص المسافة.

قال مهدوء: "سيكون هذا دموياً يا تسوبودي".
نظر أورلوك إليه وهو يقدر كفاءته بعينين باردتين. "سنجعلهم يدفعون ثمن خسارتنا، أعدك بذلك. اذهب الآن واحتر رجالك. توثق أن لديهم مشاغل لإضاعة الجسر عند الغروب. لا أريد أي أخطاء يا باتو. سنكون مشغولين في الليلة القادمة".

مشى تيموج في الرواق خارج غرفة الطبيب، وقد شحبت لونه بسبب الصرخات المكتومة التي يسمعها، لكن لم يكن بمقدوره العودة إلى الداخل. كان أول جرح أحدثه الطبيب في كتف خاسار قد حرّر سائلاً أبيض رائحته كريهة جداً، وكل ما استطاع فعله هو أن يمنع نفسه من التقيؤ. بقي خاسار صامتاً آنذاك، لكنه ارتعش حين شقت السكين طريقها إلى مكان أعمق في ظهره. كانت العجينة السوداء لا تزال سميقة على لسانه، وفكّر تيموج في أن شقيقه يهذي حين بدأ بنادي جنكيز. كان تيموج قد غادر الغرفة في ذلك الوقت، وهو يضغط رذنه على فمه وأنفه.

تلاشى ضوء الشمس في الرواق وهو يذرع المكان ذهاباً وإياباً، رغم أن المدينة لم تهدأ آنذاك، وكذلك غرف القصر. تجاوزته مجموعات من الخدم المهرولين، وهم يحملون أي شيء من طعام إلى مواد بناء، واضطر تيموج إلى التراجع نحو الخلف حين جاءت مجموعة تحمل عارضة ضخمة من خشب السندبان، لم يعرف الغرض منها. كانت زوجة ابن شقيقه، سورهناني، قد بدأت بالاستعداد للحصار في اليوم الذي سقط أوجيدي فيه تقريباً. سخر تيموج من تلك الفكرة، وثنى للحظة أن يتمكن جنكيز من العودة ليصفعها ويعد إليها رشدها. لم يكن بمقدور المدينة الصمود، وأي أحق يدرك ذلك. كان أفضل ما يمكنهم فعله إرسال مبعوث إلى تشانغاي لبدأوا مفاوضات معه. لم يكن ابن جنكيز الوحيد الباقي على قيد الحياة قوياً جداً حتى لا ينفع الكلام معه، كما فكر تيموج، وقد اقترح إطلاق مفاوضات، لكن سورهناني انبسطت فقط وشكرته على اقتراحه قبل أن تأمره بالانصراف. تميّز تيموج غضباً مجدداً حين فكر في ذلك. ففي اللحظة التي احتاجت فيها الأمة إلى خبرته، وجد نفسه مضطراً إلى التعامل مع امرأة لا تفقه شيئاً. تابع السير في الرواق، وفتح حين صرخ خائلاً، أسوأ من ذي قبل.

كانت المدينة تحتاج إلى حاكم قوي وليس إلى أرملة أوجيدي التي لا تزال مذهولة بسبب الحزن، وتعتمد على سورهناني لتوجيهها. فكر تيموج مجدداً في السيطرة على الوضع بالقوة. كم مرة اقترب فيها من حكم الأمة؟ وفقت الأرواح ضده من قبل، لكن بدا له الآن أن العظام قد رُميت في الهواء. شعر بأن الرعب يخيم على المدينة. بالتأكيد كان هذا وقتاً يستطيع فيه رجل قوي، شقيق جنكيز نفسه، تولي زمام السلطة. أطلق لعنة بصوت خافت حين تذكر الضابط القائد، الخون. كان تيموج قد حاول معرفة آرائه، ومشاعره بشأن قيام امرأتين بحكم كاراكوروم، وتأكد تقريباً من أن الرجل قد عرف هدفه، لكن الخون هز رأسه. وقبل أن يستطيع تيموج فعل شيء أكثر من استهلال الموضوع بلطف، كان الرجل قد انصرف من تلقاء نفسه بجفاء غير اعتيادي يكاد يكون قفاظة، وترك تيموج في الرواق، محذقاً إليه من الخلف.

قاطع أفكاره خروج الطبيب من غرفته وهو يمسح الدم والقذارة البيضاء عن يديه. رفع تيموج بصره، لكن رجل تشن هز رأسه بصمت.

"آسف. كانت الكتل عميقة، كما أنّ عددها كبير جداً. لم يكن القائد ليعيش وقتاً أطول. فقد كمية كبيرة من الدم، ولم أتمكن من إبقائه على قيد الحياة".

كوّرتيموج قبضتيه، غاضباً فجأةً وسأل: "ماذا؟ ما الذي تقول؟ هل مات؟". نظر الطبيب إليه بحزن وقال: "عرف أن هناك مخاطر كبيرة يا مولاي. أنا آسف".

دفعه تيموج جانباً ودخل الغرفة، وهو يكاد يتقيأ من الرائحة الكريهة هناك. ضغط رذنه على فمه مرة أخرى حين رأى حاسار ممدداً إلى الأعلى نحو السقف، وعيناه جامدتان. كان صدره المكشوف تغطيه الندوب؛ خطوط بيضاء من آسف معركة، تمتد نحو الأسفل؛ إلى ذراعيه. رأى مجدداً كيف أصبح حاسار نحيلاً، والعظام تظهر بوضوح تحت جلده المشدود. شعر بالراحة لأن الطبيب سحاه ووجهه إلى الأعلى، فلم يكن تيموج يزعج في رؤية تلك الجروح الأرجوانية مجدداً، ليس والرائحة الكريهة مملاً رتيه. تحسناً حين اقترب من جثة شقيقه، لكنه تمكن من مد يده وإغماض عينيه، وضغط عليهما بقوة حتى تيقياً كذلك.

تمتم تيموج: "من سيعتني بسى الآن؟ أنا آخر من بقي يا شقيقي. ماذا فعلت لأستحق مثل هذا المصير؟". لذهوله، بدأ يبكي، وسالت الدموع حرارة على وجنتيه.

قال للجنّة: "المض أبها الأحمق. المفض فحسب وأحبرني أنني ضعيف وأسير الشفقة لأنني أبكي. قم أرجوك". شعر بوجود الطبيب عند الباب فاستدار بسرعة. شرع الرجل يقول: "مولاي، يجب ألا...". جأرتيموج: "أخرج! هذا ليس من شأنك!". احتضى الطبيب من الغرفة، وأغلق الباب خلفه مهدوء. استدار تيموج عائداً إلى الجنّة المسحاة على السرير، وبطريقة ما لم تعد الراحة ترعجه.

"أنا الأخير يا حاسار. بكرتيموجين وكشيون وتيمولن، والآن أنت. لقد ذهبتم جميعاً الآن. لم يعد لدي أحد". جعل هذا الإدراك المزيد من الدموع تفيض من عينيه، وتهاوى على كرسي. همس: "أنا وحيد في مدينة تنتظر الدمار".

للحظة، اتقدت عيناه بغضب مزير. كان هو من يتمتع بالحق لكي يرث مُلك شقيقه، وليس الابن الأحمق الذي لم يجلب إلا المتاعب لوالده. إذا قاد تيموج فرقة مخلصه له، فلن يعيش تشاغاني ليستولي على كاراكوروم. سيحرق تشاغاني كسل الكتب في مكتبة كاراكوروم، من دون أن يفهم ولو للحظة أهمية الكنوز الموجودة داخلها. سيطر تيموج على حزنه وبدأ يفكر ويزن خياراته. لم تفهم سورهتاني المخاطر التي يتعرضون لها، وربما ستصمد المدينة إذا كان فيها رجل يفهم قيمتها، وليس امرأة ورثت سلطتها بسهولة من دون أن تتمتع بأي موهبة. سيسمع تسوبودي بما حدث قريباً، وسأني الجيش برمته مثل عاصفة ليدافع عن المدينة العاصمة. ركز تيموج بقوة أكبر، وهو يزن قراراته وخياراته. إذا نجحت المدينة، فسيكون غويوك شاكراً.

بدا له أن حياته كلها كانت تعدّه لهذه المرحلة، ولهذا القرار. لم تعد أسرته موجودة، ومن دونها شعر بحرية غريبة، وبعد غياب آخر الشهود، أصبح فشله مجرد رماد ومنسياً.

سيكون هناك بعض الأشخاص الغاضبين من حكم سورهتاني. كان ياو شو بالتأكيد أحدهم، وفكر تيموج في أن المستشار سيعرف آخرين. سيُحسم الأمر قبل وصول تشاغاني. أحياناً، يمكن أن تنتقل السلطة بسرعة مثل طعنة خنجر. شدّ تيموج قامته ونظر نحو الأسفل إلى حثة خاسار للمرة الأخيرة.

"سيحرق الكتب يا شقيقي. لماذا ينبغي أن أسمح له بذلك؟ كنت هناك منذ البداية، حين لم يكن الموت يعد أكثر من نفس. أعدك بأنني لن أخاف الآن، وروحك تراقبني. لقد ولدت للسلطة يا شقيقي. هذا ما يجب أن تكون عليه الحال وليس ما أضحت عليه. أنا الأخير منا يا خاسار، وقد حان وقتي الآن."

راقب الملك بيلا نصب خيام المعسكر حوله؛ ابتداءً من حيمته التي كانت مساحة كبيرة من أعمدة مزينة ومشع متين يقيه من الريح. استطاع أن يشم آنذاك رائحة اللحم الذي يحضره خدمه. وفيما كان واقفاً في وسط ذلك كله، شعر بفخر كبير. لم يكن جيشه بحاجة إلى البدو الكومان ليرة المغول على أعقابهم؛ إذ يوماً بعد آخر، بدا أن فولاذ المجرين الأخيار وشجاعتهم هما كل ما يتطلبه الأمر

لفعل ذلك. أفرجه التفكير في أنه قد ساق الرعاة المغول أمامه مثل القطعان، وأضحى بمقدوره أن بأسف؛ لأنه لم يدفعهم بقوة أكبر إلى ضفة نهر ساجو، لكنهم لم يسهلوا في انسحابهم المتهور، وبالكاد توقفوا عند الجسر قبل أن يعبروه مسرعين. عندما حجب عينيه عن الشمس الغاربة، استطاع رؤية خيام العدو؛ أشياء دائرية غريبة تنتشر مثل نقاط في البيئة على طول النهر. لم يكونوا متمتعين بالنظام والكفاءة التي رآها حوله، واستساع فكرة المطاردة القادمة. كان دم الملوك يسري في عروقه، وشعر بأن أسلافه يصرخون لرؤية الغازي يرتد على أعقابهم على الجبال التي جاء منها متجوراً وملطخاً بالدماء.

استدار حين جاء أحد فرسان كونراد فون ثورينجن على صهوة حصانه مسرعاً إليه. كان الرجل الإنكليزي فريداً بينهم، لكن هنري من برايبوك مقاتل مشهور ويستحق مكانته.

قال الملك بيلا وهو يحبه: "سير هنري".
ترجل الفارس ببطء واتحنى. تكلم بالفرنسية؛ لأن كلا الرجلين يجيدان هذه اللغة.

"مولاي، إنهم يحاولون التثبيت بالجسر وإغافتنا. لقد أرسل ثمانئة منهم، وربما ألف خيولهم إلى الآخرين".

"إذاً إنهم يفضلون ألا نغير يا سير هنري؟". ضحك الملك بيلا بصوت خافت نحال من أي انفعال. "لقد شعروا بأنفسنا على أعناقهم طوال أيام، ويظنون أننا قد نتركهم ينهون انسحابهم".

"كما تقول يا مولاي، لكنه الجسر الوحيد على امتداد مئة ميل أو أكثر. يجب أن نزيحهم الليلة أو في الصباح".

فكّر بيلا للحظة. كان مزاجه حسناً. "عندما كنت صبياً يا سير هنري، كنت أجمع الرخويات من الصخور قرب بحيرة بالاتون. كانت تشبث بالحجارة كثيراً، لكن بواسطة سكين الصغيرة، كنت أقتلعها لتوضع في القدر! هل تفهمي يا سير هنري؟".

ضحك بيلا من دهائه، رغم أن الفارس عبس قليلاً فقط منتظراً الأوامر. تنهّد الملك بسبب تبلد أحاسيس رفاق السلاح هؤلاء. لم تكن الدعابة منتشرة في

صفوف الفرسان، ربما بسبب رؤيتهم الصارمة. وصلتهما رائحة اللحم المشوي المنتشرة في الهواء، وصَفَّقَ الملك بيلا بيديه استحساناً، وقد اتخذ قراره.

"أرسل الرماة أيها السير هنري. دعهم يمارسون بعض الرياضة قبل الغروب. اضربهم بقوة وادفعهم بعيداً عن النهر. هل هذا واضح كفاية لك؟".

انحنى الفارس مجدداً. كان على ساق السير هنري من برايبوك دُمْلٌ يجب شقه بمضغ، كما كانت قدمه متقرحة وبدأ أنها تتعفن تحت ضماداتها، رغم كل المراهم والكَمَادَات التي استعملها. كانت الوجبة التي سيتناولها تتكوّن من حساء وخبز بائت، وربما القليل من الشراب لإرغام الطعام على النزول عبر حلقه الجاف. امتطى حصانه بحرص، متشجحاً من الآمه. لم يكن يستمتع بارتكاب المغازر، رغم أن المغول يستحقون أن يُبادوا عن وجه الأرض. على الرغم من ذلك، سيطيع أمر الملك، وسيلتزم بعهده بطاعة الفرسان.

نقل هنري من برايبوك أمر الملك إلى أحد أفواج الرماة؛ أربعة آلاف رام بقيادة أمير هنغاري لم يكن يحبه أو يحترمه. وبقي وقتاً كافياً ليراقبهم وهم يبدأون السير إلى الجسر، ثم ذهب لينضم إلى الصفوف من أجل الحصول على حساء وخبز، بعد أن أحس بأن معدته تفرقر.

نظر تشاغاتي إلى أشعة الشمس الساطعة. كان يحمل في يده اليمنى رقاً مصفراً قطع أكثر من ألف ميل على طول الخطوط الطرقية، وبدأ ملطخاً بالأوساخ من رحلته، لكن السطور الموجزة المكتوبة جعلت قلبه يخفق بقوة. كان الخيال الذي أوصله لا يزال متسماً في مكانه وهو يجثو على ركبة واحدة، وقد نسي تشاغاتي وجوده في اللحظة التي بدأ يقرأ فيها. وبأحرف تشن حُرِبِشت على عجل، كانت هذه هي الرسالة التي يتوقعها ويتخشاها منذ سنوات. لقد سقط أوجيدي أخيراً.

غيّرت الرسالة كل شيء، فقد أصبح تشاغاتي آخر أبناء جنكيز خان الأحياء، والأخير في سلسلة نسب الخان الأعظم. استطاع تشاغاتي تقريباً أن يسمع صوت الرجل العجوز حين فكّر في ما ينتظره. كان هذا الوقت وقت الفسوة، لكي ينتزع السلطة التي وُعد بها سابقاً، وما هو حقّ له. فاضت الدموع من عينيه، جزئياً

بسبب ذكرى شيا به. سيكون الرجل الذي أراد والده أن يكون عليه أحسراً. لا شعورياً، كوّر الرقّ الأصفر في قبضته.

سيقف تسوبودي ضده، أو على الأقل مع غويوك، فلم يكن أورلوك في صف تشاغاني مطلقاً. يجب أن يُقتل مهدوء، ولم تكن هناك طريقة أخرى. أوماً تشاغاني لنفسه، وقد فتح القرار البسيط الذي اتخذته سبلاً جديدة للأيام القادمة. كان قد وقف في قصر كاراكوروم مع أوجيدي وتسوبودي، وسمع شقيقه يتكلم عن ولاء تسوبودي، لكن تشاغاني يعرف أنه لا يستطيع أن يثق بأورلوك أبداً. كان هناك ببساطة تاريخ طويل جداً بينهما، وقد رأى وعداً بالموت في عيني تسوبودي القاسيتين.

كان واثقاً أن كاراكوروم مفتاح القفل. لم يكن هناك تاريخ في انتقال السلطة إلى الابن مباشرة؛ على الأقل ليس لدى قبائل أمة المغول، فالخان يُنتقى دائماً من بين الأفضل لتولي القيادة. لم يكن مهماً أن غويوك ابن أوجيدي البكر، أو أن أوجيدي فضله على الجميع؛ مهماً كما لم يكن أوجيدي أكبر أشقائه. لم تكن الأمة تفضل أحداً، ولا بدّ أنها ستقبل بالشخص الذي يسيطر على المدينة، وستتبع كل من يتمتع بالقوة والإرادة للاستيلاء على كاراكوروم. ابتسم تشاغاني لنفسه. كان لديه أبناء أكثر يملأون تلك الغرف، أبناء سيجعلون نسب حنكيز يمتد إلى نهاية التاريخ. امتلأ خياله برؤية مشوشة؛ إمبراطورية ستصل من كوريو في الشرق إلى الأمم الغربية، تحت يد واحدة قوية. لم يكن تشن قد حلموا بذلك من قبل، لكن الأرض شاسعة، وأغراه ذلك بمحاولة السيطرة عليها كلها.

سمع وقع خطوات خلفه حين دخل خادمه سوناي الغرفة. إنها المرة الوحيدة التي يصل فيها النبأ إلى تشاغاني قبل مدير استخباراته. ابتسم لرؤيته الوجه البشع متورداً؛ وكأنه كان يجري.

قال تشاغاني، وعيناه تلمعان من الدموع: "حان الوقت يا سوناي. لقد سقط الخان ويجب أن أجمع فرقي".

نظر خادمه إلى الخيال الجاثم أمامه، وبعد لحظة تفكير، قلّد الوضعية وأحسني رأسه.

"كما تشاء يا مولاي الخان".

الفصل الحادي والثلاثون



اتحنى غويوك إلى الأمام فوق السرج، وهو يوازن رماً على حصانه الذي يعدو على طول درب في الغابة. أمامه، استطاع رؤية ظهر فارس صربي يخاطر بحياته وهو يجري بأقصى سرعة على طرق الغابة. شعر غويوك بأن ذراعه اليمنى توله من ثقل الرمح الذي يضغط على عضلاته، وبدل وضعيته وهو يقود حصانه، فارتفع فوق الركاب حتى يتمكن من تخفيف أثر الإرهاق في فخذه. كانت المعركة قد انتهت منذ أيام، لكنه ومونغكي لا يزالان يطاردان فلول القوات مع فرقتيهما، وبهاجمهم بقوة ويتوثقان من عدم بقاء عدد كبير منهم أحياء حتى لا يقدموا الدعم للملك المنغاري أبداً. ففكر غويوك مجدداً في أعداد الإثنية المجرية التي واجهها عبر الحدود. بدا أن تسويودي كان محقاً في إرساله جنوباً، حيث توجد قرى كثيرة يمكن أن تستجيب لدعوة بيلا إلى الحرب. لم يعد بمقدورهم الاستجابة له آنذاك، وقد توثق أن يضمن هجومه الكاسح عبر بلادهم ذلك.

أطلق غويوك لعنة حين سمع بوقاً بعيداً. كان قريباً بما فيه الكفاية من الصربي ليرى نظرات الرعب التي يرمقه بها وهو ينظر إلى الورا، لكن القائد أخذ مسؤولياته على محمل الجد. رفع اللجام من حيث ألقاه على قربوس السرج الخشبي وشده قليلاً بيده اليسرى. أطلق حصانه زفيراً في فسحة الغابة حين توقف، وراقب الخيال الصربي الخائف وهو يختفي بين الأشجار. أشار غويوك بتحية وداع ساحرة برمحه، ثم قذفه في الهواء، والتقطه من منتصفه وأعادته إلى قرابه بجانب ساقه. صدح البوق مرة ثانية، ثم ثالثة، فعبس متسانلاً عمّا قد يعتسره مونغكي عاجلاً جداً.

وعندما انطلق عائداً على طول الدرب، لمح رجالاً يعودون معه، وهم يخرجون من الدحنة الخضراء وينادون بعضهم بعضاً، متباهين بانتصاراتهم الشخصية. رأى غويوك أحدهم يلوّح بقطعة من سلسلة ذهبية وابتسم لدى رؤيته تعبير وجه الرجل الذي أشرق بفضل فرحته البسيطة.

عندما زوّده تسوبودي بأوامره، انتاب غويوك القلق من أن يكون هذا نوعاً من العقاب. بدا واضحاً كفاية أن تسوبودي يعد أقرب أصدقاء باتو، ولم تكن الحملة عبر الجنوب تعد بالكثير في طريق الهدم. لكن، إذا كان الاستدعاء أول إشارة للانضمام إلى تسوبودي مجدداً، فقد عرف غويوك أنه سينظر إلى تلك الأسابيع بشغف كبير. كان ومونغكي قد عملاً جيداً معاً، وتعلّم كل منهما أن يثق بالآخر، وقد ازداد احترامه لمونغكي بالتاكيد خلال ليلة قصيرة. كان الرجل نشيطاً وذا كفاءة في عمله، وعلى الرغم من أنه لا يتمتع بومضات ذكاء باتو، إلا أنه يوجد دائماً حيث ينبغي له. تذكر غويوك ارتياحه قبل أيام فقط، حين سحق مونغكي قوة من الصرب نصبت كميناً لألفين من رجاله في التلال.

على حافة الغابة، كانت هناك صحور بارزة فوق مسطح الأرض، واختار مونغكي طريقاً بعيداً عن الأرض الوعرة حيث تندمج في المزرعى. استطاع أن يرى آنذاك فرقة مونغكي تنتظم في التشكيل، بالإضافة إلى رجاله الذين يأتون من كل الاتجاهات ويتخذون مواقعهم. ركل غويوك حصانه ليحري حياً واتجه نحوهم.

حتى من بعيد، سمع غويوك رنين أجراس يعني أن ساعياً خيلاً قد وصل إليهم، وتسارع نبضه بفعل الإنارة للحصول على أنباء من أي نوع. بدا سهلاً جداً أن يشعر بالعزلة بعيداً عن الجيش الرئيس؛ وكان معاركه وغاراته هي العالم كله. أرغم غويوك نفسه على الاسترخاء وهو يقود حصانه، وظن أن تسوبودي سيستدعيهم إليه من أجل الهجوم الأخير على الغرب. بدا أن أب السماء قد بارك عملهم حقاً، ولم يندم مرة واحدة قط على ابتعاده تلك المسافة عن سهول الديار. كان غويوك شاباً، لكن بمقدوره أن يتصور سنوات قادمة، حين سيتحد كل أولئك الذين خرجوا في الرحلة العظيمة بعروة خاصة. شعر بما آنذاك، وهدت مثل إحساس بخاطر مشترك، وأحوّة أيضاً. وأياً يكن ما قصده تسوبوي، فقد صاغت الرحلة روابط بين القادة الذين خرجوا معه.

عندما اقترب من مونغيكي، رأى غويوك أن صديقه متورّد الوجه وغاضب، فرفع حاجبيه في استفسار صامت وهزّ مونغيكي كتفيه وقال بتجهم: "يقول إنه لن يتكلم إلا معك".

نظر غويوك إلى الخيال الشاب بدهشة، ولاحظ أنه مرهق من السفر، رغم أن هذا كان عادياً جداً. شاهد غويوك بقعاً كبيرة من العرق على رداء الخيال الحريري الذي لم يكن يرتدي درعاً لكنه يحمل حقيبة جلدية على ظهره بذل جهداً كبيراً لينزعها عنه.

"تعليماني أن أضع الرسالة بين يدي غويوك فقط يا مولاي، ولا أقصد أي إساءة". كان التعليق الأخير موجهاً إلى مونغيكي الذي حدّق إليه. قال غويوك، وهو يتناول الحقيبة ويفتحها: "لا شك في أن لسدي أورلوك تسوبودي أسبابه".

بدا الخيال المتعب غير مرتاح بحضور هذين الرجلين البارزين، لكنه هزّ رأسه قائلاً: "مولاي، لم أرَ أورلوك تسوبودي. جاءت هذه الرسالة عبر المحطات من كاراكوروم".

تجمّد غويوك فوق سرجه وهو يسحب رقاً واحناً مطويماً، ورأى الرجال حوله وجهه يشحب حين تفحص الختم. وبحركة سريعة، تخلّص من الشمع وفتح الرسالة التي اجتازت نحو خمسة آلاف ميل لتصل إلى يده. عضّ شفته حين قرأ ما كتب فيها، وعادت عيناه إلى البداية مراراً وتكراراً وهو يحاول أن يستوعب ما جاء فيها. لم يطلق مونغيكي ذلك الصمت المتكّلف، فسأل: "ما الأمر يا غويوك؟".

هزّ غويوك رأسه، ورد مذهولاً: "مات والدي. توفي الخان". جلس مونغيكي على صهوة حصانه متسماً للحظة واحدة فقط، ثم ترجل وجثا على العشب وهو يحني رأسه. حذا الرجال حوله حذوه، وانتشر النبا بين صفوفهم حتى جثا كل أفراد الفرقتين. نظر غويوك فوق رؤوسهم بارتباك، وهو غير قادر على فهم ما يحدث.

قال: "قف أيها القائد. لن أنسى هذا، لكن يجب أن أعود إلى السديار الآن. ينبغي أن أعود إلى كاراكوروم".

نفض مونغيكي ووجهه نحال من أي مشاعر، وقبل أن يستطيع غويوك منعه، ضغط جبينه على حذاء غويوك في الركاب.

قال مونغيكي: "دعني أؤدي عهد الولاء لك. اسمح لي بهذا الشرف".

حدق غويوك إلى الرجل الذي ينظر إليه نحو الأعلى بفخر شديد.

وقال مهدوء: "حسناً أيها القائد".

رد مونغيكي: "مات الخان. أقدم لك الملح والحليب والخيول والخيام والدم.

سأبعثك يا مولاي الخان. لك كلمتي في ذلك وكلمتي حديد".

ارتعش غويوك حين ردّ الرجال الجاثون حولهما الكلمات؛ حتى قالها الجميع.

ساد صمت بعد ذلك، ونظر غويوك فوقهم إلى ما وراء الأفق؛ نحو مدينة لا يراها أحد غيره.

قال مونغيكي: "قضي الأمر يا مولاي. نحن مخلصون لك وحدك". امتطى

حصانه بحركة واحدة وبدأ يصدر أوامره إلى أقرب قادة وحدات الألف.

كان غويوك لا يزال يمسك الرق الأصفر وكأنه سحره، وسمع مونغيكي وهو

يأمر الفرقتين بالتحرك شمالاً للانضمام إلى تسوبودي.

قال غويوك: "لا أيها القائد، يجب أن أغادر الليلة". كانت عيناه دامعتين،

وجلدته مثل شمع تحت ضوء الشمس. وبالكاد لاحظ أن مونغيكي يقود حصانه

ليقف إلى جانبه، أو شعر بقبضة مونغيكي حين مدّ يده ليلمس كتفه.

قال مونغيكي: "ستحتاج إلى الفرق الأخرى الآن يا صديقي. ستحتاج إليها

كلها".

جسم تسوبودي في الظلام، واستطاع سماع خرير مياه النهر بجانبهم. كان

الهواء يعبق برائحة رجال وخيول: ملابس رطبة، وعرق، ولحم ضأن متبل،

وفضلات؛ تمنتج كلها في هواء الليل. بدا مزاجه مكتئباً بعد أن شاهد ألفاً من

الغارين يُمزقون ببطء إلى أشلاء حين حاولوا الدفاع عن الجسر فوق النهر وفقاً

لأوامره. كانوا قد أنجزوا مهمتهم، وحلّ الظلام من دون أن يعبر جيش الخمرين

الرئيس. كان الملك بيلا قد أرسل ألف حصان ثقيل فقط عبر رأس جسر، وحافظ

على موقعه في انتظار انبلاج الصباح. ما كانوا ليناموا، ليس ونيران معسكر المغول

في كل مكان حولهم. فكّر تسوبودي في أن تلك التضحية مفيدة، فقد أرغم الملك بيلا على الانتظار حتى الصباح قبل أن يتدفق جيشه عبر الجسر ويتابع مطاردته الخشيبة لجيش المغول.

منهكاً، طلق تسوبودي عنقه، مُربحاً الفقرات المشنجة. لم يكن بحاجة إلى تحفيز رجاله بخطاب أو أوامر جديدة، فقد شاهدوا هم أيضاً آخر شخص يقف من وحدة الألف، وسمعوا صرخات الألم، ورأوا الرذاذ حين وقع الرجال المختضرون في المياه. كان لمرحاجو يتدفق بقوة وثبات، وغرق رجاله بسرعة بسبب دروعهم، بعد أن عجزوا عن الصعود إلى السطح.

كان القمر هلالاً، ويلقي ضوءه فوق البيئة المحيطة بهم، ولمع النهر مثل حبل فضي، واندمج مع الظلمة حين اجتازت الفرق المكان الضحل. كان ذلك مفتاح خطة تسوبودي؛ أي المكان الضحل الذي استطلعه حين عبروا المنطقة أول مرة بعد أن خرجوا من الجبال، وكل ما رآه بيلا سيحعله يظن أن المغول يهربون. أظهرت الطريقة التي دافعوا بها عن الجسر أهميته لهم، وامتد ذلك الوقت، استفاد تسوبودي من ساعات الظلام بعد أن ارتفع القمر فوق المراعي حول النهر. كان الأمر يتطوي على مخاطرة وبخازفة، لكنه شعر بالتعب من الهرب مثل رجاله.

كان يمتدوه الأقل بأساً فقط هم الذين يدافعون عن الأرض وراء النهر. جلسوا حول النار تحت ضوء القمر، وهم يتحركون من نار إلى أخرى ويجعلون الأمر يبدو وكأنه عظيم كبيراً قد نُصب. في الوقت نفسه، كان تسوبودي قد اجتاز مع الفرق ثلاثة أميال إلى الشمال، وسيراً على الأقدام قادوا جيولهم عبر المكان الضحل بمنأى عن أنظار العدو. لم يكن قد ترك فرقة واحدة احتياطية، وعرف أنه إذا فشلت الخطة آنذاك، فسيندفع الملك المنغاري عبر النهر عند الفجر ويبيد المتخدين.

همس تسوبودي بأوامر لتسريع الحركة. كان عبور عدد كبير من الرجال يستغرق ساعات، خاصة إذا حاولوا الحفاظ على الهدوء. مراراً وتكراراً، رفع بصره إلى القمر، وهو يراقب حركته ويقدر الوقت الذي بقي لديه قبل انبلاج الفجر. كان جيش الملك بيلا ضخماً، وسيحتاج تسوبودي إلى اليوم بكامله ليثأر لحسابه كاملة.

تجمعت الفرق على الضفة الأخرى من النهر. كانت الخيول تصهل في الظلام، وكأنها تتوقع الصدمة التي سيصاب بها الجيش الذي يطاردهم. كانوا قد هربوا خمسة أيام. وأخيراً، حان وقت التوقف ورد الصاع صاعين. في الدجنة، تمكن تسوبودي من رؤية باتو وهو يكشر ويقترب منه على صهوة حصانه، لكنه أبقى وجهه صارماً.

"يجب على فرقك أن تضرب طليعة معسكرهم يا باتو، حيث يرتاح ملكهم. هاجمهم في نومهم ودعهم. وإذا استطعت الوصول إلى أسوار أكياس الرمل، فمزقها إرباً. اقتربْ بحدود قدر المستطاع، ثم دع سهامك وسيفك تتكلم نيابة عنك."

رد باتو: "كما تشاء يا أورلوك". للمرة الأولى، لم تكن هناك سخرية حين لفظ اللقب.

"سأنطلق مع فرقتي جيبي وتشولجيني لضرب مؤخرهم في اللحظة نفسها. إنهم واثقون بأننا بعيدون عنهم، ولن يتوقعوا هجومنا الليلية. أسوارهم أسوأ من عديمة النفع، وهم يشعرون بالأمان داخلها. أريد منك أن تجعل الذعر يدب في قلوبهم يا باتو، فكل شيء يعتمد على هزيمتهم بسرعة. لا تنس أنهم لا يزالون يفوقونا عدداً. إذا كانوا يتمتعون بقيادة جيدة، فمن الممكن أن يعيدوا تنظيم أنفسهم حقاً. سترغم على القتال حتى آخر رجل، وستكون الخسائر جسيمة. لا ترمي بجيشي إلى التهلكة يا باتو. هل تفهم؟"

قال باتو: "سأعاملهم وكأنهم أبنائي".

نخر تسوبودي استهزاءً وقال: "انطلق إذا. الفجر على وشك أن يبرغ ويجب أن تكون في موقعك".

راقب تسوبودي باتو وهو يختفي بصمت في الظلام. لم تكن هناك أبواق إشارة أو طبول ضخمة، ليس والعدو قريب جداً ولا يخامره أي شك بشأنهم. انتظمت فرقة باتو في التشكيل من دون ضجيج، وانطلقت الجياد تجري خبيماً نحو المعسكر المنغاري. كانت عربات المغول وخيامهم والجرحي قد بقوا في الخلف مع المحندين، وثرخوا ليدافعوا عن أنفسهم. لم تكن الفرق مثقلة بأعباء إضافية، وبإمكانها الانطلاق بسرعة والضرب بقوة، كما تشاء.

أوما تسوبودي لنفسه بخدة. كان عليه أن يجتاز مسافة أطول من فرقة ساتو والوقت قصير. لذا، امتطى حصانه بسرعة، وشعر بأن قلبه يخفق بقوة أكبر في صدره. كان نادراً بالنسبة إليه أن يشعر بالإثارة، ولم يظهر أي انفعال على وجهه حين قاد الفرقتين إلى الغرب.

استيقظ الملك بيلا فجأة فزعاً على صوت تحطم، ووجد نفسه يتصبب عرقاً. فرك عينيه حين وقف محاولاً التخلص من الكابوس. وسط كابوسه المشوش، استطاع سماع أصوات اشتياك وصرخات معركة حين طرف بعينه، وأدرك أن الأصوات حقيقية. شعر بخوف مفاجئ، ودفع رأسه خارج خيمة القيادة. كان الجو لا يزال مظلماً، لكنه رأى كونراد فون ثورينجن على صهوة حصانه، مرتدياً درعه آنذاك. لم يبق قائد الفرسان الجرمان بيلا حين تجاوزه على صهوة حصانه خبيماً، وهو يصرخ بأوامر لم يستطع الملك تمييزها بسبب الجلبة. كان الرجال يجرون في كل الاتجاهات، وسمع وراء أكياس الرمل أبواق معركة تصدح من بعيد. ابتلع بيلا ريقه بصعوبة حين تعرف القعقة البعيدة التي تصبح أعلى وأوضح مع مرور كل لحظة.

أطلق لعنة واستدار عائداً إلى خيمته وهو يتحسس المكان حوله بحثاً عن ملبسه في الظلام. لم يعثر على خدمه في أي مكان، وتعثر بكرسي وهسّ المأ حين لهض. سحب سروالاً عن ظهر كرسي سقط على الأرض وارتداه على عجل، لكن ذلك استغرق وقتاً طويلاً. أمسك بالسترة المطرزة التي تحمل رتبته، ووضعها فوق كتفيه وهو يخرج مسرعاً إلى الليل. كان حصانه قد أحضر فامتطاه، فهو يحتاج إلى الارتفاع ليرى ما حوله.

كانت أضواء الفجر الأولى قد بزغت فوقهم في تلك اللحظة، والسماء إلى الشرق تصبح باهتة، وتمكّن بيلا مذعوراً من رؤية صفوفه تغلي في فوضى عارمة. كانت أكياس الرمل هناك قد وقعت على العشب، فأضحت أسوأ من كونها عديمة الفائدة. وكان رجاله يتراجعون عبر الثغرة، يدفعهم الخيالة الممحيون وسهام تقتلهم في الخارج. سمع فون ثورينجن بصرخ بالأوامر إلى فرسانه حين انطلقوا لمساندة الدفاعات هناك، وأدرك أنّ هناك أملاً ضعيفاً.

بدأ قرع الطبول مجدداً، وأدار الملك حصانه في مكانه، وعرف أن المغول في مكان ما خلفه. كيف عبروا النهر؟ كان ذلك مستحيلاً، لكن الطبول قعقت وأضحت أصواتها أقوى.

انطلق بيلا عبر المعسكر مذهولاً، مفضلاً أن يتحرك بدلاً من أن يبقى ساكناً في مكانه، رغم أن ذهنه لم يقوَ على استيعاب ما يحدث. كان الفرسان قد اخترقوا حدود معسكرهم في مكانين، وتدفقوا عبرهما إلى ما بدا أنه بر الأمان. استطاع بالكاد أن يستوعب الخسائر التي لحقت بهم نتيجة تراجعهم بتلك الطريقة.

عندما كان يراقب، اتسعت الثغرتان، وحشر المزيد من الرجال أنفسهم خلف أكياس الرمل. وراءهم، استمر المغول بمهاجمة رجاله المرتبكين، وهم يفتكون بهم بالسهام والرماح. في الضوء المتزايد بدأ أن لا نهاية لهم، وتساءل بيلا إن كانوا قد أخفوا بطريقة ما جيشاً آخر حتى تلك اللحظة.

كفاح بيلا للبقاء هادئاً حين ازدادت القوضى حوله، وعرف أن عليه استعادة السيطرة على الحد الخارجي؛ لتأمين المعسكر وتنظيم رجاله داخل الأسوار. من هناك، سيتمكن من تقويم الخسائر، وربما حتى البدء بهجوم مضاد. صرخ بالأمر إلى السعاة الذين سرعان ما انطلقوا على صهوات خيولهم بين الفرسان الذين يتحركون كيفما اتفق، وهم يصيحون بالكلمات إلى أي شخص يمكنه سماعها: "أعيدوا بناء الأسوار. دافعوا عن الأسوار". إذا استطاعوا فعل ذلك، فربما سيتمكن من الحيلولة دون تحول الموقف إلى كارثة، وسيفرض ضباطه النظام على تلك القوضى، وسيتمكن من ردّ الفرق على أعقابها.

سمعه الفرسان بقيادة جوزيف لاندوا، وانتظموا في تشكيلهم، ثم شتوا هجوماً معاكساً عبر المعسكر بكتلة متماسكة. كان هناك مغول على الأسوار يحلّل ذلك الوقت، وطنّ وابل من السهام في أرجاء المخيم. وفي مثل ذلك الهجوم، لم يكن هناك داعٍ إلى التسديد الدقيق. لم يصدّق بيلا الخسائر، لكن الفرسان كافحوا للتقدم مثل رجال مهووسين، وهم يعرفون مثله تماماً أن الأسوار وسيلة بخائهم الوحيدة. قاد كونراد فون ثورنجن مئة من رجاله المدرّعين، وبدأ تمييز القائد الضخم أمراً سهلاً بفضل لحيته وسيفه الطويل.

أثبت له الفرسان كفاءتهم آنذاك، فقد بعث لاندائو وفون ثورينجن المغول الذين يجرأوا على دخول المعسكر، وجعلوهم يتراجعون نحو الثغرتين الواسعتين في الأسوار. قاتلوا بغضب مبرر أخلاقياً، ولم تكن لدى المغول مساحة للمناورة والاندفاع خلفهم. راقب بيلا ويده على قلبه الفرسان الجرمان وهم يستدون إحدى الثغرتين بخيولهم، ويرفعون تروساً ضد السهام التي لا تزال تنهمر عليهم. أصاب شيء ما لاندائو، ولح بيلا رأسه يتدلى رخواً حين انطلق حصانه مبتعداً. للحظة، كافح الفارس وتأرجحت ذراعه، ثم سقط على الطين اللزج عند قدمي بيلا تقريباً. كان هناك دم يسيل من تحت الصفائح الحديدية، لكن بيلا لم يستطع رؤية أي جرح. علق لاندائو في درعه واختنق داخلها، ومات ببطء، وضرب جثته أولئك الذين يجرون حوشا وفوقها.

تدافع رجال لا يمتطون خيولاً نحو أكياس الرمل، وأعادوا بناء الأسوار بأسرع ما يستطيعون. جاء المغول مجدداً، واستخدموا خيولهم للوصول إلى الأسوار ثم القفز من فوقها، لكنهم سقطوا على الأرض وهم يتدحرجون. وواحداً تلو الآخر، قُتل هؤلاء المتطفلون، وقضى عليهم الفوج نفسه من الرماة الذي هاجم الجسر في الليلة السابقة. بدأ بيلا يتنفس بسهولة أكبر مع تراجع تهديد الإبادة الوشيكة، فقد أصلحوا الأسوار، وأعداؤه يصرخون خارجها. كانت خسائر جسيمة قد أصابتهم، رغم أنها لا ترقى إلى ما لحق بصفوفه، وشكر الله لأنه نصب معسكراً كبيراً بما فيه الكفاية لحماية رجاله.

حدّق الملك بيلا إلى أكوام جثث الجنود والخيول الميتة المكدسة بجانب الزوايا، ورأى أنها مملوءة سهاماً، وبعضها لا يزال يخنلج. كانت الشمس عالية، ولم يصدّق أن الوقت قد انقضى بسرعة منذ أول إنذار بالخطر.

من حيث يجلس على صهوة حصانه، رأى أن المغول لا يزالون يندفعون مقتربين من الأسوار. لم تكن هناك إلا بوابة واحدة فقط، وأرسل رماة حمايتها من هجوم آخر. شاهد فون ثورينجن وهو يجمع فرسانه هناك في رتل، ولم يسع بيلا إلا أن يراقبهم وهم ينزلون حوذهم ويغطون وجوههم ويجهزون رماحهم. عندما صرخ فون ثورينجن، فتحت البوابة على مصراعها، وركل نحو ستمئة فارس خيولهم لتعدو خبيأً، وانطلقوا نحو العاصفة؛ ظن بيلا أنه لن يراهم مجدداً.

كان يتمتع بالذكاء ليرسل رماة إلى كل سور مع كنانات مليئة. وفي كل مكان حوله، سمع طنين السهام. تنفس بسرعة أكبر حين سمع صرخات متحشجة من الخارج، وعرف أن الفرسان الجرمان بدأوا هجومهم، وأنهم يقتلون الخيالة المغول، ويستفيدون من وزلمهم وسرعتهم لتمزيقهم إلى أشلاء في حين يجأرون ويصرخون خارج أسوار أكياس الرمل. لم يستطع بيلا أن يكبح خوفه بسهولة، وفي داخل المعسكر، ازدحم الرجال والخيول في فوضى عارمة، لكن عدداً كبيراً من فرسانه قضى نحبه حين كانوا نائمين. في الخارج، سمع بيلا سخرية المغول وهتافاتهم تحمدهم فحاة حين هاجمهم فون ثورينجن بقوة، وشعر بأن أعضائه تهدأ. لم يكن سيهورب من هذا المكان رغم أنهم حاصروه، بل سيموت مع الباقين.

بدا أن وقتاً طويلاً قد انقضى قبل أن يعود فون ثورينجن عبر البوابة، وقد انخفض الرتل اللامع من الفرسان إلى ما لا يزيد على ثمانين، وربما مئة فارس. كان الرجال الذين عادوا منهكين وملطخين بالدماء، وكثير منهم يترنحون على سروجهم وهناك سهام تبرز من دروعهم. شعر الخيالة الهريون بالرهبة من منظر الفرسان، وترجل الكثيرون منهم عن صهوات خيولهم لمساعدتهم على النزول عن السروج. كانت لحية فون ثورينجن ملطخة بدم قانٍ، واتقدت عيناه الزرقاوان غضباً حين وقعتا على الملك الهنغاري.

كان بيلا يحتاج إلى معلومة وبادله النظرة مثل ظبسي يمدق إلى أسد. عبر الحشد المجهد من الرجال، جاء فون ثورينجن مسرعاً، ووجهه متجه مثل وجه الملك بيلا.

كان باتو يلهث حين اقترب على صهوة جواده من تسبودي. وقف أورلوك بجانب حصانه على حيد من الأرض يمتد على طول ساحة الحرب، وهو يراقب المعارك التي أمر بها. كان باتو قد توقع أن يجد أورلوك غاضباً من الطريقة التي يسير بها المحجم، لكن بدلاً من ذلك ابتسم تسبودي حين رآه. فرك باتو كتلة طين التصقت بعنقه وابتسم أيضاً بتردد.

قال باتو: "هؤلاء الفرسان يثيرون الإعجاب".

أوما تسوبودي، فقد رأى العملاق الملتحي وهو يجبر رجاله على التراجع إلى الخلف. كان المحاربون المغول قريين جداً، ولم يستطيعوا المناورة حين خرج الفرسان وشنوا هجومهم. ومع ذلك، لم يجعله الهجوم المفاجئ يفقد رباطة جأشه رغم انضباطه وشراسته. كان الفرسان قد شقوا طريقهم عبر رجاله مثل جزارين لا يتعبون، وأغلقوا الثغرات في صفوفهم بعد أن أصابت السهام بعضاً منهم وجعلتهم يسقطون على الأرض. أخذ كل شخص سقط محاربين أو ثلاثة معه، وهمم وركل حتى تم تثبيتته وقتله.

رد تسوبودي، ورغم أن الهجوم هز ثقته بنفسه: "لم يعد هناك عدد كبير منهم الآن". لم يكن قد غفل عن تهديد الفرسان، لكنه ربما قلل من شأن قوتهم في الزمان والمكان المناسبين. كان ذلك الوغد الملتحي قد استغل اللحظة المناسبة، وقاماً فرقه حين كانت تصرخ ابتهاجاً بالنصر. وعلى الرغم من ذلك، لم ينجح إلا قلّة من الفرسان في العودة من حيث أتوا. عندما بدأ وابل السهام ينهمر من الأسوار، أصدر تسوبودي أمراً بالانسحاب إلى خارج مداها، وقد باشر محاربوه الرد عليها، لكن الوفيات لم تكن متكافئة؛ لأن رماة بيلا أطلقوا سهامهم من خلف سور ثابت من أكياس الرمل. فكّر تسوبودي في شن هجوم آخر لتحطيم تلك الأسوار، لكنه أدرك أن الكلفة ستكون عالية جداً. كان يحاصروهم داخل أسوارهم، وهي أضعف من أي قلعة تشن، وانتابه شك في أن يكون لديهم ماء كافٍ لذلك العدد داخل المعسكر.

حدّق أورلوك فوق السهول ورأى أكوام الجثث، وكان بعض المصابين لا يزالون يزحفون. كان الهجوم قد سحق الجيش الهنغاري، وبعثر الثقة المفرطة بالنفس أخيراً. شعر بالسعادة، لكنه عض شفته حين فكّر في الطريقة التي سيُنهي بها ذلك العمل.

سأل باتو فجأة؛ وكأنه يردد أفكاره من مسافة قريبة جعلت تسوبودي ينظر إليه مندهشاً: "إلى متى يمكنهم الصمود؟".

قال: "بضعة أيام قبل أن ينفد منهم الماء، ليس أكثر. لكنهم لن ينتظروا حتى ذلك الوقت. السؤال الأهم هو كم عدد الخيول، والسهام والرماح التي بقيت لديهم؟ وكم بقي من أولئك الفرسان اللعينين؟".

كان وضع تقييم جيد أمراً صعباً، فالجثث متناثرة في المراعي، لكنه لم يعرف عدد الذين نجوا ليصلوا إلى ملكهم. أغمض عينيه لحظة، ليستجمع صورة الأرض وكأنه يطير فوقها. كان يتحدث الأفل خيرة لا يزالون على الضفة الأخرى من النهر، ويحدقون بنجث من دون شك إلى القوة العسكرية الصغيرة التي استولت على الجسر وتسيطر على الضفة المقابلة. كان معسكر الملك يقع بين تسوبودي والنهر، محاصراً ومحتجزاً في بقعة واحدة.

مرة أخرى، عكس باتو أفكاره.

قال باتو: "دعني أرسل ساعياً لإعادة الجنود المشاة عبر النهر."

تجاهله تسوبودي، فلم يكن يعرف بعد عدد المحاربين المغول الذين قُتلوا أو جرحوا ذلك الصباح. إذا كان الملك قد أنقذ نصف جيشه فقط، فسيكون لديه عدد كافٍ لخوض معركة متكافئة، معركة لا يستطيع تسوبودي الانتصار فيها إلا بعمل فرقه نخوضها بشراسة. كان الجيش الذي أحضره في هذه الرحلة العظيمة سيتضاءل عدده، وسيلقى ضربات موجعة من جيش يمتلك القدر نفسه من القوة والإرادة. لم يكن ذلك نافعاً. أمعن التفكير في الأمر، ثم فتح عينيه ليحدق إلى الأرض حول المعسكر. ابتسم ببطء، لكن لم يستبق باتو أفكاره هذه المرة.

"ما الأمر يا أورلوك؟ هل أرسل ساعياً عبر المكان الضحل في النهر؟"

"نعم، أخبرهم أن يقتلوا رجال الملك على الضفة الأخرى من النهر. يجب أن

تستعيد الجسر يا باتو. لا أريد أن يرسل الملك رجالاً إلى النهر لجلب الماء."

ضرب تسوبودي حذاه على الحيد الصخري تحته وقال: "عندما يحين الوقت

المناسب، سأسحب فرقي مسافة أبعد، ميلاً آخر من هذه النقطة. سيؤثر العطش في قرارهم."

لم يسمع باتو إلا أن ينظر إليه مختاراً، في حين أظهر تسوبودي أسنانه في ما بدا

أفها تكشيرة.

الفصل الثاني والثلاثون



كان تيموج يتعرق، رغم أن الهواء بارد في ساحة القصر. واستطاع أن يشعر بالنصل القاسي للسكين التي أخفاها تحت ثوبه. لم يُفتش الرجال الذين استدعوا ذلك الصباح، لكنه احتاط للأمر بأن أخفى السلاح تحت ثيابه حتى احتك بأعلى فخذه وجعله يغير مركز ثقله.

من بعيد، استطاع تيموج سماع أصوات المطارق التي تملأ أيامه. استمر تحصين كاراكوروم ليلاً ونهاراً، وسيضي على قدم وساق حتى تُشاهد رايات تشاغاتي في الأفق. إذا جعلت سورتهاني وتوروجين المدينة تصمد وقتاً طويلاً بما فيه الكفاية حتى عودة غويوك، فسُيُنَى عليهما أكثر من كل النساء، وسيكلم الرجال عن الطريقة التي حصنتا المدينة بها ضد الحرب لأجيال قادمة، وسيُنسى اسم تيموج القيم على مكاتب الخان.

حدّق إلى سورتهاني ببرودة وهي تخاطب الحشد الصغير. كان ألخون موجوداً هناك بوصفه القائد الأعلى لحراس الخان. شعر تيموج بأن الرجل ينظر إليه على نحو غريب لكنه تجاهله، وتنفس بعمق الهواء البارد، وهو يفكر، ويخطط، ويقرر. كان شقيقه جنكيز قد دخل مرة خيمة خان وحزّ عنقه، ولم يكن يُتوقع له أن ينحو من ذلك، لكنه أسكت قبيلة الرجل بكلمات ولتهديدات. كان الحشد قد توقف عن الإصغاء، وتحرق تيموج شوقاً لفكرة أن يتوقف الرجال والنساء في الساحة عن الكلام ليصغوا إليه.

تحسّس بإصبعه مقبض السكين تحت ثيابه. لم يكن هناك مصير في الحياة، ولا شيء أكثر مما يمكن للإنسان الحصول عليه والاحتفاظ به لنفسه. كان تيموج شاهداً على الولادة الدموية للأمة، وسواء أفهموا ذلك أم لا، فإنهم سيدنون له بمدبتهم،

وحياتهم، وكل شيء آخر. ولولا جنكيز، لكان الرجال والنساء في هذه الساحة الباردة لا يزالون رعاة ماعز وضيعين في السهول، وكل قبيلة تنقض على الأخرى. كانوا يعيشون لمدة أطول من الرجال والنساء الذين عرفهم حين كان صبيًا. وقد أنقذ أطباء تشن والأطباء المسلمون الكثيرين منهم من الأمراض التي كانت فتاكة سابقاً.

على الرغم من الغضب العارم، كان جزء منه لا يزال خائفاً مما خطط له. مراراً وتكراراً، ترك تيموج كفيه مفتوحين، وأحمر نفسه أن اللحظة قد انقضت: لحظته في التاريخ. ثم كانت ذكرى أشقائه تطفو إلى السطح مجدداً ويشعر بهم يهزأون من ترده. كانت مجرد مبة، ولا شيء أكثر، وبالتأكيد لا شيء أكثر ليفقد شجاعته بتلك الطريقة. أحس بالعرق يسيل على عنقه ومسحه بطريقة لفتت انتباه يابوشو. التقت عيولهما، وتذكر تيموج أنه لم يكن وحيداً في مكيدته. بدأ المستشار أكثر من منفتح لتقبل الأمر، فهو يخفي كراهية شديدة لسورھتاني جعلت تيموج يكشف أفكاراً وأحلاماً أكثر مما قد خطط له.

صرفت سورھتاني ضباط كاراكوروم إلى أعمالهم اليومية، وبدأت تستدير مبتعدة بصحبة توروجين وهما تناقشان بعض التفاصيل.
قال تيموج: "لحظة يا سيدني".

بدأ أن فمه يتحرك رغماً عن إرادته، ويصق الكلمات منه. كانت سورھتاني على عجلة من أمرها، وبالكاد أشارت إليه لكي يتبعها وهي تنزل الدرج، ومشت في الرواق المسقوف عائدة إلى غرف القصر. جعلته تلك الإيماءة المقتضبة يتقد غضباً. كان وجود مثل هذه المرأة التي تعامله وكأنه تابع كافياً لجعل وجهه يتورد غيظاً. أسرع ليلحق بالمرأتين، مستمداً القوة من وجود يابوشو الذي يتبعهما. نظر إلى الخلف نحو الساحة المكشوفة حين أصبحوا في الظل، وعبس حين رأى أن الخنون لا يزال هناك، يحدق إليه.

كانت سورھتاني قد اقتربت غلطة بتركة يقترب منها كثيراً في الظلال. مدَّ يده وأمسك ذراعها، لكنها أفلتت من قبضته.

قالت بمحذرة: "ماذا تريد يا تيموج؟ لدي ألف شيء أفعله هذا الصباح".
لم يكن هذا وقت الكلام، لكنه تكلم ليمرر اللحظة فيما كان يمد يده إلى السكين تحت ثوبه.

قال: "لم يكن شقيقي جنكيز ليرغب في أن تحكم امرأة أراضيه".
تسمرت في مكانها حين أخرج السكين. شهقت توروچين وتراجعت خطوة
إلى الوراء، مذعورة آنذاك. اتسعت عينا سورھتاني ذهولاً، وأمسكها تيموج من
يدها اليسرى وأعاد يده إلى الخلف ليظعن الخنجر في صدرها.
شعر بذراعه تُمسك بقوة جعلته يرتبك ويصرخ. أمسكه ياو شو، وبدت عينا
الرجل باردتين ازدرأء. جذب تيموج ذراعه بعنف، لكنه لم يستطع تحرير نفسه،
واتشتر الذعر في صدره، وجعل خفقان قلبه يضطرب.
قال: "لا". كان اللعاب قد تجمّع عند زاويتي فمه، ولم يستطع فهم ما
يحدث.

قالت سورھتاني: "كنت محقاً بالحصلة يا ياو شو". لم تنظر إلى تيموج؛ وكأنه
لم يعد مهماً على الإطلاق. "أسفة لأنني شككت فيك، لكنني لم أظن مطلقاً أنه
يمكن أن يكون غيباً جداً حقاً".
شدّ ياو شو قبضته وسقطت السكين مصدرة صوتاً قوياً لدى ارتطامها
بالأرضية الحجرية.

رد: "لطالما كان رجلاً ضعيفاً". هزّ تيموج فحاة، وجعله يصرخ خوفاً
وذهولاً. "ماذا تريدان أن نفعل به؟".

تردّدت سورھتاني، فيما كافح تيموج للإفلات من هذا الموقف وقال: "أنا
آخر أشقاء جنكيز. ومن أنتم؟ من أنتم لتنصبوا أنفسكم قضاة علي؟ راهب تشن
وامراتان. لا حق لكم لتحكموا علي".

تابع ياو شو وكان تيموج لم يتكلم: "إنه لا يمثل تهديداً. يمكنك نفيه من
الإمارة، وإرساله بعيداً مثل أي متجول".

قالت توروچين: "نعم، أرسله إلى مكان ما". كانت ترتعش كما رأى
تيموج.

شعر تيموج بنظرة سورھتاني تستقر عليه، وسحب نفساً طويلاً ببطء وهو
يعرف أن حياته معلقة بين يديها.

قالت أخيراً: "لا يا توروچين. يجب معاقبته لإقدامه على مثل هذا الفعل. لم
يكن ليرحمنا".

انتظرت في حين أطلق تيموج الشتائم وقاوم، مما منح سورهنائي وقتاً كافياً لتقرر. هزت ثوروجين رأسها ومشت مبتعدة، وعيناها تفيضان دموعاً.

قالت سورهنائي: "سلمه إلى أخون".

صرخ تيموج طالباً المساعدة وبالساً فجأة، وهو يتلوى تحت القبضة التي جعلته ضعيفاً مثل طفل.

قال بسرعة: "كنت هناك حين وجدناك في الغابة يا ياو شو! أنا من أعدتلك إلى جنكيز. كيف يمكن أن تترك امرأة ابن شقيقي تأمرك؟".

قالت سورهنائي: "اطلب من أخون أن يجعل ذلك سريعاً. هذا ما يمكنني فعله من أجله".

أوما ياو شو فمشت مبتعدة، وتركت الرجلين وحدهما. انغار تيموج حين سمع وقع خطوات تقترب، ورأى أخون يتقل من ضوء الشمس إلى ظل الرواق المسقوف. قال ياو شو: "هل سمعت ذلك؟".

كان الغضب يبدو في عيني القائد حين أمسك بكفتي تيموج. وشعر بعظام الرجل العجوز تحت القماش.

قال: "سمعت". كان يحمل سكيناً طويلة في يده.

قال تيموج: "اللعة على كليكما. اللعة عليكما في الجحيم".

بدأ تيموج يركي حين جرُّ إلى ضوء الشمس.

بحلول اليوم الثاني بعد ليلة الهجوم، كان رجال بيلا قد أصلحوا أسوار أكياس الرمل باستخدام عربات محطمة وسروج حصلوا عليها من حيول نافقة. بقي رماته على استعداد دائم، لكنهم كانوا عطشى وبمجهدين. لم يكن هناك ماء يكفي إلا لتناول جرعة واحدة في الصباح وأخرى في المساء لكل رجل، وكانت الخيول تعاني، وبيلا يشعر باليأس. وضع الملك ذقنه على كيس قنب خشن، وهو يحدق إلى جيش المغول الذي تحيم في مكان قريب. كانوا بالطبع يستطيعون الوصول إلى النهر وشرب قدر ما يستطيعون من الماء.

عندما حدق إلى المرعى، كافح بيلا شعوره باليأس. لم يعد يفكر في أن التقارير التي وردته من الشمال مبالغ فيها. فعلى الرغم من أن عدد رجال القائد

المغولي أقل بكثير مما لديه، إلا أنهم هزموا قوة متفوقة بعرض للمناورة والتكتيكات جعله يترقى من الداخل. وفي ما يتعلق بباقي ذلك اليوم الأول المرعب، كان بيلا قد توقع هجوماً شاملاً على المعسكر، لكن شيئاً لم يحدث، وشعر بأنه عالق هناك، ومحاصر بين عدد كبير من الرجال والخيول التي لا تستطيع أن تتحرك بسهولة. لم يفهم سبب عدم شتّهم هجوماً؛ إلا إن كانوا يجدون متعة فاسدة في رؤية ملك يموت عطشاً. لم يكونوا حتى يهددون المعسكر، وقد تراجعوا إلى ما وراء مدى السهام. لم يكن في وسع بيلا إلا أن يراقب تحركاتهم من بعيد، وبدأ أن إحساساً زائفاً بالأمان يغمره حين رأى أنهم يعيدون عنه كثيراً. كان يعرف من التقارير ومن تجاربه الخاصة المريعة أن بمقدورهم أن يتحركوا بسرعة لا تُصدّق إذا أرادوا ذلك.

ترك كونراد فون ثورينجن فرصانه ليقترب منه. كان الرجل قد مزّق صفائح درع صدره، وكشف عن ذراعين مجروحتين وسترة عليها خطوط متقاطعة؛ ملطحة ومتسخة. استطاع بيلا أن يشم رائحة العرق والدم العالقة به. بدأ وجه القائد متحهماً، ولم يستطع بيلا أن ينظر إلى عينيه بسهولة حين اتحنى فون ثورينجن بتكلف.

قال فون ثورينجن: "يظن أحد رجالي أنه قد وجد طريقة للخروج من هذا المأزق".

طرفت عينا الملك بيلا، فقد كان يتضرّع من أجل النجاة، لكنه لم يتوقع أن تكون الاستجابة عبر هذا الرجل الضخم الملتحي أمامه، الذي لا يزال متسخاً بدم شخص آخر.

قال بيلا وهو يقف ويشدُّ كتفيه تحت عيني الفارس المتفحصتين: "ما هي؟".

رد فون ثورينجن: "رؤية ذلك أسهل يا صاحب الجلالة".

من دون كلمة أخرى، استدار القائد ومشى عبر حشد من الخيول والرجال.

لم يكن في وسع بيلا إلا أن يتبعه، وقد ازداد استياؤه.

لم تكن رحلة طويلة، لكن الملك شق طريقه بصعوبة بين الرجال، وبالكداد تفادى السقوط أرضاً حين رفع حصانه قائمته الأماميتين. تبع فون ثورينجن إلى قسم آخر من السور، ونظر إلى حيث أشار القائد.

قال فون ثورينجن بفظاظة: "هل تراهم هناك؟ لهم ثلاثة من رجالي".

حدّق الملك بيلا من فوق السور ورأى ثلاثة فرسان كانوا قد نزعوا دروعهم، إلا أنهم لا يزالون يرتدون سترات قصيرة صفراء وسوداء تميّز تنظيمهم. استطاع رؤيتهم بكل وضوح من حيث يقف على أسوار أكياس الرمل، لكن بيلا شاهد كيف تنخفض الأرض قبل أن ترتفع إلى مخيم المغول، ولاحظ وجود حَيَد صخري يمتد غرباً. ارتفعت آماله كثيراً حين فكّر في الاحتمالات.

"لا يمكن المخاطرة بالخيول في وضع النهار. لكن في الليل، يستطيع كل رجل هنا الخروج على صهوة حصانه والمرور بجانب ذلك الحَيَد. وبقليل من الحظ، وإذا أبقوا رؤوسهم منخفضة، فسيجد المغول معسكراً خالياً غداً صباحاً".

عض بيلا شفته، خائفاً فجأة من مغادرة الأمان الهش لمعسكره.

سأل: "أليست هناك طريقة أخرى؟"

قطّب كونراد فون ثورينجن جبينه كثيراً، حتى التقى حاجباه.

"ليس من دون إمدادات ماء، ومعسكر أكبر بكثير، ومواد نحتاجها للأسوار. نحن محاصرون هنا، وسنكون عديمي الفائدة إذا شنوا هجوماً. كن شاكراً لأنهم لم يدركوا بعد ضعفنا يا صاحب الجلالة. لقد أرانا الله الطريق، لكن ينبغي أن تصدر الأمر".

"ألا يمكننا أن نهمهم في معركة يا فون ثورينجن؟ بالتأكيد هناك مساحة لتنظيم تشكيل في الميدان".

سحب قائد الفرسان الجرمان نفساً ليسيّط على غضبه، فلم يكن يُفترض أن يكون الشخص الذي يعرف الأراضي حول لهر ساجو، أو الذي يجب أن يتوقع رجاله وجود مكان ضحل على بعد بضعة أميال في اتجاه مجرى النهر. كان اللوم في تكبدهم هذه الخسائر الجسيمة يقع على عاتق الملك، وليس على فرسانه، وبدا أن هذا كل ما يستطيع فون ثورينجن فعله ليبقى مهذباً.

"يا صاحب الجلالة، سيتبعك فرساني إلى الموت. أما الباقون فهم - حسناً - رجال خائفون. استغل هذه الفرصة ودعنا نتعد عن هذا المعسكر اللعين. سأعثر على مكان آخر حيث يمكننا الانتقام من رعاة الماعز هؤلاء. انسن أمر المعركة يا صاحب الجلالة، فلا يمكن أن نخسر حرباً بسبب يوم سيء واحد".

وقف الملك بيلا وهو يدير خاتماً يضعه في إصبعه مراراً وتكراراً. انتظر فسون ثورينجن وهو نافذ الصبر، لكن الملك أوما في نهاية المطاف.
"حسناً، عندما يتخيم الظلام تماماً سنرحل".

استدار فون ثورينجن مبتعداً، وهو يصدر أوامر للرجال حوله. كان سينظم الانسحاب، ويأمل ألا يقترب أي مستطلع مغولي كثيراً من الخيد الصخري تلك الليلة.

عندما غربت الشمس، أصدر فون ثورينجن الأمر بمغادرة المعسكر. كانوا قد قضوا الساعات الأخيرة في لفت قماش حول حوافر الجياد؛ كي لا تحدث صوتاً، رغم أن الأرض طرية كفاية. راقب الفرسان الجرمان أول الرجال وهم يغادرون مهدوء في الظلام ويبدأون السير مع أحصنتهم بجانب الخيد الصخري، وقلوبهم تخفق بقوة من فكرة انطلاق صرخة من العدو، لكنهم لم يسمعوا شيئاً وتحركوا بسرعة. كان الفرسان آخر من غادروا المعسكر، وتركوه مهجوراً تحت ضوء القمر.

استطاع فون ثورينجن رؤية نيران مخيم المغول من بعيد وابتسم منهكاً، وهو يفكر في عثورهم على المعسكر سخاوياً في الصباح. كان قد أخبر الملك بالحقيقة، وعلى الرغم من فداحة الخسائر، إلا أنهم سيحفظون بأيام أخرى؛ حتى إذا لم ينجز شيئاً أكثر من العثور على ميدان جيد للمعركة، فسيكون ذلك أفضل من المسوت عطشاً خلف أكياس رملية.

بانقضاء الليل، فقد فون ثورينجن أثر حشد الرجال أمامه. كانت الأميال الأولى مليئة بالترقب. لكن، عندما أصبح المعسكر بعيداً، امتدت الصفوف في رتل طويل من الرجال مسافة أميال، والأسرع منهم يتقدم على المصاب والبطيء. شعر الجميع؛ حتى فرسانه برغبة معمومة في توسيع المسافة بينهم وبين جيش المغول.

تألم قائد الفرسان الجرمان من الضربات الكثيرة التي تلقاها، وعرف فسون ثورينجن أن جسده سيكون كتلة ملوثة من الكدمات تحت درعه بسبب ضربات السهام. كان هناك دم في بوله. وعندما انطلق في الظلام، فكر في كل ما قد شاهده ولم يستمع الاستنتاجات التي توصل إليها. كان هناك سبب آخر للحفاظ على الجيش المخزي ليخوض قتالاً مجدداً. فإذا كانت التقارير الواردة من الشمال

صحيحة، فسيكونون آخر جيش بين هنغاريا وفرنسا لديه فرصة في إيقاف الغزو المغولي، وقد أُرعبته الفكرة بحد ذاتها. لم يكن قد فكّر مطلقاً في رؤية مثل ذلك التهديد في حياته. كان ينبغي لنبلأء روسيا أن يحرقوا ذلك الجيش إرباً، لكنهم فشلوا ورأوا مدتهم تحترق.

فكّر فون ثورينجن بحمارة في أنه يجب إبلاغ لويس ملك فرنسا، والأهم أنه ينبغي تنحية الصراع على السلطة بين البابا والإمبراطور الروماني المبحّل جانباً، فلم يكن أي منهما بأمان إلى أن يتم تدمير العدو الحقيقي. هزّ فون ثورينجن رأسه وحثّ حصانه على الهرولة مجدداً في مكان ما أمامهم، انطلق ملك هنغاريا مع حراسه الشخصيين، وقد تمّنى فون ثورينجن أن يحظى بقائد أفضل آنذاك، لكن هذا الملك هو من حظي به. لم يكن ليفشل بعد معركة خاسرة واحدة. فقد سبق له أن تعرّض هزائم من قبل وعاد دائماً ليرسل أرواح أعدائه وهي تصرخ إلى الجحيم.

كانت أضواء الفجر تبرز، ولم يسع فون ثورينجن إلا أن يختمن المسافة التي اجتازها في الليل. كان منهكاً تماماً، كما كان حلقه جافاً، وقد نفذ الماء منهم منذ وقت طويل. وعرف أن عليه أن يبحث عن النهر حين يصبح الضوء كافياً لتزويد الخيول والرجال ببعض القوة. مدّ يده إلى الأسفل، وربت على عنق حصانه حين فكّر في ذلك وهو يتمتم بكلمات الارتياح. إذا كان الله معهم، فلن يدرك المغول أنهم قد ذهبوا طوال الصباح أو أكثر. ابتسم حين فكّر في انتظار المغول بفارغ الصبر أن يدفع العطش المجرين إلى أحضانهم، وأدرك أن انتظارهم سيطول.

تلاحقت المهمّات التي يجب أن ينقلها في ذهنه حين بدأ الضوء يتحول من الرمادي الفضي إلى الذهبي. كانت الأولوية إيجاد لحر والشرب حتى الثمالة. وجعله التفكير في الماء العذب يحرك شفّيته، وينظفهما.

عندما انتشر الضوء على الأرض، رأى فون ثورينجن خطأ داكناً في الجهة اليمنى. ظنّ في البداية أن ما يراه هو الأشجار، أو طبقة من الصخر تبرز فوق سطح الأرض. ثم بعد لحظة، تفككت الأشكال فتحمد، وشدّ لجام حصانه.

اصطف محاربون مغول على طول الدرب، وهم يرفعون أقواسهم مستعدين لإطلاق سهامهم. حاول فون ثورينجن أن يبلع ريقه، لكنه اكتشف أن حلقه جاف جداً. طاف بصره على طول الصفوف، ورأى رتلاً من الرجال أمامه. بحق الله، لم

يكن هناك حتى شخص يتفخ بوق تحذير! اقترب بعض فرسانه منه وشدوا أيضاً
الجملة أحصنتهم، وهم ينظرون إليه نحو الخلف في إدراك منحهم.
بقي العالم ساكناً وقتاً طويلاً، وتضرع فون ثورينجن بصمت ووجد السكينة
في نفسه. قبل الخاتم الذي يضعه للمرة الأخيرة، ثم حث حصانه على الاندفاع إلى
الأمم ومد يده إلى سيفه، وعندها بدأت السهام تطير. أطلقت السهام الأولى عويلاً
عبر الهواء، وبدا صوتها مثل أصوات أطفال يصرخون. هاجم المغول الرتل الرفيع
والمبعثر من الجنود الممارين وبدأت المعركة حقاً.

عاد بايدور والوحي إلى هتغاريا ليجدا تسوبودي يرتاح مع فرقه. كان الفرع
بالانتصار واضحاً للعيان على كل وجه شاهدها، ولقيا ترحيباً بالطبول والأبواق.
عرفت الفرق وكذلك تسوبودي الدور الذي لعبه بايدور في تحقيق الانتصار فهتفت
ابتهاجاً به حين دخل المعيم حول الدانوب.
كانت مدينتا بودا وبست قد استبيحتا طوال أيام، ثم سلب منهنما أي شيء
يحتاجون إليه أو يرغبون فيه. قاد بايدور حصانه هرولة في الشوارع بين بيوت شبه
محترقة، ورأى حجارة ساخنة كفاية تحطم إلى أنقاض على الطريق المكشوف.
وعلى الرغم من أن الملك بيلاق قد هرب، إلا أنهم أبادوا جيش هتغاريا بأعداد أكبر من
أن تُحصى. كان مدونو تسوبودي قد جمعوا أكياساً من الأذان، وتكلم بعضهم عن
ستين ألف قتيل أو أكثر. وصل المستطلعون إلى أماكن أبعد غرباً، لكن لم يكن
بمقدور الفرق أن يرتاح في الرحلة العظيمة إلا لمدة قصيرة فقط، لتستعيد قوتها
وعافيتها نتيجة تناول اللحم الدسم والشراب المسروق.

أرسل تسوبودي خيالة إلى غويوك ومونغكي لاستدعائهما إليه، فقد انتهت
غارات الجناحين واختار أن يجمعهم كلهم في مكان واحد، استعداداً للاندفاع
وصولاً إلى البحر.

كان باتو قد رأى الخيالة وهم يخرجون، لذا تفاجأ حين نقل أحد رجاله
إليه نبأ مجيء الفرقتين من الجنوب. بدا أن الوقت باكر جداً على وصول أوامر
تسوبودي إلى غويوك. لذا، استدعى بايدور، وانطلقا على سهوتي حصانتهما
إلى حارج المعيم.

كانا من بين الأوائل الذين تعرّفوا رايات فرقة غويوك. وضحك باتو حين شاهدها، ودفع بعقبه ردف حصانه الذي جرى خيباً عبر المرعى الشاسع. كانت هناك قصص كثيرة ليحكيتها، وتوقع أمسيات لن يستطيع عدّها كلها. عندما اقترب مع بايدور، لم يلحظ أي من الرجلين في البداية التعبيرات المتجهمة على وجوه المغاريين العائدين. لم يكن هناك ما يشير إلى الفرح في فرقتي غويوك ومونغكي، وبدا غويوك خاصة أكثر تجهماً مما رآه باتو من قبل.

قال باتو وابتسامته تتلاشى: "ما الأمر يا ابن عمي؟".

أدار غويوك رأسه، وراى باتو أن عينيه محتقتان وتبدوان حزيتين.

قال غويوك: "مات الخان".

هزّ باتو رأسه متسائلاً: "والدك! كيف؟ كان لا يزال شاباً".

نظر غويوك إليه من تحت حاجبين منخفضين، ونطق الكلمات بصعوبة:

"بسبب قلبه. يجب أن أرى تسوبودي الآن".

اتخذ باتو وبايدور موقعيهما إلى جانبه، وقد شحب وجه بايدور وبدا ضائعاً في أفكاره حين انطلقوا على صهوات جيادهم. كان يعرف والده أفضل من أي شخص آخر، وشعر فحاة بالخوف من أن يكون الرجال حوله قد أصبحوا أعداءه.

الفصل الثالث والثلاثون



بقي باتو مع غويوك ومونغكي وبايدور حين دخلوا مدينة بودا التهريسة وشقوا طريقهم عبر شوارعها إلى قصر كان تسوبودي يستخدمه كقاعدة له، وتركوا لقادة وحداتهم أمر العثور على مأوى وطعام للرجال في المدينة المنهوبة. انطلق الأمراء الأربعة إلى القصر الملكي، وترجلوا عن صهوات جيادهم عند البوابة الخارجية، وتجاوزوا الحراس من دون أن يعترض طريقهم أحد. ألقى ضباط أورلوك نظرة واحدة عليهم، واختاروا التصرف بحذر عوضاً عن التقيّد بأوامرهم بخذافيرها.

للمرة الأولى، قاد غويوك المجموعة الصغيرة، ومشى باتو بخطوات واسعة بجانب كتفه اليمنى. وجدوا تسوبودي في قاعة رقص خاوية، جرّت إليها طاولة طعام ضخمة كدّست عليها خرائط وأوراق. كان أورلوك مستغرقاً في حديث مع جيبي وتشولجيتي وإلوجي، والرجلان الآخران يومئذ لسي قيام تسوبودي بتحريك قطع نقدية للدلالة على مواقع الفرق على الأرض. استوعب باتو المشهد في لحة بصر، وابتسم لنفسه بتكلف، فقد كان الاجتماع هذه المرة بين الشباب والشيوخ، ولأول مرة، استطاع أن يتوقع النتيجة.

رفع تسوبودي بصره حين دخل الأمراء القاعة، ووقع خطوطهم يتسردد في المكان. عبس لدى رؤيته تعبيرات وجوههم المتحمة وتراجع عن الطاولة. قال: "لم أستدعكم إلى هنا". كان ينظر إلى باتو، لكن نظرتة انتقلت إلى غويوك على نحو مفاجئ حين أحاب هذا الأخير: "مات والسي يا أورلوك".

أغمض تسوبودي عينيه للحظة، ووجهه صارم، ثم أوماً لنفسه.

قال: "اجلسوا أرجوكم". كانت سلطته متأصلة بعمق فنحرك الأربعة إلى الكراسي حول الطاولة، لكن باتو تأخر عنهم، رغباً في الحفاظ على الزخم الذي جاء معهم. تكلم تسوبودي مجدداً قبل أي شخص آخر.

قال: "هل كان قلبه السبب؟".

سحب غويوك نفساً وقال: "إذاً، كنت تعرف! نعم، كان قلبه".

رد تسوبودي: "أخبرني بذلك حين أخير شقيقه تشاغاني". ووقعت عيناه على بايدور حين استدار غويوك نحوه.

قال بايدور ببرودة: "لا أعرف شيئاً".

استدار غويوك مجدداً، لكن تسوبودي ترك عينيه متسمرتين على بايدور حتى تحرك الشاب في مكانه وهو يشعر بعدم الارتياح.

كان لدى تسوبودي مئة شيء يريد قوله، لكنه سيطر على نفسه بجهد وإرادة.

سأل تسوبودي غويوك: "ما خططك؟". كان جزء منه مهتماً برؤية الطريقة التي سيرد بها غويوك. نظر تسوبودي إلى الأمير الشاب، متفهماً التحفظ الهادئ الذي يراه آنذاك، وشاهد ثقلاً جديداً ملقى على كتفي غويوك، سواء أراد ذلك أم لا.

قال غويوك: "أنا وريث والدي، ويجب أن أعود إلى كاراكوروم".

مرة أخرى، نظر تسوبودي إلى بايدور. كثر أورلوك، لكن كان عليه أن ينطق بالكلمات.

"هل تدرك الخطر الذي يمثله عمك؟ إنه يدعي أحقيته بالإمارة".

لم ينظر أي من الرجلين إلى بايدور حين تورّد.

أمال غويوك رأسه قليلاً وهو يفكر، وشعر تسوبودي بالسعادة حين رأى أنه يزن رده. لم يكن هناك دور للشباب الأحمق الذي كان عليه سابقاً؛ ليس الآن.

قال غويوك: "وصل خيال الخطرة إلى قبل شهر، وقد تستي لي الوقت لأفكر في الأمر. سأطلب قسم الولاء من الفرق هنا".

قال تسوبودي: "يجب على ذلك أن ينتظر. عندما ننهي الأمر ستجمع الأمة كما فعل والدك".

تحرك بايدور مجدداً لكنهم تجاهلوه. لم يكن موقفه مريحاً، لكنه بدا بأسمى الحاجة إلى أن يتكلم.

قال تسوبودي: "يمكن أن تأخذ أربع فرق، وتترك ثلاثاً لي. يجب أن تعود مع القوة لتنقذ الإمارة. لا يستطيع تشاغاي جمع أكثر من فرقتين في الميدان، وربما ثلاث". حدّق إلى بايدور برودة وتابع: "نوصيني أن تترك بايدور معي، بدلاً من إرغامه على الاختيار بين ابن عمّه ووالده". أوماً برأسه لبایدور قائلاً: "أعتذر أيها القائد".

فتح بايدور فمه، لكنه لم يعثر على الكلمات المناسبة. كان باتو من تكلم لاحقاً، لأول مرة. ضاقت عينتا تسوبودي واشتد فكّه فوراً لدى سماعه صوته، وكشف ذلك عن توتر داخلي.

"أنت تعرف الخان تشاغاي أفضل من أيّ منا، باستثناء بايدور. كيف تظن أنه سيتصرف حين يسمع النبأ؟".

لم ينظر تسوبودي إلى باتو حين أجاب، بل ألقى بصره ثابتاً على غويوك. بدا أن كل كلمة ينطق بها تُسحب من فمه رغماً عنه.

"إذا همور، فسيأخذ فرقه إلى كاراكوروم".

رد باتو مستمتعاً بالانزعاج الذي رآه: "إذا همور... فهمت. وماذا سيحدث بعد ذلك حين يعود الخان غويوك إلى الدبار؟".

"تشاغاي إما سيفاوض، أو سيفقاتل. لا أحد يستطيع أن يعرف ما يحصل في ذهنه". شبك تسوبودي يديه على الطاولة، وانحنى مقترباً من غويوك وتابع قائلًا: "صدقني، تشاغاي خان ليس التهديد الذي تظنه".

بدا أنه على وشك متابعة كلامه، غير أنه أمسك فكّه بقوة وانتظر، فالقرار لم يكن ببساطة عسكرياً. ثمكّن باتو من السيطرة على تلوّي شفثته بصعوبة حين رأى تسوبودي مرتبكاً.

ترك غويوك الرجال المتحلّقين حول الطاولة يتعرّفون لبعض الوقت قبل أن يهز رأسه.

"إذا لم تستطع أن تقدم لي شيئاً غير ذلك كضمانة يا أورلوك، فينغسي لي أن أعيد الفرق إلى الدبار؛ كلها". نظر إلى جييسي وتشولجيني، لكن الرجلين الأكبر

سناً لم يكونا جزءاً من القرار. كان تسوبودي يتمتع بالسلطة العليا على الجيش، لكن هذه لم تكن مشكلة عسكرية.

أطلق تسوبودي زفيراً طويلاً وقال: "أيها القائد، لدي خرائط جديدة تظهر أراضي لم نكن نعرفها حتى في الأساطير. مدينة فيينا على بعد مئة ميل غرباً، ووطن فرسان الهيكل ورايها، وإيطاليا إلى الجنوب. حالياً، لدي مستطلعون في الجبال هناك، يخططون للمرحلة التالية. إن هذا إنجاز حيائي". أوقف نفسه حتى لا يتوسل، لكن غويوك حدّق إليه بلا انفعال.

"سأحتاج إلى كل الفرق يا أورلوك تسوبودي، كلها".

"أنت لا تحتاج إلى المجندين. اترك لي هؤلاء فقط وفرقتين وسأمضي قدماً".

بهبط، مدّ غويوك يده وأمسك كتف تسوبودي في إشارة لم يكن ليحلم بها قبل شهر.

"كيف يمكنني أن أتركك في الخلف يا تسوبودي، يا قائد جنكيز خان، في الوقت الذي أحتاج إليك فيه؟ تعال معي إلى الدبار. تعرف أنني لا أستطيع السماح لك بالبقاء. ستعود في سنة أخرى، حين يحل السلام".

حدّق تسوبودي إلى بايدور، وبدا ألمه ظاهراً للعيان بالنسبة إلى الجميع، لكن بايدور أشاح بصره بعيداً حتى لا يراه. وعندما استقرت نظرة أورلوك على ساتو، تألقت عيناه.

قال تسوبودي: "أنا رجل عجوز، وقد شهدت بداية هذا كله، حين كان جنكيز نفسه شاباً. لن أعود إلى هنا مجدداً. لقد تكلمت مع الأسرى، ولا شيء بيننا وبين المحيط، لا شيء. لقد رأينا فرسانهم يا غويوك، هل تفهم؟ لا يمكنهم إيقافنا. إذا مضينا قدماً، فستمكن من الاستيلاء على الأرض، من البحر إلى البحر، إلى الأبد. من البحر إلى البحر أيها القائد. ستكون لدينا عشرة آلاف سنة. هل يمكنك أن تتخيل مثل هذا؟".

قال غويوك بلطف: "هذا ليس مهماً. الوطن حيث بدأنا، ولا يمكن أن أحسر كل ذلك من أجل أراضي هنا". سحب يده إلى الخلف وبدأ صوته ثابناً.

"سأصبح الخان يا أورلوك تسوبودي، وأحتاج إليك معي".

استرخى تسوبودي ببطء على كرسيه، وتلاشى نشاطه؛ حتى إن باتو بدا غير مرتاح للتغيرات التي طرأت عليه.
"حسنًا، سأجعلهم يستعدون للعودة إلى الديار".

حين بزغت الشمس، وقف تشاغاتي وهو ينظر إلى النهر. كانت الغرفة مجردة من الأثاث، والقصر نفسه خاويًا، باستثناء بعض الخدم الذين سينظفون الغرف. لم يعرف إن كان سيعود إلى هذا المكان مجددًا، وشعر بغصة حسارة حين فكّر في ذلك. سمع وقع خطوات تقترب، واستدار ليرى خادمه سونثاي يدخل الغرفة. بدا وجه الرجل المليء بالنكد موضع ترحيب، في حين فاض قلب تشاغاتي بالرؤى.
قال سونثاي: "حان الوقت يا مولاي الخان". وقع بصره على الرق المغمّد في يد تشاغاتي الذي قرأه ألف مرة منذ أن وصله قبل عدّة أيام.

كرّر تشاغاتي: "حان الوقت". ألقى نظرة أخيرة على الشمس التي تشرق وتضيء سرّياً من الإوز يرتفع من المياه الساكنة. حدّق مباشرة إلى كرة الذهب في الأفق وهو يتحدّثها أن تحرقه.

قال تشاغاتي: "يمكن أن أصل إلى كاراكوروم قبله بعدة شهور. سأقبل القسّم من قومنا لأصبح خانًا. لكن، منتشِب حرب حين يعود، إلا إن استقيت العبرة من شقيقي الحبيب أوجيدي. ما رأيك يا سونثاي؟ هل سيقبل غويوك بإمارتي هنا مقابل حياته؟ تعال، زودني بنصيحتك".

"قد يفعل يا مولاي. بالمحصلة، لقد قبلت أنت بذلك".

ابتسم تشاغاتي وهو يشعر بأنه في سلام مع العالم لأول مرة منذ سنوات.
"ربما يجب أن أوفّر على نفسي العناء من أجل المستقبل، أو من أجل ابني بايدور. ينبغي أن أفكّر في حياته الآن. بحق الأرواح، إذا مات غويوك في نومه، فسيصبح طريقي خاليًا! ولكنني بدلاً من ذلك، أرسلت إليه رهينة بمحض إرادتي".

كان سونثاي يعرف سيده جيداً، وابتسم حين اقترب ليقف بجانبه.

"قد يظن غويوك ذلك يا مولاي، وكذلك أورلوك تسوبودي. لكن، هل سنكبّل مثل هذه الرهينة يديك حقاً؟".

هز تشاغاني كفيه وأجاب: "لدي أبناء آخرون، والجائزة أكبر من أن أرفضها من أجل أحدهم. سيتوجب على بايدور أن يقاوم ليشق طريق خروجه. باحصلة يا سونتاي، منحتة أفضل المهارين لدي من أجل فرقته، وليس هم مثيل في الأمة. إذا سقط فسأحزن عليه، لكن مصيره بين يديه؛ كما هي الحال دائماً".

لم يكن تشاغاني قد لاحظ أن سونتاي يتنعل حذاءً طرياً بدلاً من خفيه المعتادين، ولم يسمع خطواته الأخيرة. شعر بوخزة في عنقه، وغص على نحو مفاجئ وهو يمد يده إلى خنجرته. كان هناك شيء لا يسير على ما يرام. وعندما سحب يده، رأى أنها مغطاة بالدم. حاول أن يتكلم، لكنه لم يسمع صوته.

قال سونتاي: "يقال إن خنجر كيربان حاد جداً ولا يسبب ألماً كبيراً عند الموت. لم أخط قط بفرصة للسؤال عن ذلك. إن اسمه يعني يد الرحمة لهذا السبب".

التفت الخادم مقترباً من تشاغاني حين رأى شفثيه تتحرك، رغم أن الصوت الوحيد الذي استطاع سماعه كان عبارة عن حشرجة خفيفة. تراجع سونتاي إلى الخلف حين جثا سيده على ركبة واحدة، وهو لا يزال ممسكاً بعنقه. "الجرح قاتل يا مولاي. حاول أن تهدأ، فالموت قادم بسرعة".

تدلّى رأس تشاغاني على صدره بيضاء، وابتعدت يده اليمنى المملوطة بالسدماء عنه وامتدت إلى سيفه على وركه، لكنه لم يكن يتمتع بقوة تكفي إلا لشهر أول جزء لامع من الفولاذ.

"طلب مني أن أنقل إليك رسالة يا مولاي، إن سنحت الفرصة لذلك. لقد حفظت الكلمات. ألا يزال بمقدورك الاستماع؟".

راقب سونتاي تشاغاني وهو يسقط إلى الأمام ويرتطم بالأرضية. صرخ شخص ما في مكان قريب، وعبس سونتاي لدى تفكيره في ما سيحدث لاحقاً.

"الرسالة من أوجيدي خان يا مولاي، لنقلها إليك لحظة موتك: هذا ليس انتقاماً يا تشاغاني. إنه من أجل ابني. أنا لم أعد ذاك الرجل نفسه الذي سمح لك بأن تعيش. وييدي التي تضرب بعيداً، لن تصبح الخان". تنهّد سونتاي وتسايع: "أكن خادمك المخلص يوماً يا مولاي، لكنك كنت سيداً رائعاً. ارحل".

سقطت بدا تشاغاتي على جانبيه، ودخل حراسه الغرفة مسرعين، وقد شهروا أسلحتهم حين رأوا سونتاي جانياً وهو يهمس في أذن سيدهم. وقف حين اندفعوا نحوه، وكان وجهه هادئاً عندما تأرجحت السيوف.

في صباح باردٍ وصافٍ، امتطى تسوبودي حصانه ونظر إلى الخلف. لم تكن هناك غيوم، وكانت السماء زرقاء داكنة. كانت سبع فرق تنتظر في تشكيلاتها، وهي تضم أفضل محاربي أمته، وامتدت خلفها المطيات التي تنقل الأمتعة والعربات أميالاً. كان قد خرج بصحبة القادة، وبعضهم لا يزال يافعاً جداً، وأظهر لهم نقاط قوتهم. وعلى الرغم من بعض العيوب، سيكون غويوك خاناً أفضل بسبب ما تعلمه في هذه الرحلة العظيمة، وسيصبح بايدور رجلاً أفضل من أبيه، وسيجعل مونغكي روح والده فخورة به.

تهدّد تسوبودي، وعرف أنه لن يرى أبداً مثل هذا الجيش مجدداً. كان التقدم في العمر قد نال منه، وصار يشعر بالتعب. لبعض الوقت، تخيل إليه أن بمقدوره الخروج مع الشباب إلى الأبد، وأبعده إغراء البحر عن الديار أكثر مما حلم مرة. وعندما دعاه غويوك إلى التوقف، بدا الأمر بمثابة همسة موت في أذنيه، ونهاية له. حدّق بعيداً، وهو يتخيل مدناً ذات قبب من الذهب. كان يعرف أسماءها، لكنه لن يراها أبداً: فيينا، باريس، روما.

كان الأمر قد انتهى، وعرف أنه سيحمل السلاح إذا طالب تشاغاتي بإمارة أوجيدي، وربما سيرى معركة أخيرة. مع الأمراء، سيخرج إلى الميدان متباهياً بنفسه، وسيثبت لتشاغاتي لماذا كان تسوبودي باهادور القائد المفضل لدى جنكيز خان.

رفعت الفكرة معنوياته في لحظة كانت كافية ليرفع يده ويُترّلها. خلقه، بدأت فرق المغول رحلة همسة آلاف ميل ستقودها إلى الديار أخيراً.

الخاتمة



نظر كسوان إلى خارج النوافذ وهو يمشي في ممر مسقوف وطويل. كان كل منها يكشف منظرًا من هانغزو، والنهر المتدفق إلى خارجها ليصب في الخليج. كان يُنقل كثيراً منذ مجيئه إلى أراضي سونغ؛ وكانهم لا يعرفون ماذا يفعلون به. وفي مناسبات نادرة، سمحوا له بالإبحار في النهر، ورأى زوجاته وأطفاله مرتين في السنة؛ في اجتماعات متكلفة، وبوجود مسؤولي سونغ في كل مكان حوله.

امتد الممر المسقوف على طول محور ميني رسمي آخر، وسلى كسوان نفسه بضبط خطواته بحيث تقرأ قدمه اليسرى الحجر في مركز كل بركة من ضوء الشمس. لم يتوقع أنباء عظيمة من الاجتماعات، وبانقضاء السنين، أدرك أن مسؤولي سونغ يستمتعون بإظهار سلطتهم عليه. ومرات كثيرة لا يمكن إحصاؤها، كان حضوره مطلوباً في مكتب خاص؛ فقط ليحد أن المسؤول لا علاقة له بالبلاط. وفي مناسبتين، كان الرجال الموجودون هناك قد أحضروا خليلاهم أو أولادهم ليراقبهم في أثناء العمل أو تقسيم دخله الضئيل، وتبين أن الاجتماع نفسه غير ذي صلة بالموضوع. أرادوا فقط إظهار قوتهم لإمبراطور تشن، ابن السماء نفسه، لكي ينظر مرؤوسهم إليهم مندهشين.

تفاجأ كسوان عندما لم تتوقف المجموعة الصغيرة من المسؤولين الذين يرافقونه عند الأروقة الفرعية المعتادة. كانت غرف الرجال الأهم تقع بعد ذلك، وسيطر كسوان على مشاعره حين مضوا قدماً. رأى أكثر من باب مفتوح، وعلماء وموظفين محدثين يتكلمون على عملهم في الداخل، ورفعوا أنظارهم إليه لدى سماعهم وقع الخطوات. سيطر كسوان على آماله، فقد أحبط مرات كثيرة، حتى إنه لم يعد يتوقع أن يرد أحد على رسائله في نهاية المطاف، رغم أنه لا يزال يكتب كل يوم.

على الرغم من هدوئه المتكئ، كان قلبه يخفق بقوة حين رافقه خادم يطأطون رؤوسهم وهم يتجهون إلى باب الرجل الذي يدير كل المواقع تقريباً في هانغزو. كان سونغ كيم قد انتحل اسم الأسرة الملكية، إلا أن الشك انتاب كسونان في أنه قد ولد من عامة الشعب. وبوصفه الشخص الذي يشرف على التمويل الذي يحصل عليه كسونان لتدبير أمور أسرته الصغيرة، فقد تلقى سونغ كيم الكثير من رسائله بمرور السنين، لكن أحداً لم يرد على أي منها.

أعلن الخدم عن حضوره، ثم تراجعوا إلى الخلف مطأطئين رؤوسهم. دخل كسونان الغرفة. كان الإداري يعيش في رفاحية، وسط ثمايل وأعمال فنية تسمى على ذوق رفيع. ابتسم كسونان لنفسه من فكرة بحاملة سونغ كيم، فيمثل هذه الطريقة، يمكنه أن يرغب الرجل الضئيل والبغض على تقدم كل ما يعجبه هدية له، لكنها بدت مجرد فكرة حاقدة. لم تكن تنشئته تسمح له بأن يكون فظلاً؛ رغم ظروفه.

عندما هرول خدم آخرون ليعتنوا عن وصوله، انتقل كسونان من لوحة إلى أخرى، متوخياً ألا يترتب لوقت طويل عند أي منها. كان الوقت شيئاً يمتلك وفرة منه، وعرف أن سونغ كيم سيحمله ينتظر.

ولكن، لدهشته الشديدة، خرج سونغ كيم نفسه من الغرف الداخلية فوراً تقريباً. أمال كسونان رأسه، ورد الرجل الآخر بانحناءة مماثلة، وتحمل طقوس الحاملة بتحفظه المعتاد، ولم يظهر أي علامة على تزايد نفاذ صبره.

أخيراً، اصطحب إلى الغرف الداخلية وجلب له شاي. جلس كسونان مرتاحاً وهو ينتظر.

شرح سونغ كيم يقول: "لدي نبأ رائع يا ابن السماء". كان رجلاً عجوزاً جداً. شعره أبيض، وجلده متعفن، لكن إثارته ظاهرة للعيان. رفع كسونان حاجباً وكان قلبه لا يخفق بقوة أكبر بمرور كل لحظة. كان هذا كل ما يستطيع فعله ليقبى صامتاً.

تابع سونغ كيم: "مات حان المغول يا ابن السماء".

ابتسم كسونان، ثم ضحك بصوت خافت، فارتبك الرجل العجوز. قال كسونان بحمارة: "هل هذا كل شيء؟".

"ظننت... يجب أن أقدم اعتذارى يا ابن السماء. ظننت أن النيا سيجعلك تشعر بسعادة غامرة. ألا يشير هذا إلى نهاية فترة نفيك؟". هز سونغ كيم رأسه ارتباكاً وحاول مجدداً. "عدوك ميت يا صاحب الجلالة. لقد سقط الخان".
"لم أقصد أي إساءة يا سونغ كيم. لقد عايشت حنانين للمغول، وهذا بالفعل نياً مفرحاً".

"إذا... لا أفهم. ألا يملأ هذا الخير قلبك سعادة؟".

ارتشف كسوان الشاي الذي كان ممتازاً وقال: "أنت لا تعرفهم مثلي. لسن يتدبوا الخان، بل بدلاً من ذلك سيخصّون أحد أبنائه مكانه، وسيحثون عن أعداء جدد. يوماً ما يا سونغ كيم، سيأتون إلى هنا؛ إلى هذه المدينة. ربما ساكون لا أزال سجيناً هنا حين يحين ذلك الوقت، وربما سأحدّق إلى الأسفل من هذه الأروقة نفسها حين يجلبون جيوشهم إلى أسوار المدينة".
"أرجوك يا ابن السماء. أنت ضيف الإمبراطور، وليست سجيناً. يجب ألا تقول كلاماً كهذا".

كشّر كسوان ووضع كوبه جانباً مهدوء.

"يستطيع الضيف أن يغادر متى شاء، ويمكنه الانطلاق على صهوة حصانه من دون حراس. ولكن، لنكن صادقين مع بعضنا يا سونغ كيم".
"أسف يا صاحب الجلالة. كنت أتمنى أن أجعلك تشعر بالسعادة، لا الحزن".
"اطمئن، لقد فعلت الأمرين اليوم. الآن، إن لم تكن ترغب في أن تناقش مطالبتي المكتوبة، فسأعود إلى غربي".

أحنى الإداري رأسه وقال: "لا يمكنني تلبية رغبتك في رؤية جنودك يا ابن السماء. مثل هذه الأمور خارج نطاق سلطاتي المحدودة".
نفض كسوان عن كرسيه قائلاً: "حسناً. لكن، عندما يأتي الخان الجديد، فستبرز الحاجة إليهم، أقرباء وجاهزين. ستحتاجون إلى كل رجل آنذاك، كما أظن".

حان دور سونغ كيم ليبتسم. كانت مدينة هانغزو قديمة وقوية، وتقع على مسافة بعيدة عن الحدود مع أراضي تشن القديمة. لذا، بدت فكرة اقتراب جيش منها على نحو يبعث على القلق مضحكة.

ملحوظات تاريخية



كان الابن الثالث لمجنكيز خاناً عظيماً لمدة اثني عشر عاماً فقط، من العام 1229 وحتى العام 1241م. في ذلك الوقت، عندما كان المغول يندفعون غرباً في أوروبا، مثلت وفاة أوجيدي إحدى نقاط التحول الحاسمة في التاريخ. لم يكن بمقدور أوروبا الغربية أن تصمد أمامهم، ولم تكن قلاع العصور الوسطى أكثر متعة من مدن تشن المحصنة. وفي الميدان، لم يكن من الممكن عملياً التصدي لأسلوب المغول في شن عمليات حربية تكتيكية وهجمات خاطفة. وليس القول إن مستقبل الغرب قد تغير حين تعرض أوجيدي لسكتة قلبية يحمل أيّ مبالغة.

نعرف أن أوجيدي كان لا يزال شاباً حين توفي، وأنه توفي بعد أربع عشرة سنة من وفاة والده، لكننا لا نعلم سبب بنائه كاراكوروم. ففي الواقع، ابن الخان لم يزد المدن فحسب، وإنما قضى حياته كلها وهو يبيت ضعف دفاعها. ومع ذلك، شيّد أوجيدي المدينة لتكون مقر عرش الإمبراطورية. وصلتنا أوصاف معاصرة لها، ومن بينها كلمات رجل الدين النصراني ويليام روبروك. شجرة الفضة حقيقة تاريخية، وضمت المدينة آنذاك معابد شامان، ومساجد إسلامية، وكنيسة نصرانية نسطورية واحدة على الأقل.

من الصعب أن أشرح سبب قيام أوجيدي ببناء مثل ذلك الشيء أصلاً. أحد التفسيرات التي تتفق مع الحقائق يشير إلى أنه كان يشبه سيسل رودس قليلاً، وهو رجل بدأ يشعر بالمر في قلبه منذ أن بلغ السادسة عشرة من عمره. وقيل أن تقتل نوبة قلبية رودس أخيراً عن عمر ناهز ثمانية وأربعين عاماً، كان قد بنى لنفسه إمبراطورية في أفريقيا. إنه رجل يمتلك حافظاً ليترك بصمة، وعرف

دائماً أنه لا يمتلك متسعاً من الوقت ليفعل ذلك. ربما كان لدى أوجيدي الإحساس نفسه.

السؤال الثاني هو: لماذا بنى مدينة تأثرت كثيراً بفن تشن العمراني؟ هناك، يمكن رؤية نفوذ ياو شو. فعلى الرغم من أن ياو شو كان مستشاراً حقيقياً لأوجيدي، إلا أن الشخصية التي قدّمها مزيج من رجلين بوذيين صينيين من تلك المدة. لم أكن قد أنهيت حكايته: فبسبب خوفه من معاورة الخان الشراب، أظهر ياو شو لأوجيدي كيف يصب الشراب قارورة حديدية بالصدأ. وصحيح أيضاً أن أوجيدي وافق على خفض عدد أكواب الشراب التي يشرها كل يوم إلى النصف، لكنه أصبح يتناوله في كؤوس بضعف الحجم. نقل مستشارون بوذيون مسحة من الحضارة الصينية إلى البلاط المغولي، وأثروا بمهارة في كل خان. نتيجة لذلك، فتحت المدن يوماً ما أبوابها لكوبلاي كما لم تفعل من قبل لجده.

كانت وسائل التسلية للرجال (نادام) في منغوليا هي المصارعة والرماية وركوب الخيل. في الواقع، مهرجان نادام أقدم بكثير من عهد جنكيز، ومثّل في قرون سابقة أيضاً فرصة للقبائل من أجل الاتجار بالخيول، ومزج السلالات، والمقامرة. شهد مهرجان نادام المعاصر اشتراك النساء في الرماية والسباقات، ولكن ليس في المصارعة التي كانت لا تزال حكراً على الرجال. كان وُصِفُ سور الرماية دقيقاً، إذ تُطلق السهام من على بعد مئة خطوة، ويتنافس الرماة في مجموعات من عشرة، أصغر وحدات جيش جنكيز. وكان كل رام يحصل على أربعة سهام، وبدلاً من الحكم على كل رمية بمفردها، يجب أن يصب العشرة عدداً محدداً من الأهداف لينجحوا. المثير للاهتمام أن تقليد الرماية مرتبط بالفرق، مع الأخذ بالحسيان الطيبة العسكرية للرياضة، والدور الحاسم الذي لعبته لدى جيوش جنكيز خان.

سباقات الخيول في المهرجان - وهي تستمر ثلاثة أيام - كلها مسابقات تحمّل. ومقارنة بالغرب، كان التحمّل هو الصفة التي جعلت جيوش الخان متنقلة. وبمبدأ، تثير اهتمامنا رؤية كيفية بقاء تلك الخاصية رقيقة الشأن في

بجال الفروسية، بدلاً من تحوُّها إلى اندفاع سريعة من حصان يُربى ويُعتنى به مثل كلب سلوفاي.

كنت قد سمحت لنفسى بحيز من الحرية مع التاريخ في تضمين الرواية سابقاً للحري. لا يوجد توثيق لذلك، لكن قد يكون الاحتمال قائماً. لا يتأبني شك في أن مسابقات أخرى قد انتظمت واندثرت قبل أن نصل إلى الشكل الحالي، وقد تضمّن الأولياد المعاصر مسابقة شد الحبل من 1900 إلى 1920، وفازت بريطانيا فيها مرتين.

يُظنُّ أحياناً أن جنكيز قد ترك وصية. ولكن، حتى إذا وُجدت مثل تلك الوثيقة، فهي لم تصلنا. وإذا كانت الوصية شفوية، فإننا لا نعرف إن كانت قد قيلت في أثناء وفاته، أو قبلها بوقت طويل. تحدثت بعض النسخ التاريخية عن موت جنكيز الفوري تقريباً، في حين قالت أخرى إنه بقي يحتضر لعدّة أيام بعد سقوطه أو إصابته بجرح؛ حيث كان بمقدوره أن يرثب أمور ميراثه. وأياً يكن الأمر، فإن رغبة جنكيز خان في أن يرث تشاغانى إغاوة شاسعة، في حين يحصل تولي على وطن المغول الأصلي حقيقةً مسلمً بها. وبوصفه الورث الرسمي، ورث أوجيدي أقاليم تشن الشمالية وكل الأراضي الأخرى التي يستطيع ضمها إليه. كنت قد وضعت هذا التوزيع بين يدي أوجيدي؛ لأنه كان قراره في نهاية المطاف، بغض النظر عن نية والده. ولو أن أوجيدي أعدم تشاغانى آنذاك، لأصبحت سلالات نسب ذلك الجزء من العالم مختلفة جداً، وصولاً إلى يومنا الحاضر.

بدلاً من ذلك، توفي تشاغانى خان بعد بضعة شهور من موت أوجيدي عام 1242. سبب وفاته الدقيق مجهول، لكن توقيت وفاته الذي لا يُصدّق سمع لي بأن أكتب وأشك حقاً في أن يكون قد اغتيل.

أول صيغة مكتوبة للبارود صينية، وترجع إلى سنة 1044 تقريباً. استُخدم البارود بالتأكيد في عمليات الحصار في عهد أوجيدي، وقد عُثر على مدفع من النوع الذي وصفته، ويعود تاريخه إلى عهد كوبلاي خان. جرى توثيق استعمال

المدافع من قبل المغول في الشرق الأوسط عام 1260، لكنها تعود إلى ما قبل ذلك بكثير بالتأكيد.

كانت تلك المدافع آخر ما توصلت إليه التقنية العسكرية في ذلك الوقت. والمدفع سلاح قوي وفاعل جداً يطلق حجارة وكرات معدنية أيضاً. فقد كانت أوانٍ حديديةً تُملأ بالبارود وتُشعل باستخدام فتائل، ولها تأثير شظاياها قنابل يدوية فاعلة جداً. نعرف أن المغول واجهوها لأول مرة في أثناء معاركهم ضد تشين وسونغ، وأهم حصلوا على مثل تلك الأسلحة المرعبة بسرعة. في الواقع، كانت المنطقة الشاسعة التي احتلتها جيوش المغول هي التي أدت إلى انتشار مثل تلك الأسلحة على نحو واسع.

كانت صيغة البارود الصينية تتضمن كمية زهيدة من الملح الصخري. ولذا، كانت تفتقر إلى بعض القوة الانفجارية التي ترتبط عادة بتلك المادة. كان انتشار اللهب أكثر شيوعاً، وكميات المزيج تتنوع كثيراً باختلاف الصانعين والمناطق والأوقات الزمنية.

الحادثة الاستثنائية التي قادت إلى موت تولي مستقاة من التاريخ السري للمغول. وفي حملته الوحيدة في شمالي الصين، مرض أوجيدي و"فقد القدرة على استخدام" الفم واللسان؛ نتيجة جلطة دماغية، أو ربما نوبة صرع كبيرة.

قام ضالعو المغول حينها بأعمال كهانة، مفترضين أن أرواح تشين لهاجم الخان، وطلبوا إرشادهم إلى التضحية الصحيحة، ورداً على ذلك اختلج أوجيدي وعانى تشنجات عنيفة. سألوا بعد ذلك إن كانت هناك حاجة إلى التضحية بقریب، فاستفاق أوجيدي وشرب ماءً، وطلب إبلاغه بما قد حدث.

لم يكن هناك داعٍ للطلب من الأمير تولي فعل ذلك. فقد ضحى الرجل - والد كوبلاي ومونغكي؛ وكل منهما سيصبح خائناً لاحقاً - بحياته عن طيب خاطر لإنقاذ شقيقه.

وفي ما يتعلق بموضوع ذبح الخيول، استغللت الفرصة لأتحدث إلى جزّارين كانوا قد ذبحوا عدّة مئات من الخيول المرمية بمرور السنين. فمن أجل الحصول على اللحم الحلال، يجب أن يبقى الحيوان حياً حتى يضخ القلب الدم إلى خارج جسده،

ولذا يبدأون بحزّ العنق. أراد الرجل الذي تكلمت معه قتلاً أسرع، لهذا كان يفضل توجيه طعنة إلى القلب أولاً، ثم تمرير السكين على العنق. يكون ما بين 6 و10 بالمتة من وزن جسد الحصان دماً. إنّ النسبة تقديرية؛ لكن لدى الحصان المغولي، يساوي ذلك نحو أربعين مكياًلاً [0.47 من اللتر] من الدم.

في سجلات التاريخ السري للمغول، تناول تولى السم ولم يمضت بطعنة سكين، لكنني غيرت رأيي. فقد كانت التضحية الدموية بالحيوانات جزءاً من محاولة إنقاذ أوجيدي، ويبدو أنّ المناسبتين تتوافقان معاً. كان ابنه مونغيكي حاضراً بالتاكيد، لكن لم يُوثق أي حديث فار بينهما.

ملحوظة سريعة بشأن موضوع المسافات: بحلول عهد أوجيدي، كانت شبكة من المخططات الطرقية قد أنشئت إلى حيث يمتد النفوذ المغولي، وهي تبعد عن بعضها مسافة 25 ميلاً على طرق رئيسة، ومعدّة جيداً. ومع التغير المنتظم للخيول، كان من الممكن نقل رسالة عاجلة مسافة 100 ميل في اليوم، ويقوم بذلك الرجل نفسه إن دعت الضرورة. كان الخيالة يضعون أحزمة فيها أجراس، وتستطيع المخططات الطرقية سماعهم فتحهزّ الماء والطعام وحصاناً آخر لهم. لم يكن احتياز ألف ميل في عشرة أيام ممكناً فحسب، وإنما شائعاً. جعلت مثل خطوط الاتصالات تلك جيوش الخان حديثة بطريقة لم تستطع قوة أخرى في ذلك القرن مضاهاتها.

الضالع موهروول شخصية خيالية، إلا أنه كان لدى الخان طبعاً العديس مسن الضالعين. في منغوليا، لا تزال إصبع إضافية تعني أن الطفل "مختار" ليكون ضالعاً. إنهم لا يصطادون حيوانات أو أسماكاً، وتدعمهم القبائل ليعملوا في الطبابة إضافة إلى توثيق التاريخ والتقاليد. وهم لا يزالون رجالاً يتمتعون بسلطة كبيرة.

كان تمثالا بوذا العتيقان في باميان في أفغانستان موجودين فعلاً؛ ارتفاع أحدهما نحو 111 قدماً، والآخر 156. فحترهما حركة طالبان باستخدام الديناميت عام 2001. ولا تزال هناك أساطير عن وجود ثالث، "بوذا النائم"، في تلك التلال.

استمرت حملة تسوبودي ضد الغرب من عام 1232 إلى عام 1241. في ذلك الوقت، واجه روساً وبلغاراً وبحريين هنغارين، واستولى على بودا وبست، وهاجم بولندا وصربيا حالياً، وأرسل مستظلمين حتى شمالي إيطاليا. في شتاء واحد فقط، وبانقضاء مدة شهرين، احتلت فرقه اثني عشرة مدينة روسية محصنة. كان محاربوه قد تعلموا استخدام أنواع مختلفة من المنجنيقات، وكذلك استخدام نوع من المقلاع لدك الأسوار في حروبهم ضد شمالي الصين، في حين أنه لم يكن لدى روسيا شيء يستطيع إيقاف آلة حرب المغول.

صحيح أن تسوبودي كان يفضل شن حملاته العسكرية في الشتاء، وأنه استخدم الأتار المتحمدة كثبينة طرق عبر المدن. ومثل جنكيز قبله، لم يكن وقادته يرحمون الأعداء المنهزمين، وكانوا يلجئون أعداداً كبيرة منهم. بدا أن همه الوحيد تجتّب جبهة القتال الواسعة التي تجعل الإحاطة بفرقه أو تطويقها أمراً سهلاً. غالباً، أرسل فرقة في غارات خاطفة إلى بولندا وهنغاريا أو بلغاريا للقضاء على أعداء محتملين في طريقه.

لم تكن وفاة أوجيدي لتجعل تسوبودي يتوقف بل لم يكن أمراء الأمة معه. كان باتو بن جوشي هناك، وكذلك غويوك بن أوجيدي، ومعهم أيضاً كايبدو حفيد أوجيدي، وهو الذي شن غارات على بولندا مع بايدور وعناصر معركة ليغينتر الحاسمة، ومنع الجيوش البولندية من تطويق المحجم الرئيس ضد هنغاريا. لم أستخدم كايبدو بصفته شخصية هنا؛ كي لا أقع في "مشكلة الرواية الروسية"، حيث كل صفحة تقدم شخصيات جديدة حتى يفقد القارئ تركيزه. جعلت مونغكي يشارك فعلاً في الحملة؛ فقد كان موجوداً في معظمها، ومن بين المعارك التي خاضها معركة كيبف. لم يكن كوبلاي حاضراً بوصفه أحد الأمراء، بل بقي في كاراكوروم يدرس البوذية ويتأثر بالنفوذ الصيني الذي سيهيمن على حياته حين يصبح راشداً.

كان جيبي غائباً أيضاً عن تلك الحملة، رغم أنني قدّمته كشخصية ثانوية، ولم يأت التاريخ السري للمغول على ذكر نهايته، لسوء الحظ. وكما حدث مع كشيون وحاسار، انسلّ قائد عظيم ببساطة من صفحات التاريخ وضاعت أخباره. كان الموت باكراً شائعاً جداً في تلك الأيام بالطبع، وقد لقوا

حتفهم بكل تأكيد تقريباً نتيجة مرض أو إصابة؛ وهو موت عادي جداً تجاهله المؤرخون.

قام تيموج فعلاً بمحاولة منهورة أخيرة ليصبح خاناً بعد وفاة أوجيدي، لكنها لم تنجح وأعدم على إثرها.

إنه شيء مثير للاهتمام أن تُمنح سورهناتي حقوق زوجها وألقابه بعد موته. وبسبب ذلك القرار الفريد من نوعه، أصبحت سورهناتي أقوى امرأة في الإمارة والعالم في ذلك الوقت. سيصبح ثلاثة من أبنائها الأربعة خاناً اعتماداً على نفوذها وتدريبها. دعمت سورهناتي أوجيدي حين أصبح خاناً، واستشارها مع نمو الإمبراطورية واتساع رقعتها. وكانت المرة الوحيدة التي رفضت رغباته فيها حين عرض أن يزوجه ابنه غويوك، وردت العرض مفضلة أن تركز طاقاتها الكبيرة على أبنائها. أكد التاريخ حكمتها في تلك المسألة.

عندما دخلت فرق تسوبودي هنغاريا عبر جبال كارباتيان، واجهت جيوش الملك الهنغاري بيلا الرابع. كان ذلك الملك قد استقبل 200,000 لاجئ كومان من روسيا، وهم قوم أتراك يشبهون المغول بطرائق عديدة. ومقابل اعتناقهم النصرانية، حصلوا على ملاذ مؤقت. وتزوجت ابنة قائدهم كوتن ابن الملك بيلا لتثبيت الاتفاقية. من جهة أخرى، استطاع الملك بيلا حشد جيش من الفرسان البدوين بالإضافة إلى قواته. وتوقع أيضاً مساعدة من الإمبراطور الروماني المبجل، فريديك الثاني، الذي كان ملكاً على ما يعرف الآن بألمانيا وإيطاليا وصقليا وقبرص والقدس، أو ربما البابا غريغوري الرابع. على أي حال، كانا يخوضان صراعهما الخاص على السلطة، وأعلن البابا فريديك الثاني دجلاً. نتيجة لذلك، ترك ملك هنغاريا ليقاوم الغزو المغولي من دون دعم تقريباً. كانت لديه قوات من الأرشيدوق النمساوي فريديك، لكنها انسحبت بعد وفاة كوتن في حادثة شغب، وفعل الكومان الشيء نفسه أيضاً.

قام الملك بيلا فعلاً بإرسال سيوف ملطحة بالدم إلى أرجاء مملكته ليحض شعبه على القتال. هناك وثيقة عن رسالة بعثها باتو إلى الملك، يطلب منه فيها

تسليم الكومان الروس وقائدهم كوتن. كانت رسالة باتو واضحة وبسيطة:
"بلغني أنك قد قبلت الكومان، خدمنا، في حمايتك. توقف عن إسواتهم وإلا
فستجعل مني عدواً لك بسببهم. هم - الذين لا يملكون بيوتاً ويسكنون الخيام
- سيفرون بسهولة، لكن أنتم الذين تقطنون في منازل ضمن بلدات كيف
يمكنكم الهرب مني؟".

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن المطالب قد أرسلت باسم باتو. وبوصفه
أميراً وابن جوشي، الابن البكر لجنكيز، كان باتو القائد الاسمي للقبيلة الذهبية،
كما كانوا يُعرفون، لكن تسويودي هو الذي قادهم استراتيجياً وتكتيكياً.
كانت تلك علاقة معقدة، وبلغت ذروتها حين وصل نبأ وفاة أوجيدي إليهم
أخيراً.

تقع بوادبست على بعد نحو أربعة آلاف وبمئة كيلومتر غرب
كاراكوروم في السهل نفسه. أخذت حملة تسويودي الاستثنائية فرق المغول عبر
كازاخستان وروسيا مباشرة إلى موسكو وكييف، ثم رومانيا، وهنغاريا،
وبولندا، وليتوانيا، وشرقي بروسيا، وكرواتيا، وكانوا يطرقون على باب النمسا
حين مات أوجيدي. في الواقع، كان الملك الفرنسي لويس التاسع هو من ثبت
اسماً مربكاً للمغول في أذهان الأوروبيين. فعندما جهز جيوشه للزحف، أخبر
زوجته أنه سيرسل التتار إلى الجحيم، أو سيرسله التتار إلى الجنة. تلاعب متعمداً
بكلمة الجحيم اللاتينية "نارتاروس"، وعلق الاسم الخاطئ "تتار" في الأذهان
طوال قرون نتيجة ذلك.

لقد عموت وصفاً تفصيلياً لمعركة ليغنيتر التي كانت ذروة حملة بايدور على
بولندا. إن حدوث معارك عديدة ضد خصوم متنوعين من طبيعة مثل تلك
الحملة، لكن هناك حدًا لما يمكن تضمينه في رواية؛ حتى تلك التي تناول المغول.
في التاريخ، إن ليغنيتر إحدى معارك المغول القليلة المعروفة جيداً، وحذفها يشبه
الكتابة عن نلسون من دون ذكر النيل. من أجل سياق الحبكة، على أي حال،
أظن أنه كان قراراً صائباً. في ليغنيتر، استخدم بايدور الانسحاب الزائف، لكنه
أضاف ابتكار براميل القطران التي أرسلت دخاناً أبيض في ساحة المعركة.

منعت تلك الحيلة البسيطة قسماً من الجيش البولندي من رؤية ما يحدث للقسم الآخر. كان من الممكن أن تصبح تلك الحادثة بسهولة ذروة هذا الكتاب، لكن المعركة الشهيرة الأخرى هي تلك التي وقعت عند لهر ساجو وشهدت انتصار تسوبودي.

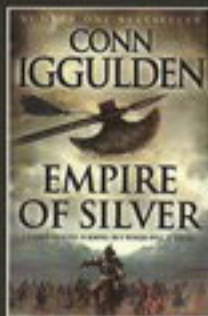
لم تجمع آخر معارك تسوبودي الموثقة بين هجوم ليلسيّ ومناورة تطويق فحسب، ولا بينها وبين استخدام ماهر للتضاريس بالطريقة التي استفاد فيها من النهر، وإنما تضمنت أيضاً الخدعة القديمة الآن في ترك طريق للعدو ليهرب منه، فقط لينقض عليه حين يفعل ذلك. قاد تسوبودي ثلاث فرق عبر مخاضة إلى الجنوب من معسكرات الجيوش الهنغارية، وأرسل باتو لينقض على الجناح الأيسر عند الفجر، في حين انطلقت الفرق الباقية إلى مسافة أبعد لتضرب مؤخر الجيش الهنغاري. اضطر الملك بيلا إلى اللجوء إلى معسكره الليلي، في حين أثار المغول الفوضى باستخدامهم مفرقات ناربية، وحرق قطران في براميل، وإطلاق سهام عشوائية. وأصبحوا بذلك الصياد لا الفريسة، ونجحوا في تحقيق النصر.

في حضم الفوضى، رأى رجال الملك بيلا حيناً صخرياً في الأرض يمتد غرباً ويقع خارج مرمى بصر المغول. اختير طريق الهروب بإرسال عدد صغير من الرجال، وتمت مراقبتهم وهم يتطلقون إلى بر الأمان. ومع انقضاء اليوم، حاول الملك إرسال جيشه كله من المعسكر، وتبيحة ذعرهم، فقدوا انضباطهم وامتدت صفوفهم مسافة أميال. في تلك المرحلة، هاجم رجال تسوبودي الرتل. كان قد استطلع الأرض، ويعرف الحيد الصخري، وقد ترك متعمداً الطريق مفتوحاً لإيقاعهم في الفخ. وفقاً لمصادر مختلفة، ذبحت الفرق المغولية 40,000 - 65,000 من الجيش الهنغاري، وأهنت وجوده بوصفه كياناً لجيل أو أكثر. نجح الملك بيلا من المذبحة وفرّ إلى النمسا. وعندما غادر المغول، رجع ليعيد بناء هنغاريا من الأنقاض. لا يزال يُعتبر أحد أعظم ملوك هنغاريا، رغم مواجهته الكارثية مع تسوبودي.

بطرائق عديدة، كانت تلك نهاية مناسبة لمسيرة تسوبودي العسكرية، على الرغم من أنه لم يرَ الأمر كذلك. كانت هنغاريا أنقاضاً حين وصل نبأ وفاة أوجيدي وتغير كل شيء.

تحوّلت المناورات التكتيكية الرائعة عند ليغيتير ونهر ساحو إلى هباء مشور
نتيجة انسحاب المغول، ونادراً ما تُدرّس خارج الكليات العسكرية، جزئياً؛
لأنها لم تؤدّ إلى تحقيق انتصارات. تدخّلت السياسة في طموحات تسويودي،
ولو أنّها لم تفعل، لكان كل التاريخ قد تغير. لا نعرف لحظات كثيرة في التاريخ
غيّرت فيها وفاة شخص واحد العالم برمته، لكن موت أوجيدي إحداهما. ولو
عاش، لما كان هناك عصر إليزابيثي، أو إمبراطورية بريطانية، أو لفضة، أو ثورة
صناعية ربما. في مثل هذه الظروف، كانت هذه الرواية سُكّبت أيضاً بالمنغولية
أو الصينية.

salmanlina
www.mlazna.com



بعد موت جنكيزخان تستعمر نار المنافسة على قيادة المغول بين أبنائه الثلاثة وأحفاده الأربعة. وبعد تنصيب ابنه أوجيدي خاناً، يضحي أحد إخوته بنفسه، بينما يُبعَد الآخر ليحكم مملكة بعيدة، في حين يشرع الأحفاد الأربعة بالتخطيط لمؤامرة تدفعهم طموحاتهم إليها. وبينما الخان منشغل في بناء مدينة كاراكوروم، كانت النيران تلتهم فرساته بفعل بارود مدفعية جيش أعدائهم الصينيين في الشرق. أما

في الغرب، فإن جيش المغول تحت قيادة تسوبودي أفضل رجال جنكيزخان، استطاع سحق الروس والبولنديين عبر عدة غزوات متتالية. وبينما عصاباته تعيثُ نهباً وسبياً في مدينتي بودا وبست، تصل الأخبار الكارثية من كاراكوروم لتتخذ القارة الأوروبية من مصير الدمار والاحتلال المغولي، ولنعيش مؤامرات الاغتيال والغيرة والغدر والتآر والخيانة والانقلاب التي تتفجر بين سلالة البطل التاريخي، التي تجسدها صفحات هذه الملحمة صوراً مريعة لوحشية وقسوة وظلم ذاك العصر الفريد من تاريخ تلك الأمة.

saimanina

www.miazna.com

اقرأ للمؤلف أيضاً:

الأجزاء الثلاثة السابقة من السيرة الملحمية للفتح المغولي جنكيزخان



ISBN 978-614-01-0528-7



9 786140 105287



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com